في البدء

السيرة بين مرجعية التاريخ وإبداع المؤلف



حظيت كتابة السير والمذكرات باهتمام واسع من قبل النخب الثقافية العربية منذ مطلع القرن المنصرم، حيث أولت هذه النخب اهتمامها بكتابة سيرها ومذكراتها التي تسجل فيها وقائع حياتها في مراحلها المختلفة، وقد شكلت هذه السير مصدرا من مصادر التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي العربي، ووثيقة هامة من وثائقه في سياقه غير الرسمي. وبالرغم مما يؤخذ على الكثير من السير والمذكرات التي كتبها المثقفون والسياسيون العرب من المثالب، كتزييف الحقائق والتمحور حول الذات والمبالغة في تصوير أدوارها وإغماط حق من شاركهم من أدوار تصل في أحيان عديدة إلى التشهير بالخصوم وحتى الأصدقاء، إلا أنه يظل لهذا الشكل من أشكال الكتابة أهميته في تشكل المعرفة، والوعي بمجريات التاريخ في سياقاته المتعددة. ونظرا لما يمثله هذا النوع من الكتابة من أهمية فانه يحظى باهتمام واسع من قبل الباحثين والدراسين للمجتمع والتاريخ.

في هذا العدد من كتاب (عراجين) نسعى إلى تقديم قراءات متنوعة عن السير الذاتية في ليبيا وما يحايثها من(المذكرات/ اليوميات /الرسائل/الشهادات) باعتبارها أحد الأشكال التي عالجت التاريخ في تنوعه وشموله، وهي تمثل إحدى وجوهه ومحطاته المتعددة. إن اهتمامنا بهذا

الموضوع نابع من قناعتنا بأن السير تمثل جزءاً من ذاكرة الوطن الليبي التي تختزلها تجارب أبنائه الذين عايشوا تجاربه الاجتماعية والسياسية والثقافية في مراحله وتحولاته المختلفة، وهي الذاكرة التي تفصح بأن وطننا ليس صحراء قاحلة من العطاء والبذل في الإبداع والفكر والنضال والمواقف، بل هو وطن له تاريخه المشرق الذي كتبه أبناؤه بعرقهم ودمائهم، وهنا لا بد من القول عن حاجتنا إلى سير ومذكرات جريئة ، شجاعة ، شفافة ، حقيقية وغير مظللة ، لاتدعى بطولة زائفة، ولا تنسج أوهاما حول ذاتها وتاريخها، في حاجة إلى سير لشخصيات عاشت التاريخ وألفته وألفها و شكلا قراءة تضع نصب عيونها مسؤولية تقديم الحقيقة للأجيال ليستقوا من مناهلها المعرفة ويتفادوا الأخطاء ويؤسسوا عبر قراءتها المتعمقة قيمة إنسانية وتاريخية تستشف الصدق والحقيقة التي لا يخفيها عين الغربال .

ونحن حين نفتح هذا الملف عبر صفحات (عراجين) نطمح ونرجو إن يحوز هذا الموضوع اهتمام شخصياتنا الوطنية بمختلف مشاربها وإسهاماتها، لتدلي بشهادتها للتاريخ، الذي هو ليس تاريخها وانما هو تاريخ الوطن الذي يشكل هويتنا وشخصيتنا وانتمائنا. ونحن نعي بأن كل سيرة هي شهادة كاتبها على تاريخه الخاص وما حفل به هذا التاريخ من أحداث ووقائع ومواقف تتماس مع تاريخ مجتمعه وما شهده هو من تحولات وتغيرات.

إن السير والمذكرات التي نأمل إن نقراها وان ينفض الغبار عنها وندعو كل من ساهم في تشكل خارطة وطننا في مختلف مجالات العمل العام، للإفصاح عن أوراقها المبعثرة والمنسية، هي السير التي تتحلى بالمصارحة والصدق والمسئولية في شهادتها تجاه تاريخها الشخصي والتاريخ العام، واعية بأن شهادتها لها تأثير على ذاكرة الأجيال التي تم تعمد تدريبها على النسيان، والذاكرة التي نستعيدها هي أيضا ذاكرة تدعو الأجيال آلاتية إلى استيعاب دروس الحياة المختلفة والوقوف أمامها ليس لمجرد الفضول لمعرفة كيف عاشت تلك الأجيال حياتها، ولكن لتهتدي بها وهي تعيد صياغة واقعها وتستشرف مستقبل واعد ولتستضئ بتجاربها في البذل والعطاء والكفاح.

عراجين

دراسات



الوعي الفلسفي و مستقبل الفلسفة

في الجامعات الليبية والخليجية

نجيب الحصادي*

تقديم

تقوم الفلسفة بدور حاسم في تشكيل الحضارات البشرية والوعي الإنساني على مر العصور. الحال أن كثيراً من الأنشطة التي دأب البشر على ممارستها إنما تعول على الفكر الفلسفي وتركن إلى نهجه إبان إجراء أية عمليات نظرية تستهدف تبرير أو تأصيل مبادئها، أو الخوض في قضايا تستثيرها تلك الأنشطة ويستبان أنها عصية على الحسم. وعلى وجه الخصوص، فإن العلم الذي يوقره المرتابون في جدوى الفلسفة إنما ينهض على أسس فلسفية صرفة.

على ذلك، غدت الفلسفة في العقود الأخيرة موضع استرابة من قبل جهات متعددة، حيث يوصف الجدل الفلسفي بأنه مجرد مماحكات لفظية، وتكال للفلسفة تهم بقصد تشويه صورتها في الأذهان والتقليل من قدرها، تهم من قبيل الغموض المفتعل، وعوز الجدوى،

* أستاذ الفلسفة بجامعة العين بالإمارات العربية المتحدة. صدر له العديد من المؤلفات والترجمات في مجال الدراسات الفلسفية والفكرية.

وتكريس رؤى مريبة تشكك في القيم والعقائد التي يتبناها المجتمع. وقد أثر كل ذلك بدرجات متفاوتة على تدريس الفلسفة في المدارس الثانوية والجامعات في مختلف أرجاء الوطن العربي، بقدر ما أثر في عدد ونوعية من يقبلون على دراستها ويطلعون على أدبياتها ويعنون بأمر قضاياها، الأمر الذي قلل من فرص المقبلين على دراستها في الحصول على وظائف تناسب تطلعاتهم.

سوف أحاول في هذه الورقة الدفاع عن أهمية تشكيل وعي فلسفي، وتسويغ جدوى الفلسفة عبر تبيان الدور الذي يمكن أن تضطلع بالقيام به في تنمية المجتمع العربي ونشر الوعي بين أفراده؛ كما سوف أخلص إلى التوصية باتخاذ خطوات إجرائية من شأنها أن تعيد للفلسفة المنزلة التي تنزلتها إبان عصور الفكر العربي الإسلامي المجيدة. تحديداً، سوف أجادل بوجوب تدريس مادة الفلسفة في المرحلتين الثانوية والجامعية في الجامعات الخليجية، موضحًا الأضرار الناجمة عن استمرار بعض الأقطار الخليجية في حظر تدريسها أو قصره على أقسام خدمية بعينها، كما سوف أعنى بتحديد المخاطر الناجمة عن تدريس الفلسفة على النحو الذي تدرس به في الجامعات الليبية، وعن تنسيب عدد هائل من الطلاب إلى أقسام الفلسفة بها.

في طبيعة الفلسفة

الفلسفة نشاط معرفي أصيل لا يقل أهمية عن العلم، ولا يقل عنه جدارة بالاهتمام. ثمة نزوع بشري فطري شطر فعل التفلسف يمكن استثماره في تحقيق مقاصد لا نختلف على وجوب السعي شطرها.

لا تبدأ الفلسفة في ممارسة نشاطها الجدلي إلا عقب قيام أنشطة بشرية من قبيل العلم والفن والاقتصاد والسياسة، بإثارة مسائل لا يتسنى حسمها باستخدام المناهج التقليدية، ما يحتم البحث عن مقاربات ورؤى وأساليب تقص جديدة تشترط اتخاذ مواقف فلسفية، شيء من هذا القبيل يبدو أن كارل بوبر يعنيه من قالته « إن المشكلات الفلسفية الأصيلة تتجذر في قضايا ملحة تقع خلف نطاق الفلسفة، وتموت حال فساد الجذور» (1).

مثال ذلك أن النشاط العلمي يثير قضايا لا يقوى نهجه على حسم أمرها. إنه يسكت عن الأسباب التي تعقلن المصادرة على غايات بعينها (التفسير والتنبؤ خصوصاً)، قدر ما يسكت عن تحديد دلالات المفاهيم الحاسمة المتضمنة في آلية تحقيق هذه الغايات، مفاهيم من قبيل النظرية العلمية، والدعم الاستقرائي والقانون الطبيعي.

العلم لا يستغني عن الفلسفة بحال، حسبنا أن نقتصر في هذا المقام على الإشارة إلى الدور الذي قامت به الفلسفة في تشكيل طبيعة العلم، وتحديد مناهجه، وتسويغ مصادراته، والدفاع عن قيمه. وعلى حد تعبير محمود أمين العالم: «استقلال العلوم عن الفلسفة لا يعني انفصالها التام عنها، ففي كل علم بقية فلسفة، وفي كل فلسفة أصداء مختلفة ومتنوعة للعلم السائد»[2].

الفلسفة رد المتكثر للأقل كثرة، رؤية الأشياء معًا من جهة الواحد، علي حد تعبير أفلاطون. ولئن كانت الرؤية الفلسفية كلية بطبيعتها، فإنها تظل وليدة تساؤلات أفرزتها وقائع العصر في ظروف تاريخية بعينها، فالكلي لا يستبصر بمعزل عن العيني والمشخص:

لقد كانت الفلسفة في اقترانها بالحضارات وليدة روح عصرها؛ إذ لكل عصر أسئلته الكبرى التي تركت للفيلسوف كي يجيب عنها، ومعنى هذا أن الواقع بكل أبعاده المعرفية والعلمية ونتاجاته الثقافية في حضارة ما، كان يثير التساؤلات التي تستدعي مهمة التفلسف، وبذلك فإن الفلسفة تبدو كحركة الوعي أو العقل النقدي الذي ينقد ويطور نفسه باستمرار في ضوء ما يطرحه الواقع من تساؤلات. غير أننا لا ينبغي أن نفهم الفلسفة كحركة للوعي أو العقل النقدي كما لو كانت هذه الحركة مجرد انعكاس لهذا الواقع، بل إنها تعود لتخصب هذا الواقع وتفتح أمامه أفقًا جديدة ليتجاوز ذاته، وبهذا تكون علاقة الفلسفة بالواقع – وخاصة الواقع الثقافي – علاقة جدلية[3].

الفلسفة نشاط نقدي في أساسه، ولعل هذا يفسر عزوف عموم الناس عنها. المشقة التي نلقي في دراستها ناجمة من جهة عن صعوبة ما تعرض له من قضايا، عن كونها تخوض في مناطق غائمة، وعن كون الناس يستأنسون إلى دعة المألوف؛ لكنها تنجم من جهة أخرى عن لغة خطابها. الحديث عن حقائق جديدة يستدعي لغة جديدة (هيوم)، واللغة ليست مجرد وسيلة لتبليغ الأفكار، فهي مسكن الوجود (هيدجر)، كما أنها مشحونة دومًا بافتراضات مسبقة، والفيلسوف الذي يرصد رؤى لا عهد لأسلافه بها يحتاج إلى استحداث لغة تتخلص من ظلال معاني الألفاظ المألوفة التي تلوكها الألسن وتفقدها دلالاتها.

ثمة جهات تتبنى مواقف معادية من الفلسفة وتعتبرها خطراً على قيمنا الروحية. وعلى وجه خاص، فإنها ترى في الفلسفة سبيلاً إلى نزعات مادية تنكر الدين وتعبث بالعقائد والقيم الأخلاقية، الأمر الذي يستوجب حماية النشء من آفاتها وحظر تدريسها في مختلف مراحل التعليم.

بيد أن هذه الجهات تغفل أن النزعات المادية لا تعدو أن تكون نتاجًا من نتاجات الفكر الإنساني، وأن المذاهب الروحية المتسقة مع روح الدين وتعاليم الأخلاق نتاج آخر لايقل أصالة. لقد طرح مفكرو الإسلام، وكثير من فلاسفة الغرب والشرق، مذاهب فلسفية أصيلة تروم الحجاج عن النقل بالعقل، وتستهدف طرح أسس عقلية خالصة للعقائد الدينية. أكثر من ذلك أنهم اهتموا خصوصاً بدحض النزعات المادية التي تشكك في تعاليم مركزية في عقائدنا الثيولوجية.

من منحى آخر، ثمة مسائل فلسفية أصيلة لا تتعلق أصلا بالقيم والأخلاق، بل تعني بمفاهيم ابستمولوجية (معرفية) أو استاطيقية (جمالية) أو انطولوجية (وجودية) لا تخفى أهميتها ودورها في تشكيل مسار الفكر الإنساني.

فضلاً عن ذلك، فإن الفلسفة مشروع تنويري يكرس قيم العقلانية والموضوعية والتسامح والتعددية، ونبذها إنما يعمل على تكريس توجهات ظلامية تخفي الحقائق وتطمس معالمها، قدر ما يشجع على ازدهار حركات التطرف التي تتسم بنزوعات دوجماطيقية تعادي الآخر وترفض الحوار معه. الراهن أن الفلسفة لا تقتصر علي الدعوة إلى تكريس تلك القيم الإنسانية السمحاء التي يدعو إليها الدين نفسه، بل تعمل على تسويغها وتبيان كيف أن تطور الحضارة البشرية رهن بالالتزام بها.

لا تتضمن الدعوة إلى تدريس الفلسفة الترويج لمذهب فلسفي بعينه، بل تحض علي تبني النهج الفلسفي في التفكير والجدل والإقناع، ولذا فإن دعوتي إلى تدريس الفلسفة إنما تقترن مع دعوة إلى تدريسها على نحو بعينه.

يتعين أن نتذكر أن المنطق فرع رئيس من فروع الفلسفة، وأن الكشف عن الأغاليط ومختلف سبل التضليل التي تمارس في مختلف السياقات مهام تناط بهذا الفرع، ناهيك

عن الدور الذي قام به المنطق تاريخيا في تطوير العلوم الرياضية وتأسيسها. إن الفلسفة التي ندعو هنا إلى وجوب تدريسها ليست معنية بما ارتآه هذا المتفكر أو ذاك، بقدر ما هي معنية بالأسباب التي ركن إليها المتفكر حين ارتأى ما ارتأى.

مثال ذلك أنه قد يدرس كتاب في الأخلاق قضايا لا تؤرق المجتمع الذي نعيش فيه، لكن ذلك لا يعني أن الكتاب تعوزه الأهمية، فالأمر المهم ليس حل المسألة الأخلاقية، بل طريقة حلها، وكيفية الدفاع عنها، وفحص الافتراضات التي تم الركون إليها دون جدل. فحص الافتراضات المصادر عليها ليس بأي حال مهمة سهلة، لكنه ضروري؛ ذلك أن محاباة المرء تتجذر في الأشياء التي يقبل صدقها يقيناً، وهي غالباً ما ترتهن بتاريخه الشخصي. يتوجب أن ندرك الافتراضات التي نصادر على صحتها، فهي تمارس تأثيراً على الرؤية التي نختار الدفاع عنها، بل تؤثر حتى في درجة ثقتنا في بعض الحقائق [4].

هذا يعني أن جدوى الفلسفة لا يستبان فيما يقره الفلاسفة من تعاليم، بل يتعين في نهجها الناقد، في قدرتها المستمرة على إثارة الشكوك فيما نركن إليه من مزاعم، في حدس الفجوات المستمرة في صرح مفاهيمنا المعرفية والثقافية والأخلاقية (وايزمان) [5]، وفي دعوتها لقيام المرء بالدفاع عما يتبناه من رؤى، والتنصل مما كان قد أقر من مواقف بمجرد أن تتضح له مستجدات لم يكن قد أخذها في حسبانه.

الدراية التي تدعو إليها الفلسفة باعتراضات الآخرين على ما يقره المرء من رؤى إنما تسهم في تفهمه رؤاه وقدرته، من ثم على استبانة ما يعتورها من خطل. العاجز عن إدراك رؤي الخصوم عاجز بالتعريف عن تأسيس رؤيته، وهذا على وجه الضبط هو حال من ينكر جدوى الفلسفة ويصر على حظر تدريسها.

ولا يفوتنا أيضاً أن نذكر الدور الحاسم الذي تقوم به الفلسفة في تربية وجدان الأفراد والمجتمع، وتنمية إحساساتهم ومشاعرهم الاستاطيقية. ثمة حاجات جمالية للفن الحقيقي تعمل أدبيات علم الجمال على فهمها وتعميق فعل الاستمتاع بتلبيتها. بكلمات أخرى، الفلسفة سبيل من سبل مكافحة التلوث الوجداني الذي يتعرض له المجتمع، وهي أقدر من غيرها على تبيان أصول الخطل الكامن فيما استشرى من أعمال توصف بهتاناً بأنها فنية.

وأخيراً، ثمة تناقض ظاهر في موقف الداعين إلى تبني العلم وسيلة للخلاص مما تعانيه مجتمعاتنا من تخلف حين يتبنون الدعوة إلى حظر الفلسفة. إذا كان العلم معلمة الحضارة الإنسانية الراهنة الأساسية، وكانت التقنية خيارنا في تطوير مجتمعاتنا، وإذا كانت الفلسفة تقوم بدور حاسم في تشكيل طبيعة العلم والدفاع عن قيمه، فإن الداعين إلى حظر الفلسفة، حال تبنيهم ذلك الخيار، إنما يمارسون سلوكيات «لودايتية»تلحق الضرر بالذات.

الفلسفة في الجامعات الخليجية

دأبت جامعات مجلس التعاون الخليجي في الآونة الأخيرة على التوكيد على تلبية حاجة سوق العمل، الذي لا يبدو في ظاهره في مسيس الحاجة إلى متخصصين في العلوم الفلسفية. غير أن الاحتكام إلى استحقاقات هذا السوق واعتمادها موجهاً وحيداً لما تقوم المؤسسات التعليمية المختلفة بتدريسه مسألة خطيرة في أساسها. ثمة معتقد شائع في فلسفة التعليم يتوهم أن عملية التنمية تقوم أساساً علي عملية التصنيع وما يرتبط بها من تكنولوجيا وعلوم تطبيقية، وفي هذا إغفال لكون تقدم التطبيقات العملية مستحيل في غياب تطوير المجال النظري في العلوم [6].

وحتى على افتراض أن الفلسفة عاجزة عن إيفاء أي من احتياجات السوق، فإن الشاغل الذي يتوجب أن يشغلنا هو تقديم خدمات للمجتمع، وقد تتمثل هذه الخدمات في تعميق وعي أفراده، وتنمية قدراتهم علي التفكير الموضوعي، وإرهاف مشاعرعم الجمالية والفنية، وغرس قيم التسامح وتقبل الرأي الآخر في نفوسهم، وتوعيتهم بقضايا إنسانية أرقت الفكر البشري بل شكلت تاريخه، ولا ريب أن تدريس الفلسفة إنما يسهم بشكل فاعل في تحقيق كل ذلك.

ثمة خصوصيات ثقافية تفسر (دون أن تبرر) المواقف المناوئة للفلسفة التي تتبناها بعض الجهات الرسمية في بعض أقطار دول مجلس التعاون الخليجي. لا ريب أن الدين يشكل في المجتمع العربي في مجمل عمومه، والمجتمع الخليجي (الأكثر محافظة) بوجه خاص، المكون الثقافي الأبرز، وهو الأساسي لقيم أفراده، وأن الدين يتخذ مواقف صريحة من الكثير من القضايا الأخلاقية.

هناك فرق بين القضايا الأخلاقية والمشاكل الاجتماعية. قد يشكل «الإجهاض» علي سبيل المثال مشكلة اجتماعية في بعض الأقطار العربية، المكتظة بالسكان خصوصاً، لكنه

لا يشكل قضية أخلاقية، كون الدين يحسم أمرها. القضايا التي تثيرها عقوبة الإعدام والمواد الإباحية في المجتمعات الغربية المعاصرة لا تثار في مجتمعنا العربي، كونها سلوكيات محرمة وفق تعاليم الدين.

ولكن في حين أن اتخاذ الدين مواقف صريحة من القضايا الأخلاقية قد يسهم في انحسار الدور الذي تقوم به الفلسفة في تشكيل وعي الأفراد، فإنه لا يلغيه تماماً. فمن جهة، تماماً كما أن النزوعات المادية لا تستنفد الفلسفة، فإن القضايا الأخلاقية لا تستنفدها. ومن أخرى، هناك قضايا أخلاقية خلافية تستجد باستمرار، تنجم عن تطور المجتمع وتعرضه لثقافات أخرى، قدر ما تنجم عن استحداث تقنيات جديدة، وهي قضايا لا يتخذ الدين بطبيعة الحال منها موقفاً محدداً، والفلسفة هي النشاط الأقدر علي التعامل معها. مداولة الأجنة، وانتساخ البشر، وقتل المرحمة، أمثلة بينة على هكذا قضايا.

علي أن قائلاً قد يقول إن مثل هذه القضايا لم تصبح بعد ملحة في مجتمعنا؛ لكنها تظل تناقش علي المستوى النظري، كما أن التطورات المتلاحقة التي تشهدها المنطقة قد تعجل بإثارتها علي المستوى العملي في المستقبل القريب.

مستقبل الفلسفة في دول مجلس التعاون الخليجي ليس مشرقاً تماماً، فقد ألغي تدريسها كلية من التعليم في مراحله الدنيا والعليا في بعض الأقطار، فيما اقتصر تدريسها في أقطار أخرى علي التعليم الجامعي. مبلغ علمي أن الفلسفة لا تدرس بوصفها تخصصاً مستقلاً إلا في الإمارات العربية المتحدة والكويت، ولا تدرس علي مستوى الدراسات العليا إلا في الكويت، وأن أقسام الفلسفة في قطر وعمان أقسام خدمية، تطرح مواد لطلاب أقسام أخرى دون أن تقوم بتخريج أية دفعات، في حين أنها لا تدرس في بعض الدول إلا في أقسام الدراسات الإسلامية غير المهيأة أصلاً لتدريسها بمقتضى طبيعة مناهجها.

وكما أسلفت، ثمة حاجة إلى إعادة النظر في طبيعة تدريس الفلسفة، فهو يعاني في وطننا العربي عموماً من اختلالات جمة. مثال ذلك أن المنطق يدرس في بعض الجامعات، أحياناً بوصفه متطلب كلية، بطريقة لا تسهم كثيراً في تنمية مهارة التفكير الناقد. صحيح أن الطلاب يتعلمون قواعد المنطق وكيفية تطبيقها على حجج صورية، لكنهم يغرقون في فيض من الرموز يحول غالباً دون قدرتهم علي تبين مواضع الخلل في الحجج الفاسدة، ويعرقل اقتدارهم علي كشف الأغاليط. وحتى إذا نجح المتميزون منهم في القيام بمثل هذه

المهام، فإنهم يظلون عاجزين عن التفكر المنطقي المنتج الذي يقيم علاقات منطقية ليست معطاة أصلا. وكما يقر جاكوب هانتيكا، أحد أبرز أعلام المنطق المعاصرين:

«كان المنطق في الأصل هو دراسة،التفوق في التفكير، لكنه صار.. مجرد دراسة لكيفية تفادي الوقوع في الأخطاء في المنطق، وليس لكيفية حفاظ المرء علي فضيلته المنطقية...[حيث] يتم تخصيص معظم الوقت لتعريف الطلاب بقواعد الاستدلال.. التي هي مجرد قواعد احترازية لتفادي الأوهام والضلالات، فهي لا تدلنا علي الكيفية التي يفكر بها الناس في واقع الأمر ولا الكيفية التي ينبغي التفكير بها »[7].

وكما يوضح هانتيكا، تماماً كما أن المرء لا يتعلم الشطرنج بمجرد اتقان قواعده، فإن تعلم قواعد القياس لا يضمن تنمية مهارة التفكير المنطقي. إن دراسة المنطق تستدعي تعلم استراتيچيات تقحم الطالب في عملية التفكير، عوضاً عن تعلم كيفية تطبيق قواعد شكلية بطريقة آلية صرفة.

وعلي نحو مماثل، لم يعد علم الأخلاق دراسة للامتياز الأخلاقي، وإنما غدا دراسة لكيفية تفادي الأخطاء الأخلاقية، عبر تبيان كيف يتسنى للمرء أن يحافظ في الحالات المتطرفة على فضيلته والإبقاء علي نقائه وطهارته. الحال أن الحديث عما يسمي بأخلاقيات العمل إنما يعني عرض حفنة من الممارسات التجارية المشبوهة [8].

أيضاً قد تكون هناك حاجة إلي التوكيد على دراسة الفلسفة في ضوء ما يشغل المجتمع العربي من قضايا، وعلى النهج الذي تدرس به، بما يكفل تكريس قيم التسامح الفكري والموضوعية. غير أن خيار إلغائها كلية من مختلف مراحل التعليم إنما يسهم في خلق المزيد من التابوهات، وتنشئة أجيال عاجزة عن تفهم الآخر والحوار معه، كما يسهم في الحول دون إعمال مهارات التفكير التي يوصي الدين نفسه بإعمالها.

الحال أن مستقبل العلوم الإنسانية والاجتماعية بأسرها ليس واعداً تماماً في غياب شمس التأصيل الفلسفي، فهذه العلوم أحوج من غيرها إلي هكذا تأصيل. ثمة عوائق تعرقل تطبيق النهج العلمي في علوم الاجتماع والنفس والتاريخ يتخذها البعض ذريعة في سلب أحقية انتمائها إلى طائفة العلوم المعترف بها. لست هنا في مقام الخوض في حل هذه الإشكالية، لكنه يستبان أنها إشكالية فلسفية صرفة.

ينضاف إلى ذلك أن تدريس التاريخ دون نقاش قضايا فلسفة التاريخ إنما يخفق في توضيح مسائل لا غنى لطالب التاريخ عن الدراية بها. إن تحديد الأسس التي تقوم عليها الحضارات البشرية، وتوضيح طبيعة التفاعل الذي يقوم بينها، وتبيان العوامل المحركة للتاريخ، فضلاً عن خصائص المنهج التاريخي التي تشكل خصوصيات هذا الضرب من المعارف، إنما تثير قضايا تشكل موضع عناية الفلاسفة، لكنها تعين علي فهم علم التاريخ، بل إن فهم هذا العلم دون الدراية بها قد يكون عصياً، وهذا هو الحال نسبة إلي علوم النفس والاجتماع والسياسة التي أسهم الفلاسفة إسهاماً واضحاً في تأسيسها وتطورها. وكما يقر روزنبرج :

«الراهن أن الفلسفة ... شرط ضروري مسبق لفهم التاريخ، وعلم الاجتماع، وسائر دراسات العلم ومناهجه وانجازاته وإمكاناته المستقبلية. لقد غدت الإشكاليات الفلسفية الكلاسيكية، من قبيل إشكالية حرية الإرادة في مقابل الحتمية، ما إذا كان العقل جزءاً من الجسم، أو ما إذا كان ثمة براح للمقصد والذكاء والمعنى في عالم مادي صرف، إشكاليات ملحة، واتخذت صياغتها وفق اكتشافات ونظريات علمية» [9].

فكرة حماية النشء من الفلسفة التي يركن إليها البعض في تبرير حظرها إنما تشي بنزعة أبوية لم يعد هناك ما يسوغها في ضوء التطورات التي حدثت في وسائل الاتصال ونشر المعلومات. لن أعول هنا في مناوئة هذه النزعة على الحجج التقليدية التي تركن إليها التيارات الليبرالية، والتي عبر عنها جون ستيوارت مل أبلغ تعبير [10]، ولن أعول علي تحذير إزيا برلن الشهير من مخاطر التوجهات الاستبدادية التي تنجم عن هكذا نزعة، والتي تشكل خطوة أولى شطر دهاليز الاستبداد [11]، وإنما اقتصر على الإشارة إلى وضع راهن يشي بتعذر حماية النشء من التعرض لأي شيء.

لقد غدت أجهزة شبكات المعلومات توفر لكل راغب أي شيء يرغب في الاطلاع عليه، كما أن حظر مواد بعينها عبر استحداث برمجيات خاصة قد ثبت إخفاقه، لأنه سوف يطول مواد أخري نرغب في الإبقاء عليها. الرقابة علي شبكة المعلومات غير فعالة عملياً فيما يقول تومس وول، جزئياً لأن برمجيات الحجب ليست دقيقة بحيث تقتصر علي استبعاد ما نود استبعاده [12]، ولأن النفس البشرية تتوق عادة إلى الدراية بما يحجب عنها، ولأن إشباع فضولها قد يتم بطرق غير منهجية ودون ترشيد مستنير، فإن العمل علي حماية النشء قد يؤد ي إلى إلحاق الضرر بهم.

من منحى آخر، فإن عوز الخلفية الفلسفية يؤثر حتي علي نوعية الأبحاث التي يقوم بها أعضاء هيئة التدريس، ناهيك عن الطلبة في جامعات مجلس التعاون في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهذا أمر كان نبهني إليه سكرتير تحرير إحدى المجلات العلمية المتخصصة في تلك العلوم في إحدى جامعات الخليج [13].

هكذا نجد أن كثيراً من الأبحاث -إن لم يكن أغلبها- تطبيقي يقتصر علي إجراء دراسات ميدانية؛ أما حظوظ الدراسات النظرية التي تطرح رؤي جديدة في العلم المعني أو تستشرف تحولات في مساره فليست وافرة، بل تكاد تكون منعدمة. صحيح أن التوجهات العملية والتطبيقية التي تكرسها جامعات ودول مجلس التعاون تسهم في هذا الوضع، غير أنه يتوجب علينا أن نتذكر أن الأبحاث النظرية، بما تتطلبه من خلفيات فلسفية، أكثر صعوبة أساساً لكونها تستدعي مهارات فلسفية.

الراهن أن البعض لا يتفهم حتى أهمية مثل هذه الأبحاث، ولا يستشعر الحاجة إليها. أذكر أنني حين اشتركت في عضوية لجنة في إحدي الجامعات الخليجية طلب منها إعداد كتاب لتدريس مادة في مهارات البحث العلمي، أمضيت بعض الوقت في إقناع البعض بأهمية عرض خلفية فلسفية توضح ماهية العلم وتحدد أهدافه ومصادراته وتسوغ قيمه؛ فما كان من أحد أعضاء اللجنة إلا أن قال، مستشهداً علي ضآلة تلك الأهمية، «لقد أمضيت سنين طويلة في كتابة أبحاث علمية، نشر كثير منها في مجلات علمية معترف بها دولياً، رغم أنني لا أعرف شيئا مما تتحدث عنه».

لقد ذكرني قوله هذا بقالة هيدجر إنه محتم على أي تفسير يتغرض الفهم أن يكون فهم أصلاً ما أراد تفسيره، ما يعني أن «نقص الوعي المسبق بما يكون موضوعاً للبحث والتساؤل يعوق منذ البداية إمكانية التساؤل، ومن ثم إمكانية التفسير ذاتها»(14). إن الذي تعوزه الدراية بالفلسفة قد تعوزه حتى القدرة على استثار الأسئلة النظرية، ما يجعله يقلل من قيمة محاولة الإجابة عنها.

وبطبيعة الحال، فإننا لا نستطيع عزل الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي يشكل طبيعة المجتمع عن المنزلة التي تتنزلها الفلسفة في نفوس أفراده. حرية الفكر شرط لازب لازدهار الفلسفة، تماماً كما أن تقييد الحريات شرط لازب لازدهار حركات التطرف الرافضة للتعددية بمختلف أنماطها.

أخلص من كل هذا إلي الدعوة إلي تأسيس أقسام للفلسفة وإعادة فتح ما أغلق منها في جامعات مجلس التعاون التي تشتمل علي كليات للآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، فضلاً عن الدعوة إلي تدريسها في المرحلة الثانوية. وعلى أقل تقدير، يفترض ألا تتخذ قرارات غلق أقسام الفلسفة وحظر تدريسها قبل عقد ندوات تتيح لأشياع الفلسفة الدفاع عن أهميتها، وتبيان الدور الذي تقوم به في تنمية المجتمع، والرد علي اعتراضات مناهضيها.

يتوجب أيضاً تدريس الفلسفة عبر مقاربة إشكالياتها، علي حساب مقاربتها التاريخية السائدة دون إغفال وضع الإشكاليات الفلسفية في سياقها التاريخي. القيم التي تعمل الفلسفة على تكريسها والمهارات التي تسهم في تنميتها لا ترتهن بالدراية بالمذاهب والحركات الفلسفية بقدر ما ترتهن بالدراية بمناهجها، بطريقتها في الإجابة عن الأسئلة التي أثارتها وبقدرتها علي الرد علي اعتراضات الخصوم.

ولأن دراسة الفلسفة عصية بسبب طبيعة القضايا التي تشغل اهتمام القائمين عليها، يتعين ألا يلتحق بأقسام الفلسفة إلا من يتميز من الطلاب. ولأن هناك عزوفاً عن الالتحاق بأقسام الفلسفة في دول مجلس التعاون، ثمة حاجة إلى نشر الوعي الفلسفي عبر وسائل الإعلام، فإن تعذر ذلك تعين علي أقل تقدير إتاحة الفرصة لأولي الاختصاص للدفاع عن رؤاهم عبر تلك الوسائل، بحيث تعرض مسألة تدريس الفلسفة بوصفها قضية خلافية جديرة بالنقاش. أيضاً يتوجب توفير فرص مناسبة للعمل بما يغري الطلاب الجدد بالالتحاق بأقسام الفلسفة.

فضلاً عن ذلك، ثمة حاجة إلي العناية ببعض التخصصات الفلسفية التي استحدثت في الآونة الأخيرة بسبب الطفرات التكنولوجية الهائلة التي شهدها العقدان الأخيران من القرن العشرين، ومن أهمها أخلاقيات علوم الحياة وعلم أخلاق البيئة، خصوصاً أن علاقة مثل هذه العلوم الآصرة بالعلم والتقنية قد تغري الطلبة بالانضمام إلى أقسام الفلسفة وتقنع المشككين في جدوى الفلسفة بأهميتها وبقدرتها على مواكبة ما يستجد من قضايا.

حري بي أيضاً أن أشير إلى أن الفلسفة حاضرة في المشهد الثقافي في الخليج، خصوصاً عند المعنيين بالقضايا السياسية والنقد الأدبي والأعمال الإبداعية، وإلى أن

هناك استشعارًا بينًا بأهميتها في تشكيل الوعي بين أوساط المثقفين. الحال أن الأنشطة الثقافية التي تشرف عليها جهات رسمية في دول مجلس التعاون لا تتخذ في الغالب موقفاً مناهضاً من الفلسفة، بل تسهم في تعزيز دورها، وتستضيف شخصيات فلسفية بارزة، يتم الإعلان عنها وتغطيتها إعلامياً. إن هذا إنما يعني أن المناخ الثقافي قد يكون مهيئاً لازدهار الفلسفة، وبقي أن تسهم الجامعات في إنجاز هذه المهمة الحاسمة التي قد تسهم في تشكيل مستقبل المجتمع الخليجي بأسره.

الفلسفة في الجامعات الليبية

قد يكون حال الفلسفة في ليبيا أفضل كثيرًا منه في الخليج، لكنه يظل سيئاً. هناك توجه تتبناه بعض الجامعات الخليجية شطر التدريس باللغة الإنجليزية، وهذا يصعب عملية تدريس الفلسفة فيها، ويقلل من عدد الراغبين في دراستها، فضلاً عن صعوبات أخرى تتعلق بأهمية اللغة في تشكيل وعي الأفراد وانتماءاتهم. في المقابل، فإن الفلسفة تدرس باللغة العربية في الجامعات الليبية، حتي على مستوى الدراسات العليا، وإذا حَدّثَتْ نَفس أحد المشرفين على رسائل الماجستير بتكليف من يشرف عليهم بأية نصوص أجنبية، فإن عليه أن يتوقع لجوء طلابه إلى زملائهم في أقسام اللغة الإنجليزية.

أيضاً، لا تشكل ندرة المنسبين إلى أقسام الفلسفة مشكلة في الجامعات الليبية، فهي تعاني من كثرتهم. لقد درّست عقدين من السنين في جامعة قار يونس بمدينة بنغازي، حيث يبلغ متوسط عدد طلاب الفلسفة فيها ما يقرب من ألف طالب، رغم أن عدد سكان تلك المدينة لا يتجاوز المليون[15]. وبطبيعة الحال، فإن هذه الأعداد الهائلة تؤثر سلبًا في نوعية التدريس، حيث يغلب التدريس التلقيني، ويتخرج الطلاب دون وعي بأهمية الفلسفة ودورها، بل إن تنسيب من ينسب من الطلاب إلى قسم الفلسفة في تلك الجامعة لا يتم وفق رغباتهم بل وفق رغبات من حصلوا علي نسب عالية في الثانوية العامة، الذين يعزفون عادة عن الالتحاق بهذا القسم ويشغلون أماكن تلزم ذوي النسب المتدنية بالالتحاق به[16].

ومهما يكن من أمر، فإنه باستثناءات تكاد لا تذكر، إن ظلت لأسباب فردية متميزة، لم يكن من خريجي الدفعات التي درست من أفصح عن قدرات تحليلية نقدية تليق بخريج الفلسفة. الحال أن الحاصلين على تراتيب عالية من الخريجين، إنما يحصلون عليها في الغالب، وتتاح لهم من ثم فرص مواصلة دراستهم العليا، عبر ممارسة عمليات استظهار لا

تسهم بأي حال في توسيع مداركهم أو في تنمية مهاراتهم النقدية والتحليلية. أسوأ من ذلك أن بعضهم يستمرون بل ويستمرئون ممارسة تلك العمليات إبان دراساتهم العليا. بيد أن هذا لا يقتصر خصوصاً على الفلسفة، وإنما يشكل صعوبة يعاني منها التعليم العالي في ليبيا بوجه عام.

ثمة إشكاليات أخرى تواجه تدريس الفلسفة في الجامعات الليبية، لكنها لا تخرج عن تلك التي تواجه سائر التخصصات. من بين هذه المشاكل المشتركة قيام أعضاء هيئة التدريس بالتدريس في عدة جامعات، بسبب تدني دخولهم، وما ينجم عنه من تدن في عطائهم الأكاديمي.

لن أفصل في هذا، فقد فصل فيه كثيرون غيري، غير أنه من المهم أن أشير هنا إلى غياب العمليات التقويمية التي تستهدف تمكين العملية التدريسية من تحقيق نتائجها المرجوة، والتي تحول دون ذلك التدني. عادة ما تقتصر الكليات على طلب توصيفات للمواد التي تدرس، لكن نزر من يلبون هذا الطلب يظل يسيراً، كما أنه لا يكفي بذاته إلى تحقيق أي شيء يستحق الذكر.

أما في الجامعات الخليجية، فإن عضو هيئة التدريس مطالب بتحديد أهداف المواد التي يقوم بتدريسها، وتحديد مخرجاتها التعليمية، وربط تلك الأهداف والمخرجات بأهداف ومخرجات كل من الكلية والجامعة. أيضاً، فإن هناك ما يعرف باسم اختبار المعارف التخصصية، الذي يتضمن أسئلة متوسطة العمومية عن كل ما درس به الطالب، يجري قبل تخرجه بهدف معرفة إلى أي حد نجح القسم المعني في تحقيق الأهداف التي آل على نفسه تحقيقها. يفترض أيضاً أن يقوم كل قسم بمقارنة أهدافه ومخرجاته مع أهداف ومخرجات جامعات عالمية مرموقة، وبتحديث مناهجه وخططه التدريسية بشكل دوري.

فضلاً عن ذلك، فإن هناك عناية خاصة بتطوير طرق وأساليب التدريس والتقويم، وبتسخير التقنية في خدمة مقاصد تعليمية، كما أن هناك اهتماماً خاصاً بالتعليم الذاتي. وكما نعلم جميعاً لا شيء من هذا القبيل يتم في جامعاتنا الليبية، حيث تترك الحرية كاملة لعضو هيئة التدريس في تدريس ما عنّ له، بالطريقة التي يرتئي، دون أن يترتب عن إخفاقه في تطوير أدواته أي شيء تقريباً.

أيضاً، فإن الصرامة التي تتسم بها معايير الترقية في بعض الجامعات الخليجية، إذ لا مثيل لها ربما حتى علي مستوى الكثير من الجامعات الأجنبية، لا تقارن مع معايير الجامعات الليبية مرونة وتساهلاً في تعاملها مع هذه المسألة. وبطبيعة الحال، فإن هذا يؤثر بشكل مباشر في قدرات وعطاء أساتذة الجامعة الليبيين، قدر ما يؤثر في مخرجات الجامعة التعليمية.

غير أنه لا يفوتني أن أشير إلى أن الإمكانات التي تسخر في الجامعات الخليجية لأعضاء هيئة التدريس أفضل بكثير من تلك المتوفرة في بلادنا، ولئن كان في هذا التماس لبعض العذر لأساتذة جامعاتنا، فإنه لا يعفي المسؤولين إطلاقاً من تبعات تردي المستوى الأكاديمي في تلك الجامعات.

وفي حين تبالغ الجامعات الخليجية في الربط بين تنسيب الطلاب إلى مختلف التخصصات وحاجة سوق العمل إليها، تبالغ الجامعات الليبية في إغفال هذا الأمر، ولعل الأعداد الهائلة التي تنسب إلى أقسام الفلسفة بها خير دليل على ما أقول. إن هذا يجعلنا نتساءل: ما جدوى تخريج ألف طالب كل أربع سنين في قسم الفلسفة في مدينة لا يتجاوز عدد المدارس الثانوية التي تدرس مادة الفلسفة فيها عدد أصابع اليدين؟[17].

المجتمع الليبي ليس أقل تقليلاً من شأن الفلسفة من المجتمع الخليجي، وإن اختلفت أسباب الحط من قدرها. الخوف علي قيم المجتمع لا يشكل عاملاً حاسماً في عداء الفلسفة في المجتمع الليبي، الذي يبدو أكثر ليبرالية في هذا الخصوص، حتى الاستراتبة في جدواها ليست عاملا مهما، فما يقال عنها يكاد يسري على تخصصات إنسانية وحتى طبيعية كثيرة أخرى. ذلك أن خريجي الجامعات في ليبيا يعانون من صعوبة الحصول على وظائف بصرف النظر عن تخصصاتهم. الحال أن هناك عوراً في الإحساس بخطر الفلسفة، ناجم في الغالب عن عدم الدراية بالدور الذي يمكن أن تقوم به في تنمية المجتمع، وتوسيع مدارك أفراده، وتنمية مهاراتهم النقدية، وهذا عامل مشترك في المجتمعين الليبي والخليجي.

هكذا أخلص إلي وجوب التقليل من عدد الطلاب المنسبين إلى أقسام الفلسفة في الجامعات الليبية، واستحداث عمليات تقويمية من شأنها أن تسهم في تحسين نوعية

التدريس، كما أخلص إلي التوكيد على ما كنت أكدت عليه في معرض حديثي عن الجامعات الخليجية، خصوصاً تدريس الفلسفة عبر مقاربة إشكالياتها، على حساب مقاربتها التاريخية السائدة، وقصر التنسيب إلى أقسام الفلسفة على من يتميز من الطلاب، فضلا عن العناية ببعض التخصصات الفلسفية التي استحدثت في الآونة الأخيرة.

أما عن حضور الفلسفة في المشهد الثقافي الليبي، فأقول إن الفلسفة قد وجدت سبيلها إلى المحاضرات والندوات والدراسات الثقافية عبر النقد الأدبي الذي يشكل عناية طائفة كبيرة من المثقفين الليبيين. فضلاً عن ذلك فإن الإيديولوجيا التي يتبناها نظام الحكم، بما تثيره من قضايا ذات طابع فلسفي خصوصاً في مجالي فلسفة السياسة والاقتصاد، أسهمت في نشر بعض المفردات الفلسفية، وإن لم تنجح تماماً في نشر الوعي الفلسفي بمعناه الاحترافي(18). ينضاف إلى ذلك، أن عداء ذوي التوجهات السلفية للفلسفة ليس واضحاً وضوحه في الخليج.

هكذا يتضح أن ثمة تفاوتاً بيِّناً بين تجربة الجامعات الليبية وجامعات الخليج، وهو تفاوت غالباً ما يكون في صالح الأولى، ويتعلق تحديداً في عدد الطلبة الذين ينسبون إلى أقسام الفلسفة، وآليات تنسيبهم إلى الأقسام العلمية، والربط بين مخرجات التعليم الجامعي وحاجة سوق العمل إليهم، وإجراء عمليات تقويمية للتأكد من إحكام وحداثة المناهج التدريسية، وتطوير المواد التعليمية، فضلاً عن حجم الإمكانات المادية المسخرة للتعليم العالي، واللغة المفضلة في التدريس والبحث. أيضاً، نلحظ أن ما ذكر من ملاحظات سلبية تتعلق بتدريس الفلسفة في الجامعات الخليجية يقتصر غالباً على هذا التخصص، وربما حتي في جامعات خليجية دون سواها.

في المقابل، فإن ما أقررته بخصوص التدريس في الجامعات الليبية يكاد يسري على مختلف التخصصات التي تدرس بها. بكلمات أخرى، فإن تدريس الفلسفة يواجه في الخليج مشاكل خاصة تتعلق أساساً بموقف المجتمع المحافظ من الفلسفة، في حين أن المشاكل التي يواجهها تدريس الفلسفة في بلادنا لا تنجم في الغالب عن طبيعة ما يدرس في تخصص الفلسفة، فهي تواجه عملية تدريس مختلف الفروع المعرفية، ولعلها تواجه التعليم العالي برمته.

هكذا تظل الفلسفة مهمشة في المجتمعين الليبي والخليجي وتلاقي صعوبات كأداء في تأدية مهامها التنويرية، وإن اختلفت الأسباب التي استدعت حدوث ذلك. مثال ذلك أن أعداد الطلبة إما أكبر مما يجب أو أقل مما يجب. إذا لم تكن هناك حاجة إلى تخريج عشرات المئات من دارسي الفلسفة، فإنه لا جدوى أيضاً من تأسيس أقسام يفوق عدد الأساتذة فيها عدد طلابها. أيضاً، فإن الاحتكام إلى استحقاقات هذا السوق واعتمادها موجهاً وحيداً لما تقوم المؤسسات التعليمية المختلفة بتدريسه لا يليق بالعلوم الإنسانية والاجتماعية بوجه عام، ولا بالفلسفة بوجه خاص.

لكن ذلك لا يعني عدم احتساب هذا العامل إبان عملية تنسيب الطلبة إلى أقسام علمية. من منحى آخر فإن العمليات التقويمية التي تقوم بها الجامعات الخليجية، وإن كانت تحفز الأستاذ الجامعي على تطوير أدواته، تضيق عليه وتحد من استقلاليته. لكن هذا لا يعني وجوب الاستغناء عن تلك العمليات كلية، كما يحدث في الجامعات الليبية، وإن كان يعني ضرورة الحد منها.

يبدو أن هناك اتفاقاً مشتركاً بين التجربتين الليبية والخليجية يتعين في الإفراط أو التفريط في عدد الطلاب والربط بين المخرجات وسوق العمل وفي إجراء العمليات التقويمية، ويبقى للجامعات الليبية والخليجية أن تفيد بشكل متبادل من خبراتها، بحيث تلتمس حلاً وسطاً يتنكب سلبيات هذين البديلين.

على ذلك، فإن الوعي الفلسفي في الحالين وعي مؤسس على تصورات شائهة لطبيعة النشاط الفلسفي. إنني أتحدث هنا عن السمة الغالبة، وعن النزعة الارتيابية التي تشكك في قدرات فعل التفلسف عند السواد الأعظم. الاختلالات التي أتيت على ذكرها في الجامعات الليبية والخليجية، وهي اختلالات تعاني منها جامعات عربية أخرى، إنما هي عرض لغياب الوعي الفلسفي المكين.

أشير في النهاية إلى أن لرد المتكثر للأقل كثرة (وهو رد يعين على إنجاز عمليات الفهم والنقد) تقنيات لا سبيل للدراية بها إلا بدراسة الفلسفة. الرد هنا ليس في حقيقة أمره إلا تأصيلاً للمتكثر أيا كان موضع تكثره، في العلوم أو الفنون أو السلوكيات، ما يبين أن حاجة العلوم الإنسانية والاجتماعية خصوصاً إلى التأصيل العقلاني (الذي هو غاية الفلسفة

الأساسية) ماسة إلى حد يحول دون إحراز أي تقدم فيها حال العجز عن تلبيتها. إن نصيب كل أمة من التمدن إنما يعظم بعظمة نصيبها من حسن تفلسف الناس فيها، كما يقول ديكارت. فأي نصيب من التحضر ينتظر مجتمعات تغمط الفلسفة حقها في قول كلمتها، أو تهمش دورها بل تكاد تلغيه في تشكيل وعي أفرادها؟ إن المجتمعات العربية وإن اختلفت أساليبها في إغماط الفلسفة حقها وتهميش دورها، تظل تتشابه في إسهامها في تحقيق هاتين الغايتين، ما يعني أن مستقبل الفلسفة في الوطن العربي ليس واعدا على النحو الذي نؤمل.

الهوامش:

1 - بوبر، كارل، «بحثًا عن عالم أفضل»، ترجمة أحمد مستجير، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة1996، ص 109.

2 - العالم، محمود أمين، «ما هي الفلسفة»، في كتاب «قضية الفلسفة»، محمد كامل الخطيب (تحرير)، سلسلة قضايا وحوارات النهضة العربية (26)، دار الطليعة الجديدة، دمشق، 1998، ص73 .

3 - توفيق، سعيد، «دور الفلسفة في بنية الثقافة المصرية»، في كتاب ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 105 - 107.

4 - Thomas F. Wall, Thinking Critically About Moral Problems, Wadsworth, Canada, 2003,p.431.

5 - وايزمان، فردريك، «كيف أرى الفلسفة»، في كتاب «كيف يرى الوضعيون الفلسفة»، تحرير آي.جي.أير، ترجمة نجيب الحصادي، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص 66.

6 - توفيق، سعيد، «دور الفلسفة في بنية الثقافة المصرية»، في كتاب ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 139.

7 - جاكوب، هنتيكا، «حول المهام التعليمية للفلسفة»، ديوجين، العدد 192 / 136، المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية، مطبوعات اليونسكو، القاهرة، يناير 2003، ص 90.

8 - المصدر السابق ص 89 - 90.

9 - Rosenberg, Alex, Philosophy of Science: acontemporary introduction, Routledge, London, 2002, p.2.

10 - Mill,John Stuart, "On Liberty", from Utilitarianism. New York: Bobbs-Merrill, 1957.

11 - Berlin, I., "The Crook;ed Timber of Humanity", Fontana Press, HarperCollins Publishers,London, 1991.

12 - Wall Thomas F. , Thinking Critically About Moral Problems, Wadsworth, Canada, 2003,p.390.

13 - الدكتور محمد أحمد السيد، سكرتير مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الإمارات وزميلي بقسم الفلسفة.

14 - توفيق، سعيد، «الإبداع الفني والوعي الجمالي»، في كتاب ثقافتنا في مواجهة العصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 90.

15 - بالمناسبة، عدد الطالبات اللاتي يدرسن الفلسفة في جامعة الإمارات العربية لا يتجاوز عشر طالبات، في حين لا يدرسها، ولا يرغب في دراستها أحد من الطلاب. أكثر من ذلك، يتوقع تخرج ثماني طالبات قبل نهاية العام الجامعي الحالي، كما أن حظوظ القسم في الاستمرار بعد الشروع في التدريس بالإنجليزية ليست وافرة، خصوصاً أن الجامعة تشترط تسجيل عشرين طالباً قبل السماح بقبول دفعة جديدة.

16 - غير أن للجامعة العذر في تبني هذه الطريقة في التنسيب، إذ لا سبيل لتلبية رغبات كل الطلاب، كما أنه من العدل أن تعطى لذوي النسب العالية أولوية في اختيار الأقسام. الخلل إنما يرجع في أصله إلى الأعداد الهائلة التي تنسب إلى الجامعات.

17 - بيد أن الأعداد الهائلة لا تعكس بأي حال تبني المجتمع لموقف إيجابي من الفلسفة. الحال أن المسألة إدارية صرفة (أعداد هائلة من الحاصلين علي الشهادة الثانوية تجد الدولة نفسها ملزمة بتنسيبهم إلى الجامعات) ولا تشي بتنفيذ سياسة تربوية جادة.

18 - لقد فوجئت حين استعصى على طالبات جامعة الإمارات الدراية بمعني كلمة «برجوازية»، وقد أخبرني زميل آخر أن طالباته لم يسمعن عن كارل ماركس؛ وبطبيعة الحال فإن مثل هذه المفردات مألوفة عند طلبة الجامعات الليبية. السبب لا يرجع بحال إلى ثقافة طلابنا العامة، بل إلى أثر وسائل الإعلام الليبية. آية ذلك أن طلبة قسم الفلسفة في جامعة بنغازي يجدون صعوبة في معرفة معني كلمة «تقريظ» الواردة في عناوين أحد كتبي. وحين أبين لهم أن التقريظ نسبة للحي كالتأبين نسبة للميت، مؤملاً أن يستنتجوا أن التقريظ ذكر لمحاسن الحي، فإنهم يظلون يسألون عن معنى كلمة تأبين.



الشّريعة وحقوق الإنسان

مقدّمة إلى الدّيمقراطيّة

د. محمّد عبد المطلب الهوني*

إنّ الأساس في الدّيمقراطيّة هو حقوق الإنسان، ولذلك فمن الضّروريّ أن نذكّر بادئ ذي بدء بأنّ بين حقوق الإنسان الكونيّة والشّريعة الإسلاميّة تعارضًا جوهريًا، لسببين. أوّلهما هو اختلاف المرجعيّات والثّاني هو إختلاف المقاصد.

1 – فالشّريعة الإسلاميّة تنتمي إلى مرجعيّة الوحي، بينما ينتمي إعلان حقوق الإنسان إلى مرجعيّة إنسانيّة محضة "ألا وهو العقل".

2 – إنّ الفقه الإسلامي الذي أنتج منظومة التّشريع ليس إلاّ محاولة لتفسير وتأويل النّصوص التّأسيسيّة للدّين الإسلامي، وذلك بقصد تطبيقها على الواقع الإنساني المعاصر في القرون الوسطى بقيم ذلك العصر ومفاهيمه وتصوّراته عن العالم والإنسان.

* مثقف ليبي، وأحد مؤسسي مؤسسة تحديث الفكر العربي.

أمّا إعلان حقوق الإنسان فهو نتاج إنساني ومحصلة لتراكم تجاربه ونضالاته التي خاضها في صيرورته التّاريخيّة والتي بلورتها فلسفة الأنوار ردّاً على محاكم التّفتيش الكنسيّة.

3 - إنّ قواعد الشّريعة الإسلاميّة التي أرساها الفقهاء تعدّ نهاية مبكرة لتاريخ الإجتماع الإنساني، وذلك لإدّعائها امتلاك الحلول النّهائيّة لكلّ المشاكل البشريّة، وأنّ آخر إتّصال بين السّماء والأرض في القرن السّابع الميلادي قد وضع كافة القواعد واجبة الإتّباع إلى يوم القيامة، وحدّد كافة حقوق وواجبات الإنسان.

أمّا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فهو إبداع إنساني عقلاني، يستهدف الإنسان ولا يدّعي أيّة شرعيّة متعالية على التّاريخ، وإنّ المنادين والمناضلين من أجله يدركون إمكانيّة تحويره وتطويره وتعديله إلى الأفضل كلّما تبدّلت أمور الإنسان وتغيرّت المعطيات الموضوعيّة لمعيشته.

4 - إنّ أحكام الشّريعة الإسلاميّة إذا أسقطنا عليها المعايير الأخلاقيّة والفلسفيّة الحديثة، بدت لنا جاحدة لحق الإنسان في المحافظة على بدنه وذلك بتكريسها العقوبات البدنيّة من تقطيع الأيدي والأرجل والرّجم والجلد ودقّ الأعناق.

أمّا شرعة حقوق الإنسان فهي تُجَرِّمُ هذه الأفعال، وتقضي بحماية السّلامة البدنيّة وتعتبر أنّ للبدن حرمة واجبة المراعاة وأنّ حفاظ الإنسان على جسمه حق طبيعيّ لا يجوز المساس به.

5 - إنّ الشّريعة الإسلاميّة لا تعترف بالعقل وتحدّ من حريّة الضمير وحريّة التّعبير، وهذا جليّ في إقامة حدّ الردّة على من يغيّر دينه من المسلمين.

أمّا شرعة حقوق الإنسان فتعتبر أنّ حريّة التّفكير والتّعبير وحريّة المعتقد من الأسس المؤسّسة لحقوق الإنسان.

6 - إنّ آراء الفقهاء المسلمين تنتمي في مجملها إلى منظومة معرفيّة قديمة تقسّم العالم إلى ثنائيّة دار الحرب ودار السّلام، دار الكُفر ودار الإيمان، وتفرض على المسلمين البراء من الكفّار ومعتقداتهم ومؤسّساتهم وقيمهم ويحرم على المسلم أن يواليهم أو يرتبط معهم بعلاقات تجاريّة أو دبلوماسية أو سياسيّة، ويحرّم عليه السّفر إلى بلدانهم

إلاّ إذا تزوّد بفتوى تبرّر له سفره، وهذه الأحكام ليست قابعة في أضابير فقه ابن تيميّة فحسب، بل نجدها تدرّس اليوم في المناهج السّعوديّة الموجّهة إلى طلبة الإعدادي: يقول ابن تيميّة: "إذا أقمتَ في دار الكفر للتّطبّب أو التّعلّم أو التّجارة، فأقم بينهم وأنت تضمر العداوة لهم".هنا يكون التّعارض أكثر حدّة بين الشّريعة الإسلاميّة وإعلان حقوق الإنسان الذي هو نتاج للحداثة بإمتياز، فهو يُجرّم أيّ سلوك عنصري يفضي إلى التّمييز بين النّاس بسبب المعتقد الدّيني أو السّياسي.

وخلاصة القول إنّ الشّريعة الإسلاميّة وشرعة حقوق الإنسان تتناقضان تناقضا جوهريًا صارخًا، وأنّ أيّ محاولة للتّوفيق بينهما هي محاولة بائسة، تستدعي التّجرّد من النّزاهة الفكريّة والولوج في عالم التّفكير السّحري وأباطيل الحواة.أمّا إذا قال البعض بأنّ الدّين الإسلامي وعلى الأخصّ في متن كتابه المقدّس "القرآن" يحمل الكثير من المبادئ العامّة الإنسانيّة التي تدعو إلى التّسامح وتحضّ على الإخاء، فإنّا نذكّره بأنّ القرآن ككلّ الكتب السّماويّة يحمل الشيء ونقيضه، بحيث توجد آيات أخرى تعتبر أنّ لا مجال للإنسان في هذا الخيار وأن الإيمان قسريّ بحدّ السّيف. وأن الإيمان بالدّين الإسلامي هو وحده الذي يضفي على الإنسان صفة المكلّف التي تؤهّله للرعويّة في المجتمع المسلم. وجاءت الشّريعة لتكرّس هذه النّظرة الأخيرة وتغلّب آيات السّيف على آيات التّسامح وذلك باختراع واستخدام منظومة النّاسخ والمنسوخ، ففقدنا نهائيًا أي بصيص أمل لإدراج حريّة المعتقد ضمن سلّم القيم الإسلامية وكانت آخر المحاولات تلك التي قام بها المفكّر السوداني محمّد محمود طه ودفع رأسه ثمنًا لذلك بعد أن حكم عليه التّرابي بالردّة.

مجمل القول أنّ على المسلمين اليوم أن يدركوا بأن ليس ثمّة دين صالح لكلّ زمان ومكان إلاّ في شقّه الإيماني وطقوسه التّعبّديّة، أمّا عندما يتدخل الدّين في تنظيم العلاقات بين البشر فإنّه لا محالة سيدنّس نتيجة الصّراعات الدنيويّة بعد كلّ عراك إنساني. فلا بدّ أن تهبّ اليوم النخب الدّينيّة والعلمانيّة لنجدة هذا الدّين بتخليصه من براثن السّياسة وإنتهازية الفقهاء، وإلاّ سيواجه المسلم آجلا أم عاجلاً أسئلة لا بدّ من الإجابة عليها:

- هل يريد المسلم أن يحكمه الموتى أم أن يحكم نفسه بنفسه؟ هل سيعتقد المسلم أنّه سيكفّ عن كونه كذلك إذا اعتنق مبادئ حقوق الإنسان حسبما يروّج له بعض فقهاء الدّين أم أنّه سيبقى مؤمنا باكتساب الدّارين؟

- هل يريد المسلم أن يُفرّق في السّلوك البشري بين الجريمة والخطيئة، هل يريد أن يفصل ما بين العقاب الأخروي بإيكالها الرب عن الخطايا، ويخصّ نفسه بالتّشريع الذي يحرّم الأفعال ويقدّر لها جزاءاتها الدّنيويّة بحسب فداحة الضّرر أو جسامة الخطر؟
- هل سيتبنى الإنسان المسلم الفلسفات العقابيّة الحديثة التي هدف إلى إصلاح الجاني، ومحاولة إعادة تأهيله وإدماجه في المجتمع أم يريد أن يبقى على العقوبات الثأرية التي تسلب الإنسان كرامته وفي كثير من الأحيان أعضاءه ورأسه؟
- هل سيختار المسلم سياسات اجتماعيّة تقمع النّساء وتحتقرهنّ وتمنع عليهنّ حقّهنّ الكامل في الشّهادة والإرث والولاية؟ وهل ستبقى قطاعات عريضة من النّساء في خدورهنّ، منزوعات الآدميّة، فاقدات الأهليّة، وعالة على النّصف الآخر من الذّكور القوّامين. أم يريد أن ينهي حالة الدونية التي فرضها على المرأة وأن يقبل بمشاركتها في كلّ مناحي الحياة الإجتماعيّة والسّياسيّة حتّى يتمكّن المجتمع من التّقدّم والإزدهار؟ وليتذكّر الرّجال أنّ مجتمع القوامة الذّكوري لا ينتج غير طبقات من القوامة تنتهي بالدّكتاتور الأب القوّام على المجتمع برمّته.
- هل يريد الإنسان المسلم أن يقيم مجتمع الرعيّة فيضطهد المسلم غير المسلم والذّكر الأنثى والعرب غير العرب؟ أم يريد وطنًا ومواطنين سواسية في الحقوق والواجبات لا يتميّزون ولا يميّزون بسبب الدّين أو الجنس أو اللّون أو اللّغة وغير ذلك؟
- هل يريد المسلمون أن يشنّوا حربًا ضروسًا على العالم في سبيل إدخاله عنوة للدّين الحق وذلك بإيمانهم بأنّ الجهاد فرض إلى قيام السّاعة، أم يريدون أن يقيموا مجتمعًا متصالحًا مع نفسه ومتسامحًا مع الآخر، يؤمن بالتّعايش السّلمي بين البشر والتّعاون بين المجتمعات ؟

سنحاول تلمّس الإجابة عن هذه التّساؤلات من خلال تلمسّ الواقع وإرهاصاته. ونذكر على سبيل المثال واقعتين متناقضتين لهما دلالة بالغة :

الواقعة الأولى: هي إعلان القاهرة عن حقوق الإنسان في الإسلام. أغسطس 1990.

في هذا الإعلان يتبيّن بوضوح الرّفض المطلق لفكرة حقوق الإنسان، حيث تستهل ديباجته بالتّأكيد على الدّور الحضاري والتّاريخي للأمّة الإسلاميّة، التي جعلها اللّه خير أمّة، وينيط بالأمّة الإسلاميّة مهمّة هداية البشريّة الحائرة بين التّيارات والمذاهب المتنافسة، وذلك بتقديم الحلول لمشكلات الحضارة المادية المزمنة.

هذه الديباجة تبيّن بوضوح أنّ واضعي هذه الوثيقة يعزون إلى الإسلام امتلاكه للحقيقة المطلقة، وبمفهوم المخالفة يتبيّن من هذا الطّرح أنّ البشريّة إذا لم تُدِن بالإسلام، بقيت تائهة تتخبّط في ماديتها وتتناهشها الحيرة بين مختلف المذاهب والتّيارات. وهذا يعني في نظر واضعي الوثيقة الرّفض الكامل لكافة الأديان الأخرى وكافة الفلسفات التي تدين بها البشريّة والرفض الكامل لأيّ فكرة لا تنبع من الدّيانة الإسلاميّة، وهذا يعني الدرجة الصّفر للتّسامح.

وفي المادة الأولى فقرة "أ"

تفضي بأنّ البشريّة أسرة واحدة جمعت بينهم العبوديّة لله والبنوّة لآدم، وهذا يعني أنّ مئات الملايين الملحدة التي رفضت مظلّة العبوديّة لأيّ كان وكذلك الوثنيون والمقتنعون بنظريّة داروين هم مستبعدون من صفة البشريّة في الوثيقة الإسلاميّة.

ويمارس واضعو هذه الوثيقة لعبة الورقات الثّلاثة الخادعة عندما يعلنون في نفس المادة، أنّ النّاس متساوون في أصل الكرامة الإنسانيّة وفي أصل التّكليف والمسؤوليّة دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللّون أو اللّغة أو الجنس أو الانتماء السّياسي أو المعتقد الدّيني ويختتمون الفقرة بأنّ العقيدة الصّحيحة هي الضرورة لنموّ هذه الكرامة على طريق تكامل الإنسان.

فإذا رجعنا للديباجة رأينا أنّهم أقرّوا بأنّ العقيدة الصّحيحة هي الإسلام إذّ لا كرامة لغير المسلم وهذه نتيجة منطقيّة لمقدّماتهم. وتنصّ المادّة الخامسة مثلاً على أنّ الأسرة هي أساس بناء المجتمع، والزّواج أساس تكوينها وللرّجال والنّساء الحق في الزّواج ولا تحول دون تمتّعهم بهذا الحقّ قيود منشؤها العرق أو اللّون أو الجنسيّة. وهذا النّص تترتّب عليه التّفرقة بسبب المعتقد الذي سيبقى عائقًا في سبيل الزّواج المختلط وتكوين الأسرة، وسيبقى في تصادم كامل مع مبادئ إعلان حقوق الإنسان.

المادّة العاشرة تقول:

إنّ الإسلام هو دين الفطرة ولا يجوز ممارسة أيّ لون من الإكراه عل الإنسان أو إستغلال فقره أو جهله لحمله على تغيير ديانته إلى دين آخر أو إلى الإلحاد.

هذه المادّة تضمر بأنّ الإكراه لا يجوز أن يستخدم ضدّ أيّ مسلم لِيُغيِّرَ دينه باعتباره دين الفطرة، أمّا مُعتَنِقو الدّيانات الأخرى فيمكن ممارسة هذا الإكراه عليهم باعتبار أنّ أديانهم تَشُذُّ عن الفطرة وتحيدُ عنها.

والمادّة الثّانية والعشرون فقرة "أ"

تنصّ على أنّ لكلّ إنسان الحقّ في التّعبير بحريّة عن رأيه بشكل لا يتعارض مع المبادئ الشّرعيّة، ويستفاد من هذا النّص أنّ لا حريّة للإنسان الذي عبّر عن رأي يرفضه فقهاء الشّريعة، أي أنّ المحصلة النّهائيّة هي العبوديّة لله والتي يمارسها الفقهاء نيابة عنه على جماهير المؤمنين، وهو ما يعني أنّنا لم نتقدّم قيد أُنملة عن مفهوم الحريّة في عصر الإنحطاط.

أمّا المادّة الرابعة والعشرون فتقضي بأن كلّ الحقوق والحريّات المقرّرة في هذا الإعلان مقيّدة بأحكام الشّريعة وأنّ المادّة الأخيرة من هذا الإعلان تنصّ بأنّ الشّريعة الإسلاميّة هي المرجع الوحيد لتفسير أو توضيح أيّ مادّة من مواد هذه الوثيقة لذلك يكون هذا الإعلان الذي ولد مشوّهًا في ديباجته قد أطلقت عليه رصاصة الخلاص في تذييله، ولم تنتج هذه الوثيقة سوى خديعة كبرى كفانا واضعوها بهتك ما رتقوا من أسمال بالية.

الواقعة الثّانية :

الملاحظ أنّ أكثر البلاد العربيّة، باستثناء بعض دول الخليج، قد تبنّت بعد استقلالاتها قوانين عصريّة، مأخوذة عن الغرب،وكانت هذه القوانين لا تزال في أغلبها تحتوي على قدر كبير من الأفكار الحديثة المتأثّرة بمنجزات حقوق الإنسان وذلك مثل :

- شخصانيّة العقوبة
- عدم رجعيّة القوانين الجزائيّة
- محدوديّة القوانين من حيث الزّمان والمكان
- الحريّة الجِنسية النّسبيّة التي لم تحرم كل وطء غير شرعي خارج مؤسّسة الزّوجيّة.
- عدم تجريم أيّ سلوك أو إيقاع أيّة عقوبة إلاّ بنصّ قانونيّ.
- عدم تبنّي العقوبات البدنيّة على خلاف الشّريعة.
- اِحتكار الدّولة حقّ إيقاع العقاب والعفو عن الجرائم بدلاً من ولي الدّم.
- الأخذ في الإجراءات الجنائيّة والمرافعات المدنيّة بالمسطرة القانونيّة الحديثة بدلاً من وسائل الإثبات الشّرعيّة.
- الأخذ بنظام الفوائد المصرفيّة وعدم فرض الضّرائب إلاّ بقانون. وغير ذلك من الأفكار الحديثة في تنظيم المجتمعات، وكان مجال إشتغال الشّريعة الإسلاميّة لا يكاد يتخطّى

مدوّنة الأحوال الشّخصيّة التي بدورها طعمت ببعض المفاهيم الحديثة.بل وصل الأمر في مصر على سبيل المثال للنّص في الدّستور على حريّة المعتقد وذلك في النّصف الأوّل من القرن الماضي (دستور ١٩٢٣)

من هذا العرض الوجيز يمكننا استخلاص عدّة نقاط على درجة كبيرة من الأهميّة:

١- إنّ المجتمعات العربيّة تسير على سرعات مختلفة في مجال حقوق الإنسان والحداثة، لذلك يكون من العبث وضع كلّ الدّول العربيّة في سلّة واحدة، وهذا يعني بالضّرورة جعل اللّقاءات والمؤتمرات والنّدوات أكثر تخصصيّة في كلّ بلد على حده وعدم وضع القضايا المختلفة للمجتمعات العربيّة في بوتقة واحدة.

٢ - إنّ سيطرة البترودولار على وسائل الإعلام وعلى الحياة السّياسيّة والثقافيّة في العالم العربي كان من نتائجها فرض أجنده نكوصيّة على المنطقة برمّتها وهذا ما جعل الكثير من المفكّرين والإعلاميين في المناطق الأخرى يدخلون معركة ليست معركتهم ويناضلون من أجل حقوق قد أنجزوها من زمن بعيد، وتناسوا مشاكلهم القطريّة الحقيقيّة، من أجل الرّد أو التماهي مع فكر مبثوث من الفضائيّات ومطروح في مؤتمرات مموّلة من دول لا تربطنا معها قواسم نضاليّة مشتركة على أرض الواقع، فمشكلة المرأة التّونسيّة أو المغاربيّة عمومًا هي ليست مشكلة المرأة في بلدان الخليج الأكثر تخلّفًا.

٣- كانت المجتمعات المغاربيّة وكذلك بلدان مثل مصر وسوريا ولبنان تناضل من أجل تحسين مدوّناتها القانونيّة وتقليص الهوّة بين مثاليّة النّص وبؤس التطبيق، أمّا الآن فإنّ النّضال أصبح يأخذ منحى آخر، وهو القبول بالحداثة أو رفضها، تبنى شرعة حقوق الإنسان أو تحريمها.

نعم، كان هذا السّؤال مطروحًا حتّى في البلدان التي ذكرت من قبل فئات هامشيّة ليست لها أهميّة على المستوى الثّقافي أو السّياسي، أمّا اليوم فأخذت تتكاثر في مجتمعاتنا بسبب النّصرة والمال واحتكار وسائل التّعبير الجماهيري من دول البترودولار وكذلك بسبب انزلاقنا إلى أرضيّة معركتهم.

وفي الختام، يمكن أن نقول إنّ الشّعوب التي تعتنق الشّرائع القديمة المتعارضة مع شرعة حقوق الإنسان، لا تستطيع فقط تبنّي الدّيمقراطيّة، بل لا تشعر بالحاجة إليها أصلا.

إنّني قد عرضت من البديهيات والمسلّمات وما هو "معروف من الواقع بالضّرورة" الشيء الكثير، لذلك قد تكون هذه المداخلة مُسطّحة إلى درجة الملل ولكن عذري، هو أنّ كثيراً من المثقّفين والمفكّرين يحاول أن يلفلف الواقع برداء الخيال أو تلبس الحقائق مسوح الإلتباس، والبعض الآخر لا ينزع عن عينيه المنظار الأيديولوجي حتّى يرى الخارج بحسب أمانيه الباطنة، لذلك يصبح التّذكير بالواقع، مهما كان واضحا، هو عذري فيما كتبت وديدني فيما فعلت.

في الكتاب القادم من عراجين

علي مصطفى المصراتي يكتب

عن وثائق التأريخ الوطني الليبي

(المراسلات بين المجاهدين والمهاجرين)



في جماليات الرواية الليبية الحديثة[1]

عبدالحكيم المالكي*

حققت الرواية الليبية التي بدأت تحبو في الستينيات- من خلال أربعة أعمال روائية - نجاحا متميزاً علي المستوي التقني، و على مستوي التراكم العددي للمنتج ، ونحن نسعى في هذه القراءة إلي متابعة بعض الأعمال الروائية التي نحاول من خلالها التعرف علي جانب من المنجز الروائي الليبي فنيا وجماليا في خطابه وحكايته. وعلى مدى ما حققته الرواية الليبية من زخم على المستوى التقني والفني في الرواية العربية، وللكتابة الروائية في عمومها .

بدأت الرواية الليبية من خلال أعمال الروائيين القدامى، وكانت الرواية الأولى حسب رأي، "د. الصيد أبوديب " [2]، رواية "مبروكة" للكاتب "حسن ظافر بن موسى " سنة 1952م، وهي رواية تم إصدارها في سوريا، ثم تلتها أول رواية تنشر محليا، وهي رواية "اعترافات إنسان" للكاتب "محمد فريد سيالة" سنة (1961م)، والذي كان قد نشر أكثر من عمل روائي في الصحف الليبية في أواخر الخمسينيات آنذاك، واستمر التراكم، فكان

* ناقد وقاص.

هناك أربع روايات تقريبا في الستينات، وسبعة عشر رواية في السنوات الأربعة الاولى من السبعينات، ثم حدث نوع من العزوف عن الكتابة الروائية فكان عدد الروايات التي تم إصدارها في بقية السبعينات كلها، روايتين فقط، وعاد للكتابة الروائية نشاطها مع بداية الثمانينات، فصدرت في الثمانينات (22) رواية، أي ما يعادل ما تم إصداره من روايات فيما سبق تقريبا.

ومن هؤلاء الروائيين من استمر في الكتابة ومنهم من توقف، ومنهم من أوقفته الظروف وعاد بعد عشرين سنة تقريبا وكتب من جديد، كما نري مع تجربة الأستاذ" أحمد نصر" في السهل.

دخلت الرواية ليبيا إذن من خلال أعمال "محمد فريد سيالة".

وأدخلها "إبراهيم الكوني"، من خلال رباعيته المعروفة بخماسية الخسوف، إلي عالم الكتابة الملحمية، واستمر ينحت ملاحمه الروائية مثل المجوس والسحرة وغيرها.

من حيث توظيف تقنية تعدد الرواة كما يسجل، د. سمر روحي الفيصل[3]، أو تعدد الأصوات كما يراه، أ. أحمد الشيلابي[4]، تسجل هذه التقنية للأستاذ أحمد نصر، في روايته (وميض في جدار الليل) أي كأول رواية ليبية تتحقق فيها هذه التقنية .

ننطلق إذن لنتعرف علي الرواية ليبية من خلال مجموعة من الأدوات الإجرائية التي تداولتها بكثرة السرديات، لنحقق من خلالها رؤية علمية للرواية الليبية بعيداً عن العاطفة الوطنية أو الغيرة التي قد تدفعنا لتحميلها ما لا تحتمل، وستكون محاور حركتنا هي المحور الخطابي، والمحور الحكائي.

السرديات والتمظهرات الثلاثة للنص الروائي :

عرفت السرديات الخطاب بأنه النص في حالة تواصله الداخلي بين الراوي والمروي له، حيث يمثل الراوي تلك الشخصية الوهمية أو الحقيقية التي ينجز عن طريقها السرد، وقد يكون ذلك الراوي متكلما بضمير الغائب (هو) أو حاضرا بالمتكلم (أنا)، فيما يمثل المروي له تلك الشخصية الوهمية التي نتصورها داخل النص والتي يقوم الراوي بتوجيه خطاب السرد نحوها. وتمثل العلاقة بين الراوي والمروي له كما يلي :

الراوي الخطاب المروي له

فيما تمت تسمية المادة الحكائية الأصلية المنجزة ضمن الخطاب وهي في ترتيبها

الخطي (زمنيا) – والتي حقق من خلالها الروائي مادة خطابه الروائي تمت تسميتها بالحكاية والتي تنقسم لأربعة مكونات رئيسية :

حدث، شخصية، زمان، مكان

و تتعانق فيما بعد ضمن المستوى الخطاب لتحقق المظهر الجديد للنص، وجعلت التمظهر الخارجي للنص هو النص أو النصية ويمثل المادة النصية لخطاب الرواية في حالة التواصل بين القارئ الكاتب .

وفيه تتم دراسة علاقات التناص التي يحققها النص مع نصوص سابقة، كما تتم دراسة المناصات (العناوين والإهداءات والمداخل) كما يدرس المظهر الخارجي للنص المطبوع، أو ما يعرف بالفضاء الطباعي للنص. وتتم العلاقة في المظهر النصي للرواية كما يلي :

الكاتب النص القارئ

جماليات الخطاب الروائي الليبي :

قسمت السرديات، تمظهرات الخطاب الروائي التي يتم من خلالها مفصلته بغية تتبع أفاق الجمال في بنيته إلي ما يلي :

1 – الزمن . 2 – الصيغة السردية . 3 – التبئير .

ونحن هنا في هذه القراءة سنتابع الصيغة السردية، أحد تمظهرات الخطاب الروائي، وسيكون محورنا الثاني، هو محور الصورة والبنى التي تتكون منها وجماليات تكوينها في النص الروائي الليبي، والتي وإن كنّا نعلم أنها لا تندرج ضمن تمفصلات الخطاب الروائي العادية، إلا أنها مادة جيدة لبلوغ أفاق الجمال التي يمتلكها الخطاب الروائي، ولقد تركتها سرديات الخطاب، لطبيعة تكوينها ،ربما لأنها تتداخل مع تخصصات أخرى مثل الأسلوبية والبلاغة.

الصيغة السردية :

تمثل الصيغة السردية طرائق التعبير وتجلي الخطابات الشخصية . ولقد كان مفهوم الصيغة أحد أكثر المفاهيم تداولا منذ القدم، ولقد تمَّ تناول موضوع الصيغة من خلال السرديين ومن قبلهم عبر عدة تشكيلات، كان يسيطر عليها غالبا مفهوم، الأسلوب التمثيلي والأسلوب السردي ثم الحوار والسرد ، وتنقسم حسب "سعيد يقطين"[5] الذي ننطلق في مقاربتنا هذه منه إلى صيغ رئيسية كبرى ثلاثة وهي:

صيغة الخطاب المعروض، صيغة الخطاب المسرود، صيغة الخطاب المنقول.

أولاً / صيغة الخطاب المعروض : هي تلك الصيغة التي تمثل فيها الشخصيات أدوارها عبر الحوار وتنقسم لثلاثة أنواع :

1 - الخطاب المعروض المباشر: وهو الذي يتم فيه الحوار المتكامل بين الشخصيات دون تدخل السارد أو الراوي المنظم للحوار، وهو ما يحدث في الحوارات المسرحية عادة.

2 - الخطاب المعروض غير المباشر: وهو يمثل صيغة الحوارات الحادثة بين الشخصيات ولكن مع وجود الراوي المنظم لعملية الحوار بين الشخصيات، فنجده يتدخل وينظم الحوار بدرجات مختلفة ومتباينة .

3- صيغة الخطاب المعروض الذاتي : وهي تلك الصيغة التي تعبر فيها الشخصيات عبر كلامها لذاتها مع اشتراط أن يكون زمن الكلام (النحوي)، الزمن المضارع وهو ما كان يعرف سابقا (بالمونولوج الداخلي)، وتختلف عن صيغة المسرود الذاتي التي سنأتيها لاحقا من حيث الزمن، حيث الزمن المستخدم هناك هو الماضي (مع أن الصيغتين يمثلان ما كان يعرف سابقا بالمونولوج الداخلي) .

ثانياً / صيغة الخطاب المنقول : وهي الصيغة التي يتم فيها نقل كلام أو حوارات شخصيات أخرى وتنقسم لنوعين :

1 - المنقول المباشر: وفيه يتم نقل الكلام أو الحوار مباشرة دون أي تغيير من الناقل .

2 - المنقول غير المباشر: وفيه يتم نقل الكلام والحوار مع تغيير أو تنظيم من قبل الناقل .

ثالثاً / صيغة الخطاب المسرود وتنقسم لنوعين:

1 - صيغة الخطاب المسرود : وفيه يقوم الراوي بسرد أو وصف أشياء ضمن نسيج النص، ولا نهتم في هذه الصيغة بالزمن وإنما بالراوي القائم بعملية السرد وهي الصيغة الأكثر شعبية واستخداما.

2 - صيغة الخطاب المسرود الذاتي : وهي الصيغة التي تتكلم فيها الشخصية لذاتها ويكون زمن الجمل (النحوي) الماضي، وهي تشبه لحد كبير صيغة المعروض الذاتي، ولكن تختلف عنها في كونها تؤسس عندما تحدِّثُ الشخصية ذاتها بالزمن الماضي .

ولقد كانت الرواية في بدايتها تعتمد علي السرد، بشكل أكبر، ثم مع الدعوات التي

ظهرت في بداية القرن الماضي، بدأت تتحول أكثر نحو الحوار. حتى ظهرت روايات مكتوبة بصيغة عرفت بالأسلوب التمثيلي الكامل، أو ما تعرفه السرديات حديثا بالمعروض المباشر. ثم حدثت عودة للسرد من خلال دعوات جديدة في منتصف القرن الماضي تدعو للتكثيف في الكتابة، وتحول الوصف من ملء خانات من الورق لا معني لها لجزء من تكوين الشخصيات، وحدثت عودة للسرد كأسلوب، وللغة المكثفة كنهج.

إبراهيم الكوني والصيغة السردية :

مع إبراهيم الكوني وعمله "واو الصغرى" نلحظ تطويرا جديدا في الرواية، (قدر علمي)، ولقد حاولت من خلال بحثي المتواضع أن أجد من يماثله في كتابتنا العربية أو العالمية فلم أجد .

فما هو الذي قدمه إبراهيم الكوني في جانب الصيغة السردية من تطوير ؟.

في "واو الصغرى" يستخدم إبراهيم الكوني، صيغة الخطاب المعروض غير المباشر، أي إننا أمام حوار يؤطره راو. سنلحظ من خلال النصوص المتقطعة كيف أن الحوار يقطعه الراوي الذي يقوم من خلال عدسته برصد حركة المتكلمين، ويرصد انفعالاتهم من خلال حركات أيديهم، أو بعض التصرفات (التشبيرات) الأخرى . ولنتابع هنا في المرحلة الأخيرة من النص (سيرة 13) عند لقاء الحفَّار بأكابر القبيلة، وهم قادمون لطلب معونته في حفر البئر، الراوي هنا يرصد فعل الحفّار وهو في تماهٍ كاملٍ معه، إنه يصف بين الحوارات حركات الحفَّار و ينطلق ليطرح أمامنا من خلال حركاته حالته النفسية والشعورية .

إن الحوار ينشأ بين أكابر القبيلة و الحفار:

(ازداد انكفاءً. طأطأ حتى لامس رأسه المدلّى صدره، ودبت أصابعه ترسم في كتاب الأرض الإيماء، حفر الأخاديد بالسبّابة، وطبع بجمع الأصابع آثار الكائنات. رفسة حصان، بصمة ذئب، دبيب جعلان، زحف متعرج لحية)

قال أغوللي.....

توقف عن بصم الأرض. امتدّت الأنامل تجمع حبيبات الحصباء.....

ويرسم بالجوار العلامات.)[6].

ثم بعد مسافة وفي ذات الحوار نلحظ ما يلي :

(حدج أهلوم بنظرة خفية. في عينيه الصارمتين ومض بريق ولكنه انكب على العلامة من جديد، اختار من الكوم الحبيبات البيضاء)[7].

إننا كما نرى من خلال المستقطعات السابقة، أمام عملية تصوير ينعكس من خلالها لدينا الحالة النفسية التي عليها الشخصية أثناء الحوار، بدل استخدام الطرائق العادية في الوصف مثل :

قال غاضبا، ورد بعنف، وقال بفرحة ......

من حيث الصيغة السردية المستخدمة، فإن "إبراهيم الكوني" يميل غالبا إلي الصيغ غير الذاتية، أي إنه لا يميل كثيراً لاستخدام ضمير المتكلم في الروايات التي رأيتها ،" واو الصغرى"، "نزيف الحجر"، "التبر".

أستخدم ضمير المتكلم، والصيغة الذاتية في رواية "واو الصغرى"، عندما ترك الفرصة للمدية، أن تتكلم في السيرة المعنونة باسمها. (ولدت مملوكة ككل كائن في الصحراء، سر وجودي يكمن في نصلي) [8].

أحمد نصر والصيغ السردية :

استخدم أحمد نصر في السهل[9] ضمير الغائب وكانت الصيغة الذاتية غائبة غالبا، وقام بتعويضها من خلال الدخول للشخصية والتماهي معها وطرح وعيها عبر الراوي المجهول مثلما سنرى هنا :

(هذا ميعاد خليل عثمان، ولكن الجو خامد يوحي بخلف المواعيد وتوقع المفاجأت، وحسين لا يدري ما حدث البارحة بالظبط وماذا يترتب على ماحدث الليلة، وديانا كما يبدو ليست موجودة، ربما تكون طرفا في التحقيقات)[10].

إننا نرى أنّه برغم عدم وجود الصيغة الذاتية إلا أن الراوي تدخل وأخذ يناقش أمامنا ما ينثال في ذهن الشخصية "حسين"، وهو ما يعرفه البعض بالتماهي بين الرواي والشخصية كما تواجدت بالطبع الصيغ غير الذاتية الأخرى (حوار معروض مباشر وغير مباشر) .

أحمد الفقيه والصيغ السردية :

في ثلاثية[11] أحمد الفقيه نجد الحضور الأكبر للصيغ الذاتية، وذلك لأن الرواية تسرد بضمير المتكلم. ويتخللها الحوار .غابت صيغة الخطاب المسرود وذلك لعدم وجود ضمير الغائب.

استطاع احمد الفقيه من خلال مجموعة تقنيات أن يضفي علي ضمير المتكلم خلخلة فنية، وأن يخرجه من العادية التي يتميز بها، وهو ما سنتحدث عنه بعضها فيما بعد. كما

أن لغته الثرية، وحدة احتدام الوضع النفسي للشخصية، جعلا معا من العمل، متميزا .

في حقول الرماد[12]، لذات الكاتب نجد أمامنا ضمير الغائب مسيطراً، مع تعدد الشخصيات وتباين رؤاها ومواقفها، حاول أحمد الفقيه من خلال تعالي الوتيرة الدرامية للحدث، أن يرفع من نسق الخطاب، كما حقق راويه مستوى جيداً من التماهي مع الشخصيات التي ينطلق منها.

محمد الأصفر والصيغة السردية:

في "المداسة"[13] لمحمد الأصفر نجد توظيف الصيغة الذاتية وبقوة، وهي الصيغة الأكثر تفضيلا لديه، فماذا فعل محمد الأصفر لكي يخرجنا من مزلق الصيغة الذاتية؟ .اشتغل محمد الأصفر باقتدار على نسقين من الكتابة في عمله، الكتابة عن اليومي والعادي والسطحي والقريب وبلغة قريبة وسهلة، ثم الانتقال من خلال شخصية المتكلم المتشظية، إلي لغة شعرية أقرب من حيث جنسها- إلي ما يعرف بقصيدة النثر اليوم . ولنتابع هنا بعضاً منها :

"يقظة طازجة في انتعاشات اليراع ..
نبضاتنا جثة لا تحتويها التوابيت
عيون القراء دود ونمال
قلوبهم أخطام وأفكاك ومراشف
مائدة نحن لمن يرانا ..) [14]

سيستمر "محمد الأصفر" بذات الأسلوب المستخدم في رواية "المداسة" في روايته الثانية، "تقودني نجمة[15]، وفي نصه الثالث " نواح الريق"[16] .

عبدالله الغزال والصيغة السردية :

لعل لرواية "التابوت" [17] "لعبدالله الغزال" السبق في استخدام كافة الصيغ السردية بانتظام، لدرجة أن صيغة الخطاب المنقول، التي تستخدم عادة في شكل بضعة سطور، حضرت في العمل في شكل (12 صفحة)، حيث تمَّ نقل حكاية قديمة كانت تتسلسل من خلال وعي أحد الشخصيات، ويكاد القارئ لولا كلمات النقل المعهودة أن يتصور أنه في صيغة الخطاب المسرود .كما أن عبد الله الغزال حقق من خلال نوع الصيغة السردية المستخدمة فصلا بين الشخصيات الرئيسية الأربعة في عمله، وهم كما يلي :

المتكلم (وهو الشخصية الأكثر حضوراً في العمل) ولم نتعرف على اسمه. واستخدم له الصيغة الذاتية (ضمير المتكلم) وكان يتنقل باستمرار بين المعروض الذاتي والمسرود الذاتي و تميز المتكلم عن غيره من الشخصيات بصيغتي (المعروض والمسرود الذاتي، واللتين ليستا إلا تنويعاً لما عُرِف بـ (المونولوج الداخلي)، ونتاجاً لهذا الاختيار ولكونه المتكلم الوحيد لذاته، صار هو الشخصية الحاضرة والدائمة الفعل ضمن الخطاب الكلي للرواية، ولقد تضافر حضور المسرود والمعروض الذاتي مع الوصف المستمر لحالة الفضاء المكاني (الشمس والرمال، والمدينة، والبيت وبتول النائمة).

ولنتابع هنا من خلال المستقطع التالي حسن توظيف الكاتب لصيغتي المسرود والمعروض الذاتيتين. ص 4.

1 - فلول الأشجار المحيطة بالسور بدت مهزومة. انحنت قاماتها. بدت من بعيد منكسرة متألمة تحت عذاب سطوة الشعاع المذاب. على رؤوسها تنسكب شلالات من الأذى والوميض. وأطلال مباني المدينة البعيدة المتغلغلة في قوس السماء الطالة من فوق السور يراقصها السراب اللامع والريح الميتة. كانت عالية وضئيلة. (2) تشاهدنا من بعيد. تشاهد هذا التألق الأسطوري، وهذا الألم النهاري المنصب والذهول)[18].

إنّ الخطاب في (1) يتم بواسطة صيغة الخطاب المسرود الذاتي حيث زمن الأفعال هو الماضي، ولننتقل لنجد في (2) أن الصيغة المستخدمة هي صيغة المعروض الذاتي حيث زمن الجملة هو المضارع .

إنّ المعروض الذاتي جاء كما نتابع من خلال المثال، ليؤكد من خلال الفعل المضارع استمرار المشاهدة وهو ما يؤكد حقيقة ما ينهال على رؤوس أولئك الواقفين في الشمس، إننا هنا أمام توظيف جيد لصيغتين، يتحقق من خلاله إبراز لمكامن الشخصية .

الشخصية الثانية في رواية التابوت :هي شخصية "بشير" والتي استخدمت معها صيغتي المنقول بنوعيه (المباشر وغير المباشر)، وصيغة الخطاب المسرود . تميز بشير بصيغة المنقول، حيث تم معه نقل ما يزيد عن (12 صفحة تقريبا) وانعكس لدينا من خلال ذلك بعده الشخصي .

الشخصية الثالثة "زيدان"، حضر من خلال الخطاب المسرود مع تماه عميق بين الراوي وبينه، وسيلحظ أي قارئ ،أنّ الراوي غالبا وهو يؤسس تلك الشخصيات، كان قد أستخدم

قاموسا لفظيا خاصا يتناسب مع كل منها فنجد مع "زيدان" اللفظ والتعبير الصوفي والروحي، ومع "بشير" اللفظ والتعبير الجسدي الذي يتناسب مع طبيعته النارية، ومع المتكلم اللفظ والتعبير التأملي الفلسفي.

الشخصية الرابعة "جمعة" : والتي كانت ترصد من قبل الشخصيات الأخرى، ومن خلالها تنتقل إلينا نحن كقراء. حيث لا نري تفاعلا مباشرا بين الراوي و"جمعة" وإنما من خلال باقي الشخصيات ورؤيتها له أو تصورها لمقاصده.

جماليات الرواية الليبية من خلال تقنية الصورة الروائية :

لعل مصطلح الصورة أحد أكثر المصطلحات تداولاً، سواء في الأدب العربي القديم أو في الآداب الأخرى ونحن بالطبع لا نعني مفهوم الصورة البلغية التي تداولتها الأدبيات العربية، وإنما ننطلق للصورة المشهدية التي ينتجها الروائي من خلال عمليات تشخيصه ووصفه للأحداث والأشياء . ذلك المشهد الذي قد يكون ثابتا أو متحركا، خياليا او حقيقيا.

الصورة لدى إبراهيم الكوني :

يعتمد إبراهيم الكوني في روايته واو الصغرى والمجموعة التي صدرت في المدة الزمنية المقاربة [19] على الكثافة اللفظية غالبا وذلك من خلال تركيزه عدسة الخطاب على شئ محدد، ثم البدء من خلال الوصف المتناسل في تشخيص ذلك الشيء، بقوة اللفظ والعبارة المتناصة عادة مع الديني والمقدس والمطلق، ولننظر هنا لهذه الصورة لعقد الرتم في واو الصغرى.

(أنحنت لتتفقد الجدائل الخفية ،فتنفس الزهر الخفي وجهها ..ولا يتبدى من القِران سوى نثار زهر لميس، يوحي بكيان مخلوق مغلوب، يستدير الكيان في انحناءة قوس مزموم). نلحظ كما سبق أن أسلفنا كيف تتالي المكونات الجزئية في الصورة التي يرسمها إبراهيم الكوني لتحقق في مجموعها كيانا كلياً، أو شيئاً (بالمعني الذي يقصد صلاح الدين بوجاه)[20] وعبرت عنه سيزا قاسم [21].إن إبراهيم الكوني وهو يشتغل بفن علي وعي شخوصه، ويحركهم ينطلق في ذلك من خلال لغته الثرية وقدراته الفذة، ويستخدم فعالية التناص في اللفظ، ليحيله (أي اللفظ) لفاعل هو ذاته ،أو ضخه بقدرة فعل تتجاور مع قوي الفعل الجرس اللفظي ذاته، ليتحقق له من خلال ذلك السيطرة علي متلقيه وبث ما يريده هو ككاتب خلف راويه وعبره، من الملاحظ، أنَّ إبراهيم الكوني يستخدم الوصف، ليحقق به أغراض غير العادية، أي أن الوصف سواء كان منعزلا، أو مندسا داخل صورة متحركة او ثابتة، يعبر وبقوة عن وعي الشخصيات.

الصورة لدى أحمد الفقيه:

يعتمد أحمد الفقيه في الثلاثية هو أيضا على مخزونه اللفظي المتميز، فينطلق راسما عبر شخصيته خليل الإمام صور غاية في الجمال، ويعتمد أحمد الفقيه في اشتغاله علي الربط بين الشخصيات و الفضاءات المكانية، فيختلف الفضاء المكاني باختلاف الشخصية. والتي يقوم خليل الأمام برسمه، فيتحول في حالة معشوقاته أو الإناث التي يعاشرهن، إلي معبد أو زاوية يتعبد فيها ،وقد تكون صورة عن جنة خضراء وكون من جمال، فيما يتحول مع الشخصيات البغيضة، لصحراء وعطش ومطر.

ولنتابع هنا وصفه لجسد الأنثى (....ومع هذا الخط المستقيم وتجاوره دوائر وقباب وانحناءات ....أطوف بها مسلوب الإرادة كالدراويش)[22]. إننا من خلال المقطع السابق ندرك وصف الروائي للجسد كضريح او كزاوية يتعبد ولنتابع وصفه لأنثى مدينة الحلم

(فيتحول بها الجسد كبستان إلهي مثقل بفواكه الجنة، أتجول بين جداولها وأشجارها وأشرب من خمر رضابها وأنتشي بموسيقي الفجر فيها.)[23] ونلحظ هنا أن الربط بين المكاني والشخصي قد تمّ بإضافة بعد روحي من خلال التعبد والتبتل وذلك لخلخلة مكون التلقي الطبيعي لدى القاري وبغية أسطرة هذه العلاقات الخاصة من خلال طرح حالة الانشداه والتعبد من الشخصية (خليل الإمام) في الجسد.

الصورة في رواية التابوت لعبدالله الغزال :

يتحرك الكاتب في روايته التابوت من خلال كل إمكانيات الصورة الممكنة[24]، فهي تتحرك بين الأطياف الأربعة المعروفة :ثابت ومتحرك، وواقعي وخيالي.

ولعلي من خلال بحثي المتواضع في الرواية العربية أجد أن التابوت هي رواية الاشتغال علي الحواس[25]وبقوة علي الوجه التالي :

بصري: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

سمعي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

لمسي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

شمّي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

تذوقي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

فماذا يعني الاشتغال علي الحواس؟، وما الذي قدمه كاتب التابوت في روايته؟ .

ذلك ما سنحاول أن نشرحه من خلال المستقطعات التالية :

المقطع (1) : – هذا مقطع من الصفحة الأولى في الرواية يعبر من خلاله الشخصية المركزية (المتكلم) عن حدة ما يعانيه وهو يستعد للسفر فيشخص كل المحيطات به من الأصوات معبراً من خلالها عن حدة قلقه وقرفه وضيقه بطريقة غير مباشرة.

(اتخذت الفوضى سبيل الركود. خرق الركود زئير تصاعد. دمدمة خارقة كأنها خرجت من جوف العدم. تدافع صداها في المكان. بعثر طبقات السراب المتألقة. اختلط مع الأزيز المكتوم المتقطع القادم من الطريق السريع البعيد حيث تلهث الشاحنات الثقيلة العابرة)[26].إننا من خلال المقطع السابق والشخصية (المتكلم) يصف صوت الطائرة وهو يبدأ في الهدير، يختلط (حسب وصفه الخيالي) ويقوم ببعثرة السراب البعدي المتخيل، ويختلط في آخر الأمر مع الأزيز المكتوم المتقطع للشاحنات البعيد.

إن كل الصورة السابقة من خلال اشتغالها على حاسة السمع واستخدام قوى الخيال وألفاظ خاصة تعكس لنا وبقوة الفضاء الداخلي للشخصية وهي في قمة توترها. فندرك من خلال (الأزيز المكتوم، الزئير المتصاعد، الدمدمة الخارقة) ندرك حدة ما تعانيه تلك الشخصية دون مباشرة عادية الطرح.

المقطع (2): وسنتابع هنا المقطع التالي للمقطع السابق حيث يصف المتكلم الطائرة المتحركة والتي سبق أن ركز على بدايات صوتها وفعلها في المقطع الأول، يحولها هنا من صورة حركة طائرة عادية عبر قوة الخيال لتصوير أسطوري أو عجائبي.

(دار الطائر المحنط بجناحيه المفرودين الجامدين دورات بطيئة ثم شرع يلهث. جرى على سطح الإسفلت المتماوج بالأشعة. ارتفع رأسه ثم اخترق الفضاء كطائر خرافي. وضاع لونه في لونها ثم أقلعت أخرى ...)[27].

إن صورة الطائرة السابقة تعكس وبقوة حالة الشخصية وموقفه من السفر ككل ومن حركة الطائرة على وجه الخصوص، فهي طائر خرافي يلهث على الإسفلت المتماوج بالأشعة. يرتفع رأسه ويخترق الفضاء، أي إننا هنا من خلال تضافر الوصف والصورة تنعكس لدينا مواقف الشخصية وحِدة ما تعانيه، مما يعني توظيفا متميزا للوصف، خارج نطاق الوصف القديم .

تنعكس إلينا كصورة بصرية مختلفة دعمت بتشخيص خيالي باعث للدهشة والانفعال وعاكس لفضاء شخصية المتكلم وحالته النفسية المتوترة.

المقطع (3): ولنتابع هنا حالة الشخصية في نفس بداية الرواية وهو يعكس لنا من خلال حاسة اللمس المزيد من بعده الداخلي، يعكس لنا ما تتلقاه حاسة اللمس لديه لتزيد من رفع وتيرة التفاعل التي يريدها منَّا كمتلقِّين معه كشخصية:

(... أفقت محزوناً مرهقاً، شعرت بخشونة الجدار الخشن المحبب في ظهري. لا شك أن حبيبات الطلاء الصلبة تركت حفراً صغيرة بحجمها وبشكلها الهرمي في صفحة ظهري كله. أبعدت ظهري عن الحائط. شعرت بالحبيبات تنسل خارجة من جلدي ...)[28]

مع حاسة اللمس و"المتكلم" كشخصية يضعنا في بعده الشخصي وأفكاره الخاصة نندمج أكثر وأكثر في بعده الشخصي ونصبح أكثر قرباً من عمق عمقه والذي يعيش حالة اغترابية مستمرة.

المقطع (4) :هنا نتابع وصفاً خاصاً لأحد صباحات "زيدان"، أحد الشخصيات المركزية في العمل، أحد صباحاته داخل حقله، إن الصورة التالية والمكونة من تشخيص على عدة حواس جاءت لتضعنا في البعد الشخصي لزيدان الشخصية المتدينة والعاشقة بقوة للأرض والوطن.

أ) تسري في جسمه برودة الصباح.

ب) ويتشمم الماء.

على ضوء القمر والنجوم البعيدة يراقب الماء.

وهو يخرق السكون والصدوع الصخرية المخضرة [29].

نتابع كما رأينا من المقطع السابق كيف تضافرت في التشخيص أو الوصف السابق الاشتغال على مايلي:

تشخيص على حاسة اللمس في (أ) ثم على حاسة الشم في (ب) ثم على حاسة البصر في (ج) ثم على صوت الماء وحاسة السمع في (د).

إننا من خلال تضافر الاشتغال على الحواس السابق ندرك بطريقة أكثر تحققاً كيف يتفاعل زيدان ومحيطه الطبيعي في الصباح، وتنعكس لنا أبعاده الداخلية الشخصية.

المقطع (5) : ولنتابع هنا كيف يتضافر مجموعة من التشخصيات على الحواس غير البصرية لتحقق مرادات الكاتب-:

أ) أجريت يدي على وجهي ألفيته خشناً. كان ملمسه مثل ملمس الفرشاة المعدنية التي

أكشط بها الصدأ عن قطع الحديد في الورشة.

ب) عمر الشعر النابت على وجهي يوم واحد فقط.

ج) أطلق باب الحمَّام صريراً خفيفاً مثل صوت لعبة الأطفال.

د) واشتم أنفي رائحة ملابس وسخة وعطر صابون وعبق ماء كماء البرك الآسنة.(30).

إننا نتابع هنا شخصية الرواية الرئيسية وهو يصف مشاعره قبل ممارسته حلاقة الوجه. اشتغل كمتكلم من خلال اللمس في (أ) ثم الخبر في (ب) ثم من خلال حاسة السمع في (ج) ثم من خلال حاسة الشم في (د). إن كل ذلك سيخلق تضافراً ينهيه الروائي بصورة بصرية لعملية حلاقته.

المقطع (6): ولنتابع هنا تتالي ظهور الاشتغال الحواس بشكل منظم من خلال الراوي الذي يصف شخصية، الشخصية المتدينة الملتزمة، إن الراوي هنا يتماهى مع وعي زيدان وينطلق ليصف في جمال علمية الخصب والنمو والمطر:

أ) هذه هي الحقيقة التي تجعل السحب تعصر بطونها بالماء المقدس ليغسل سطح الأرض.. تتمايل المروج ...

ب) وتغرد الطيور في الأحراش على...

ج) نثار عبير الأشجار المزهرة ونسائم الأصائل...

ويشقق الماء المعين جلاميد الصخر...

هـ) يخرج مغرداً بأغنية أخرى متجددة من تجليات الإله العظيم.. تمد أغصان الزعتر أعناقها الخضراء الرقيقة...

و) وتلتحم مع عبق أزاهير الشيح والريحان...، (31)

إننا كما نرى تقريباً تشخيص على الحواس منظم:

أ) بصري متخيل.

ب) سمعي.

ج) تشخيص على حاسة الشم.

د) بصري جديد (متخيل).

هـ) سمعي متخيل.

و) تشخيص على حاسة الشم.

(كانت الساحة الإسفلتية ساكنة سكوناً وحشياً. تستقبل وابل الصيف خاشعة ذليلة. وينبثق من سطحها المكسو بالحصى الشرس دخان خفي يتلاعب به الهواء المخنوق الراكد وتصفعه موجات الضجيج)[32].

إن الشخصية هنا المتكلم يعكس لنا من خلال وصفه، صورة وطأة الشمس والصيف على سطح الساحة. ويكاد يجسم حالة سطحها في تصور لمسي منعكس عن رؤيته لها. فكلما يشتغل على الحواس معكوس.

فالساحة الإسفلتية ساكنة صامتة. وهي تستقبل الوابل على سطحها (سطحها خشن مكسو بالحصى الشرس. والضجيج يصفع الدخان المنبعث من الساحة المخنوقة).

مجموعة من الصور التي تعكس وعياً حواسياً متخيلاً من خلال ملفوظات منتقاة متميزة تعبر أصدق تعبير عن حالة الشخصية المتوترة أثناء لحظة السفر.

خلاصة :ندرك من خلال بعض المستقطعات السابقة حدة الاشتغال في رواية التابوت على الحواس المختلفة وتضافرها، وأؤكد هنا أن اختيارها تم لعمل هذه القراءة فيها من خلال مقارنتها بالعديد من الأعمال الروائية لكبار روائيي الحساسية الجديدة العربومن خلال كل ما سبق تحقق لدينا التشخيصات النوعية التالية:

خمسة تشخيصات على خمسة حواس تتحرك ضمن أربع فرص من خلال محورين:

بصري: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

سمعي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

لمسي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

شمّي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

تذوقي: ثابت أو متحرك / واقعي أو خيالي.

كما أن كل التشخيصات على الحواس السابقة قابلة لأن تحدث بشكل عكسي. أن يتصور الراوي أو الشخصية التي تتكلم ملموسات داخلية أو حركة شيء يلمس سطحاً غير جسده وخلافه. إن كل تلك الحواس قد تحضر منفردة كما رأينا في المقطع الأول أو متضافرة في تشكيلة من عدة حواس كما رأينا في المقاطع التالية.

تقنية الصورة في رواية المداسة لمحمد الأصفر -:

تختلط – كما سبق أن تحدثنا في الصيغة السردية تختلط، في كتابة محمد الأصفر الكتابة التسجيلية اليومية السريعة، مع شعرية أقرب لشعر النثر، عبر لعبة سردية جميلة، وتعتمد الصورة التي يشكلها على رموزه أو فواعله المنثورة داخل قصائده، السواد والبياض، النور والظلام، القذارة والطهارة، إن كل هذه الفواعل هي مادة لطرح تشظي، الذات والتعبير المستمر عن حالة القلق التي تعيشها:

(1): في عالم السواد النور ظلام.

وإذ تدخله نفضل أن نكون مغمضين.

داخل إغماضاتنا سواد منير.

سواد وسيم. داخل إغماضاتنا حلاوة لا نحتملها.

حدودنا قذرة مهما نغسل فسيظل المصعر مكباً..!

هل صحيح المسعّر مكب!

٢/ استغرقتنا الأحداث السريعة والمفاجآت المتلاحقة.

لا وقت للأسئلة في أزمان الرحيل، هو مثلي...)**(1)**.

إننا في (1) أمام تداعي الوعي لدى الشخصية يطرح عبر اللغة الشعرية ثم ننتقل في رقم (2) من جديد في مرحلة بين الشعرية والتسجيلية اليومية. ولنتبع هنا رقم (3)من خلال هو مثلي، حيث نجد أنفسنا في سرد عادي والذي ستنطلق فيه الشخصية معبرة عن هاجسها كما يلي: (هو مثلي لم يحاول معرفة أكثر مما بُحت به ....). وينطلق مع هواجسها التي تتداعى عبر الصيغة الذاتية.

يتناوب حضور الصورة النثرية في رواية المداسة مع التطور الدرامي للأحداث، وتأتي لتحقق ما يلي :

1 – طرح تلك اللغة الهامشية والانسحاق والألم التي يرغب الروائي عبر شخصياته في طرحها.

الإنتقال للماضي، فتتحول الصورة الشعرية كترميز بليغ عن الأزمات التي تعيشها الشخصية .

ولنتابع هذا النص، بين الشخصية الرئيسية "محمد" ورفيقته "قدرية"، وهي تطلب منه

أن يحكي لها عن ماضيه، أو عن ذلك الشيء الذي جعل منه تائها في بلاد الغربة :

(–حاضر يا قدرية، ولن أحكي للأيام التي بدونك ..للمحققين، سأحكي سأموت سأ سأ سأ ..! :

هكذا هي الأيام خبّاءة. هكذا هو الزمن سافر. أبصاري لا تستقبل النتوءات .. والابتسامات غارقة في شفافية الانبساط ...هكذا هي الأيام خباءة .)[33]

إننا سنستمر متابعين عبر لغة مشابهة وترميزات متتالية، ما يندس في تلك الذات وهي تطرح الماضي في ترميز جميل.

البكاء علي المفقود ورفع وتيرة الحالة الدرامية لخطاب الرواية ولنتابع هنا الشخصية الرئيسية محمد في أيام سجنه متهما بقتل زوجته ،روهو يتذكر ابنته امال و يبكي علي زوجته المقتولة "قدرية "والتي لم ترضع أبنتها الوحيدة غير رضعة واحدة، ماتت بعدها :

(وعانقتني وقبضتاها تضربان ظهري بشدة ..بكيت معها و هامستها ..أنت صلالتي .. أنت مملكة رذاذي..لُبانة عمري امضغيني الآن .. واصنعيني فقاعة لا فم لها غير فمك الباسم قاتلي.. ..ما أتعس الأثداء المرضغة لمرة واحدة لا غير ..مسكين فم أمال ..ستلومه هشاشة العظام القادمة ..ستصفه بالنبع الخرب ..بالمنجم الناضب ..الحليب جف في ثدييها..رضعه دود الأرض..جف اللحم ..تترب.والنخاع تسلل سائحا تركا المفاصل لطواحن الزمن البطيئة)[34]ونرى من خلال المستقطع السابق توظيف الفواعل والأشياء المنثورة سابقا في النص :

كصلالة (المدينة العمانية) موطن "قدرية " زوجته التي يبكيها، والرذاذ واللبان وهما من الأشياء التي أشتغل عليها الخطاب فتحولت ضمن النص لقوى فعل تدعم الشعرية من خلال إعادة توزيعها داخل نسق الخطاب، كما أن اللبان، مندس ضمن البنية العميقة للشخصية العمانية (شخصية الزوجة قدرية)

كما انطلق متحدثا كعادته عن الموت والألم وصورة الدود وهو في قلب الحمى ينتقل لأمال إبنته اليتيمة والوحيدة في دار الأيتام والتي تنمو دون حليب الأم ثم يعود لزوجته الميتة "قدرية" مصورا جسدها في قبره ومتحركا في أرضية الدور وسيل النخاع وجفاف اللحم وطواحين الزمن .

تأتي الصورة الشعرية كعلامة أو لتلميح لما سيحدث مستقبلا، بحيث يجهز المتلقي

فطريا ومن خلال لغة الرمز لحضور الفاجعة الحاصلة، ومن أمثلته ما حصل قبل حدوث الانفجار في (11 سبتمبر) عندما تحول المنظور الروائي لوعي خطيب أمال، وأخذ يطرح عبر لغة الرمز البعد العميق للحدث (الحياة في الشارع عادية .. في الكون عادية ..أوراق أخري سقطت من التوتة وداسوها الدوّاس.وتلاشت في الزحام الغفير وطحنت مواد خام للدوارة ..طائرات في الجو أصوات انفجارات ..قرن ينكسر ..يليه القرن الجار ..لا يستندان)[35]

إن الشخصية المتكلمة ومن خلال ذات اللغة الشعرية ستستمر في رسم صور مفاهيمية متتالية، تتكون من مقاطع بينها فراغات (نقط) وتندس فيها تلك الأشياء والفواعل التي فعّلتها مادة الخطاب الروائي فيما سبق . ترمز من خلالها لأبعاد الحادث وللصراع الدولي ولأزمات العالم، فتطرح من خلال اللغة الشعرية والمشهدية رؤية تلك الشخصيات لكل تلك الأحداث، وهو ما يقترب بلا شك رؤية الروائي المندس خلفهم .

هوامش:

1 - محاضرة أعدت كأحد فعاليات ليالي رمضان بمدينة مصراتة، والتي يشرف عليها فرع اتحاد الكتاب بالمدينة.

2 - د.الصيد أبوديب ، مجلة الفصول الأربعة ، عدد 82 ، مقال بعنوان "معجم المؤلفات الليبية "

3 - سمر روحي الفيصل ، نهوض الرواية الليبية ،ص141، (نقلاًعن ، أحمد الشيلابي ، القضايا الأجتماعية في الرواية الليبية .

4 - أحمد محمد الشيلابي ، القضايا الإجتماعية في الرواية الليبية .ط.1،2003.م ص91.

5 - سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، المركز القافي العربي ، ط.2 ،2000م.

6 - إبراهيم الكوني–واو الصغرى / صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر–بيروت / ط.1 1977، السيرة 13.

7 - (المرجع نفسه سيرة 13).

8 - واو الصغرى ص 180.

9 - أحمد نصر ، السهل /ط.1 1994م.

10 - (نفسه ، ص144) .

11 – ثلاثية أحمد الفقيه :سأهبك مدينة لأخرى ، هذه تخوم مملكتي ، نفق تضيئه امرأة واحدة .ط.2،1997م.

12 – أحمد إبراهيم الفقيه ، حقول الرماد / المنشأة العامة للنشر والتوزيع و الإعلان-طرابلس،ليبيا /ط.1 -1985م.

13 – محمد الأصفر المداسة (رواية) ،صادرة عن دار الحضارة العربية مصر 2004.م.

14 – الرواية نفسها ص 168.

15 – محمد الأصفر ـ تقودني نجمة ، منشورات الأصفر ، 2004.م

16 – محمد الأصفر ، نواح الريق (مدونة نصية) ، مخطوط

17 – عبد الله الغزال ، التابوت ، مخطوط رواية (الرواية الفائزة بالجائزة الأولي في قسم الرواية ، ضمن الدورة السابعة لمسابقة الشارقة للإبداع .دورة 2003 /2004.م)

18 – التابوت ، ص5.

19 – نقصد هنا رواية الفزّاعة ورواية الدمية وثنائية خضراء الدمن وكذلك ثنائية السحرة .

20 – صلاح الدين بوجاه ، الشئ بين الجوهر والعرض ص:15 في تعريف الشيء

21 – سيزا قاسم ، بناء الوراية ، الهيئة المصرية للكتاب ،ص112.

22 – ثلاثية أحمد الفقيه ، الجزء الأول ط.2 ، ص 19.

23 – ثلاثية أحمد الفقيه ، الجزء الثاني ط2، ص:

24 – المحور الأول: اشتغال على الحواس بين المتحرك والثابت، بحيث تتحول المتحركة إلى صورة سينمائية والثابتة لصورة ثابتة مكثفة.

المحور الثاني: هو محور تلك الشخصيات بين الواقعية والخيالية وهو محور معروف في كافة التشخيصات السردية.

حيث يعرفه شولتز من خلال:

طيف القصة: التاريخ ــ الواقعية ـ القصة ـ الرمانس ــ الخيال

أي أن حركة تلك الصورة الحواسية قد تكون حواسية واقعية أو حواسية خيالية عجائبية.

25 – يتم تلقي الأشياء المحيطة بنا والمنتصبة أمام حواسنا من خلال تلقيها عبر انتصابها أمام الحواس المُستفزة والجاهزة فطرياً للتلقي ضمن فضاء محدد يختلف من حاسة لأخرى.

26 – مخطوط التابوت ، ص7).

27 – (مخطوط التابوت ، ص 5).

28 - (المرجع نفسه ، ص 7).

29 - (المرجع نفسه ص71).

30 - (مخطوط التابوت ،ص 24).

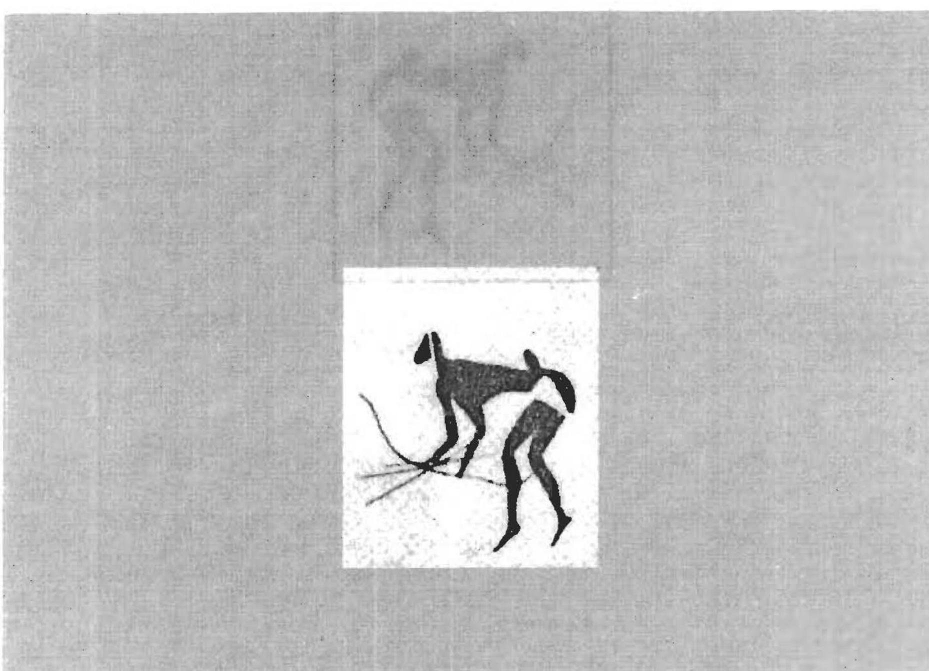
31 - (مخطوط التابوت ،ص 82).

32 - (المرجع نفسه ص13).

33 - المداسة (ص45).

34 - المداسة ص121.

35 - المداسة ص 161.



ملف



السيرة الذاتية والشاهد الغائب

د. جمعة أحمد عتيقة*

أذكر في بداية الثمانينيات وأثناء دراستي للتخصص في العلوم الجنائية بجامعة روما، أن أستاذنا في مادة [علم النفس القضائي] وأثناء تناوله لموضوع (الشهادة) كدليل للإثبات الجنائي، قد أحضر لنا جهاز عرض مرئي (سلايتس) يحوي عرضاً لوقائع جريمة تم تصويرها وطلب منا بعد انتهاء العرض ـ وكنا حوالي ثلاثين طالباً ـ أن نذكر كل على انفراد تفاصيل تتعلق بهيئة المتهم ومسرح الجريمة، وغير ذلك مما حواه العرض، وكانت شهاداتنا عما شاهدناه غير متطابقة في دقائقها بل حملت أحياناً تناقضاً صارخاً ومفارقات عجيبة، وانتهى الدرس ليؤكد لنا أستاذنا أن الشهادة ليست التقاطاً آلياً دقيقاً يمكن اعتماده بشكل مطلق كدليل لإسناد جنائي وكوسيلة أثبات ضد مرتكب الفعل، فالشهادة كثيراً ما تلتبس فيها مفردات الواقع مع مركبات التكوين النفسي والمستوى الذهني، وغير ذلك من المؤثرات التي تجعل المحكمة تطرحها في أحيانٍ كثيرة رغم صدق رواية الشاهد من خلال ما شاهده .

وإذا انتقلنا بعد هذه التوطئة إلى موضوع السيرة الذاتية باعتبارها (شهادة على النفس والآخر)، نجد أن الأمر يزداد التباساً وتشابكاً؛ ففي السيرة الذاتية يتداخل بشكل

فاضح عالم الذات مع عالم الشهادة، فكثيراً ما يردد كتاب السير الذاتية عبارة (هذه شهادتي للتاريخ) الأمر الذي يفصح عن ذات تضخمت حتى أضافت للتاريخ بحركيته وجدليته وتحولاته شهادة مصدرها ذات **قاصرة ترصد** الوقائع وترويها من ذاكرة، غير منزهة عن الخطأ والنسيان والفقدان أحياناً .

إن ما تقدم يقودنا إلى القول بأن ذاتية السرد والتوثيق في السيرة الذاتية كثيراً ما تاتي كخط دفاع أخير عن الذات التي هي مرجعية السيرة وموضوعها في آن، وإذا علمنا بداهة أن الدفاع عن الذات هو حقيقة وجودية ثابتة فحتى (المادة تدافع عن نفسها) حسب مقولة ماركس الشهيرة، فإن هذا الدفاع كثيراً ما يعمد إلى تفنيد ما قد يكون قد تراكم حول هذه الذات من لائحة اتهام راكمتها وقائع متعددة عبر مسيرة كاتب السيرة الذاتية. وكثيراً ما يعتمد كتاب السيرة الذاتية في خطة دفاعهم عن الذات وسيلة مؤداها (أن الهجوم خير وسيلة للدفاع) فيعمدون إلى التجريح في الآخر واتهامه ونبذه خاصة إذا كان هذا الآخر يمثل عنصراً من عناصر لائحة الاتهام المضمرة في ثنايا الذات فيسردون أحكاماً وشهادات على الآخرين مستفردين بساحة (المحاكمة غير العادلة) مستأثرين بمنصة (العدالة)، بعد أن انشطرت ذواتهم إلى قضاة وشهود ودفاع وسلطة اتهام.

ولعل قائل يقول أن فن السيرة الذاتية يزودنا بمادة مختلفة المصادر وأن الحكم الذي يورده كاتب سيرة معينة هو محل للاستئناف والنقض والإبرام بمقولة إن (حق الردّ مكفول) وردنا على ذلك أن هذا القول يفترض وجود شروط موضوعية حيادية تكفل هذا الحق، وأنا لا أعني بذلك الشروط ذات الدلالات السلطوية السياسية فحسب، ولكنني أبرز أهمية الانتباه إلى غير ذلك من السلطات القامعة وحتى لا أسهب في التعميم فإنني سوف أركز على موضوع كتابة السير ذات الطابع السياسي وبالتحديد ما يتعلق بما يسمى (أدب السجون). باعتباره يعتمد على تداعيات الذاكرة ولا يتضمن وثائقاً بسبب تعذر الحصول عليها.

هذا الأدب الذي اكتسب جاذبيته وتشويقه من كونه يعلن موقفاً من (فكرة القمع والعسف)، والتي هي ـ خاصة في بلداننا العربية ـ ذات سطوة قاتلة مقيته تشكل نقطة نفور ورفض في ضمير الإنسان ووجدان المواطن.

ومن هنا تحصن إبطال هذه (السيّر) بتعاطف الناس وإعجابهم باعتبارهم عموداً رئيسياً في ثنائية (المقاومة ـ والقمع)، وإذا أضفنا إلى ذلك المخزون السلبي الذي يتركه القمع على نفسية الممارس ضده، نجد أن هذه السّير كثيراً ما تتحول إلى (مانفستو)

لرفض العسف والتنديد به أكثر منه شهادة موضوعية تهدف إلى رواية الحقيقة وعرض الوقائع ضمن جدلية الخير والشر بمقاييسها النسبية، ومما يزيد الأمر التباساً أن كتاب هذه السير لا يكتبونها في كثير من الأحيان الا بعد زوال السلطة السياسية أو أدواتها التي مارست فعل القمع والعسف والتجاوز، وهو الأمر الذي يجعلهم ينفردون بالساحة ـ كما أسلفنا ـ قضاة و دفاعاً وشهوداً واتهاماً فتحصنهم باعجاب الناس (بالبطل كثقافة إقطاعية) ورفضهم لفكرة القمع والتسلط يجعل وجود الشاهد الحقيقي يكاد يكون منعدماً، فكثيراً من الوقائع التي يوردها هؤلاء تأتي أقوالاً مرسلة لا نجد لها شهوداً سوى داخل دائرة متماثلة تعرض فيها هؤلاء الشهود لممارسات مشابهة تجعل من الاستشهاد بهم في كثير من الأحيان مكملاً لذات كاتب السيرة. كما أن استقبال المتلقي لواقع هذه السير لن يكون حياديا بل سيضيف إليها من ذاته (ومخيلته) ما يقترب بها من حدود النصوص المقدسه .

فلو أخذنا عينة عشوائية من هذه الكتابات, وقد فرغت مؤخراً من قراءة سيرة سعيد زهران (الاوردي). لوجدنا أن الشاهد غائب في خضم الاجواء المأساوية المضخمة والمضمخة بالذات ـ رغم صحة كثير من الوقائع بمقاييس الرصد التوثيقي لمرحلة وقوعها ـ فإن هذا الشاهد المحايد والذي يمكن وجوده في عين المكان الذي وقعت فيه الممارسة، والذي لم يرتكب الفعل المجرم اعتماداً على المسؤولية الشخصية في ارتكاب الفعل الجنائي في جريمة التعذيب ...

هذا الشاهد وبعد مرور عقود طويلة على تاريخ الوقائع المذكورة (كما هو الحال على سبيل المثال في " الاوردي ") لا يستطيع الإدلاء بشهادته سلباً او ايجاباً نفياً أو إثباتاً في حق كاتب السيرة الذاتية ومن مارسوا ضده التعذيب، حيث أن موانع كثيرة تقف حائلاً دون ذلك منها:–

أولاً : ثقوب الذاكرة التي يصيبها الوهن مع تعاقب الأيام .

ثانياً : شعور هذا الشاهد بأنه يقبع ضمن دائرة الاتهام بصيغته العمومية رغم أنه لم يرتكب الفعل المجرّم ولم يحبذه، بل إننا وبشهادة كل من خاض تجربة السجن – وأنا منهم – قد نجد بين أفراد هذه الدائرة من أنقذ إنسانا من موت محقق أو قدم له مساعدة قد تعرضه للعقاب والمسألة فيأتي صمت هؤلاء إذعانا لسلطة الرأي العام الجمعي الذي لا يقبل تبريراً ويعمد إلى التعميم الذي يلتبس فيه مفهوم (القانوني بالسياسي).

ثالثاً : إن كثيراً من مرتكبي الأفعال المجرّمة وفي ظل ظروف تسمح (بالإفلات من العقاب) كثيراً ما يلجأون إلى مخزونهم الديني الذي يتيح لهم فرصة (التوبة) - التي تجبّ ما قبلها - مما يوفر لهم (راحة الضمير وهدوء البال) إنطلاقاً من قاعدة (الحسنات يذهبن السيئات).

وأخيــــــراً ....

فـإن كـاتب هذه السطور على يقين من أن القـارئ الموضـوعي لن يذهب إلى أن مـا قصدناه يحمل أي تبرير لممارسات القمع والعسف والتعذيب التي تأتي على رأس جدول أعمالنا الحياتي والمهني؛ فهي لا تطمح سوى إلى التنبيه إلى مسألة نرى أن الالتفات إليها يصون للحقيقة قداستها وللتاريخ شئ من موضوعيته، فالسجن تجربة قاسية مريرة وسجن الرأي جريمة دولية بشعه ترفضها كافة الأديان والمواثيق وشرعة حقوق الإنسان.

الاّ أن موجبات الموضوعية تستوجب وضعها في إطارها الطبيعي دون مبالغات وأنين على الجرح ومحاولات استدرار التعاطف والاعجاب.

وفي النهاية ...

أختـم باستشهاد للمناضل والكاتب المغربي المعروف / عبداللطيف اللعبي الذي عرف السجن والتعذيب والقمع وعايشه حين قال: [لم أعد كاتب سجون بل صرتُ كاتباً للمسائل الراهنة في بلادي ....].

ملف



الشيخ الطاهر أحمد الزاوي

سيرة مؤرخ ومسيرة مزاج*

د.فرج نجم

لعل من الشخصيات الليبية التي عُرفت بجهل الناس لها على الرغم من ذيوع اسمها وكتبها بين العامة والخاصة هي شخصية الشيخ الطاهر الزاوي. وربما يكون مرجع ذاك الجهل هو تعدد مواهبه، فالرجل ابتدأ حياته العامة كمجاهد ومهاجر .. اشترك في الجهاد ضد المحتل الإيطالي في معركة «الهاني» ولم يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره، وقد ضمّن ذلك في كتابيه عن "جهاد الأبطال"، وبعدها أصبح السياسي الدبلوماسي الذي كان يجول بين القبائل والأعيان في مهمات مكوكية للتنسيق ورأب الصدع بينهم، والرحالة الذي جاب الديار الليبية لذاك الغرض فسجل كل ما رآه في معجمه عن البلدان الليبية، وولج بذلك عالم الأنساب والأعراف فأصبح النسّابة الذي عرف القبائل وأنسابها ورجالها باثًّا

* قدمت هذه الورقة في المهرجان الذي أقامه مركز دراسات جهاد الليبيين بطرابلس بالتعاون مع اللجنة الشعبية لمدينة الزاوية عن الشيخ الزاوي (1890 - 1986) بعنوان: الطاهر احمد الزاوي: المؤرخ .. اللغوي .. الفقيه .. حياته وآثاره ومحيطه الثقافي - بتاريخ 28-29 يونيو 2004م.

ذلك في كتبه خاصة "الأعلام". ويتألق بعدها ليصبح اللغوي الذي أخرج تلك العصارة في قاموس من أربعة مجلدات،[1] وأيضاً المؤرخ الذي خص ليبيا فقط بالتأريخ، وينهي حياته بالفقيه المفتي الذي انفرد بتناول ما همّ الناس من سؤال وإشكال وينفرد عن غيره بتناول وضع المرأة المزري في مجتمعاتنا ويثبت لها حقوق ربها التي خصها بها ... وغيرها من المواهب التي قلّ ما تجتمع في رجل كشيخنا.

والجدير بالذكر أنه من قلائل المؤرخين الليبيين الذين تبحروا في معرفة مفردات اللغة، وألّموا بفصيحها وعاميتها، ومأنوسها وغريبها ولذلك استطاع أن يرتب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير لصاحبه الفيروز أبادي وأساس البلاغة للزمخشري. كما إنه كان عليمًا بأسرار اللفظ واشتقاقه، بصيراً بصرف الكلام، فمكنه ذلك من تنقيح كشكول العاملي، وبذلك امتلك مفاتيح لا تعد ولا تحصى لفهم أسرار كثير من العلوم العقلية والنقلية التي سهلت له الخوض في عالم التحقيق والتفسير والإفتاء.[2] حياة الشيح الطاهر الزاوي مليئة بالعواصف والإثارة بقدر ما هي مليئة بالأحداث والحوادث التاريخية، والتجارب الغنية، والعلم الغزير، والمعرفة الموسوعية، والأبحاث الدقيقة الجادة في كثير من مفاصل تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى قيام دولة ليبيا الحديثة في مطلع الخمسينيات من القرن المنصرم. واستحق بموجب ذلك لقب "شيخ المؤرخين" الذي سبق وأن نعتُ به الأستاذ المؤرخ محمد مصطفى بازامه، ولكنني وبمرور الوقت وكثير من القراءة والتقليب ارتأيت أن هذا اللقب لا يلائم إلا الشيخ الطاهر الزاوي. فهو حقًا شيخ المؤرخين الليبيين، وله الفضل من بين الليبيين على التاريخ، وعلى من كتب في التاريخ، بل كل من انشغل بالتاريخ الليبي، وكلنا لا نستطيع إلا الدوران في فلك ما كتبه وما قدّمه لنجد الزاد والعتاد في مسيرته للتأريخ الليبي.

وما لحظته، وأزعم أنني قرأت كل ما كتبه في التاريخ، هو مسيرة مزاج كبرى. وكل قارئ لكتب الشيخ، لا سيما المبتدئين منهم، يلاحظون على الفور هذه المزاجية، وسرعان ما تصدم مزاجية الشيخ قارئه، فتحدث هوة وفجوة بينه وبين من يقرأ له. فهو يقول الحق ولو على نفسه. فقد عُرف عنه علو الهمة ونفاذ العزم، يركب المراقي الصعبة، حتى يبدو وكأنه رجل عنيد، جافي الطبع صلب النفس، شديد الشكيمة، وقد يركب أمره في رأسه، بل حتى هواه، ويصر على الإباء، ولا يخشى العصيان، لذلك كيلت له كثير من الاتهامات التي تبدو

في ظاهرها دامغة. فأول كتاب له تصفحته كان "جهاد الأبطال في ديار الهجرة" والذي دونت في دفته الخلفية ما أثار فيّ الظنون، وخالج صدري منه شيء من التحامل الذي ساقه على بعض أهلنا. وقبل أن استطرد في تعداد نتف من هذه المواقف المزاجية التي باطنها غير ظاهرها وهو الصدق، وأضعها أمامكم هنا. علي أن أبين بأن ما يظهر من تحامل للشيخ، إنما هي أوهام تبدو وتظهر للطرف المضاد للشيخ على أن الشيخ فيه ما يبدو فيه.

أبتدئ بقول الشاعر "كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه"، فشيخنا مر بمطبات مزاجية في تدوينه لمراحل مختلفة من تاريخ ليبيا، ولم يفته تسجيل تلك اللحظات المزاجية في طي كتاباته والتي أعطت فيما بعد انطباعات ليست بالضرورة من شخصية الشيخ في أروق أوقاته. فمن الأخطاء التي شاعت على الشيخ أنه معاند وجهوي وحزبي ومنحاز لهذه القبيلة ضد الأخرى وهكذا. وأنا لست بصدد الدفاع عن الشيخ، لأنه لا يحتاج لمدافع مثلي، وفي نظري لن يحتاج إلى مدافع. لأننا مدينون له وليس العكس، حيث قدم لنا الكثير ... فماذا يا ترى قدمنا له؟ ولكنني أعرض صفحات من تاريخ الشيخ وجدتها منتثرة في كتاباته، والبعض الأخر في صدور من عاشره من الثقاة وتوحي كلها بأن الشيخ غريب المزاج وملئ بالتناقضات مما جعلت منه شخصية شيقة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

تعليقاته على عرب برقة

فكرهه للسنوسية قيادةً ورجالاً بالتحديد لم يكن خافيًا على المراقبين لتلك الحقبة علمًا بأنه خرج عن الموضوعية في التحامل عليهم. في الوقت الذي أبدى فيه إعجابه بالطريقة السنوسية لا سيما الجيل الأول منها كالسيد المؤسس الإمام محمد بن علي وابنه السيد المهدي وحفيده السيد أحمد الشريف.

أما السيد إدريس فلم يكن شيخنا على وفاق معه .. لا أميراً ولا ملكاً .. على الرغم من إنه كان ممن أتى له بالبيعة الطرابلسية فيما عُرف بهيئة الإصلاح التي سافر وفدها إلى مدينة إجدابيا سنة 1922م لتوحيد كلمة أهل البلاد وإصلاح ذات البين،(3) ولكن سرعان ما انقلب عليه وكتب كتابه الشهير الذي عنونه بـ "عمر المختار: الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في طرابلس الغرب" ووقعه باسم مستعار وهو أحمد محمود. فأثار ذلك الكتاب ضجة بين الصفوف الليبية من شيعة الأمير إدريس في مصر. وأحسب أنه أجج الخلاف

بين البرقاويين والطرابلسيين، فزاد الطين بلة فيما عُرف فيما بعد بتنافس "الشراقة" و"الغرابة" الذي تحول إلى صراع يحاول عبثًا بعضنا نفي وجوده. ولكن تفاقم الخلاف مع الأمير إدريس كان أسوأ، مما دفع الشيخ العلامة محمد الأخضر العيساوي - وهو من علماء الزنتان وإخوان السنوسية - في الرد على الشيخ الزاوي بكتاب عنونه بـ "رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار" جمع فيه آفات وهفوات الشيخ المفتي، ولم يقف الأمر عند ذلك، بل رفع السيد إدريس شكوى ضد شيخنا في المحاكم المصرية مما عمق الكره بين الرجلين، وبعدما قامت المملكة الليبية حُرم الشيخ المفتي من الرجوع إلى أرض الوطن.

طرابلسيته مقدمة على ليبيته

كما لم يخف تقديمه لأهل طرابلس عما سواهم، والتقليل من شأن غيرهم خاصة أهل برقة. فلم يحظ أعلام برقة بالمساواة التي نالها الطرابلسيون في كتابه الذي أسماه في بادئ الأمر بـ "أعلام طرابلس" ثم غيره إلى "أعلام ليبيا". فقد فاز الطرابلسيون بنصيب الأسد في الأعلام، مع تقديرنا لإلمامه بطرابلس ورجالها أكثر من سواها، ولكن لا مبرر لإسقاط شخصيات برقاوية عملاقة ومن أساطين ليبيا التي تركت أثرها في التاريخ كالشيخ صالح لطيوش وإبراهيم الشلحي وعمر باشا الكيخيا وعمر فائق شنيب ... وغيرهم، مع أنه ترجم لأناسٍ من الأغمار الذين لا يُعرفون. ولعل شيخنا لم يرد ذكرهم لأنهم كانوا من المخالفين؛ فصالح لطيوش كان غريمًا لرمضان السويحلي وحجر عثرة في وجه تمدد نفوذه شرق مصراتة وخاصة في منطقة سرت، أما الشلحي والكيخيا وشنيب فهم من شيعة السيد إدريس غريم شيخنا الذي بادله الحزازة. وهذا الاستخفاف والنظرة الدونية لأهل برقة وفزان عبر عنها شيخنا جليًا فكتب: "يرى الطرابلسيون أن طرابلس يجب أن تحتفظ بمركز الزعامة في الدولة الحديثة نظرًا لمركزها التقليدي، ولأن سكانها أكثر من برقة وفزان، وأنها تفوقهما من حيث الرقي"[4]... ثم يستطرد بحدة وينعت أهل برقة بـ عناصر الجاهلة الأمية[5]... ولكنه يعود ويرجع مفتخرًا بأهل برقة ويكيل المديح لجهادهم وخاصة في حملة الجيش الثامن البريطاني إبان حرب التحرير ضد قوات المحور (إيطاليا وألمانيا)، ويستشهد شيخنا بفلادمير بينكوف أحد ضباط القوات الخاصة البريطانية حينما قال: "إني لا أعدو الحقيقة حين أقول إن عرب برقة كانوا معبر النصر للحلفاء في هذه الحرب وإن جميع أفراد الجيش البريطاني الثامن مدينون بحياتهم لعرب برقة" .. ويؤكد الشيخ المفتي بأنهم قدموا "المساعدات ما كان له فضل مذكور في انهزام جيوش رومل".[6]

مناصرته لمصراتة ضد ورفلة

أما انحيازه لهذه القبيلة ضد تلك فقد ترك بصماته في صراع ورفلة مع مصراتة، فلم يخف الشيخ المفتي إعجابه الشديد برمضان السويحلي واستنكاره الشديد لعبد النبي بلخير عندما وصف معارك الجنوب فيقول: وبقيت بقية وقعت أحداثها فيما بين ورفلة وفزان، وكان بطلها من أنصار الطليان عبد النبي بلخير، ومن أنصار الوطن جماعة من المجاهدين وعلى رأسها السيد محمد بن عبد الله البوسيفي، عليه رحمة الله.

و ذهب أكثر من ذلك عندما وسم عبد النبي بلخير بالتخاذل وحتى الخيانة فيقول: لو حلت الهداية قلوب عبد النبي وأنصاره من المنشقين وانضموا إلى إخوانهم لكان موقف الطرابلسيين أقوى، ونهايته أسلم ... شرع عبد النبي يكاتب أولاد بوسيف والمقارحة والزنتان وغيرهم من سكان الجنوب، محاولاً إقناعهم باستسلامهم إلى الطليان، ويؤكد لهم أنه سيكفل لهم كل أنواع الراحة مع الطليان.(7)

بينما عندما يتحدث عن رمضان السويحلي يجد له الأعذار ويؤول أحيانًا الأحداث ليجعله البطل الوحيد كما فعل في معركة القرضابية عندما قال: وكان الفضل في الحصول على هذا النصر المؤزر لرمضان السويحلي وحده ... إن الذين يحاولون نسبة النصر الذي أحرزه الطرابلسيون في القرضابية إلى غير رمضان السويحلي، إما أنهم لم يفهموا الحقيقة، وإما أنهم مغرضون لا يعترفون بالفضل لأهله ويريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ونعود ونقول: إن بطل القرضابية هو رمضان السويحلي، ورمضان السويحلي وحده.(8)

ولعل موقف شيخنا من السويحلي كان نكاية في السنوسية الذين لم يرق لهم أفاعيل رمضان السويحلي وخروجه عن سلطانهم. وكلام الشيخ المؤرخ في القرضابية تنقصه حقائق أخرى، وفيه شئ من التنكر والإجحاف لصناديد قاتلوا في ذاك اليوم الدامي من رجال برقة وفزان الذين لم يذكر لهم الشيخ المفتي الفضل في كسر العدو كأمثال حمد سيف النصر وصالح لطيوش والسيد صفي الدين ... وغيرهم.

ولا يعني من كلام الشيخ إنه يكن التحقير والتقليل لقبيلة ورفلة أو ينكر لهم كل فضل وعرفان، ولكن ربما رأى في قيادة عبد النبي بلخير لها ما لا تستحقه هذه القبيلة الأبية من القدر الوافي الذي أضفاه رمضان السويحلي على المصراتية. ولكن الشيخ الزاوي يعود

ويعلنها بصدق وشجاعة ان من أهل الفضل عليه عالم من علماء ورفلة وهو السيد محمد العيساوي بوخنجر، فبعدما أطنب في فضائله وسجل له ممادحه المأثورة ومآثره المشهورة فكتب بأنه: "من أعيان قبيلة ورفلة ووجهائها ... أقول هذا عن خبرة لهذا الرجل الكبير، ومعلومات تلقيتها منه مشافهة أشرت إلى كثير منها ... وكانت بيني وبينه صداقة متينة مكنتني من الانتفاع بهذه الخزانة العلمية المجهولة لكثير من الناس غيري. وبيني وبينه مكاتبات كثيرة كان يمدني فيها بمعلومات قيمة."(9)

وعداء شيخنا لبعض الجهات أو الأعلام الليبية لم يكن لأسباب جهوية أو قبلية محضة كما يتصور البعض. فها هو ينال من الزعيم الكبير بشير السعداوي أحد أكبر قيادات طرابلس الذي اختلف هو أيضًا مع رجالات المملكة الذين حاكوا له مؤامرة في ليلة ظلماء ليُلقى به وأسرته خارج الوطن ليعيش حياة الغربة كما عاشها الشيخ المفتي.(10) فلقد كان كره الشيخ المفتي للزعيم بشير السعداوي جليًا في كتاباته، فلم يترك مكانًا إلا وغمز وهمز في السعداوي، لأنه كما يقول: كان للسيد السعداوي دور كبير في سياسة ليبيا .. ولم يكن موفقًا .. لأنه أتبع سياسة الانفراد بالرأي وارتجال الأمور .. ولهذا اتهم بالخضوع لسياسة معينة أجنبية لها مصالح في ليبيا، ... كما أتهم الشيخ المفتي الزعيم السعداوي بالاستيلاء على مال كثير بحيله باسم القضية الليبية.(11)

كرهه للأتراك العثمانيين

ولكن ما أقلقني كمسلم تحامله المطلق على دولة الخلافة الإسلامية بالرغم من مرجعية شيخنا الإسلامية وولائه للإسلام وأهله، إلا أنه خالف أهل المغرب الإسلامي حيث إننا، المغاربة وخاصة الليبيين، ننأى بأنفسنا عن المشارقة في نصب العداء لخلافة المسلمين المتمثلة في الترك. والأتراك أنفسهم يذكرون لليبيين مواقفهم بالحمد على عكس ما قام به أتباع الحركة الوهابية في شبه الجزيرة، والشوام وأهل اليمن من محاربة الأتراك، لدرجة الزلل وذلك بالتحالف مع العدو الصائل على ولاة الأمر من المسلمين. والمحير أن شيخنا طيّب الله تعالى ثراه لم يكلف نفسه العناء ويذكر محاسن الأتراك بقدر ما عدد مساوئهم، بل ذهب به الحد بأن ساوى شر الأسبان بـ "شر" الأتراك ولم يميز بين المحتل الأسبانى والمحرر المنقذ الإسلامى بل رآهما "شر من بعض"،(12) فكتب يقول: " .. ومن هنا ابتدأ العهد التركي، وكان عهدًا أسودا، استمر 360 سنة عانت طرابلس فيها الفقر والجهل

والذل والفوضى فوق ما يتصوره الإنسان[13] .. منذ ثلاثمائة سنة والليبيون في صراع مرير مع الترك للتخلص من ظلمهم واستبدادهم، وفساد حكمهم. وقد ثار عليهم الليبيون أكثر من ثلاثين مرة في فترات من الزمن متتابعة، قام بها رؤساء القبائل في كل من طرابلس وبرقة.[14]

الشيخ عبد السلام الأسمر

وهذا الخروج والتظاهر على ما تعارف عليه إقليميًا من الثوابت الإسلامية كان جليًا في تعامله مع الصوفية والمتصوفة في ميوله إلى ما يعرف الآن بالمدرسة "السلفية". فلقد سأله مرة أحد طلاب العلم عن الشيخ عبد السلام الأسمر: إذ ما كان الشيخ عبد السلام الأسمر وليًا صالحًا أم صوفيًا منحرفًا خلّف من الشطحات ما أساء به أتباعه إلى الإسلام..؟ فكان رد شيخنا المفتي: أني أحسبه صعلوكًا أسود. وإذا ما رجعت إلى ما كتبه الشيخ المفتي في حق الشيخ عبد السلام الأسمر في كتابه الموسوم بـ "أعلام ليبيا" عن الشيخ عبد السلام ستجد ما يغاير ذلك ... إلا أن كرهه للصوفية المنحرفة التي نُسبت للشيخ عبد السلام التي "ازداد العامة بها ضلالاً"، كما يذكر بوضوح في ترجمته للشيخ.[15]س وهذا التضارب في الآراء والأقوال ينم عن مقت شيخنا لبعض من خصال الصوفية وأشياعهم خاصة أولئك الذين حشو التصوف بالشوائب والشطحات وأساءوا إلى المتصوفة.

لعنه بالمطلق

كما لم تفته حدته وحنقه في التعامل مع من يخالفه أو يسئ إليه، فكان ذلك واضحًا فيما اقترفته أيدي الإيطاليين عندما لعنهم جميعًا ولم يكتف عند ذلك، بل لعن بالمطلق من يقدر على حرقهم من الليبيين ولا يفعل.[16] فلعنه للإيطاليين أجد له ما يبرره لا سيما أولئك الذين باركوا وصوتوا ودعموا جحافل جند الطليان من الشعب الإيطالى الذين أساءوا إلى ديننا وأجدادنا ... ولكن ما ذنب الليبيين. وهذه الصلابة والتشدد وخاصة في مواقف بدرت منه استمرت معه حتى إنه طلب منه البعض كتابة مذكرة اعتذار للملك يلتمس فيها العفو ويطلب فيها تناسي الماضي وما كان بينهما في مصر حتى يتسنى له العودة إلى أرض الوطن، فرفض الشيخ بشدة وقال: والله .. والله .. لو ذهب الجمل على ذروته لما فعلت.

نفيه لنسبه الشريف

وهذه الصلابة والشدة كانتا حاضرتين معه في كتابته للتاريخ. فقد عُرف عن أجدادنا التحبب إلى آل البيت والانتساب إليهم إما عملاً أو نسباً، بل ذهب بعضهم ليتظاهر بالنبالة والتشرف بذلك النسب الشريف والانتماء إلى الدوحة النبوية، أما شيخنا فقد استبعد نسبه بآل البيت عندما تعرض لقصة العواسجة والفواتير التي ملخصها يقول إن الفيتوري هو لقب أعطى للولد خليفة بن عبد العزيز الذي ألقت به أمه في فضلات معصرة الزيتون في طرابلس حتى لا يُقتل في الغارة التي شنها عربان من قبيلة أولاد سعيد المخزومي عليهم.[17] وتذهب الرواية مستطردة في القول بأن أخ خليفة الآخر يوسف ألقت به أمه كذلك في شجرة العوسج (أو العوسجة) – أو تحتها – لتكتب له النجاة مع أخيه. وينسب إلى يوسف بن عبد العزيز قبيلة العواسجة في مدينة الزاوية غرب طرابلس، والتي ينحدر منها الشيخ المؤرخ طاهر أحمد الزاوي[18] الذي شكك في صحة هذه الرواية كليًا فكتب معلقًا: ... فهذا الكلام لا يساوي قيمة الورقة التي كتب فيها، فضلاً على أن يتوهم متوهم أن له نصيباً من الصحة أو يتصوره العقل...[19]

تعليقه على الصحابي بسر بن أبي أرطاة

و هذه الجراءة امتدت إلى كتب التراث التي كان يقتبس منها مادته التاريخية فانظر إلى ما نقله المفتي رحمة الله تعالى عليه في ترجمته لبسر بن أبى أرطاة أحد القادة المسلمين الذين اشتركوا في فتح ودان، قال: كان بسر من المتحمسين لمعاوية. وحضر صفين ضد علي. وكان شجاعًا، وفيه قسوة البداوة. وأوقع ببيت النبوة كثيراً من القتل والتشريد حتى خد لهم الأخاديد. وقتل ولدي عبيد الله ابن عباس وهما صغيران على يدي أمهما، ففقدت عقلها وهامت على وجهها. وقد دعا عليه علي بأن يطيل الله عمره ويذهب عقله، وكان كذلك. ثم يعلق الشيخ الزاوي عليه قائلاً: ولا أظن إن هذا الرجل لمست بشاشة الإسلام قلبه.[20] وهذا التعليق يدل دلالة ناصعة على قوة شيخنا في قول ما يدور في خلده وما يراه من حق أبلج غير مبالٍ بالعواقب. والله ... لو غيره قال بذلك لحشر في معسكر الروافض ... هذا إذا لم يُتهم بعدائه للعرب أو الإسلام.

وهذه نماذج من شخصية الشيخ طاهر الزاوي تجلت في كتاباته العديدة، ولكن مازلنا نجهل الكثير. فيا ترى ما حقيقة خلفية الشيخ ..؟ والبيئة التي ترعرع فيها ..؟ و حياة الغربة ووطأة البعد عن الوطن والأحبة وأثر ذلك في هذه الكتابات ..؟

الحرشا مسقط الرأس ولوعة الغربة في المنفى

قرية الحرشا التي ولد وترعرع فيها شيخنا تبعد عن مدينة الزاوية بثلاثة كيلومترات إلى الغرب منها،[21] حياة أهلها تميل إلى البداوة "الريفية" أكثر من حياة الحضر. فطلابها كانوا فيما مضى لا يجيدون مع القرآن الكريم شيئًا. وإذا ما أراد أحدهم أن يرتقي بنفسه فينتقل إلى زاوية الأبشات بالزاوية كما فعل شيخنا، وإذا ما أراد أن يرى العالم فيذهب إلى طرابلس. وأين طرابلس من الأزهر أو الزيتونة في تلك الآونة. فتلك هي أول بيئة مس جلده ترابها ... شبه منغلقة بعيدة عن حضارة المدن وترفها ورقي أهلها في التعامل والتعايش. وهذا الخلفية المعيشية زادتها حياة الغربة بمصر حيث أقام شيخنا ردحًا من الزمن منفيًا من بلده الذي وصف حبه المفرط له وحنينه فيما قاله في طرابلس: يعلم الله أني أحبها حبي للحياة، ولولا أنهم أخرجوني منها ما خرجت ...[22]

لقد عُرفت عائلة شيخنا بلقب العكروت في عائلة بوحميّرة.[23] وفي ما ذُكر عنه أنه كان يمقت هاتين التسميتين، فقال مرة محتجًا على اسم جامع بوحميّرة بقريته بالحرشا الذي سمي على رجلٍ صالحٍ يدعى سيدي علي عبد الحميد بوحميرة، فكان يتعجب من الناس الذين تعلقوا فقط باسم بوحميّرة وتُركت أوصاف هذا الرجل الصالح. أما اسمه العكروت فقد غيره عندما وصل مصر، لأن كلمة عكروت[24] غير لائقة في دارجة المصريين وخارجة عن ذوقهم العام، الأمر الذي اضطره أن يتسمى تارة بالطرابلسي وأخيرًا بالزاوي الذي لازمه ليومنا هذا.

وأنا كمغترب أعاني من كي ولوعة الاغتراب، على الرغم أني من المحظوظين الذين مَنَّ الله تعالي عليهم برؤية الوطن والأهل مرة كل عامين، إلا أن الغربة تترك أثرها في المرء لاسيما أولئك الذين يعانون من الغربة وضيق العيش، وهذا ما كان يعيشه شيخنا فتسربت تلك المعاناة والمزاجية إلى كتاباته.[25] فقد عاش الشيخ المؤرخ على مقربة من الأزهر الشريف يعمل في مطبعة عيسى الحلبي الشهيرة يدقق في اللغة ويصحح الأخطاء التاريخية ويرصد الأحكام الشرعية وغيرها من أمور التصويب والاستدراك لمن غفل أو فاته شيء منها.

ينقل بعض ممن زاره أن مكتبه كان ضيقًا جداً حتى إذا ما زاره أحد وجلس أمامه كان لا يفصل بينهما إلا محط ثلاثة أصابع من شدة الضيق. وكان يقضي قرابة الساعات الثماني يوميًا شاخصًا في ذاك الورق الأصفر لا تفوته كلمة شاردة ولا معلومة واردة مما شذ. أما مسكنه ومعاشه فكان لا يستحقه علَمًا مثله. فقد كان يسكن وحيداً في الطابق الثالث أو الرابع في عمارة سلالمها من الخشب يصعب على من انزلقت رجله بين عتباتها تخليصها بسهولة. فكان وحيداً غريبًا لا زوجة .. ولا ولد ولا بنت .. أو حتى خادمة تعينه على نكبات الدهر وضنك العيش الذي قضم أكثر من نصف عمره غريبًا في أتون الغربة، ولعل هذه التجارب جعلت منه يستأنس بالوحشة، ويخلد إلى الوحدة، ويميل إلى الخلوة التي وجد فيها المراغ للبحث والتأمل والكتابة بكل صراحة وجراءة.

وهذه الحياة التي عاشها الشيخ المفتي تُعطي فكرة عن التناقضات والتقلبات التي مر بها الشيخ ومزاجه. وقد يرى البعض أن هذه المزاجية من مثالب الشيخ وهفواته .. ولكني أراها جزءًا من إنسانية المفتي واجتهاده من حيث قابليته للخطأ والنسيان والشطط أحيانًا. ولكن الأهم هي صراحة شيخنا وعدم مواربته أو تدليسه فيما يعتقد ويرى، فهو ممن يأتي الأمور من مأتاها ولا يرى غضاضة في ذلك، وهذا ما شهد له به من عمل معه أو كان على مقربة منه ... فإنه لا يتنازل بسهولة عما يراه الصواب ... وإذا ما تراّى له الحق فإنه من أتباع المثل الشعبي "عنز ولو طارت" ... مما جعله فريداً من نوعه في مصاف العظماء الليبيين الذين احتل بينهم مكانة استحقها بجدارة وبشهادة مغايريه، ومآثره يبقى ذكرها في الأعقاب، وحسبُ الشيخ الزاوي نجاحًا أن عُدت عيوبه وجُمعت، وكفاهُ ذلك نُبلاً ونجاحًا.

رحم الله تعالى الأستاذ العلامة وشيخ المؤرخين رحمة واسعة وافرة.

* أهم مؤلفات الشيخ الطاهر أحمد الزاوي

1 - أعلام ليبيا - الطاهر أحمد الزاوي - مؤسسة الفرجاني - ليبيا - 1970.

2 - ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي - الطاهر أحمد الزاوي - دار الفتح - لبنان - 1970.

3 - عمر المختار: الحلقة الأخيرة من الجهاد الوطني في طرابلس الغرب - الطاهر أحمد الزاوي - مطبعة عيسى الحلبي - مصر - 1934.

4 - التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار - ابن غلبون - صححه وعلق عليه الطاهر أحمد الزاوي - مكتبة النور - ليبيا - 1967.

5 - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب - لأحمد النائب الأنصارى - (الجزء الثانى) - ليبيا - 1961.

6 - معجم البلدان الليبية - الطاهر أحمد الزاوي - مكتبة النور - ليبيا- 1968.

7 - تاريخ الفتح العربي في ليبيا - الطاهر أحمد الزاوي - دار دارف المحدودة - لندن - 1985.

8 - جهاد الأبطال في ديار الهجرة - الطاهر أحمد الزاوي - دار الفرجاني - ليبيا - 1976.

9 - جهاد الأبطال في طرابلس الغرب - الطاهر أحمد الزاوي - دارف - لندن - 1984.

10 - ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة (4 أجزاء) - الطاهر أحمد الزاوي - مطبعة عيسى البابلي الحلبي - مصر - 1959.

11- مختار الصحاح - الرازي - تحقيق الطاهر أحمد الزاوي - دار الفكر والطباعة

12- الكشكول - بهاء الدين العاملي - تحقيق الطاهر أحمد الزاوي - عيسى الحلبي - مصر - 1961.

13- كتاب مختصر خليل للعلامة الشيخ خليل بن إسحاق المالكي في فقه الإمام مالك - صححه وعلق عليه الشيخ الطاهر أحمد الزاوي - دار إحياء الكتب العربية - مصر - بدون تاريخ.

14- النهاية في غريب الحديث والأثر - تأليف أبي السعادات مجد الدين المبارك ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير - تحقيق الزاوي وآخرين (5 أجزاء) - مصر - 1963.

15 - مجموع فتاوى - الطاهر أحمد الزاوي - دار الفرجاني - ليبيا - 1976.

16- منظومة الفروخي في الكلمات التى تنطق بالظاء والضاد - لبنان - 1984.

17- من الأدب الليبى : ديوان البهلول - مصر - 1966.

18- الدرر المبثثة في الغرر المثلثة للفيروز آبادى، الدار العربية للكتاب- 1987.

19- مثلثات قطرب - نظم الأستاذ إبراهيم الأزهرى - لبنان - 1984.

20- الضوء المنير المقتبس في مذهب الإمام مالك بن أنس، تأليف محمد الفطيسي، القاهرة - 1966.

كتب مغمورة ومخطوطات لم تنشر بعد:

21- نبذة عن أعمال إيطاليا في ليبيا (طبع)

22- الكتاب الأبيض (طبع)

23- فجيعة العرب في طرابلس الغرب (طبع)

24- كتاب الدرر المثبتة في الغرر المثلثة للفيروز أبادي - تحقيق الطاهر أحمد الزاوي - (تحت الطبع) .

25- يوميات الشيخ الزاوي (مخطوط)

26- تاريخ الزاوية (مخطوط)720.

الهوامش:

1- الناكوع، محمود محمد - ملامح الصراع السياسي والثقافي في ليبيا الحديثة صـ ,123.

2- الناكوع - نفس المصدر صـ 122.

3- الناكوع - نفس المصدر صـ 121.

4- الزاوي، الطاهر أحمد - جهاد الليبيين في ديار الهجرة من 1924 إلى 1952م صـ 269.

5- الزاوي، الطاهر أحمد - جهاد الليبيين في ديار الهجرة من 1924 إلى 1952م صـ 277.

6- الزاوي، الطاهر أحمد - جهاد الليبيين في ديار الهجرة من 1924 إلى 1952م صـ 320.

7- ا لزاوي - جهاد الأبطال في طرابلس الغرب صـ 182.

8- الزاوي - جهاد الأبطال في طرابلس الغرب صـ 214.

9- الزاوي - أعلام ليبيا صـ 304-306.

10- نجم، د. فرج عبد العزيز - قراءة جديدة في تاريخ الزعيم الليبي بشير السعداوي - مجلة جيل ورسالة (العدد 5) ديسمبر 1999م.

11- الزاوي، الطاهر أحمد - جهاد الليبيين في ديار الهجرة من 1924 إلى 1952م صـ 342 - 344.

12- الزاوي - معجم البلدان الليبية صـ 187.

13- الزاوي - معجم البلدان الليبية صـ 27.

14- الزاوي - جهاد الأبطال في طرابلس الغرب صـ 19.

15- الزاوي - أعلام ليبيا صـ 217-214.

16- الزاوي - معجم البلدان الليبية صـ 229.

17- القطعاني، أحمد سالم - الأرس في نسب الفواتير من آل بوفارس صـ 65-66.

18- الزاوي - معجم البلدان الليبية صـ 112.

19- الزاوي - معجم البلدان الليبية صـ 231.

20- الزاوي - ولاة طرابلس صـ ,12.

21- الزاوي - معجم البلدان الليبية ص 112.

22- الزاوي - معجم البلدان الليبية صـ 23.

23- راجع: الطوير، د. محمد أمحمد - الشيخ الطاهر الزاوي - مجلة الإخاء.

24- وتعني في اللهجة الليبية الجدي قصير الأذنين بينما تعني في مصر المرء الشقي أو المشاغب العفريت، التي يصغر بها المنعوت ويدلل ولكن بدون مذمة، وهذا ما كان يليق بمقام شيخنا الرفيع الذي أبدى اعتزازاً كبيراً بنفسه.

25- راجع: الطوير، د. محمد أمحمد - الشيخ الطاهر الزاوي - مجلة الإخاء.

26- ذكرها الدكتور الصديق محمد أمحمد الطوير (باستثناء تاريخ الزاوية) في مقالته عن الشيخ الزاوي في مجلة الإخاء.

27- راجع: جميل حمادة - الطاهر أحمد الزاوي: المؤرخ، اللغوي، الفقيه/ حياته وآثاره ومحيطه الثقافي (الندوة الثانية عشرة لمركز جهاد الليبين وشعبية الزاوية) - نشرتها جريدة العرب بتاريخ 5 يوليو 2004م.



وثائق جمعية عمر المختار

وثائق أول حزب سياسي في شرق ليبيا

أحمد الفيتوري

- 1 -

عرفت ليبيا النشاط الحزبي منذ القرن التاسع عشر، غير أن قمع السلطات القائمة كان دائما في مواجهة مع النخب التي عملت وقدمت الضحايا، من أجل تكوين أسس لمجتمع مدنى تعددى ؛ ففي القرن التاسع عشر حاولت ثلة من المثقفين إقامة تنظيم سياسي لكن السلطات العثمانية الحاكمة، حيث كانت ايالة طرابلس تابعة لها حتى توقيع معاهدة أوشى وانتقال تبعية هذه الايالة إلى إيطاليا بعد غزوها البلاد عام 1911م، وقد قام الدكتور أحمد صدقي الدجاني بنشر وثائق ذلك التنظيم والتحقيقات التي أجرتها السلطات مع مؤسسيه في كتاب صدر في السبعينيات من القرن الماضى عن دار الطليعة. ثم في الفترة الأولى من الاحتلال الإيطالي سمحت السلطات بتكوين أحزاب سياسية، نتج عن ذلك تكوين العديد من الأحزاب التي ساهمت في تنظيم النشاط المدني، وفي الدخول في مفاوضات مع السلطات المحتلة حول القضية الوطنية، وقام بعض قياديها بزيارات لروما لأجل ذلك، حتى أن تجمعا وطنيا في طرابلس أعلن تكوين الجمهورية الطرابلسية كأول جمهورية عربية، وأعلن عن دستور لهذه الجمهورية التي رفضت سلطات الاحتلال الاعتراف بها. لكن

مؤسسات المجتمع المدني جميعا، بما فيها الأحزاب ألغيت ونكل بأفرادها ؛ عقب استيلاء الفاشيست على السلطة في روما مطلع العقد الثالث من القرن الماضى، حيث دخلت البلاد في أتون الحزب الفاشي وفي بحيرة من دم كان منارتها الشيخ عمر المختار الذي أعدم في 16 سبتمبر 1931.

بين هذا العام وعام قيام الحرب العالمية الثانية 1939م، تكونت تنظيمات سياسية في خارج البلاد في تونس ومصر وسوريا، وعمل منتسبوها وزعماؤها من أجل تحرير البلاد بكل جهد سياسي وإعلامي ؛ فقد استطاع هؤلا تقديم جهد متميز، حيث اتخذوا من كل تجمع دولى وإسلامي ساحة للعمل من أجل تحريض الرأى العالمي والعربي والإسلامي، وقدمت المذكرات ووزعت المناشير في موسم الحج في مكة ؛ قد تكون الأولى من نوعها، تشرح الوضع والمعاناة التي يعيشها الشعب الليبي تحت الاحتلال الفاشي.

فيما بعد ساهم البعض من أفراد هذه التنظيمات في تأسيس الجيش الليبي الذي شارك في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء ؛ وبهذا فإن الليبيين هم العرب الوحيدون الذين شاركوا الحلفاء هذه الحرب؛ فإيطاليا من دول المحور كما هو معلوم .

عقب دحر إيطاليا وضعت البلاد تحت الإدارة العسكرية الإنجليزية ؛ وقد تكونت العديد من الأحزاب عقب عودة المنفيين والمهاجرين، ومن أشهرها في غرب البلاد حزب المؤتمر الوطنى، الذي كان زعيمه بشير السعداوى من ساهم منذ العهد العثماني في الكفاح الوطنى وفر من البلاد أثر مطاردة السلطات الإيطالية إلى مصر والشام، وساهم في تكوين الحركة الطرابلسية البرقاوية التي قامت بجهد خارق في الدفاع عن الوطن وبكل السبل المتاحة.

وقد كان لهذه الأحزاب في غرب البلاد وعلى رأسها حزب المؤتمر الكثير من الفضل في الاستقلال، إلى جانب جمعية عمر المختار الحزب الوحيد الذي تأسس في شرق البلاد. أعلن الاستقلال من قبل هيئة الأمم المتحدة في 24 ديسمبر 1951 م وكان أول قرار للأمم المتحدة في تاريخها في الخصوص .

عقب الاستقلال اصطدمت هاتيك الأحزاب مع السلطات الوطنية التي استلمت زمام الأمور وذلك من أجل قضايا وطنية وسياسية طرحها ذلك الاستقلال، سارعت تلكم

السلطات بالحجة المعتادة ؛ المحافظة على الاستقلال والوحدة الوطنية فألغت الأحزاب والعمل الحزبي. منذ ذاك القرار الذي اتخذه ملك المملكة الليبية المتحدة أدريس السنوسي منع العمل السياسي التعددى في ليبيا، وسيطرت القوى الحاكمة على العمل السياسي مفردة، ومازال ذلكم القرار سارى الفعول حتى كتابة هذه المقالة.

- 2 -

ذكر لى الدكتور مهدى المطردي وهو أحد مؤسسي جمعية عمر المختار : أن عندي الكثير من التحفظات على نشر هذه الوثائق وسوف أكتب ذلك في كتب. أن الأستاذ محمد بشير المغيربي الذي أصدر كتاب وثائق جمعية عمر المختار، كان في الفترة الاخيرة سكرتيرا للجمعية غير أنه لم يطلع على معلومات تأسيسها إلا من خلال ما سردناه له، فقد ذكر أن مؤسس الجمعية هو المرحوم أسعد بن عمران وهذا مجاف للحقيقة .

لقد أسست – قبل هذه الجمعية – جمعية الصابري، وذلك عام 1935 م، وعملنا منذ ذاك على معرفة قبر شيخ الشهداء عمر المختار الذي دفن في مكان لم نعلمه، فقد دفنه الإيطاليون عقب إعدامه في مكان خفي بمقبرة سيدي عبيد، أزيلت المقبرة في السنوات الماضية القريبة وبالتالي أزيلت معالم قبر الشيخ واكتشفت آثار مدينة بنغازي القديمة "يوسبريدس " – في الصابري ببنغازي وذلك عام 1931 م وقد حاولنا معرفة القبر دون جدوى، فذهبنا إلى الشيخ مصطفى المدلقم الذي علمنا أنه هو الذي انزل جثمان الشيخ لقبره، وأن القبر قد أغلق بالأسمنت المسلح وكان المدلقم شيخ زاوية بن عيسى وجارنا طالبا منا إخفاء الأمر خوفا من بطش الإيطاليين، طمأنته فقال : سوف أذهب للمقبرة غدا وعند قبر سيدي عمر سوف أُسقط جردي "عبائته " على القبر ثم أذهب، ذهبنا إلى المقبرة على الأرجل كأننا نزور القبور، من بعيد شاهدنا سقوط جرد الشيخ مصطفى المدلقم ..

هكذا عرف قبر الشيخ عمر المختار وكان ذلك في عام 1935 م .

قامت الحرب العالمية الثانية فذهبت بنا السبل إلى أن التقيت في مرسى مطروح مع مجموعة من الليبيين منهم المرحوم أسعد بن عمران الذي قال : إنهم ينوون إقامة ضريح على قبر الشهيد المختار وأنهم جمعوا المال لذلك، اعتذرت عن ذلك لأننا لا نبني للقبور أضرحة واقترحت عليهم إقامة جمعية تحت اسم عمر المختار، بعد ذلك بحوالي أسبوع

مرض أسعد بن عمران ونقلناه للقاهرة وبقيت إلى جانبه في المستشفى حتى توفاه الله في الأسبوع الثاني ودفناه على الطريقة الليبية بالقاهرة.

فيما بعد جمعت مع الجماعة عددا من قوانين الجمعيات والأحزاب والنوادي في مصر، منها حزب الوفد وعدت لنؤسس الجمعية التي طرحنا في البداية أن يكون سكرتيرها السيد إبراهيم الشريف، وقد كنا نريدها جمعية رياضية ثقافية اجتماعية لنبعد الشبهات، اتصلنا بالكولونيل طومسون رئيس بلدية بنغازي - في أيام الإدارة البريطانية - وهو مستشرق، وقد تساءل : كيف تؤسسون جمعية رياضية وتحت اسم عمر المختار، قلت له إن حياتنا رياضية ونحن نحب الرياضة ونمارسها وعمر المختار هو رمزنا، وقد منحنا الترخيص وذلك في مارس 1943 م .

لم نكن منذ البدء ننوي نشر أي كتاب عن أعمال الجمعية، وفي إحدى المرات اتصلت بالمرحوم مصطفى بن عامر لكي نعد وننشر كتابا عن الجمعية، لكن الأستاذ مصطفى بن عامر رفض ذلك ؛ وذكر بأننا اتفقنا منذ البداية على العمل ونكران الذات، وقد ذكرته بأن الأجيال لا تعرف شيئا عن العمل الوطني، وأن لا أحد يذكر جمعية عمر المختار، وأن هذا تاريخ البلاد ولكنه رفض .

وهكذا لم ينشر أي شيء عن الجمعية .

- 3 -

هذا تقريبا ما ذكره الدكتور المهدي المطردي، وفيما يخص الفقرة الأخيرة الخاصة بعدم نشر أي شيء عن الجمعية يقول الأستاذ محمد بشير المغيربي في الكتاب الذي نحن بصدده في القسم الرابع تحت عنوان جمعية عمر المختار ومصر الصفحة 460 : " لم يكن لرجال الجمعية اهتمام بالجانب الإعلامي في نشاطهم السياسي، فلم تكن لنا صلة بالمؤسسات الصحفية من جرائد ومجلات، رغم أن القضية الليبية كانت مطروحة على المستوى الدولي، وكان لجمعية عمر المختار دور في كل تطور لهذه القضية، وكنا نكتفي بتحركنا في الداخل بما نسجله من مواقف ونعبر عنها في جريدة الوطن الأسبوعية التي لا يتجاوز توزيعها البلاد الليبية، غير مكترثين أكان لعملنا صدى في الخارج أو لم يكن. والحقيقة أن هذا العزوف لم يكن سياسة مرسومة في جمعيتنا ولكنه موقف تلقائي لم نفكر في مناقشته ؛ كان الأمر الطبيعي هو ما نحن عليه ".

وإذا استعرضنا الكتاب بعد هذه التقدمة لما أثاره فإن الغلاف يضم صورة للشهيد عمر المختار، والصورة شهيرة للمختار ولفيف من الفاشيست عقب أسره، ولكن في النسخة التي بين يدي هي صورة غير واضحة لسوء الطباعة.

وفي الصفحة الداخلية الأولى رسالتان من الشيخ عمر المختار إلى المدعو عبود بك أبو راشد الذي كان يشغل منصب ترجمان لدى السلطات الإيطالية آنذاك، ثم رسالة من السيد أحمد الشريف السنوسي قائد الجهاد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى إلى السيد مصطفى بن عامر رئيس جمعية عمر المختار فيما بعد .

يعقب ذلك المرثية الشهيرة في عمر المختار التي كتبها الشاعر أحمد شوقي :

في ذمة الله الكريم وحفظه /

جسد (ببرقة) وأسد الصحراء

ثم مقدمة الكتاب التي كتبها الأستاذ محمد بشير المغيربي، وقد وضح فيها دوافعه لإصدار هذا الكتاب حيث ذكر : " أنها ليست محاولة كتابة تاريخ هذه المؤسسة أو لكتابة تاريخ ليبيا الحديث فذلك ليس في مقدوري ؛ فلست مؤرخا، إلى أن يقول: إذن فإن ما نحن بصدده ليس رواية تاريخ ولا سرد مذكرات، إنه توثيق لأعمال وقعت، يمكن للكاتب المتخصص في التاريخ أن يجد فيها المادة الموثقة التي تمكنه من تحليل الأحداث وتعليل الواقع .

ولقد قام الأستاذ المغيربي بتجميع لعدد كبير من مقالات صحيفة الوطن تبين موقف الجمعية من قضية ليبيا في النصف الثاني من الأربعينيات وبداية الخمسينيات، ومثل هذا التجميع لمثل هذه الوثائق الهامة يتيح للدارسين العرب أن يدرسوا موضوعا جديدا بتوفير معلومات كان من الصعوبة الحصول عليها لمثلهم. كذلك فإن هذه المقدمة تحتوي علي نقد ذاتي حول التقصير في عدم جمع وثائق الجمعية التي تبعثرت أو ضاع جلها، وعدم كتابة يوميات أو مذكرات. ويذكر عدم تمكنه من الحصول على جريدة (برقة الرياضية) لسان حال الجمعية التي غير اسمها إلى " الوطن " فيما بعد، ولا الحصول على أعداد من مجلات الجمعية مجلة (عمر المختار) أو مجلة (ليبيا)، والحقيقة أن الكثير من أعداد هذه المجلات محدودة من حيث الكمية وفترة الصدور لكن ما نشر منها متوفر.

وأنا - كاتب هذه السطور - ولدت بعد تأسيس الجمعية بأكثر من عقد من الزمن وتمكنت من الحصول على أغلب الأعداد ومن أماكن عامة. كما قمت بتصوير بعض الوثائق من قبل أصحابها .

وقد قسم الكتاب إلى أربعة اقسام :

القسم الأول يحتوي على وثائق النشاط السياسي للجمعية حتى ١٩٥١ والتقرير السري البريطاني.

القسم الثاني يحتوي علي وثائق النشاط الرياضي والثقافي والكشفي وجمعية درنة والقانون الأساسي للجمعية.

القسم الثالث يحتوي على وثائق نشاط رجال الجمعية بعد حلها سنة 1951 وحتى سنة 1967.

القسم الرابع يحتوي على وثائق الجمعية ورجالها في قضايا الامة العربية .

وذكر بأن الجمعية أصبحت حقيقة باعتماد قانونها الأساسي في 31 يناير 1943 بالقاهرة وفي الرابع من أبريل 1943 كانت جمعية عمر المختار الرياضية المركز العام في بنغازي حقيقة واقعة، بعد الحصول على الأذن من السلطات العسكرية البريطانية التي تدير شؤون البلاد. وأقر القانون الأساسي بعد إجراء تعديل في بعض مواده من قبل الجمعية المركزية في أبريل 1944 م. وقد قام بتأسيس الجمعية في بنغازي الأساتذة علي فلاق و محمود مخلوف والسيد المهدي المطردي، ثم شكل مجلس الإدارة من أعيان مدينة بنغازي برئاسة الشيخ خليل الكوافي قاضي بنغازي وعين كسكرتير السيد سعد الجهاني.

عند عودة مصطفى بن عامر من مصر أصبح رئيسا للقسم الثقافي وتولى سكرتارية القسم محمد بشير المغيربي ونتيجة تطورات - لم يذكرها صاحب الكتاب - في الجمعية أصبح الأستاذ مصطفى بن عامر رئيسا لها والشيخ خليل الكوافي الوكيل والسيد عوض الشيباني السكرتير المؤقت .

يحتوي الكتاب كما تمت الإشارة على وثائق عديدة تجاوزت 120 وثيقة في خمسمائة صفحة من القطع المتوسط، ويقوم الأستاذ محمد بشير المغيربي بتقديم للوثيقة في مقدمة الصفحة وأحيانا يحتوي التقديم على معلومة إضافية على الوثيقة أو رأى خاص به.

ويلاحظ أن أغلب الوثائق هي عبارة عن مقالات نشرت في صحيفة (الوطن) أو أخبار ثقافية وسياسية ورياضية من نشاط الجمعية نشرت في نفس الصحيفة أو غيرها، وبالتالي فقد يكون الكتاب هو وثائق صحيفة الوطن لسان حال جمعية عمر المختار .

كما أن هذه الوثائق تضم مواقف الجمعية من محيطها ونشاطها في هذا المحيط، لكنها لا تبين ما حدث داخل هذه الجمعية ذاتها، ولا توضح دوافع تغير قيادتها بين الحين والآخر، وبالإضافة إلى ذلك يضم الكتاب تقرير المخابرات البريطانية عن نشاط الجمعية، وتقرير فرع الجمعية بدرنة .

يحتوي تقرير المخابرات البريطانية الذي حرر في أكثر من عشر صفحات في 27 أكتوبر 1952، على كل المعلومات الخاصة بالجمعية التي تهم المخابرات البريطانية، وحول تأسيس الجمعية يقول التقرير : (تكون في عام 1940 نادى عمر المختار اسم بطل المقاومة البرقاوية ضد الإيطاليين) بمعسكر أسرى الحرب الليبيين بمصر على أساس أنه جمع يقوم بتقديم العون المتبادل والترفيه بالتعاون مع موظفي المعسكر الإنجليزي. وفي عام 1941 تكونت قوة العرب الليبيين للمشاركة في الحملات العسكرية بالصحراء الغربية (شرق ليبيا) واستوعبت هذه القوة العديد من اللاجئين وأسرى الحرب السابقين بما في ذلك الاعضاء المؤسسين لنادي عمر المختار. وفي عام 1943 لم يسمع شيء عن نادي عمر المختار خلال فترة النشاطات العسكرية للحلفاء في برقة وفي عام 1943، سرحت القوة العربية الليبية وحلت محلها قوة دفاع برقة، وأن عددا كبيرا من المنتمين إلى نادي عمر المختار قد تم تسريحهم، واشتركوا ببرقة في إحياء نادي عمر المختار الذي قام بتدعيمه سته من البرقاويين منهم :

1- محمد مخلوف (عضو فعال).

2 - علي فلاق (عضو فعال).

3- المهدي المطردي (عضو فعال سابق. وليس بعيدا كليا عن النشاطات الحاضرة).

4 - الجنود الليبيين الذين جندهم الإيطاليون للحرب معهم ضد الانجليز.

هذا ما جاء في التقرير المخابراتي البريطاني حول تأسيس الجمعية. ويلاحظ أنه الرواية الثالثة حول التأسيس ؛ والمختلفة مع روايتي الأستاذ محمد المغيربي، ورواية أحد

المؤسسين مهدى المطردي التي ذكرناها أعلاه، ويبين كذلك مشاركة الليبيين في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، وفي هذا مفارقة هامة حيث أن الشعوب العربية جميعا كانت ضد الحلفاء لأنها جميعا مستعمرات إنجليزية / فرنسية باستثناء ليبيا المحتلة من قبل (جيوش المحور - إيطاليا) ؛ وتوجد مقبرة الشهداء الليبيين إلى جانب جنود الحلفاء على أرض (العلمين) التي احتفل في مصر مؤخرا بمرور نصف قرن على هذه المعركة المهمة، ولم يذكر أحد الشهداء الليبيين الجنود المجهولين - حقا - عند الجميع .

أما القسم الثاني من الكتاب فيحتوي على وثائق النشاط الرياضي، وأسماء المشاركين في هذا النشاط مثل مصطفى المكي وعبدالعالي العقيلي وحليم مفراكس وونيس الجبالي، ثم بعض الأخبار التي نشرتها الصحف آنذاك حول هذا النشاط مثل : كأس الشاعر المرحوم إبراهيم الأسطى عمر بدرنه الذي أقيم في مارس 1951، وكأس على بوقعيقيص.

ووثائق النشاط الثقافي والكشفي والمدارس الصيفية والمسائية والتي افتتحتها الجمعية إلى جانب ذكر المشاركين في هذا النشاط مثل : عبدالمولى لنقي ومنصور الكيخيا وبن عروس مهلهل ومحمد حمى والصادق باله والشريف الماقني ومحمد زغبية. وأسست لأجل ذلك مجموعة من النوادي مثل : نادي العمال بدكاكين حميد وسكرتيره الأستاذ محمد حمى، ونادي العمال بسيدي حسين وسكرتيره الأستاذ علي الساحلي.

ويحتوي هذا القسم على تقرير عام عن مركز درنة خلال ثلاثة أعوام ابتداء من 18/5 /1944م وتنتهي في 18/5/1947 م من قبل السكرتير العام عبدالكريم لياس .

ويضم القانون الاساسي لجمعية عمر المختار الذي اقرته الجمعية في 31 يناير 1942 م ووافقت عليه الجمعية المركزية في بنغازي في جلستها المنعقد آخرها في أبريل 1944 م. ومن مواد هذا القانون :

المادة 3 : اغراض الجمعية تنحصر في الثقافة والرياضة والأعمال الخيرية. ووظيفة قسم الثقافة إنشاء فصول دراسية للتعليم، وإصدار صحف ومجلات بقدر الإمكان والعمل لمحو الامية. أما وظيفة قسم الرياضة فتنحصر فيما يلي :

1 - بث الألعاب الرياضية في ليبيا.

2 - تأسيس نوادي وملاعب وحفلات

3 - تكوين اتحادات ليبية لجميع الالعاب الرياضية .

4 - تكوين اتحاد ليبي لحكام الالعاب الرياضية .

المادة 4: تعمل الجمعية على توثيق روابط الشباب الليبي بتأسيس جولات وحفلات رياضية.

المادة 6 : كل فرد يود الاشتراك في الجمعية يجب ان يكون مستور الحال غير مشتهر بما يشين.

وتوضح هذه الوثائق أن الدور الرياضي للجمعية بقى بارزا إلى جانب العمل الاجتماعي، وأن العمل السياسي اتخذ من هذا النشاط وسيلة للاتصال وغطاء، وبالتالي فقد كان الرجال الرياضيون من المبرزين في الجمعية مثل مهدي المطردي .

يضم القسم الثالث وثائق الجمعية بعد حلها وهي المقالات التي نشرت بصحيفة (الدفاع) لصاحبها المرحوم صالح بويصير ؛ وذلك بعد إغلاق صحف الجمعية وذلك عام 1951 م، وتنتهي الوثائق عام 1967 م، والسؤال : لماذا عام 1967 م، هل هو التاريخ الذي انتهى فيه عمل الجمعية ؟. ويضم هذا القسم موقف الجمعية من المواقف الأمريكية تجاه القضية الليبية، وحول الوجود الفرنسي في ولاية فزان الذي انتهى عام 1956 م. كما يضم القسم المقال الافتتاحي للعدد الأول من مجلة النور التي أصدرها عقيلة بالعون وهو حي يرزق أمد الله في عمره، ونحن نتمنى أن ينشر الأستاذ عقيلة وجهة نظره حول ما جاء في كتاب الأستاذ محمد بشير المغيربي من أن هذه المجلة تتبع الجمعية أم لا، وقد صدر العدد الأول منها عام 1957. كما يضم مقالة موقف الشعوب من مشكلاتها.. بقلم محمد بازامه. ثم الوثيقة رقم 13 في هذا القسم وهي مشروع برنامج لتنظيم سياسي تحت اسم الاتحاد الشعبي.

القسم الرابع يضم وثائق العمل القومي لجمعية عمر المختار ؛ حيث يحتوي على وثائق تبين علاقة الجمعية بالحبيب بورقيبة، وزعماء الثورة الجزائرية في الخمسينيات مثل السيد محمد خيضر وحسين أية أحمد وأحمد بن بلة وغيرهم. وكذلك عمل الجمعية على تجنيد متطوعين ليبيين لفلسطين في حرب 1948 م. ومقال مصرع مرشد الأخوان المسلمين (حسن البنا) وثمة أكثر من إشارة للإخوان المسلمين بالكتاب تضع علامة استفهام حول

علاقة الجمعية بالإخوان. إضافة إلى موقف الجمعية من فرنسا لموقفها من ملك مراكش وحزب الاستقلال. ثم يختتم هذا القسم بنشر بعض الوثائق حول المواقف الشعبية، ومواقف بعض الشخصيات الوطنية من حرب 1967 م. أما خاتمة الكتاب فقد كتبت حسبما أشار الأستاذ محمد بشير المغيربي أثناء طباعة الكتاب وفي تاريخ صدوره أي في يناير 1993 م .

ضم الكتاب الوثائق حتى عام 1967، حيث جمع الاستاذ محمد بشير المغيربي الوثائق التي تتحدث عن الجمعية منذ تأسيسها إلى عام 1951 تاريخ حلها، وضم إلى ذلك وثائق لأعمال شعبية وشخصيات وطنية وأعمال المؤلف الفردية ؛ والسؤال الذي لابد أن يطرح هل استمر عمل الجمعية كمنظمة سياسية بعد حلها ؟، وهل نجاح مصطفى بن عامر ومحمد بشيرالمغيربي وغيرهما لمجلس النواب كانت ورائه الجمعية ؟، وهل يريد الأستاذ المغيربي أن يؤكد : أن الجمعية تحولت من العمل العلني بعد حلها إلى إلعمل السري أي تحولت إلى تنظيم سري ؟، وهل حاول هذا التنظيم العمل في العلن ومن ضمن هذه المحاولات طرح مشروع إقامة تنظيم الاتحاد الشعبي ؟ وهل توقف عمل الجمعية عام 1967 حيث توقفت الوثائق ؟ .. أي هل حلت نفسها في هذا التاريخ ؟ إن الكتاب لم يتكلم في هذا الخصوص مما جعل الوثائق المنشورة ضمنه تطرح هذه الأسئلة.

بينت الوثائق غياب البرنامج السياسي للجمعية، وبين قانونها الاساسي أهداف الجمعية في العمل الرياضي والثقافي والاجتماعي، غير أن قراءة الوثائق وضحت أن عمل الجمعية كان يتم تحت شعار الاستقلال واتحاد البلاد، وقد تحقق الاستقلال بإصدار الأمم المتحدة لقرارها بالخصوص ثم أقيمت المملكة الليبية المتحدة ؛ أي تحقق هدفا الجمعية في الاستقلال والاتحاد مما يعطي الانطباع أن الجمعية حققت عملها وانتهت بالتالي، وأن حلها من قبل الدولة كان تحصيل حاصل فلقد انتهى دورها .. فهل هذا التاويل صحيح أم أن غياب الكثير من الوثائق عن هذا الكتاب خلق الإرباك والتشوش، وبالتالي يدفع هذا الغياب مثل هذا التاويل إلى الذهن ؟ .

أخيرا الأستاذ محمد بشير المغيربي شارك بفاعلية في الحركة الوطنية في ليبيا لما قارب النصف قرن من الزمان وبفاعلية بينها : كتابه " وثائق جمعية عمر المختار - صفحة من تاريخ ليبيا " ؛ إن هذا الكتاب هو جزء من عمله الوطني السياسي والثقافي لأنه جاء

في وقته ليبين أن نضال عمر المختار لم ينته يوم إعدامه في 16 سبتمبر 1931 ؛ بل امتد في الكفاح المسلح على أيدي المجاهدين يوسف بورحيل وعبدالحميد العبار وغيرهما، ثم ليتواصل في مشاركة الشعب الليبي في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء ليتواصل كفاح عمر المختار السياسي بعد التحرير العسكري للبلاد في عام 1943 م .

وإذا أردنا أن نكتفي بما لدينا من وثائق، وأن نؤل خطها العام وعملية الجمع والتحقيق معتبرين أن المسكوت عنه هو الخلفية التي تجعل من الممكن تحليل عملية الجمع والتحقيق باعتبارها هي رأى المؤلف ؛ إذا اعتبرنا ذلك كذلك فإن هنالك مجمل استنتاجات تجعل من هذا الكتاب الوثائقي هو نوع من السيرة الذاتية لصاحب الكتاب ويتبدى ذلك في أن الأستاذ المغيربي قد تقصى وثائقيا منشطه العام منذ بداياته الأولى.

الوثائق التي يحتويها الكتاب تقدم فكرة توثيقية محددة فيما شارك فيه معد هذه الوثائق كما أنها تمتد إلى بعد حل هذا الحزب ومنع العمل الحزبي المبكر والسارى المفعول. والأدبيات المرفقة تقدم صورة مفصلة للتطور الفكرى لعمل الجامع فترة عمل الجمعية وبعد حلها بفترة أطول ؛ مما يمكن الباحث بسهولة من استقصاء المفاهيم الفكرية والنظرة السياسية للأستاذ المغيربي وإن لم يشر لذلك مباشرة، وتمكنه الظلال التي تشتد حيث اشتد الضوء / المتن من سبر غور البعد النفسي لهذا المناضل الذي تربي في بيئة تجنح إلى التستر وإخفاء جموح الذات للتوكيد.

هكذا يكون هذا الكتاب مرجعا مهماً للدارسين العرب والباحثين الليبيين منهم على الخصوص، وأداة تحفز كل من لديه وثائق أن ينشرها، وأن يكتب من ليس لديه وثائق مذكراته حول المرحلة، وأن لا نكتفي بالأحاديث الشفهية التي تنقد عمل الآخرين دون أن تعمل.

الملف



نـدوة

السيرة الذاتية في ليبيا

بين الإبداع والتاريخ

هل السيرة الذاتية هي تسجيل لتاريخ الأحداث والوقائع التي عاشها راويها؟ أم أن السيرة هي إعادة كتابة تخيلية لوقائع التاريخ الذي عاشه الكاتب، هل السيرة وثيقة تاريخية أم نص أدبي إبداعي؟

هذه الأسئلة وغيرها، كانت محاور نقاش ضمن ندوة «السيرة الذاتية في ليبيا بين الإبداع والتاريخ» وهي الندوة التي نظمها مركز الدراسات القانونية بالنقابة العامة للمحامين الليبيين وذلك ضمن فعاليات موسمه الثقافي في شهر رمضان المبارك الموافق 28 نوفمبر 2002 وشارك فيها عدد من الكتاب والنقاد والباحثين.

المشاركون حسب تسلسل مداخلاتهم في الندوة:

- / يوسف الشريف، قاص ومهتم بأدب الأطفال.
- / أحمد الفيتوري، كاتب.
- / عبد الرحمن الجنزوري، محامي وباحث.
- / د. محمد الجراري، باحث في مجال الكتابة التاريخية.
- / منصور بوشناف، كاتب.
- / د. خليفة التليسي، مترجم ناقد وباحث في مجال التاريخ.
- / رضا بن موسى، كاتب.
- / جمعة عتيقة، كاتب ومحامي.
- / محمد داره، محامي وباحث.

- / حسين طاهر الرفاعي، مثقف.
- / محمد بلقاسم الهوني، قاص.
- / حسين المزداوي، كاتب.
- / أسماء الطرابلسي، كاتبه.
- / محمد العالم الراجحي، مثقف.
- / أمين مازن، ناقد.
- / على صدقي عبد القادر، شاعر.
- / صلاح طاباق، محامي.
- / أحمد عبد الحي، محامي.

شكر واجب

تتقدم «عراجين» بوافر الشكر للأستاذ محمد سالم دراه المحامي على جهده الذي قدمه بتوفير نص الندوة المسجل.



نــدوة



السيرة الذاتية في ليبيا

بين الإبداع والتاريخ

مدخل إلى السيرة الذاتية / الأستاذ يوسف الشريف

اسمحوا لي قبل البداية أن أتوقف عند بعض المحطات الرئيسية حول ما يطلق عليه السيرة الذاتية. في البداية يشير عنوان الندوة «السيرة الذاتية في ليبيا بين العمل الإبداعي والتاريخ» إلى تحديد موضوعنا بأفقين "الإبداع والتاريخ"، وهذا ما يثير أسئلة عديدة.

السيرة الذاتية ليست تأريخاً، وإلا تحولت إلى مذكرات، والفارق واضح.

السيرة الذاتية ليست إبداعًا، وإلا تحولت إلى رواية.

إذا ماهي السيرة الذاتية؟!

إذا بحثنا عن تعريف للسيرة الذاتية نجده كما يلي:

السيرة الذاتية: اصطلاح يدل على تاريخ حياة شخص، يستحق التسجيل والذكر. هذا الاصطلاح مفقود في الأصل من المادة اللغوية.

سار أي مشى وسلكَ وذهبَ في الأرض، ومن هذا المعنى، أصبحت السيرة تدل على الطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان، لعل في هذا التعريف بعض القصور.

هل لكتابة السيرة الذاتية علاقة بالحرية؟ والاجتهاد؟ والاختلاف؟

هل لكتابة السيرة الذاتية علاقة بالمقدس الاجتماعي؟ أو بالمقدس السياسي؟

هل يستطيع صاحب السيرة أن يكتبها إذا كان على خلاف مع النظام السياسي القائم وقت كتابتها ونشرها؟

هل هذا هو السبب وراء إحجام شخصيات عديدة في الوطن العربي عن كتابة سيرتها؟ أم إن هذا اللون من الكتابة طارئ علينا ولم يتجذر بعد في حياتنا؟

في بلادنا شخصيات كثيرة رحلت عنّا دون أن تكتب سيرتها والتي لو قُدِّر لها أن تنجز لكانت إضافة مهمة لسيرة البلاد الاجتماعية والسياسية، ولأضاءة أنواراً كاشفة على الكثير من خفايا هذه السيرة وخلفياتها، وهناك شخصيات لها أدوارها البارزة في حياتنا الراهنة نتمنى أن تكتب سيرتها، أذكر منها على سبيل المثال فقط الأستاذ على المصراتي، والأستاذ خليفة التليسي، والأستاذ علي الديب، والدكتور وهبي البوري، والأستاذ علي رجب، فمتي يكتب هؤلاء سيرتهم؟!

أكتفي بهذه الأسئلة والتساؤلات وأدعو الأستاذ أحمد الفيتوري ليقول كلمته في موضوعنا "السيرة الذاتية في ليبيا بين التاريخ والإبداع".

نسج العنكبوت: أنا هو الآخر، سيرة ذاتية للموضوع / الأستاذ: أحمد الفيتوري (2)

موضوع "السيرة الذاتية" من الموضوعات التي تشغل حيزاً من اهتماماتي قراءة وكتابة، ومن جوانب المصادفات إنني بصدد الانتهاء من كتابة "سيرة بنغازي" وهو كتابي السيروي الأول، أحاول القول فيه عن علاقتي بالمكان وسيرة المكان نفسه.

من هنا أرى أن السيرة موضوع شخصيٌ، ملحاحٌ، وأشعر بحاجة شديدة إليه ومتعة في قراءته أو كتابته، أحس بالكثير من الغبطة عندما أطّلع على سيرة ما، أو أسمع سيرة ذاتية من أحدهم، أهتم كثيراً بهذا الجانب، لكنني سأحاول الآن طرح أفكارٍ عامةٍ في موضوع السيرة وهي خلاصة لقراءاتي ووجهات النظر حول الموضوع والعنوان ما يلي ب :

نسج العنكبوت: أنا هو الآخر / سيرة ذاتية للموضوع

تنسج العنكبوت خيوطها التي تبدو لغيرها واهنةً، ولفرائسها القوة، كذلك تنسج الذات سيرتها فتوقعنا في حبائلها، حيث لكل ذاتٍ نوافذ كعيون العنكبوت، تحصى لكن لا حد لها، والسيرة خارطة هذه المتاهة، وإذا كنا نريد الولوج بين ظفري الذات وسيرتها فإن ذلك يعني التوهان في المتاهة.

كنتُ منذ وقتٍ مشغولاً بهذا الموضوع، قبل أن يحصل وأُبلغ بالمشاركة في هذه الندوة، لكنني شُغلت عن السيرة الذاتية بمشاغل الذات، حتي تناسيت الندوة، لكن الانغماس في

الكتابة يجعل المرء مشغولاً بموضوعة السيرة الذاتية، لأن الكتابة حالة سيرورة وسيرة، والكتابة منزعٌ ذاتي -كما فعل العنكبوت- للحياة.

قرأت فيما انصرم من أيامٍ سيرًا ذاتيةً عدةً منها: سيرة ساخرة للمفكر السوري "بو علي ياسين"، و "مذكرات" الشابي، و "وقدات" عبد الله القويري، وكتبت "سيرة بنغازي".
هل السيرة الذاتية وثيقة؟ موضوع؟ صورة أشعة "X" ؟ خطاطة "اسكتش"؟ وبالتالي مستند ومرجع؟ كما خيوط العنكبوت دليل قاطع لكل محقق علمي بحث وقانوني.
أم لعبة طفلية أو لوحة تشكيلية تستمد قوتها من تماسكها الداخلي؟ وليست كمرجع ومستند.

أو كما هي الرواية، وكما كل لعبة، غشٌ وخداعٌ يخفي شيئًا أكثر أهمية. يبدو هذا الموضوع شائكًا، لهذا اشتبكت، فيما طالعت من سير، التي ظهرت مرةً وثيقة دامغة وفي مرة أخرى «كريستال»، وفي لحظة ما تبين لي وعلى حين غرة وبشيء من الذهول إنه كان يستحضر عين المعري الذي فقد البصر وهو في سن الرابعة، تبين لي أن الخيام، نظر إلى العالم، وأنشد شعره بعيني أبي العلاء، لقد حذا حذوه ومشى على أثره ووطئ بلطفٍ جسده المسجى، مع الإيماء إلى العينين الغائبتين، فكأني وجدت في عيني المعري كل سيرة ذاتية: الظلمة المضيئة. أو بصيغة الشاعر الألماني غوته "كلما اشتد الضوء اشتدت الظلال". كأني نهجت غير نهج فالتبس لدي الموضوع وإن ماصحّ فيما نهجتُ ينضح نضحًا بأن السيرة الذاتية كتابةٌ إبداعيةٌ سردية، فلم نتبين فروقًا محددةً بين الرواية، خاصة الرواية السيروية وهذه الكتابة السيروية الذاتية، هناك تداخل ما، كما إن هناك تقاطعًا دون جزم مغلق فيما هناك من تباين.

الكتابة كتابة كما أن كاتب السيرة محبوس في الوقائع وإن كان طليقًا في نسجه ما يختار من الوقائع، والكيفية التي يعاد بها نسج هذه الحبائل المنتقاة بعناية ظاهرة أو مسكوت عنها. محبوس في أن ما حدث قد حدث ببراهين ذاتية يمكن التحقق منها لكن لا يمكن توكيدها قطعيًا، فهي ليست مسلمات؛ كأن السيرة الذاتية تؤكد أنها الواقع في عيني المعري، وأن الرواية الأدبية هي الواقع في مخيلة المعري.

هامش: في عيني المعري ما يتخيل أنه يرى، في مخيلة المعري ما يتخيل قسرًا، وهذا التوضيح مخلٌ بالمعنى إلى حد ما.

سيبدو للمتأمل في هذا التشبيه شبهة صلب المسيح أو حتى قتله، ولن يعفينا من هكذا اشتباه ما تقدم، فما هي استدلالات لاتُبدِ من وثوقية في التباين بين كتابة السيرة الذاتية والفعل الإبداعي الأدبي؛ ما بين عيني المعري ومخيلة المعري، وإن قرَّ نهجنا بهذا الفصل ألاّ تكون في الكتابة السيروية شبهة الوثيقة مما يمكّن القانوني أو السيكولوجي من استكمال أوجه التحقيق؟

لن أكون محامي الشيطان لكننا سنتحقق مما سبق كتأكيد، فالحق لجلاج أو حلاج، إن سقطت النقطة سهواً أثناء الطباعة أو طبعت الآن قولة جوستاف فلوبير: "مدام بوڤاري هي أنا". لنتلمس الموضوع منمذجًا في النتاج الثقافي الليبي من خلال اسمين على اتفاق في الموضوع وعلى اختلاف في المعالجة وهما: "علي مصطفى المصراتي" و "عبد الله القويري" اللذان تقول سيرتهما أنهما وُلِدا في المهجر ودرسا وعاشا في أجواء ليبية شبه مغلقة في المهجر الإرغامي على أثر العدوان الفاشي المعروف علي البلاد وعلى مدينتهما المشتركة مصراتة، مع ملاحظة الفروق بين هذين الكاتبين في الكثير من المعطيات فإن لازمة كليهما الوطن/ ليبيا.

المصراتي سيعرف كمحقق وباحث في النتاج الثقافي الليبي وصاحب منزع موضوعاتي، القويري كاتب السردية والحواريات، صاحب المنزع الذاتي المثالي النظرة، وإن كانت ثمة التباسات تدحض هذا التوصيف الصارم للكاتبين فإنها لا تلغيه بأي حال. من مجمل نتاج الكاتبين الغزير أقترح كتاب "غوما"* للمصراتي، وكتاب "الوقدات"* للقويري؛ الأول فيما يبدو لي سيرة ذاتية للزعيم الليبي فترة الحكم العثماني الثاني المدعو غومة المحمودي؛ كتبها علي المصراتي، فيما الثاني "وقدات" سيرة ذاتية للكاتب عبدالله القويري نفسه، على الغلافين لا يقدم المؤلفان أية معونة للتجنيس، أو شكل من أشكال الاصطلاح البحثي: الوقدات وقدات وكفى، غوما غوما وفقط.

لن نستنطق نص "غوما" لأن هذا النص يعرضنا هو لاستنطاقه، فمن مجمل ما ينطق به الأجواء الفيزيقية ومشوبها على النفس، ومن الأحوال تنبجس حالة نفسانية وظلال هذه الحالة التي تشتد، تتوضح من خلال بنية النص أو مضافة من تخيلات الكاتب، الكاتب الذي يرقب ويحبس شخصيته غوما، فيما يجول في خاطرها من خطرات وتفضّناتٌ تشكل الوجه، وتحفر في النفس معالم لا يرصدها حتى معايش للشخصية التاريخية [غوما المحمودي]، التي يوهمنا النص بأنه باحث مدقق في تسجيل وقائعها.

إن الشخصية المظللة تضلل القارئ وتقنّع الشخصية بالشخصية التاريخية "غوما المحمودي" التي نعرف عنها ما نعرف.

هناك رصد للنفس ولحالاتها، ومخيلة عابثة تستهدف التضليل والخديعة؛ ف "غوما" المصراتي في المحصلة هو "غوما" تخييل، "غوما" هو ما رأى وما شعر وما شكّل وماصاغ وصوّغ المصراتي. تبدو هذه الوضعية التي أصفها حافلة بالمفاجآت، لكن المصراتي ذاته يتفاجأ بهذا التوصيف لأنه أبدع شخصيته وظللها.

سنقفز هنا لحصد ما حصلنا عليه، المصراتي هنا كاتب سيرة ذاتية، ضمير المتكلم يلجلج في صدر ضمير الغائب، وكي لا يغمض هذا ما تقدم عليه نخلص إلى نتيجة: أن السيرة الذاتية هذه ليست تأريخًا لشخصية غوما المحمودي التاريخية، وإن كانت تؤكد بكيفيتها هذه الشخصية، كتابة كهذه لا تلغي التناقضات بل تؤكد عليها وتستحثها كي لا تظهر البتة في شكل وثيقة مرسلة ومخترقة حجب الزمان كما في حالتنا هذه، وبهذا كأن سيرة غوما الذاتية للأستاذ علي مصطفى المصراتي هي السيرة التي يفترضها ل "غوما المحمودي" الشخصية التي نعرفها إلى حد ما، والتي لا يفترض إنها وثيقة بالمرة.

في النص بما فيه من التباس الشعري المتأبي عن الإحصاء، أو كما يقال: أن بين النص الروائي والسيرة الذاتية من وشائج تُرى للرائي وكذلك بينهما من تقاطع وتفارق.

إن كاتب السيرة الذاتية لـ "غوما" ليس في منزلة بين المنزلتين عندالمتفحص، ففي السيرة من وقائع وتوثيق ما يظهر المصراتي باحثًا، لكنها وقائع ووثائق مصراتية بحتة، هكذا كما عند كل كاتب سيرة ذاتية، بما سبق نستنتج أن التخييل هنا محدود ويخدم مرجعيات الكاتب، علي عكس الأدبية في الكتابة السردية التي تجعل من المرجعية في خدمة التخييل وانزياحاته، فالمدلول في هذه الكتابة انحراف عن الدال.

لسيرة "غوما" كما مثيلاتها منطقٌ هو منطق: "الـ يمكن أن يكون"، وهذا ما يسمى في الحداثة "المنطق الاحتمالي". ومن الـ "يمكن أن يكون" أو يستقبل تجربة المتأبي علي الحساب، متأبٍ على الحساب الجذري، حتى وإن تطلبت المسئولية القانونية والاخلاقية والسياسية بعد ذلك أن يكون تفاوضًا وإذ به حساب وتقدير للمتأبي على الحساب، وفقط في الدخول إلى الـ "ما بين" من هذين المنطقتين، منطق القابل للحساب ومنطق الـ "يمكن أن

يكون" يمكن التعرف ربما علي "الما بين" الذي يهمنا هنا، أو كما في منطق دريدا يمكن تفكيك التماهي الظاهر بين الكاتب والسيرة التي يكتبها في حالة كهذه من جهة ومن جهة ثانية يحتمل ذلك فك هذه الكتابة من اشتباكها في الكتابة الأدبية المحصنة خاصةً الكتابة السردية.

وهكذا يظهر أن المقصود بالسيرة الذاتية محكية تلخص حياةً ما، كما سنرى في "وقدات" عبد الله القويري التي كتبها هو نفسه، حيث انشغل كثيراً بكتابة سيرته، ظهر جزء منها في كتابه "أشياء بسيطة" * ثم في وقداته وفي الحوارات التي أُجريت معه كما في كتاب "عبد الله القويري مفكر يبدع في الأدب والفن".

هذا الانشغال بالذات وسيرتها يكشف عن مستوى بنية النص التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية وأن السيرة مكتوبة من طرف المعنى ومكتوبة في شكل بسيط، وتُستعمل مثل هذه الكتابة من أجل أغراض متباينة، فالحديث عن الذات يمكن أن يفيد إما كبرياء متضخمة وإما نوعًا من التواضع، وفي كلتا الحالتين ينظر السارد إلى الشخصية من مسافة، ويقحم في حكيه تعاليًا يتطابق معه في نهاية المطاف، يفتح القويري كتابه ويوقظ وقداته بهذا: "ستظل هناك في نفوسنا أشياء غائرة، أشياء لا تُرى، ونأخذ النذر اليسير منها ونتدلل به الغير، نقدمه إليهم وعندنا شعور بأننا نمنحهم البركة."

وفي حوار عبد الله القويري أو مونولوجه المستدام/ المستلاب:

هل سأذكر كل ما أتذكر، وهل سأجد الشجاعة على ذلك؟!

وجدت من الشجاعة أن أكون متفرداً

قال وليم: أنت مثالي، وفردي

قلت: وماله. كنت ذلك الحزين الدائم، قليل الأمل كثير الألم، كنت طفلاً كبير الجسد تاه طويلاً، ثم فجأة وجد نفسه في بيته، في وطنه"

وعن سبل كتابته لسيرته يقول: "أنا مضطر لاصطناع بعض الحيل الفنية" قد تكون هذه الحيل لعبة للتنصل من تماهي الذات والنص، وقد تكون من ناحية أخرى حصيلة ايديولوجيا سائدة.

السيرة الذاتية تلخصها الجملة المعتادة: "أنا الموقع أدناه" والتحرز الأيديولوجي المعتاد في هذه الحالة جملة "أعوذ بالله من قولة أنا؛ ليست سيرة ذاتية، وإن اتخذت من ذكريات حياتي منطلقًا لها، إذ لم نتعوّد الصراحة في رواية ما يتصل بأشخاصنا، وإذا كان هناك من عنده الشجاعة في أن يفعل، فليس هناك من يقبل منه ذلك"

كما تكون الحيلة في مواجهة هذه المقولة بتستر الذات بضمير الغائب كما في بعض السير من آخرها "مسارب" أمين مازن، أو لإخفاء المتجلي في التماهي بين الذات والموضوع حيث "وقدات" سيرة ذاتية يتمارى فيها الموضوع من خلال الذات، فالوطن في هذه السيرة هو الذات وأحيانًا لا يطولها: "كانت الروح في إشراقٍ دائم، وحالة الاستكشاف هي حالة النفس البدوية التي لا تخنع، فليس عندها إلا الحركة الدائمة ظاهريًا وداخليًا".

وفي هذه السيرة يتم النسج على هذا المنوال لنقرأ: "كنت كالمحمول إلى حتفه، أتحرك من مكان إلى مكان، أقف بين الحين استمع لما يدور، ثم أدور فلا أسمع غير الهمهمات، لم أكن مثلهم، فقد جلست داخل ذاتي منذ زمن".

إن مبررات كتابة السيرة الذاتية عند القويري مبررات ذاتية بحتة، حديث الذات المحبوسة مونولوج، وهذه الذات المحصورة تفكك مكوناتها بالانفلات من كل حد، لهذا أنشغل الكاتب بالكتابة عن هذه الذات حتى تتحقق موضوعيًا، هذا التحقق العاري الذي لا تمنحه أية كتابة أدبية تشدها قوانينها الداخلية من جهة، كما تمنح شذرات تكيّفها المخيلة بمقتضى الكتابة النوعية.

لقد وجد القويري في كتابة السيرة الذاتية آلة تدوي بمكنونات الذات؛ سبيلاً للبوح. كما تجد الأنوثة المقهورة في النواح فصاحة للمكبوت، ولأنه من المستحيل أن نقول الحقيقة حول الذات، أو أن نتكون باعتبارنا ذوات كاملةً، ومن ثم فإن السيرة الذاتية هي ذلك العمل المستحيل، وكان عبد الله القويري جديرًا بفعل هذا المستحيل، فكانت سيرته الذاتية سيرة التميز، تشفّ عن خفاياها كما تطرق موضوع غربة الذات الوجودية، الذات المفردة بصيغة الجمع، فاضحةً كل قولبة ممكنة وغير ممكنة، متعالية في فصاحة النسر: "هنا تتعالى دوحة النفس، فلنبن لنا أعشاشًا بين أغصانها فتجئ إلينا العقبان حاملة لنا الغذاء، نحن

المنفردين" * كما قال نيتشه، أو كما قال فيليب لوجون: "إن السيرة الذاتية ليست مجالاً ضيقًا أو محدودًا، بل نوعٌ يدعو إلى الانفتاح على مجالات أخرى، على التحليل النفسي وعلم النفس والسوسيولوجيا والتاريخ، مما يؤدي إلى وجود عدة اتصالات وعلاقات تجعل الاهتمام بالذات ممزوجًا في نهاية المطاف بالإنصات للآخر".

فهل من منصتٍ لهكذا وقدات تنقد غربةً في بيتها.

وختامًا نشير إلى أن توخى التوضيح يعرضنا لخطرين اثنين هما: خطر الظهور بمظهر من يجترّ نفسه، هو ذاته بديهيات حيث لابد من مراجعة كل شيء من أساسه والخطر النقيض الذي هو خطر الظهور بمظهر من يريد تعقيد الأمور عن طريق تميزات دقيقة للغاية، ولكن هذا لا يمنعنا من ملاحظة أن عزمنا لم ينصبّ على آية مقارنة أدبية أو موضوعاتية بين النصّين وإن اشتمل كل بحث مماثل على شبهة المقارنة، ودوافعي لتقديم هذا الايضاح لأن اشتراك النصين في شكل كتابة ما لا يلزم موضوعيًا بمقارنة مدققة.

التخييل والتوثيق بين السيرة والتأريخ/ عبد الرحمن الجنزوري *

ربما أتفق مع الأستاذ يوسف الشريف في بعض الجزئيات من كلامه حول السيرة الذاتية والتاريخ، إذ سبق لي تصورت أن السيرة الذاتية إخبارٌ عن الماضي من خلال صاحب السيرة ورؤيته وخياله، إذ لا يستطيع كاتب السيرة أن يرسم لنا شخصية قديمة، ويجسدها أمامنا، وإنما يقوم بصناعة صورٍ ذهنيةٍ، وقلت سابقًا إن الصور الذهنية هي الوسيلة الوحيدة لعرض الذكريات خلافًا للتاريخ الذي يستخدم الوثائق المكتوبة والآثار المحفوظة، لذا فإن من يكتب السيرة الذاتية يغلب عليه الطابع الذاتي، حتى إن لم يتعمد ذلك، وقلت فيما قلته سابقًا إن السير الذاتية ليست واحدة وإنما تختلف من شخص إلى آخر، ليس لاختلاف إدراكهم وتجاربهم فحسب بل لأن ميولهم تقودهم إلى الانتقاء وتسجيل ما يتفق مع أهوائهم ونبذ ما يخالفها.

السيرة إذًا انتقاء، وذكريات الناس لا يمكن أن تكون متماثلة، ولاتخلو من الانحياز لاوضاعٍ وقيمٍ وعلاقاتٍ وقضايا يؤيدها هذا ويعارضها ذاك، وقد ينقلب الموكب عند نفس البند فيغدو مضادًا بما كان يبشر به أو العكس، تبعًا لتغير موقعه على السلم الاجتماعى أو تغير قيمه وأفكاره، فيصور الماضي وفقًا لما يطرأ عليه من تغيّر.

وكما أشرت سابقًا، فإن الماضي ليس ماثلاً أمامنا كهذه الشجرة التي نراها جميعًا ولا يختلف عاقلان على أنها ليست بيتًا أو إنسانًا، في حين أن الذكريات لا تعرض أشياء مادية ملموسة، ومثلها التاريخ الذي يقتصر على الرواية ونقل الأخبار إنما يعرضان صوراً مستقلة من الذاكرة في حالة الذكريات أو منقولة عن الآخرين لحالة هذا الصنف من التاريخ الذي تجاوزه العلم العصري. وأعود لما ذكره الأستاذ يوسف الشريف لأختلف معه حول تساؤله: هل يمكن كتابة السيرة الذاتية في جميع النظم الاجتماعية والسياسية حتى تلك التي لايتفق معها الكاتب؟ وأجيب عكس إجابته، نعم يستطيع الكاتب أن يكتب في جميع النظم الاجتماعية والسياسية حتي تلك التي لا يتفق معها، بإمكان الكاتب أن يتجنب كثيراً من المواقع الحساسة التي تجلب عليه المشاكل ويعرض بأسلوب خاص كل مايود عرضه ليس عن طريق التصريح وإنما بالتلميح. باستخدام الرمز والايحاء بدلاً من المباشرة حتى عندما يتحدث عن الحاضر، ناهيك عن السير الذاتية التي تتحدث وتنقل أخبار الماضي.

وأيضًا تساءل الأستاذ يوسف الشريف عن علاقة السيرة الذاتية بالإبداع أقول إن العلاقة بين السيرة الذاتية والعمل الإبداعي علاقة فردية بحتة إذ يتوقف على الأسلوب، إذ لا نستطيع أن نضع حداً فاصلاً بين السيرة والعمل الإبداعي ليس لأن ابن خلدون يطلق على التاريخ اسم الفن، بقوله إنه فنٌ فقط ، ولكن لأن الأساليب في الكتابة تختلف من شخص إلى آخر فمنهم من يضع السيرة الذاتية في قالب أدبي كزميلنا المرحوم "كامل المقهور" ومنهم من يسردها كسرد الحكايات مثل بعض الكتب، فعلاقة السيرة الذاتية بالعمل الإبداعي ليست علاقة فاصلة إنما هي علاقة تتوقف على أسلوب العرض -الصياغة- فقد يعرض شخص ما سيرته الذاتية في قالب شعري أو فن قصصي وقد لا يستطيع غيره لأنه غير متمكن من الصياغة الأدبية والفنية وتبقى السيرة سيرة.

ندرة الكتابة السيروية في ليبيا - أسباب ونتائج/ د. محمد الجراري

السيرة الذاتية تعتبر مصدراً من مصادر التاريخ، باعتبار أن كتابة التاريخ بحاجة إلى شروط معينة منها المصدرية: ويعني أن يكون هناك منهج لهذا التاريخ، المنهجية: وهو أن يتبع كاتب التاريخ منهجًا أو مدرسة معينة وجهة قراءة لابد من باحث متخصص في التاريخ حتى يقوم بعملية التأرخة. والسيرة الذاتية تنقصها كل هذه الشروط المذكورة لذا لا

نستطيع اعتبار السيرة الذاتية تاريخًا وإنما بإمكاننا عدّها كمصدر من مصادر التاريخ. السيرة الذاتية بهذا المعنى كمصدر من مصادر التاريخ هي قديمة، نذكر كمثال الروماني "بلوتارخ" عاش في القرن الأول الميلادي، ووضع سيرًا لعظماء العالم، حاول أن يعطي لهذه الشخصيات نوعًا من المقارنة، إذ أخذ مقابل كل شخصية من التاريخ اليوناني واحدة من التاريخ الروماني وقام بمقارنة ما بين الشخصيتين من خلال التحليل النفسي والاجتماعي للشخصيتين ولم يهتم كثيرًا بالوثائق. ويحتوي عمل «بلوتارخ» مايقرب -150- شخصية، وكل شخصية مقابلها شخصية من التاريخ الروماني وقد توالت التجارب في هذا المجال وأصبحت كتابة "ووتر" تعتبر الآن من المصادر المهمة لقراءة تاريخ روما ودراستها.

السير الذاتية بهذا المفهوم متوافرة ومتواترة وموجودة منذ العصور القديمة سواء أكانوا في العصر الروماني أو في العصر الإسلامي والشواهد كثيرة في كل عصر، من هنا يتبين أهمية السيرة الذاتية في التاريخ، كمادة دراسة وكمصدر مهم، وأعتقد أن هذا ما يجب التركيز عليه: ماأهمية السيرة الذاتية كمصدر من مصادر تاريخنا؟!

في تجاربنا المعيشة في ليبيا عامةً، وفي معايشتي لإحدى المؤسسات المتخصصة في التاريخ شعرت أن هناك الكثير من النقص ومن المواد التي كان من الممكن أن تستوفى لو وجدت كتب السيرة والتراجم، أيضًا هناك الكثير من الشخصيات الوطنية المهمة في تاريخنا الوطني فقدنا أعمالها الشخصية وتراثها، لأنها ببساطة شديدة لم تتبرع، أو لم تقم بالكتابة، مثلاً لو وجدنا كتابًا أو نوعًا من المذكرات للباروني، كانت ستعطينا الكثير جدًا من المعلومات القيّمة المهمة، مع الإشارة إلى إن ابنته قامت بجهد مشكور ولكن شتان ما بين الفرع والأصل -حيث إن الباروني عالم كبير، كنا استفدنا من امكاناته الكبيرة.

هناك العديد من الشخصيات الأخرى المهمة من مثل شيوخ الزوايا والطرق الذين كنا نتمنى أن يقوموا بكتابة شيء ما حتى نستطيع أن نلقي الضوء على مجالات معينة في تاريخنا الوطني، نحاول الآن استكمال هذا النقص، وأنا أتمنى أن أجد اقتراحات في هذا المجال، إما عن طريق الرواية الشفوية، وهو جمع كلام الناس ومحاولة أخذ ما يخدم السير الذاتية من خلال جمع الكلام والآراء الشخصية حول شخصياتنا المختلفة مثلاً الشيخ عمر المختار أو العلامة الباروني اللذين نحاول أن نتلمس بعض الأضواء أو بعض ما يتعلق بسيرتهما ليكونا مصدرًا من مصادر التاريخ الذي ينقصنا منه الكثير.

السؤال دائمًا: لماذا هذا النقص في المادة التاريخية أو في هذا المصدر التاريخي؟ لماذا لم يهتم الرجل -الذي تزعم مرحلة جهادية معينة، أو قاد معركة معينة، أو حكم في مرحلة معينة، -كثيرًا بكتابة مذكراته أو سيرته الذاتية؟ ولماذا لم يكتب الأساتذة والشيوخ والمثقفون سيرهم الذاتية؟

سؤال نحاول الإجابة عنه، ولربما يكون ابن خلدون قد سبقنا في ذلك عندما قال: "إن المغاربة عمومًا مقلين في قضية الكتابة، لا يميلون كثيرًا إلى الكتابة" ربما هذا سبب من الأسباب، فنجد في الطرف الآخر أبناء المشرق العربي أكثر منا إلحاحًا وإثارة في الكتابة، والتحدث عن سيرهم الذاتية، ولكن بعد هذا وذاك لابد أن يكون هناك سبب أعمق، أرى إن الجانب الديني أو مايُسمى العامل الديني هو المحور في هذه العلة، إذ إن المشاع في بلادنا إن ما يفعله أحدنا ليس لأجل ذاته وإنما لوجه الله تعالى -فكرة نكران الذات- لذا إن الانطلاق من هذا المفهوم -القصدية الإلهية- يخلق المسافة عن رواية السيرة الذاتية، مشافهةً أو كتابةً، فمثلاً طوال مجالستي لفئات من البشر وعند الطلب منهم الحديث عن حركتهم اليومية وما يفعلونه خلال مسيرتهم أو الحديث في أي موضوع شخصي يجابه الطلب بالرفض ليس خوفًا وإنما جريًا خلف المُشاع والمسموح والمُعلن، وتقربًا من الله "سبحانه وتعالى"؛ نستطيع أن نعتبر الأسباب الماضية للكتمان تدخل من باب العامل الديني أو سوء الفهم لتعاليم الدين الإسلامي، وعندما نذكر كلمة الجهل فإنما نعيد العبارات الماضية فهو من أهم الأسباب.

قلة هذه المادة -السيرة الذاتية- في تاريخنا من أكثر الأشياء إلحاحًا لدى المشتغلين بفروع التاريخ والمهتمين بشؤونه وشجونه وتغيراته المختلفة.

رغم أن المرحلة الحديثة -الآن هنا- كثرت فيها المحاولات الجادة فإننا مازلنا نحتاج إلى الكثير، وأتمنى من الأساتذة الذين عاشوا وشاهدوا أن يشهدوا ويكتبوا لنا، كما حال الكثير من السياسيين الذين بدؤوا بكتابة تواريخهم وسيرهم الذاتية وعلى الرغم ما في ذلك إلا إنها محاولات جيدة رغم مافيها من ذاتية مفرطة وعدم موضوعية قد يكون من شروط السيرة الذاتية أو أركانها عدم الموضوعية والذاتية المفرطة لأنها رواية الشخص للأشياء وتفسيره لها كما يراه هو لا كما هي.

وحيث إنني عملت على سيرتين، "محطات" كامل المقهور، و "مسارب" أمين مازن، ونشرتُ ما كتبته عن سيرة المرحوم كامل المقهور، واطّلعت على بعض السير التقليدية الأخرى، فإنني أملك بعض الملاحظات وأوجزها:

أولا: عبر ما قرأته يظهر أن الليبيين لا يكتبون سيرهم الذاتية، بل يكتبون سيراً للمكان وللمجتمع وللثقافة.. إلخ، منها ما قد تتماس مع الذات ولكنها تظهر دائمًا خارج الذات وحركيته، إذ إننا لم نصل -كما يبدو من كتابات السادة- إلى مستوى من التطور الاجتماعي، يسمح للفرد أن يكون ذاته بشكل حرّ ومستقل عن الآخرين.

إن السيرة الذاتية فعل إبداعي تلقائي حر، مازال مكبوتًا في كتابتنا الأدبية كما في السيرتين الذاتيتين اللتين أشرت إليهما "مسارب" أمين مازن، و "محطات" كامل المقهور، إذ نجد فيهما السيرة هي سيرة مكان وتطوره عبر التاريخ وليست سيرة لأفراد، الأفراد ليسوا إلا شخصيات تشهد على ما يجري في المكان من تغيرات وتنقله لنا، ويغيب في السيرتين المسائل الذاتية الخاصة، كالعلاقة مع الوسط الاجتماعي، والعلاقة بالأم أو بالأب، كالعلاقة مع المرأة وهذه الأخيرة هي أكثر الأشياء مسكوت عنها في السيرتين لإنها الأكثر حساسية. ثم نجد في السيرتين الانتقائية وهيمنة الايديولوجية أو رأي سياسي معين. إن السيرتين تتماسان تمامًا مع الأدب وتبدوان في المراوحة بين السيرة الذاتية والرواية إذ هما فقدا صفة الرواية بتجلياتها ولم تستطيعا أن تكونا سيرتين ذاتيتين بالمعني الاصطلاحي.

هناك محاولة للتماس مع الرواية من خلال سرد الوقائع التاريخية والتكوين النفسي للشخصية وهناك اقتراب من السيرة من خلال سرد بعض الوقائع ولعل من أسباب هذه المسألة هو التكوين الاجتماعي للكُتاب، كُتاب السير الذاتية، وكثرة الحواجز الأخلاقية و الاجتماعية التي تحول دون أن يعبّر الإنسان عن ذاته، فتخرجنا إلى مبدأ نكران الذات أو تحول الذات إلى ذات نكران مما يفقدنا أية قيمة ثقافية. إن علاقة السيرة الذاتية بالتاريخ هي علاقة ارتباط و اندماج، إذ تُعتبر هي التاريخ الحقيقي الذي لم يكتب بعد، لأنها تدخل المناطق المسكوت عنها أو الممتنع.

إن تعبير الإنسان عن نفسه بشكل حر هو الصورة الحقيقية الصادقة عن المجتمع وبالتالي هي التاريخ العام بأقصى تجلياته.

بين المذكرات والسيرة الذاتية من دقة التخييل إلى أناقة القول الشجاع / خليفة التليسي

السيرة الذاتية عمل فني يفوق في صعوبته كتابة الرواية، لأن الروائي يخاطب المتلقي برموز مختلفة يختارها ليبوح بالحكاية للجميع، ولكن السيرة الذاتية مواجهة لذات الآخر، اعتراف ذات في مواجهة الذوات الأخرى، وفي اللغات الأخرى -غير العربية- هناك تحديد بين نوعين يتم الخلط بينهما في العربية وهما:

البيوغرافي: يواجهه في العربية مصطلح -التراجم- وهي ما يكتبه أحدنا عن آخرٍ ما، عن علَمٍ من الأعلام، وللعرب في هذا الباب صولات وجولات وقد ذُكرت في كتب الطبقات والأغاني ومروج الذهب و.. إلخ

والأوتوبيوغرافي: هي السيرة التي يكتبها الكاتب عن ذاته، وهذه هي الأقرب للفن منها إلى التاريخ، وهو ما أشار إليه الأستاذ منصور بوشناف في مداخلته، إذ حُكِم علينا نحن المسلمين أن لا نكتب سيرة "ذاتية" ناجحة، لسبب رئيسي قيمي يتعلق بالستر "وإذا ابتليتم فاستتروا*" أما الاخر -غير المسلم فإنه يطبق العكس "إذا بليتم فانفضحوا وانكشفوا" ولاستدل علي مركزية كشف المستور في السيرة الذاتية لابد من قراءة بعض كلام الفرنسي "چان چاك روسو" * فن كتابة السيرة الذاتية لنزيل أي لبسٍ في المفهوم ونقترب كثيراً من أسباب غياب أو ندرة أو لاموضوعية السيرة الذاتية في لغتنا العربية يقول روسو: "إنني أبغي أن أعرض على أقراني إنساناً في أصدق صور طبيعته، هذه هي السيرة الذاتية، وهذا الإنسان هو أنا، أنا وحدي، فإني أعرف مشاعر قلبي وكذلك أعرف البشر ولست أراني، قد خُلقتُ علي شاكلة غيري ممن رأيت، بل إنني لأجرؤ على أن أعتقد بأنني لم أُخْلَق على غرار أحد ممن تريدون، هذا ليس غروراً، هذه حقيقة، لا أحد خلق على شاكلة غيره في الوجود، وإذا لم أكن أفضل منهم، فإني على الأقل أختلف عنهم، ولن يتسنى البتة إذا كانت الطبيعة قد أصابت أو أخطأت، وإذا تلف القالب الذي صاغني فيه إلا بعد قراءة هذه الاعترافات، فإذا ما انطلقت آخر صيحات بوق البعث، وإذا ما قدر امرؤ أن يدوِّي، فسوف أمثل أمام الحاكم العادل، وهذا الكتاب بين يدي -كتاب الاعترافات- ولسوف أقول برباطة جأش: هذا ما فعلت، وما فكرت، وما كنت. لقد رويت في كتابي الطيب والخبيث على

السواء، وبصراحة، فلم أمسح أي ردئ، ولا انحيت زوراً أي طيب. وإذا كنت قد استخدمت بعض التزويق الفارغ من وسط إلى آخر، فما ذلك إلا لأملأ فراغًا، نشأ عن نقصٍ في الذاكرة. لقد صوّرت نفسي على حقيقتها، وعلى طبيعتها، ودرايتها، وفي صلاحها، وحصافة عقلها..إلخ.

سموها تبعًا للحاجة التي كنت فيها، لقد كشفت عن أعمق أغوار نفسي كما كنت أراها، أو كما كنت تراها أيها الخالق السرمدي، فأجمع حولي الحشد الذي لا حصر له من أبناء جنسي، ودعهم يضعون اعترافاتي، ثم دع كلاً منهم أن يكشف بدوره، وبكل صراحة، عن أسرار فؤاده عند قوائم عرشك، وليقل إني أجرؤ إنني كنت خيراً من هذا الرجل * هذه هي السيرة الذاتية، الاعترافات، ليست كتابة للتاريخ، إنها السيرة الذاتية، ولها من هو جدير بكتابتها.

ليس من حق الجميع كتابة سيرهم الذاتية، وإنما يحق لهم كتابة مذكراتهم للفروقات الهائلة بين النوعين -السيرة الذاتية والمذكرات- السيرة الذاتية عمل لاصق بالفن، لا تفسر الإبداع -إبداع المبدع- إنما هي القرب من الذات في حالاته، إن هذا المعنى حسب المفهوم النقدي الحديث نجده في الآية الكريمة "يقولون ما لا يفعلون".

إذا اعتبرنا أن القول هو الفن فإن الفعل هو السيرة، هذا هو علاقة الفن بالسيرة أو علي العكس. هناك فصل للسيرة عن الفن في هذه الآية الكريمة، وهذا هو مبدأ نقدي من مبادئ النقد الحديث.

لم يكتب جلّ الأدباء العرب سيرهم الذاتية -رغم روعة ماكتبوه- فنجد أن طه حسين لم يكتب رائعته "الأيام" بأسلوبيتها العالية لم يستطع إلا أن يصوّر طفولته تصويراً رومانسياً رائعًا ولكنه لم يستمر مع ما تبقى من سيرته بالمعنى الصحيح، فسقط الكتاب من باب السيرة الذاتية إلى باب المذكرات.

السيرة الذاتية قائمة علي الفضح، علي الاعتراف بالضعف البشري، "خُلق الإنسان ضعيفًا" رغم أن مثل هذه الآية موجودة في القرآن الكريم إلا أننا لا نعترف بالضعف البشري، قَيم ديننا تدعو إلى الستر، والستر نقيض الكشف، وكشف المستور عامل محوري في كتابة السيرة الذاتية، وبدونها تخرج الكتابة من التوصيف، نجد كتاب "حياتي" *

لأحمد أمين يخرج من السيرة إلى المذكرات أيضًا من خلال الاخبارية وغياب الصراعات التي تشكل عنصرًا أساسيًا في السيرة الذاتية.

هناك مطالع البدايات لسيرة الذاتية في بعض الآثار القديمة فلنرى ابن حزم الأندلسي ماذا يقول في "طوق الحمامة": "دعيني أخبرك إنني ما رويت قط من ماء الوصل إلا وزادني ظمأً، ولا قد بلغت من التمكن ممن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان بعدها مرمى، فما وجدتني مستزيداً، وقد طاب لي ذلك، فما أحسست بسآمةٍ، ولا ارهقتني فترة، وقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أُحب، فلم أُجلَّ خاطري بشيء من هموم الوصل، إلا وجدته مقصِّرًا عن مرادي، وغير كافٍ لوجدي، ولا قاضٍ أقل لبانًا من لبناتي، وجدتني كلما أزددتُ دنوًا أزددت ولوعًا".

هذا ما يقوله الإمام الظاهري ابن حزم الأندلسي في "طوق الحمامة" وهذه الانبثاقات الأولى لم يمضِ معها الفكر العربي في مراحله المتقدمة بكل الأسف الشديد، إذ نجد إن مثل هذا الكلام يغيب تمامًا عما أُطلق عليه السيرة الذاتية في العصور الحديثة. لذلك تحجب هذه السير نفسها عن الفن وتدخل كشيء مساعد لفهم الحياة الاجتماعية، فتصور الحياة الاجتماعية حينًا وتعطي بعض اللمحات التاريخية التي لم ولن يعتمدها التاريخ. لذا إننا لم ولن ننجح في كتابة السيرة الذاتية، بحكم تقاليدنا وفهمنا للدين، والقيم المسيطرة علينا التي تبعدنا عن كشف المحجوب، وفضح المستور.

أسئلة القراءة الأولى لمحطات المقهور/ رضا بن موسى

منذ البداية ومن العنوان "محطات، سيرة شبه ذاتية" تولد الإشكالية، وتتعدد الأسئلة، محطات تشير إلى المكان الساكن والمتبدل في حركة الزمن، باعتبار أن كل محطة مفرد خاص، ولكنه مفتوح على آخر.

محطة مؤقتة تفضي إلى أخرى وأخري، إنها رحلة تحول وتغيير، سيرة شبه ذاتية، تشير السيرة الذاتية إلى سيرة التأريخ، أو مجموعة تكوين لفرد واحد، وشبه قد تشير إلى سيرة التاريخ لمجموعة أو لجماعات أو مجتمع بأكمله، فهذه المحطة الواحدة هي نقلة نوعية أو كمية سيان.المهم، إن هذه النقلات/ التحولات تشكل في مجموعها تاريخ حياة – سيرة– ماذا كانت سيرة المجموع؟!

إذا كانت سيرة المجموع يمكن القول إنها وثيقة اجتماعية تاريخية ولكنها تروى من الكاتب إلى الفرد لذا تحمل وجهة نظره.

المعايشة والتذكر والتداعي تجعل من الكتابة مسار اختلاف وخلاف. وإذا كانت سيرة الفرد سيرة فهي تحمل اعترافًا نوعيًا مهمًا بدا هذا الاعتراف غامضًا أو ملتبسًا، لأنها تصدر من ذاتٍ مفردة عاشت تجارب حياتية وتبنت رؤى واختارت معالجات، فهي تنحو إلى كشف عريها لتؤكد حضورها عبر تقديم تجربتها كنموذج أو كأمثولة، إذا كان الأمر كذلك فإن الموضوع يمثل اشكالية. إن هذا الرصيد يتم بعين المؤرخ الباحث الواقعي الذي يتابع تسلسل الأحداث، أو هي التقاط للمبدع المتخيل الذي لا يهمه التسلسل بقدر ما يهمه الجوهر، وذاك هو السؤال/ القضية التي ينشد تكريسها؟

هل كل ما سار مسار السرد القصصي الحكائي، وقدم منحى واقعيًا تقريريًا مستندًا إلى مرجعيات فردية أو جماعية، وثبت أحداثًا ومواقف، حدد، وعين، سُمي تاريخًا؟!أم إذا كان السرد محمولاً على تيار متخيل مهشمًا أركان البنيان الواقعي التاريخي، ولم يخضع للتعاقب الزمني سُمي إبداعًا "قصة، رواية..الخ"؟هل يطرح النص، وكاتب النص، الأستاذ "المقهور" في إشارته عن حيرته في تحديد تسمية عمله، إشكالية التطوير،أو تطويرًا في الإبداع، أو تطويرًا في توصيف أشكال الكتابة وأجناسها غير المستندة إلى الجاهز الأوروبي؟!

تُرى هل استطاع الأستاذ يوسف الشريف حل الاشكالية، عندما قال، أو عندما كتب: "إنها رحلة، رحلةُ بطلٍ نموذجٍ لجيلٍ قُدِر له أن يكون أول من يدق أبواب المستقبل"؟!

ضمير المتكلم لا يملي سماته، بل تمليه شخصيات أخرى تمثل ركيزة حقيقية للأحداث، شخصيات فاعلة، وليست محايدة رغم اختفائها أحيانًا خلف ضمير الغائب.

إذا كان هذا ظاهر "المحطات"، فهل هي حقًا سيرة ذاتية، أو شبه ذاتية؟! إنها وللاعتبارات السابقة، ومهما اشتطّ النقد الروائي في تعريفه للرواية، رواية وهي بالاضافة إلى كونها رواية قامت بكسر حواجز السيرة الذاتية، وأخذت على عاتقها إنجاز عمل يتفرد عن بقية الأعمال الأدبية المشابهة.

هل ماأُنجز فعليًا في هذا النص هو رفعٌ للزمان والمكان؟! على الرغم من تعيّن الزمان

والمكان في التاريخ الواقعي، وتعديلهما بالاختيار فأصبح المكان كل الأمكنة، وامتد حديث الزمان غائرًا وموحدًا كل الأمكنة بالخيط الذي جمع الوقائع الصغيرة في موضوع جدلي الوعي والتحول.

هذا الخيط قادر علي تحقيق التواصل، الذي لايحققه بجدارة سوى الأدب، الإبداع الذي يخلق تواصلاً مع كل البشر في كل مكان وزمان، في قدرته على البناء أو خلق اللحظة الإنسانية، اللحظة الإنسانية النوعية، التي هي في مجموعها خلاصة العلاقة مع الزمان، والمكان، والأحداث، والشخصيات، والقضايا، أسئلة الحياة.

اللحظة هي، لحظة الوعي، التحول، اللحظة التي تجمع كل المواقف في موقف صدامي درامي، يشير إلى قضية وجودية أساسية، كيف نكون؟!

بدأت كما يقول الأستاذ بوشناف برصد حضور التكون والنمو للواقع العربي بإتجاه التمدن والاستمرار بحثًا عن سردٍ لإيقاعات روح الرقعة العربية وموسيقاها.

كيف نكون؟!

كيف نتشكل وعيًا، تجربةً، وبالتالي حضورًا فاعلاً؟!

كيف تتشكل الأمكنة؟!

كيف تخلق الأوطان؟ كيف تتشكل هويتنا عبر ارتباطنا الوجداني بالمكان؟!

كيف نكون؟!

أعتقد أنه سؤال الموضوع، سؤال الإبداع، إنه سؤال الحرية.

السيرة الذاتية بين الموضوعية والتجرد/ د. جمعة عتيقة

إن عنوان "كتابة السيرة الذاتية ما بين العمل الإبداعي والتاريخ في ليبيا" عنوان ينطوي على شيء من المراوغة، وعليه سوف أبدأ موضوعي بالبحث عن عنوان افتراضي، ينفي عنه سمة المراوغة والمداورة، لذا سأختار هذا العنوان "السيرة الذاتية بين الموضوعية والتجرد، التابو الشخصاني والسياسي والاجتماعي".

من المعلوم أن المناخ يلعب دورًا رئيسيًا في صياغة أي عمل فكري يحاول المثقف أن يوصل به مايريد أن يوصله للناس، فبقدر نضوج هذا الواقع الموضوعي وقدرته الحوارية، خبرته المتراكمة، وتوافر مقومات حرية البحث، وسيادة روح التسامح، بقدر ماينتج عملاً أو

خطابًا يعبر بشكل حقيقي عما يريد الكاتب أن يقوله، وبالمقابل فإن غياب هذه العناصر وافتقار المناخ لأجواء الصحو والصحوة، مايبرز مسألة المراوغة، ومحاولة المواءمة، واللجوء إلى الترميز والمسكوت عنه، ولعل من أشق الأمور على كاتب السيرة، أو المؤرخ، أو الكاتب المبدع، أن يجد نفسه في مواجهة رقيبٍ عتيدٍ ذي أضلاع ثلاثة أولها:

الرقيب الذاتي والذي كما يقول عنه "فيشر"، أخطر أنواع الرقباء.

ثانيها: الرقيب الاجتماعي، الذي يدفع الكاتب إلى المداهنة، وتقصي مواصفات النموذج الاجتماعي الأمثل، تلبية لمتطلبات الوجاهة، وليكفيه الله شر القتال، وربما القتل المادي أو المعنوي.

وثالثًا وأخيرًا: يبرز الرقيب السياسي المباشر، وفي ذلك حديث يطول.

إن هؤلاء الرقباء المتحالفين، والمتداخلين، والمتواطئين على خنق ساحة البوح والابداع، يشكلون إشكالية، تحتاج منا إلى نظرة فاحصة. هذا المناخ الذي اكتفينا بالإشارة إليه، والمليء بإشارات المنع، ومناطق الخطر والتحريم، يجعل الكاتب يحدد هدفه منذ البداية والمتمثل بالخروج من كتابته بأقل قدرٍ من الأضرار الشخصية، وكذلك الحرص علي أن يكون بطلاً عالميًا. من هنا، جاءت الكثير من الكتابات مكتوبة بالحذر والتبرير والتوجس، كذلك بانطوائها علي قدرٍ كبيرٍ من تضخيم الذت، وتصاعد "الأيغو" الذي يصل أحيانًا إلى حد النرجسية المغرضة، ولعل عدداً قليلاً من كتاب السيرة العرب قد تخلص بدرجة أو بأخرى من هذا الحصار الرقابي، كما فعل نجيب محفوظ في سيرته، ومحمد شكري في "الخبز الحافي"، ولويس عوض في "أوراق العمر"..

كل هذا دون الانتقاص من جهد الرواد في ليبيا في هذا المجال، والذين كان لهم الفضل في فتح هذا البراح، وأخص بالذكر منهم، المناضل المرحوم أحمد الزارم، والأستاذ الهادي المشيرقي، والأستاذ كامل المقهور، والأديب أمين مازن، والأستاذ عبد الرحمن الجنزوري... ربما نسيت بعض الأسماء فمعذرةً.

تعقيبات :ملاحظات علي هامش السيرة/ محمد دراه

أثار عنوان الندوة الكثير من الاعتراضات، إذ سماه الأستاذ جمعة عتيقة بالعنوان المراوغ، ولكني أرى أن السيرة الذاتية شكل من أشكال الأدب، بالإضافة إلى كونها مصدراً من مصادر التاريخ، أو حتي تكون السيرة نفسها تأريخًا بعينه، كما نشاهد لدى

قراءتنا في جل أعمال الكتاب، مثل الأستاذ أحمد الفيتوري، والمرحوم كامل المقهور في محطاته وغيرها من كتبه. إذا انطلقنا من الاعتبار، أن كل أعمال الكاتب، تمثل سيرةً ذاتيةً له، ولا تختصر السيرة في العمل المعنون بذلك فقط، فإننا نصل إلى أن السيرة هي جل ما كتبه المبدع في أعماله، لذا أتساءل في الحقل القانوني، هل يجوز أخذ الاعترافات من خلال الكتابة لمحاكمتها والنظر إليها كوقائع؟! ولأعيد صياغة السؤال: هل يجوز محاكمة الكاتب علي جرم ارتكبه، وورد في اعترافاته أثناء الكتابة ما يشير إلى إنه الجاني أو الشاهد؟

ملاحظة أخيرة: مؤخرًا سمعت «بطرس بطرس غالي» يشكو من السياسيين العرب، لعدم قيامهم بكتابة مذكراتهم، مما يؤدي إلى إخفاء تفاصيل الكثير من المنازعات، والعلاقات الدبلوماسية السرية، والأحداث التاريخية وبالتالي حرماننا منها.

استحالات / حسين طاهر الرفاعي

ليس هناك من سيرة ذاتية مجردة، بل هناك سيرة تفاعلية للذات مع الآخر والمكان والزمان، وإلا أصبحت كمن يلعب الشطرنج مع نفسه، وهذا أمر مستحيل. السيرة الذاتية هي تفاعل الذات مع ذوات أخري، والكلام في السيرة هو الكلام في حكايات الاخرين في الزمان والمكان عينه ولأن السيرة حكاية عن التفاعل بين أكثر من جانب، فهي شهادة تدخل في المشهد التاريخي بما ينقله ويسجله، أما خارج هذا الكلام فهو المستحيل الذي لم ولن يحصل. لأن الكلام عن الحقائق الذاتية الصرفة يستلزمها الكثير من الحرية، ولأننا كذوات مفردة لا يمكننا امتلاك الحرية المطلقة، فإن الأمر مستحيل.

خصوصية الذات في السيرة/ محمد بلقاسم الهوني

تعتبر السيرة الذاتية شخصية خالصة، إذ تتعلق مباشرة بذاتٍ مفردة هو كاتبها أو راويها، ولا تمس حياة غيره وما مرت بها من وقائع وأحداث، ومن جانب اخر، تُعتبر السيرة الذاتية مصدراً مهمًا من مصادر التاريخ، زمانًا ومكانًا، ولعلنا نستدل في ذلك بالدكتور طه حسين وكتابه "الأيام". إذًا السيرة الذاتية علي اختلاف في شكلها، وفقًا لرؤى الكاتب، وإمكاناته الذاتية، وتجاربه، وماضيه، وحاضره، ولأن هذه الأخيرة ذات اعتبارات حساسة ربما تجلب للراوي بعض المشاكل فنجدها تختفي خلف الرمز والتورية، ومن هنا فإن السيرة تختلف عن المذكرات اختلافاً جماً، لأن المذكرات تطرق وتبحث في أمور عامة كالسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع، وإن كانت المذكرات لصيقة بالكاتب أحيانًا كما في

كتاب "مسارب" للأستاذ "أمين مازن"، أو كتاب "رحلة الأيام الطويلة" للأستاذ "عبد الرحمن الجنزوري"، لم يكتب كاتبٌ عربيٌ سيرته، كما فعل الأديب المغربي محمد شكري في رائعته "الخبز الحافي" التي شكلت صدمة للكثير من الكتاب العرب، الذين لم يتعودوا بعد على نقل الوقائع كلها.

خليفة التليسي

أتمنى أن لا يكون النموذج الذي عرضته "چان چاك روسو"، حيث إنني قصدت إن الخصائص المفروضة علينا تمنعنا من كتابة سيرة ذاتية، ولم أدعو إلى جعل "چان چاك روسو" نموذجًا ومثالاً.

يوسف الشريف

السيرة الذاتية مزجٌ وتلاقحٌ بين الذات، والزمان، والمكان، بمتغيراته، وسكونه، لذا فإن صعوبة رصد هذه الحوادث والوقائع والتغييرات في أوقات تاريخية معينة تجعل الأمر في ارتباط آخر مع المجتمع والدين والثقافة والنظام السياسي ورح الحرية وغيرها في زمن كتابة السيرة الذاتية.

إن كتابة السيرة الذاتية بشرائطه المجردة، الموضوعية، يغدو صعبًا جدًا وفق المحاذير التي أشرت إليها، لذا نجد الكثير من الكتاب يميلون إلى الانتقاء والتعمية على بعض الحوادث وتلميع أخرى بإظهارها والاستزادة في الحديث عنها، واللجوء إلى طي الحقائق أو الكتمان عليها، فتفقد الكتابة مصداقيتها. هل من الممكن تجنيس السيرة الذاتية؟ رواية؟ قصة؟ شعر؟ إنني قرأت بعض القصائد لشعراء، لا تزيد عدد أبياتها على ثمانية أو عشرة أبيات، ويستطيع كاتبها أن ينقل لنا سيرته الذاتية من خلال رصد حياة الشاعر وحركته في المجتمع.

حسين المزداوي

يدخل الطفل العربي المدرسة بادئًا بتعلم الضمائر وأولها "أنا"، وفي الوقت ذاته يتعلم هذا الطفل جملة العرب الشهيرة: "أعوذ بالله من كلمة أنا"، وفي هذه اللحظة عند بداية الاصطدام يحدث التقزيم للأنا العربية، وهي الملاحظة الشديدة التي وُجِهت إلى العقاد في مذكراته "أنا"، في مقابل ذلك هناك في الغرب، نجد حضور كرسي الاعتراف، كما فعل

"روسو" في "اعترافات" أو "چان چينييه" في "يوميات لص"، ومن هنا، نستطيع أن نضع خصائص تميز السيرة الذاتية لدى العرب ترتبط ارتباطًا بالذات العربية، فالسيرة العربية هي سيرة نظيفة، بيضاء، مغسولة بالماء الاجتماعي، والصابون السياسي، سيرة لا أثر لغبار عليها، ولكنها تلجأ أحيانًا إلى بعض الحركات البهلوانية، أو الحكمة، أو بعض الفضائل الأخرى لتضع سيرة ما. هناك ثلاثة أجناس من كتابات السيرة: أولها السيرة الذاتية، وثانيها أدب المذكرات، وثالثها أدب الرحلات.

تتداخل الأجناس الثلاثة مع بعضها البعض لأنها تقدم الحميمية والمشهدية، ونجد إن الأجناس الثلاثة تجتمع في السير الليبية الأولى كما في يوميات الفقيه حسن، التي جمعت السيرة والمذكرات والرحلات، ولكنها تقترب من المذكرات أكثر،أما كتاب "ري الغليل" لـ "محمد بن عبد الجليل" فيعتبر أهم وأول سيرة ذاتية ليبية، كُتبت في 1852/11/14.

السيرة الذاتية جنس أدبي بحت، رغم أن الباحث التاريخي بإمكانه الإفادة منها. لعل من الشروط الواجب توافرها في الكتابة الذاتية هي: الحميمية، والبوح ولا يعني البوح تأوهًا وإنما تعبيرًا عن مواضع الضعف في النفس البشرية كالشروق أو السمو والخوف والحب و... استغرب من قراءة الكثير من المذكرات في بعض الدول العربية "مثل مذكرات سائق عبد الناصر، طباخه، أو سائق أم كلثوم.." وغياب هذا الشكل في ليبيا، لعلها غياب الجرأة على الكتابة ما يمنع ظهور مثل هذه الكتابات.

السيرة بوصفها دليلاً/ أسماء الطرابلسي

أود أن أسأل: "لماذا تناسى الجميع كتاب عمي الراحل الأستاذ محمد الأسطى" ورقات مطوية" بالرغم من أن له الريادة في كتابة السيرة الذاتية؟ وأعتقد أنه نجح تمامًا في كتاب سيرته وهي تعتبر أول منشور عبر صحيفة (الأسبوع الثقافي) في عام تقريبًا1973أو 1979وهي بداية صدورالصحيفة وأيضًا دور النشر في ذلك الوقت لم تكن قد أنشئت بعد وهما (الدار العربية للكتاب والمنشأة الشعبية للنشر)، أيضًا رابطة الجهاد لم تكن قد بدأت مشروعها النشري الناجح بعد. بالمناسبة أريد أن أنبه أن السيرة الذاتية تصنف في علوم المكتبات من ضمن الأشكال الأدبية المختلفة أو التي ليست لها طابع محدد وبالتالي فهي تنال رقمًا تصنيفيًا محدداً، لا يتبع للشعر ولا للقصة ولا للمسرحية ولا للرواية ولا للمقالات ولا لأي شكل من الأشكال الأدبية المعروفة، وأعتقد أنه من خلال متابعتي لكل ما نشر من

سيرة ذاتية سواء على المستوى الغربي أو على المستوى المحلي أتوقف عند البدايات التي ذكرها الجميع، وغاب عنهم هذا الكتاب، لكن أريد أن أذكر أن كل كاتب للسيرة تنعكس اهتماماته في أعماله "عمي مثلا باعتباره مؤرخًا، نجده في كتابه يذكر أرقامًا للوفيات، أرقامًا للمواليد، أرقامًا لأعداد المحاربين وما إلى ذلك وهي أرقام من المستحيل أن يحتفظ بها الإنسان في ذاكرته هذا يعني أنه اعتمد كثيرًا على عمله في الوثائق أو في إدارة المحفوظات".

بالتالي تظهر كل حين شخصية المؤرخ من خلال النص المكتوب في السيرة الذاتية، في النص الذي كتبه كامل المقهور والذي تنصل من تسميته فيما هو سيرة ذاتية وأطلق عليه "سيرة شبه ذاتية"، كان مبرره رحمه الله بأنه لم يكن صادقًا تمامًا أو لم يكن على شجاعة بأن يذكر كل سيرته الذاتية ولذلك قال لى ضاحكًا رحمه الله بأنه لم يكن هناك جزء ثان لأن الرحلة إلى فرنسا تعني كشف الكثير من الخصوصيات مما يتنافى مع العقلية العربية والليبية خاصة. أيضاً في تجربتي مع "السيدة خديجة الجهمي" رحمها الله في استفزازها بتسجيل مجموعة أشرطة أكتب من خلالها سيرتها الذاتية وهو المشروع الذي بدأت في كتابته منذ سبع سنوات، وكان لأستاذي الفاضل يوسف الشريف، الشرف لي في قراءته القراءة الأولى لهذا المخطوط والذي نشرت منه ثلاث حلقات في صحيفة منقرضة (الفتح الثقافي). إن شخصية السيدة خديجة في سيرتها الذاتية انعكست فيها الروح الاجتماعية التي جُبِلتْ بها إذ أنها في الفصل الأول تتناول طفولتها، بيتها، ماذا تطبخ أمها؟! ماذا ترتدي النساء؟، ماهي المفردات الاجتماعية؟!

الأبيات أو الزجل الشعبي التي كانت في بداياتها أو كشفت عن موهبتها في الشعر الشعبي أيضًا كان لديها اهتمامات كثيرة في وصف المحيط، المكان فهي تصفه بشكل دقيق وكأنه شريط سينمائي لسوق الحشيش وللمنطقة المحيطة به ومن يقف في الدكان وماذا يبيع عمي باشراحيل بوصف غير عادي حتى للعربات التي تمر بالمكان، النساء اللواتي يبعن الخبز، الزنجيات، الجيران من اليهود والعلاقة معهم، كل ذلك وغيره بوصف دقيق أيضًا في المرحلة التالية بعد دخولها إلى المجال الإذاعي فكانت تتناول بدقة تأثير حضور المرأة في مجتمع ذكوري، مجتمع متعصب، يظهر الحساسية من حضور المرأة، من مشاركتها، من مزاحمتها، من نجاحها فكانت في رصدها في غاية الصدق، الجميع لو

أتيحت لهم كتابة سيرتهم الذاتية سينحون المنحى نفسه. أما أن نخجل من ذكر عيوب أحبابنا أو أهلنا أو آبائنا أو أبنائنا أو الظروف الاجتماعية أو فقرنا وما إلى ذلك، فنجد مثلا في تسجيلاتي مع السيدة خديجة كانت تظهر في عائلتها كأنها عائلة مثالية، فكانت تخفي الكثير من النقائص في من سببوا لها الكثير من الأذى وكانت أحيانًا تضغط على زر التوقف، لتحكي لي حقيقة القصة ولكن هي تعي تمامًا أهمية التوثيق لهذا الحدث، فهي تخبرني أنا ولكن لا تريد أن يسجل عليها أنها أذت أحداً، أو أنها كشفت خبايا الضعف الإنساني أو خفايا الشرور النفسية في بعض الأشخاص، ثمة شيء آخر أن في كتاب "محطات" للأستاذ "كامل المقهور"، نجد أن حضوره الخاص كان طاغيًا بحيث أن الفصل الذي تناول فيه عاشور مثلا هي عبارة عن قصة، قصة أضلت طريقها إلى هذا الكتاب.

ملاحظة أخيرة: كان هناك حضور قوي للموروث الشعبي في كل الكتابات السيروية نجد أن هناك أمثلة شعبية متحولة.

كلمة أخيرة:

تدعو تربيتنا إلى أن نتنصل من إظهار أعمالنا الطيبة أو إنجازاتنا الجيدة، وأن ننزوى جانبًا، تاركين الطريق للآخر خاليًا وذلك هو التصرف السليم ولذلك أسميت الكتاب (ماما خديجة الجهيمي) باعتبارها هي الوحيدة التي لم تقل أنا في حياتها.

محاكمة متأخرة لمحطات كامل المقهور- الوعي المقلوب في قراءة السيرة /محمد العالم الراجحي

نبدأ بالتساؤل: ما هو الأثر الفني الذي يتركه العمل الفني لدى المتلقي؟

إذا كانت الإجابة تحوي عبارة "لا يقوم للعمل الفني قائمة بمعزل عن الصدق، واحترام كرامة الآخرين" فإننا سنحاول تقصي هذين السمتين في عمل الأستاذ المرحوم محمد كامل المقهور، لنعرف الأثر الذي يتركه العمل الفني لدى المتلقي.

بدايةً يكتب الأستاذ يوسف الشريف في مقدمة الكتاب المذكور "محطات" مايلي:

"بعد غيبة طويلة عن النشر يعود كامل المقهور ويقدم لنا تحفته الأدبية هذه" فيما يضيف

* رغم ما أثير حول هذا التعقيب من آراء، فإننا نحرص علي نشره، حرصًا على حرية الرأي، والقول فيه، حتى إن كان متهمًا بغرضيته ولا منطقيته" المحرر *

الأستاذ "خليفة التليسي" على الغلاف الخلفي للكتاب:
لم تكن قصيدة في وصف حي الظهرة، ورثاء ملامحه القديمة الزاهية بالألوان الحادة، مثلما رسمتها ريشة كامل المقهور في هذه السيرة"
إذًا تم تقديم العمل بصورة خيالية، على اعتبار إنه عمل يفوق العادية، فما مدى مصداقية هذا الكلام؟! انتقص الأثر من خلال الكتاب، وما احتوى عليه، يقول المقهور في محطاته: "مازالت الظهرة منتجعًا فريدًا بين شوارع المدينة، سكانها أنماط غريبة من الناس، وغربائهم ليسوا كغيرهم من الأغراب"ص 61 ومعنى هذا أن الأستاذ كامل وضع الظهرة خارج التاريخ، ويقول في مكان آخر:

"عاد بعض أبناء المحلة، كما لم يعد الأسرى الآخرون كانوا جنودًا في الجبهة المقابلة، يقولون إنهم من أتباع الحلفاء، فالمحلة عاشت طول عمرها تبعًا لغيرها"
أما هي الحقيقة التاريخية من هذا الكلام؟!
هل الظهرة بهذا المعنى هي تابع؟ ولمن؟!

ويقول في مكان آخر "تلك كانت أيامًا لا يكون فيها العربي إلا فلاحًا أو مطلينا ولا تقع أحداث ذات أهمية إلا بين الفئتين، أما غيرهما فلم يكن أمامهم إلا التمرغ في المقاطع أو الخدمة في بيوت الطليان وهكذا". هكذا حكم الأستاذ كامل على سكان الظهرة بالتمرغ في المقاطع أو الخدمة في بيوت الطليان، خلافًا للواقع التاريخي.

ويقول في مكان آخر: "....... يتندرون عن بعضهم أن لا يضيق له صدره حنينًا لزوجته، أو الولد لم يرهما ولم يسمع عنهما خبرًا، طالت إقامتهم بالمحلة أعوامًا أو قصرت لعام أو عامين وامرأته إلى هذا تنجب يتلقى عن وليدها التهاني وتختار له الأسماء"، ما هذه الإهانة للمغتربين في الظهرة، مس أعراضهم بهذه الكيفية ويشير في إهانة المحلة، يقول في مكان آخر ممعنًا في الإهانة:

[سكان الظهرة يعملون ويحملون في خفاف النساء] ويشير إلى اليهوديات في الأربع عرصات، لكن عندما وصلت إلى والده قال: ["ووالدي ذلك الربع بشعره الحليق وشاربه المبيض، يطوف المحلة في ثيابه البيضاء الناصعة، يشقها بلحيته المجعدة المبخرة، لا يختال ولا يتبختر ولكن الشياطين تسكن متى هز الشارع بعصاه حتي الهادي -يعني القبضاي- يدندن بصوت خافت كأنه يهابه].

ويقول أيضًا: [ووالدي حيث يجلس يحيط به جمع يتعدى في بعض الأحيان الخمسة من وجوه المحلة، من غير المطربشين"

طبعًا غير المطربشين المقصود بهم غير الحفاة وإنما نوعية أخرى من البشر، سنعود إلى ذكرهم بعد من هم: [يتذكرون أمورًا جمة وينسون هموم الأيام، وكانت الأيام مليئة بالهموم، ولابد أن يمر بدكان "السي" عبد الحميد من يسأل عن الحاج -عن أبيه- شاكيًا له همًا أو طالبًا منه أمرًا ولا يخرج أغلب المترددين إلا راضيًا ولا زال بعض من يتامى المحلة يدعونه أباهم".

أسئلة الكتابة ومسألة التصنيف/ أمين مازن

لابد في الإبداع من الإشارة إلى أن مسألة التجنيس الأدبي يتولاها عادة من يتولون أمور النقد وقد يضيفون إليه وقد يتخذون منه مجالاً للإجابة عن أسئلة كثيرة.

بصدد تجربة كتابة السيرة الذاتية التي قدر لي أن أسهم فيها، كانت محاولة مني للإجابة عن الكثير من الأسئلة التي راودتني فقمت بعملي للتوضيح والتصريح وللرد وللدخول في جدل مع الأجيال وكذلك تحفيزهم ودعوتهم واستفزازهم بأن يقولوا ما لديهم ويكتبوا ويضيفوا إلى هذا المجتمع لأن لا أحد يعلم كم سنعيش في هذه الدنيا.

لا نستطيع أن نضيف إلى النصوص التي قرأناها، لأننا ببساطة شديدة لن نخرج منها بالكثير. وتبقى الملاحظات والآراء والإضافات سبيلاً للإثراء. لا شك أن سلم الممنوعات كثير، ولكن لابد أن نحاول اختراقه وأن نتمرد عليه، ولكن هناك الكثير من الخطوط قد صححت هذا المسار، رغم أن الموروث الديني يحول دون كتابة ما ينبغي أن يكتب، ذلك فيما يتصل بالتجربة الشخصية ولعلني أذكر بصدد ذلك بيتًا للشاعر الكبير المتنبي يقول:

و للخود مني ساعة ثم بيننا   ثلاث إلى غير لقاء تجاب

بمعنى أنهم كانوا من القدم يضجرون من عدم التوقف أمام أحوالهم وتجاربهم الخاصة، رغم ذلك هناك محاولات للاقتراب للتجربة. مازلنا نحتاج إلى الحوار في هذا الموضوع وإلى الكتابة فيه وإلى القراءة وإلى معالجة النص الأدبي بموضوعية لا مجال فيها للمواربة وللمجاملة.

*تمت مقاطعة المتداخل من قبل القائمين على الندوة "المحرر"

نحن معشر المشتغلين بالقانون يتمحور حديثنا ومدار مرافعاتنا حول اعترافات الإنسان، وهي شكل من أشكال الكتابة الذاتية، ليس بالضرورة أن يكون هناك عنوان السيرة الذاتية فالحكيم قال "تكلم حتى أراك". الإنسان عندما يقول كلمة أو يخط سطراً فإنه يكتب سيرته الذاتية. كتابة السيرة الذاتية هذه واردة دون أن نشعر نحن بأننا في حالة كتابة للسيرة. الكتابة في حد ذاتها اعتراف وفقط، لذا فهي سيرة ذاتية، ويحى الحب.

ضرورة السيرة الذاتية / إبراهيم الخراز

هناك عوامل تحجب التصريح بالسيرة الذاتية سواء أكان التصريح سلبيًا أو إيجابيًا في الوقت الذي يجب أن تعلق السيرة الذاتية لهذا أو ذاك تمحيصاً وتحقيقًا للحقيقة التي نبحث عنها جميعًا. إن من أساءوا لمرحلة الجهاد الليبي يجب أن تعلن حقيقتهم صونًا للعدالة وتعريفًا للأجيال اللاحقة وتبيانًا للحقيقة في صيرورة البحث وتحقيقًا للغاية في مجال المعرفة، الشيء نفسه بالنسبة للعوامل الإيجابية في السيرة الذاتية.

إن السيرة الذاتية الإيجابية تدفع إلى المزيد من الإبداع لصالح المعرفة وتحقيق الإنجاز الثقافي المطلوب، إن مشكلتنا في غياب السيرة الذاتية لبعض المشاهير من الليبيين في كل أدب وعلم وفن هي مسؤلية صاحب السيرة ذاته ومسئولية أسرته التي من حوله، خاصة تلك التي على علاقة بالمشروع المعرفي الوثائقي لمجمل الكتاب والأدباء والمؤرخين عليهم أن يحفزوه لتسجيل سيرته الذاتية، حتى أن ينتزعوا ماله من سيرة ذاتية إذا أحجم لأنها أصبحت ملكًا للمجتمع أكثر من أسرته وشخصه وتشرنقه.

لقد أتى علينا حين من الدهر أصبحنا ننقص في حق الإنسان من أن نتعرف على سيرته الذاتية التي قد تكون مصدر الهام وإبداع يتولاه آخرون وأعود فأقول إن سيرة شخص ما قد تكون مفخرة لشعب بكامله فالفرد قد يحيي قبيلة كما يقولون وقبيلة قد لا تحيي فردًا أو فارسًا.

إن غياب السيرة الذاتية للشخصيات الليبية في التاريخ أدى إلى فقر ثقافي وعدم معرفة الآخرين بتلك السيرة التي قد تنفع الناس وتكون مصدر معرفة وشهرة كما فعل الأستاذ محمد الأسطى في (أوراق مطلوبة).

لقد فلح القائمون علي هذه الندوة في اختيارهم للعنوان حينما ضمن ثنائية العمل الإبداعي والتاريخ في ليبيا. سؤالى كما سؤال الدكتور جمعة عتيقة السيرة الذاتية حينما اعترض على العنوان ذكر بأنه يقترح أن يكون بين الذات والموضوع وحتى لا تكون السيرة الذاتية سيرة انطباعية صرفة يسيرها ويمنحها هو ومزاج الظروف الشخصية والمناخ الذي يحيط بكاتبها فكيف يتسنى مع هذه الاشكالية أن يؤخذ من السيرة الذاتية وتعتبر مصدراً من مصادر التاريخ والدكتور الديك موجود ويهمني الإجابة عنها لأننا نحن الأجيال الجديدة غابت عنا بعض الوقائع في تاريخنا حتى أنه غابت عنا الكثير من الوقائع والكثير من الأحداث والكثير من الشخوص التي عايشناها ويهمنا معرفتها والتعرف عليها ولا سبيل إلى ذلك إلا بقراءة سيرتهم الذاتية وما يكتبون والأمر في اشكاليته إن الكثير انطباعي.

أجمع الحضور في شأن الدين بأن الهدف أو المبرر هو أن موروثنا الثقافي العربي الإسلامي يذهب إلى انكار الذات والحق يقال إن المقصود بالحجب هو تضخم الذات وليس حضور الذات. وقال بعضهم إن ما يحول دون الفضح في السيرة الذتية هو الدين أو المفهوم الديني لأن الدين عبارة عن تفسير الناس له وليس شيئًا آخرًا، وهم يختلفون في تفسيره. إن الانكماش عن الفضح إلى تراث ماقبل الإسلام الذي ما زال مسيطر أو مستخدمًا حتي الآن في الكثير من مناحي الحياة، وحول ذلك أسأل، هل توجد سيدة أو امرأة أو أنثى واحدة كتبت سيرتها الذاتية؟ وهذه موروثة من العصر الماضي ما قبل الإسلام الذي كان لا يحتقر المرأة فقط وإنما يئدها أيضًا.

نحن مازلنا نئد المرأة وبطرق أخرى ليست ثقافية فقط وإنما حتى نصل في حالات إلى تعطيل النص الديني (للذكر مثل حظ الأنثيين) في ليبيا لا تأخذ المرأة أي شيء وهذا من باب العيب مخالفين بذلك تعاليم الدين، والعيب أقوى من الدين في موضوع المرأة والعيب كمرادف للمصلحة المادية، هو تفسير مشوه للدين مفاداه أن النساء في حال الإرث سيورثن للغرباء. معنى ذلك أن ما يحول دون الفضح ليس الدين وحده، الدين إلى جانب التفسيرات الدينية المزاجية أو الخطاب الديني المسيطر وتفرعاته.

عدم الفضح تفسره البيئة، والأعراف والتقاليد الإجتماعية، مثلا أحد الشعراء الفرنسيين "آراغوان" يقول عن نفسه: "أنا أعرف أمي ولا أعرف أبي" يقولها بكل صراحة، ليس هناك من يعيب عليه، يعرف أباه لماذا؟ ليس ضرورياً.

وأيضًا في كتاب "أوراق العمر" لويس عوض، وهو عربي مصري، يقول عن أخته، إنها كانت بلهاء وخرساء وشبه مجنونة، طبعًا في ليبيا لو يقول أحدهم هذا الكلام -بدها حشومه- معنى ذلك أن البيئة، وليس الدين وحده بدليل إن لويس عوض ليس مسلماً، وهو علماني يؤمن بالماركسية أو العلمانية إلى ما هنالك من توصيفات تخرج من باب الأدب وتوصيفاته، طبعًا في كل نظام حسبما يرى، هناك بشر يعترفون وآخرون لا يعترفون، إن البيئة بالدرجة الأولى، ثم المستوى الثقافي بالدرجة الثانية هما اللذان يحددان القيم الثقافية بدليل إن الدول العربية حتي الأكثر تطوراً تستطيع كما ذكر عن سير ذاتية سابقة التي ذكرها أحد الأساتذة من الكتاب القدامى وأنا أشرت إلى الأستاذ "لويس عوض" فمسألة الفضح ليست بسبب علاقتها بالدين وحده وإنما بالتراث المتخلف الذي ما زال يسكننا حتى الآن رغم تطور العصر.

نفي الوجود والحكم "رد"/ منصور بو شناف

أولاً حول الحكم على الكُتّاب العرب وخاصةً المغاربة، هنالك منهم من كتب سيرته الذاتية مثل محمد شكري أقول: أنا شخصياً تحدثت في مداخلتي عن تجربتين ليبيتين هما تجربة "محطات" لكامل المقهور و "مسارب" للأستاذ أمين مازن .

أما بالنسبة لـ "الخبز الحافي" طبعًا دعنا نشير إلى إن الخبز الحافي صدورها كان بمساندة الروائي الأمريكي "بولز بولز" وبمساندة الكثير من الكتاب الأوربيين بالدرجة الأولى.

أما حول تجربة "الحي اللاتيني" لدكتور "سهيل إدريس" اعتبرها مهمة جدًا، حيث إن الكتاب العرب عندما يغادرون مناخاتهم وبيئاتهم، يكتبون بشكل أكثر انطلاقًا، أكثر حرية مثل "موسم الهجرة إلي الشمال" و "الحي اللاتيني" و ثلاثية الفقيه"، عمل عاشور الطويبي أيضًا يعتبر نقلة أخرى في كتابة السيرة الذاتية ولكنها بدورها هاربة من السيرة إلى الرواية.

إن السيرة الذاتية ليست عملاً أدبيًا، وليست تاريخًا، هي جنسٌ آخر وأشارت الأستاذة "أسماء الطرابلسي" إلى الجانب البيوغرافي في علم المكتبات حيث تجنس تجنيسًا خاصًا فهي ليست أدبًا بمعنى لا علاقة لها بالرواية أو الشعر وغيرها وليست ذات علاقة بالعمل التاريخي. أما حصره في إطار الاعترافات، كما حاول الأستاذ خليفة التليسي فعله، فهذا سيجعل من نوعية السيرة الأدبية تلتصق التصاقًا عنيفًا ويضيق مجالها عند حد نوع الاعتراف الذي هو جزء من السير.

أما جانب البوح في العمل السيروي، فيمكن أن يعبر عنه بمجموعة من السبل والحيل والطرق في التعبير، حتى جانب ارتفا ع "الايغو" بشكل متضخم يمكن من خلاله قراءة مايمكن أن تعبر عنه الشخصية و "أنا" "العقاد" قرأ وقيل عنه الكثير، قيل أن هذا عيب، نظرًا لأنه كشف عن عيبٍ في تركيبة العقاد ولم يعتبر إلا عيبًا واعترافًا شرسًا.

أما الجانب الإيروسي وهو الجانب الجنسي في الأعمال السيروية بالذات فقد شهدت أوروبا الكثير من الإشكاليات حول هذا الموضوع بكثرة وحتى هذه اللحظة لم تنته هذه القضية، الاعترافات الايروسية ومايمس الأطراف حول الأم والأخت تسبب عندنا اشكالات كثيرة.

لعل آخرها هي رواية "سهيل إدريس" والتي أشار فيها إلى شذوذ والده، حيث أثارت الكثير من الجدل، سيرة السيد سهيل إدريس عندما تناول هذا الموضوع أظهر أنه لا يخص فقط جانبًا دينيًا، أو أن هناك فقط عادات وتقاليد، هناك أيضًا شيء له علاقة بالكرامة الإنسانية قد يستفز شخصية في السويد من المنطلقات الفكرية المختلفة، وقد يستفز إنسانًا في أفريقيا هي قضايا مشتبكة وقضايا معقدة.

ليست فقط أحادية الجانب وبالتالي فضاء السيرة ليس أدبًا، وليس تاريخًا، فالسيرة جنس مختلف، هذا من جانب، ومن جانب آخر تتنوع في مجالات واعتقد أن المذكرات والذكريات واليوميات وما يسمى كل هذا في إطار السيرة الذاتية متنوعًا كما تتنوع الرواية في مجالاتها المتعددة أو يتنوع المسرح إلى ما هناك هي جميعها تدخل ضمن أطر السيرة الذاتية مختلفة الحيل الفنية بتوصيل هذا الجانب في النظر، للموضوع الذاتي هذا الجانب جانب مهم.

الجانب الآخر أنه عندما نتعامل مع الواقع الموضوعي الموجود فيه الزاوية ذاتية، أنا أنظر إلى الظاهرة من الزاوية الذاتية، حيث يظهر الجانب الذاتي في الموضوع بجوار الجانب الاعترافي.

إن "محطات" كامل المقهور تقدم بوحا يخص نظرة كاتبها الذاتية للمكان، وأما الجانب المحافظ عند كاتب هذه السيرة تكشف إن هذه الشخصية شخصية محافظة، ويمكن من قراءة هذه النصوص نجد مقالاً تماسها ليست فقط في موضوع الجنس أو مع موضوع المرأة بل مواضيع عدة تماسها تماس شخصية محافظة. يظهر كل هذا في النص ولا حاجة للإشارة أو تسمية الأشياء بأسمائها مباشرة و إلا تحولت إلى وثيقة، وخرجت من السيرة.

السيرة الذاتية في الشعر العربي / خليفة التليسي

يعتبر الشعر العربي في مجمله سيراً شخصية ذاتية، وأظن أنه للمرة الأولى التي يطرق فيها هذا الموضوع عربيًا "السيرة الذاتية والشعر" تستحضرني هنا نماذج قريبة علي نفسي منها "المقنع الكندي" ومنها أيضًا "الجرجاني" وهناك الكثير من نماذج الشعر الغربي.

قصيدة السيرة الذاتية طرحت نماذج كثيرة كما هو الحال عند "ماشادو" الأسباني، ناظم حكمت، أو نغريتي الإيطالي، لكل منهم قصائد في السيرة الذاتية، والشعر العربي غني في ذلك، وإن كان الكثير منا يعتمد بطاقة شخصية مرتكزة على اللمحة العابرة، نذكر على سبيل المثال شاعر يقول في ثلاثيته:

لو سألت سراة الحي سلمى ... على قد تغير بي زماني

لأخبرها ذوي الأحساب عني ... وأعدائي فكل قد بلاني

بأني لا أزال أخي حروب ... إذا لم أجن كنت مجن جاني

كما نرى، إنها بطاقة شخصية، أكثر من سيرة ذاتية، ليس في الشعر العربي وحده، بل في الشعر العالمي كله ولا أكثر من قول المتنبي مثالا ساطعًا على ما ذكرت من البطاقة الشخصية أو السيروية الشعرية في بيته الشهير:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

إن مقولة السيرة الذاتية ليست أدبًا قضية لا بد أن تناقش، السيرة أدب ورسوخ في الأدب، وإن كانت تصنف غير تصنيف الرواية، إلا أنها أصبحت تتداخل مع الرواية فصارت هناك "السيرة/الرواية" أو "الرواية/السيرة"

إن أنجح السير الذاتية هي تلك التي لم يكتبها الكتاب المحترفون ليس من الضرورة أن ينجح روائي كبير في كتابة سيرته الذاتية كما هو الحال عند صاحب "الحي اللاتيني" الدكتور سهيل إدريس، الذي نجح في المباشرة.

إذا كان محكومًا علينا كتابة السيرة على النموذج الغربي، فليس من الضرورة أن نهجر خصائصنا ومميزاتنا، وليس في الكلام إنقاص من قدر كتابنا وأدبائنا، سواء اختلط لديهم البيوغرافي بين الذات والموضوع، أو بين التاريخ والفلكور، وتحصل أحيانًا أن تتحول الاختلاطات إلى ميزات جيدة كما هو الحال في خلط الذاتي بالتاريخي مما يحدث هنا في المصدر التاريخي.

أعيد من حق المناضل والزعيم السياسي والرجل المهم كتابة مذكراته على طريقة تشرشل و روزفلت و هتلر ولكن هذا الحق غير مباح في حالة السيرة الذاتية لما يلزمها من شروط و حالات.





تجاربُ ليبيةٌ في الحياة

الببليوغرافيا الليبية المشروحة

للسير الذاتية والذكريات والمذكرات والرحلات في أعمال المؤلفين الليبيين

حسين المزداوي *

يبدو القول بأن كل كتابة هي سيرة ذاتية لكاتبها، تعميماً وهروباً من عناء التصنيف، مع ما في هذا القول من تلامس مع الحقيقة ؛ وتساهم التجارب الخاصة للكتّاب الليبيين مساهمة حقيقية ورئيسة في كتابة تاريخ بلادهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ؛ وعملت ندرة هذه الأعمال والفنون في غموض صورة هذا المشهد، وفي تشوش الكثير من الأحداث والتطورات، وعرقلة الاقتراب من رسم وتلمس صورة الماضي والحاضر وبالتالي المستقبل، ناهيك عن المتعة الأدبية والعلمية وإثراء الخيال الذي كانت ستحققه ؛ وهذه المساهمة ستحاول تحديد حجم (بضاعتنا) في هذا الشأن، وتسعى لرسم (خريطة)

* كاتب وباحث.

ما كتبه الليبيون عن أنفسهم من خلال سيرهم ورحلاتهم ومذكراتهم ويومياتهم وتجاربهم ؛ وهي قد تبدو ناقصة عند البعض، وربما مشوهة وغير دقيقة، أشبه بخرائط الأقدمين لجغرافية العالم - مع الفارق - التي رغم سذاجتها وعدم اكتمالها، ففي نقصانها حث على التطوير، ودعوة إلى السعي للملمة الصورة.. وفي كل الأحوال هي خطوة لابد منها.

والسبب في جمع أكثر من جنس كتابي، هو تداخل هذه الأجناس الكتابية، لأن بعضها تأخذ بأطراف البعض الآخر وتتعاشق معه وتتعيش منه، وهي بالتالي تعبر عن تجربة ما من هذه التجارب الحياتية، فرأينا أن تضم مساهمتنا الأجناس الكتابية التي يكون فيها الكاتب مشاركاً في الحدث، مسجلاً وناقلاً لتجربته ؛ لإعطاء فكرة - ولو بسيطة - عن طرائق حديث الليبيين عن أنفسهم وذكرياتهم، وتعبيرهم عن تجاربهم في الحياة، ويجدر القول بأنه قد تناوبت على خفوت أصواتهم فيها كوابت ومتناسيات وعوائق كثيرة ؛ سياسية واجتماعية وثقافية ونفسية وعملية، فغدا الصمت عن الكتابة عادة مكرسة، لا يثير ضآلة المحصول الانتباه للموقع المتأخر فيها بين الأمم كماً وكيفاً، وبدا ما أنجز من مساهمات وأعمال قاصرة وضئيلة عن نقل ما في المجتمع من خبرات وأحداث وظروف وتطورات.

وهذه المساهمة بإمكانياتها البسيطة اعتمدت على قراءاتنا الخاصة أولاً، وتغطية النقص ما أمكن من خلال البحث في بعض المكتبات العامة، والاستعارة من مكتبات الخواص والأصدقاء واستشارتهم[1]، وعلى الصدف أيضاً (!)، فأدى كل ذلك إلى جمع أكثر من سبعين عملاً على مائدة فكرية واحدة، تسجل تجربة أديب أو كاتب أو سياسي أو حتى شخصية غير معروفة، من العسير جمعها في ظروف وأوضاع لا تشجع البحث ولا تتركه لامكانياته الذاتية، بل تعمل على عرقلته، بعد أن فرق بين أصحابها التاريخ والجغرافية وممارسة الفكر والسياسة ؛ وأيضاً جمعنا بينهم بالتخلي عن الألقاب - قدر الإمكان - الذي قصدنا به ألا يؤثر على نزاهة هذه المساهمة، مع حفظ ألقابهم لهم ؛ كما ستكون كثير من معلوماتها خافية عن الكثيرين، وما خفي عن رصدنا قصوراً لا نسعى لتبريره، بل نطلب التعاون في إكماله، رغم بذلنا الجهد والوقت في رصد النتاج الوطني في هذا الجانب.

ولهذا القصور أسباب موضوعية، تتعلق بأن عمل الببليوغرافيا، هو في الأصل عمل مؤسسات، وليس عمل أفراد ؛ فإذا كانت هذه المؤسسات كسيحة، أو مغلولة اليد والجيب واللسان، أو هي مجرد هياكل وأيقونات فارغة، أو غير موجودة أصلاً، فلا أقل من ذلك

حالة التواصل وآلياتها، من خلال تعثر انسياب الكتاب والمطبوعة[2] وضعف رصدهما محلياً.

إن هذه المساهمة لا تصنف نفسها في أي إطار سياسي أو فكري أو نقدي، بل هي مساهمة حصرية تعريفية علمية، حاولت أن تسمو على التصنيفات الجاهزة، والمدارس الأيدلوجية، والتباين في المواقف السياسية المختلفة، بركونها إلى الحقيقة والواقع والعلم، فحققت لها الحياد الذي يقود إلى النزاهة ؛ فليس من وظيفتها إطلاق أحكام مسبقة، وهي تسعى لتتبع الأثر الليبي رغم تصنيفاته واتجاهاته ؛ مرتبة ترتيباً ألفبائياً، يتصدره عمل أحد المتطوعين الليبيين في صفوف المقاومة الفلسطينية بلبنان عام 1971، رغم عدم إلمامه بتقنيات كتابة التجربة، فجاءت خليطاً كتابياً يسعى لتوضيح فكرة وتجربة مهمة، ويثنّيه وفقاً لتسلسل لحروف الهجائية كاتب سعودي الجنسية، ليبي الأصل، ساهم ويساهم في الحياة الثقافية في بلاده الحالية[3] ومع ذلك لم تمنعنا الحاسة الوطنية والثقافية من إضافة منجزه، ونحن نتتبع معه من خلال سيرته (حكاية الفتى مفتاح) بداياته الأولى في بنغازي وتفاصيلها، الأمر الذي يحتم إضافته إلى هذه المساهمة والاعتزاز بذلك، متجاوزين أموراً لا نتوقف عندها مثل عدم حمله الجنسية الليبية، أو أية أسباب أخرى لا تتعلق بطبيعة مساهمتنا ؛ مع أن سيرته تفوح بالكدح والصدق وبعبق تاريخ ليبيا، وبتلك الذكريات التي يحسها الليبي مهما تغرّب ونأى ؛ سيرة ليست مكتوبة بعين سائح أو رحالة.. وسيرة ومذكرات آخرين، كالشيخ أحمد زروق، الذي يتشارك في نسبته إلى قطريهما الكتاب المغاربة والليبيون للأسباب نفسها، أو طارق الأفريقي بين ليبيا وسوريا والسعودية.

أما على مستوى المخطوطات، فيوجد الكثير منها تتناول السير الذاتية والمذكرات والكنانيش والمجاميع والرحلات، مثل (كناش) الأزهري، و(مجموع)[4] محمد كامل بن مصطفى (ت 1897) ؛ و مخطوط "حديث الهجرة" للأستاذ مصطفى بعيو (-1988/1/3 1921)، حول هجرة أسرته إلى مصر ؛ ولمحمد الأمين الحافي(1919-2004/9/25)[5] كتاب مفيد في السيرة الذاتية، تناول فيه جوانب مهمة من الحياة الفكرية والتعليمية التي عاصرها، وللهادي عرفة (1913-1973/9/2) كنّاش فيه بعض آثاره ومجموعة أوراقه وأنماط من الأدبيات وألوان من الكتابات الحديثة والمذكرات[6] ؛ وتوجد سيرة ذاتية (مخطوطة) للشيخ الطيب المصراتي (1917-؟) علمت بها أخيراً، إضافة إلى سيرته المخطوطة أيضاً المعروفة باسم (الروض العاطر في حياة أبي علي بن طاهر)، وله أيضاً

بعض الرحلات[7] ؛ كما أطلعت على أصل مذكرات الزعيم بشير السعداوي (1957/1/17-1884)[8]، إضافة إلى أن العديد من الكتاب والأدباء والشخصيات الوطنية التي كتبت يومياتها، احتفظت بها مخطوطة دون نشر[9] لأسباب متعددة، منها الزهد في الحديث عن النفس، والسعي لتهميش الذات الذي يتوهمه البعض عبادة (!)، ربما تأثراً بالقول المأثور (أعوذ بالله من كلمة أنا)، مع أن السيرة الذاتية لا تسبح إلا في بحيرة الأنا والذات، أو لتفادي منغصات قصيري النظر والآحاديين ؛ ولعل ملح السيرة يتركز[10] فيما يبوح به الكاتب من أسرار كانت، أو ملامح وخصوصيات خفيت، وقد نجد في بعض السير أو المذكرات أو الرحلات الليبية كثيراً من البوح الذي تعدى المقاييس المحلية كما نلمس، مع أن السمة العامة لها هو التناسي والتغافل أوتغليف الأمور، والتخفيف من رصد المحطات المؤلمة، وسعي البعض لغسيل نفسه وغسيل التاريخ.

وقد تغاضينا عن رصد ما نشر منها متفرقاً في الدوريات الليبية من الصحف والمجلات المختلفة، وهي التي لم تصدر في كتب رغم كثرتها، فقد كتب الملك السابق إدريس السنوسي (1890/3/7-1984/5/25)[11] مذكراته عام 1955[12] رغم صغر حجمها، وكتبت خديجة عبد القادر ([1937] -   ) عملاً بعنوان (ليبية في بلاد الإنجليز) عام 1962[13] ؛ إضافة إلى ما نشرته بكتابها المشروح هنا عن تجربتها، كما نشر الفنان العارف الجمل (1906–1981)[14] مذكرات عن حياته وتجربته الفنية، وما نشرته السيدة خديجة الجهمي في مجلة الإذاعة حول حياتها، مع ما رصدناه لها ؛ انتهاء بما نشره د.أحمد إبراهيم الفقيه (1942/12/28–   ) عن سيرته الذاتية مسلسلة بإحدى الصحف العربية ؛ إلى غيرها من الأعمال المبثوثة في الصحف والدوريات المختلفة.

ونشط في الفترة الأخيرة عدد من الأدباء والكتاب والشخصيات العامة لكتابة سيرهم أو مذكراتهم، فبعد ما كتبه عبد الله القويري في "الوقدات"، وإلى حد ما في "أشياء بسيطة" مع فارق التناول ؛ وبعد السيرة (شبه الذاتية) لكامل المقهور، جاءت أعمال رسّخت هذا الاتجاه، منها مسارب أمين مازن، وما حدث لعلي فهمي خشيم، ومحلة الراجحي، وسنوات الجنزوري الطويلة ؛ كما تنشر "عراجين" في هذه العدد جزءاً من السيرة الذاتية للكاتب خليفة التليسي (1930/5/9)[15] ولا شك إنها ستكون في مجملها ممتعة ومفيدة ؛ ليس فقط لشخصية كاتبها، ودوره الملموس في ريادة ورفد الحياة الثقافية في ليبيا، ووعيه بالسيرة الذاتية في تقنياتها الفنية وتراكمها، منذ بواكيرها في العالم كاعترافات جان جاك

روسو وغيره من كتاب الغرب والشرق، ومعرفته الدقيقة في عدم الخلط بينها وبين المذكرات التي تشكل جنساً آخر، ولكن أيضاً لحسن ظننا في قدرته الإبداعية على مسك زمام أمرها؛ ومن جهة أخرى لأن السيرة الذاتية تشكل للقارئ توقاً ورغبة تستبد به للتعرف على بعض جوانب شخصياته الأثيرة، أو تلك التي أدت دوراً ملموساً، وإشباعاً لغريزة الفضول تجاهها بما ساهمت به في إنضاج وعيه، وزيادة معارفه، وارتبطت معه برباط وثيق، ووشائج وحميميات ساهمت في تشكيل ذوقه وشخصيته، أو التقائهما معاً في الاهتمام بما يكتب، كما أنها تشكل للكاتب نفسه زهرة عطائه، واستراحته كمحارب آن له أن يحكي ويقول ويبدع أيضاً، بعد رحلة من الإبداع والنضج والعطاء ؛ و لا نغالي إذا قلنا أن شخصية كشخصية خليفة التليسي تملك كل ذلك ؛ وفي هذا الصدد فقد أنهى الشاعر خالد زغبية (1933/9/10-) سيرته الذاتية[16]، وهي معدة للنشر ؛ وشاهدت لمصطفى السراج مذكراته، بعنوان أولي "ذكريات وخواطر : سيرة خمسين عاماً لمواطن ووطن خطوة بخطوة على درب الزمن" والقائمة تطول.

كانت النية أن يتم التوسع في المساهمة، فتشمل أصنافاً ذات صلة بالموضوع، مثل الرسائل والأقوال والأحاديث والروايات الشفوية، وكل ما له علاقة بنقل تجربة شخصية، يأتي على رأسها عملان ضخمان لهما أهميتهما في تاريخ ليبيا ؛ السجل القومي، وهو بيانات وخطب وأحاديث معمر القذافي، وقد صدر منه حتى الآن 34 مجلداً سنوياً، وسلسلة الروايات الشفوية التي أنجزها مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية بطرابلس وفروعه لجمع رواية وتجربة المجاهدين الليبيين ضد الطليان، وبلغت أجزاؤها 42 جزءا[17]، ولكن لأسباب تتعلق بالمساحة المتاحة للنشر في "عراجين" ولأسباب أخرى فنية اكتفينا بشكلها الحالي.

كما أن الرسائل الأدبية والتاريخية وغيرهما يكاد يكون نشرها منعدماً، رغم الأعداد المهمة والمهملة الموجودة لدى الكتاب والأدباء والمثقفين والشخصيات الوطنية، وهي تمثل ثروة وطنية تاريخية وأدبية، وطريقة مباشرة من طرائق كتابة التاريخ الشخصي والعام ؛ ومع وجود أسباب عديدة لعدم سعي الليبيين لنشر رسائلهم[18]، إلا أن السمة العامة تجعل البعض يعتبر هذه الرسائل من الخصوصيات التي لا ينبغي الإطلاع عليها، فترسخ هذا الزعم في عقلية التعامل وفي الذاكرة الليبية، وهو سبب رئيس في الإحجام عن نشرها، ناهيك عن عدم التشجيع، وعدم وجود مراكز متخصصة تعنى بمثل هذه الأجناس؛

والملاحظ أن الرسائل التي نشرت في كتب مستقلة حتى الآن لم تتعدَ بعضاً من رسائل المنفيين الليبيين في الجزر والمنافي الإيطالية[19] التي عثر عليها لدى عائلاتهم أو في الأرشيف الإيطالي، وكتبت في ظروف صعبة وبإمكانيات بسيطة، رغم أهميتها وقدسية موضوعها، أو بعض الرسائل الأخرى التي نشرت في ثنايا بعض الأعمال التاريخية[20]، مع أن العديد من الرسائل التي تحمل اتجاهات متنوعة أدبية وسياسية وتاريخية وغيرها لا تزال تنام في الخزائن الخاصة، تشخر على وسائد من التكتم والضن واللامبالاة[21].

اقتصرت مساهمتنا على الأعمال المنشورة في كتب، والمشروحة فيما بعد[22]، ابتداء من أعمال محمد طارق الأفريقي في الحبشة المنشورة عام 1937، أو تجربته في حرب فلسطين ونشرها عام 1951، وتجربة محمد حسن عريبي عام 1952[23]، وما كتبه محمد مسعود فشيكة عام 1953 في رحلته، وحتى آخر الأعمال التي صدرت عام 2004 لمحمد المفتي في حواراته مع الشاعر محمد الشلطامي، وما صدر للمحامي محمد العالم الراجحي وهو يعرّف بمحلة الظهرة بطرابلس[24].

وتجدر الإشارة إلى أهمية الرحلات التي قام بها الليبيون إلى أصقاع شتى من المعمورة، بعضها منشور، والآخر لا يزال مخطوطاً طي الأضابير ؛ ففي عام 1853 كتب محمد بن عبد الجليل سيف النصر ([1821]-؟) رحلته "ري الغليل" في 201 صفحة بخط يده[25] شملت (عشر دول حالية)[26]، إضافة إلى رحلات أخرى منها الرحلة الظافرية لمحمد ظافر المدني المتوفى باستامبول عام 1903، والدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج لأحمد الشريف (1873/12/17-1933/3/10)، كما قام الشيخ امحمد زغوان (1897-1972)[27] برحلته الحجازية المسماة (النفحات القدسية في الرحلة الحجازية)[28]، وغيرها من الرحلات ؛ فأخذت القديمة منها شكلاً تقليدياً تسجيلياً ليوميات وملاحظات أصحابها، أما الرحلات الحديثة فاتخذت منحى آخر، ربما لأن معظم كتابها من الأدباء، فجاءت بصياغة مختلفة، عكست أفكارهم واهتماماتهم وصياغاتهم، وابتعادهم عن التسجيل، وركونهم إلى التأمل ؛ ولم نورد إلا ما طبع ونشر منها ؛ والمطبوع في ليبيا له مشاكله وتعقيداته وخصوصيته المحلية ؛ فيكفي أن نعرف أن بعض الأعمال الأدبية أو الدواوين الشعرية، بقيت في أضابير دار النشر (العامة) الرئيسة لمدد طويلة، فاقت في بعضها الخمسة عشر عاماً، ثم مع ذلك لم يأخذ بعضها طريقه إلى النشر، رغم سلسلة الإجراءات والعراقيل الطويلة التي اجتازتها، أو ما تعرضت له سلسلة

الروايات الشفوية من تعثر في نشر بعض أجزائها، بسبب ما يدور في المطابع من عبث بتاريخ البلد، ويكفي أيضاً أن نعرف أن العدد العاشر من هذه السلسلة، الذي أشرف على تجهيزه وإعداده علي قريميدة الباحث بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ضاعت مسوداته في مطابع الثورة العربية بطرابلس (ست مرات!) رغم عناء العمل من مقابلة وتفريغ ومراجعة وتصويب مسودات وتدقيق، حتى سئم المعد وتوقف عن مسايرة هذا العبث (!).

اتسمت هذه المساهمة بسمتين واضحتين، التاريخية والببليوغرافية، فالسمة الأولى التاريخ، وهي عبارة عن تاريخ ما كتب من سير ومذكرات ورحلات، فانعكس ذلك على بنية هذه الأعمال، وقراءتنا فيها، فكان الغالب فيها التوقف عند محطاتها وتطوراتها التاريخية، إضافة إلى الهوامش والتدقيقات التي جاءت لتخدم الفكرة تاريخياً ؛ أما السمة الثانية، فكان الرصد الببليوغرافي الذي يتوخى إلى حد ما أن يتسم بشيء من العلمية، والضبط الببليوغرافي.

تعكس نسبة كبيرة من الأعمال واقع الحرب، فترصد أحداثها من خلال علاقة الكاتب بها، فكأن التاريخ هو تاريخ الحرب والجهاد، ابتداء من يوميات الفقيه حسن في بدايات القرن التاسع عشر، في رصده ليوميات حملة نابولي على طرابلس عام 1838، مروراً برصده للحرب الأهلية في طرابلس التي أودت بالدولة القرمانلية، ثم الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي، وحرب الحبشة، فحرب فلسطين عام 1948، وحرب استقلال الجزائر، والثورة الفلسطينية الحالية ؛ ولارتباط الحرب بالرجال عادة، فانعكس ذلك على نصيب المرأة في هذه الأعمال، إضافة إلى عوامل أخرى لها علاقة بوضع المرأة في عالم نامٍ، فجاءت حظوظ المرأة ضئيلة، اقتصرت على عمل الخديجتين، عبد القادر، والجهمي ؛ أما على مستوى الصياغة فقد عكست مقدرة أصحابها على صياغة أفكارهم، فكانت صورة صادقة عن هذه المقدرة، كما جرت على بعض الأعمال يد المساعدة، إن من خلال التحقيق والصياغة، أو حتى الحوار، لتخرج في الشكل اللائق لفكرة مكتوبة ومتداولة، ابتداء من يوميات الفقيه حسن التي كانت في معظمها مجرد يوميات بسيطة تعكس ثقافة صاحبها في التأليف وتسجل أحداث زمنه، ولم تكن تلفت انتباه أحد لولا قيمتها التاريخية بالتقادم، فكانت معالجتها بالتحقيق الرائع، والجهد المبذول فيها الذي ساهم بسبكها وإخراجها في شكل قابل للقراءة والتعاطي معها من خلال مئات الهوامش والفهارس، كما ساهمت ظروف أخرى في صياغة بعض الأعمال مثل الوفاة (سليمان الباروني، عون سوف) أو التقدم في

السن أو الظروف الصحية (محمود الجهمي، خديجة الجهمي)، أو المساعدة على الصياغة الفنية (محمود الجهمي، محمد عثمان الصيد، إبراهيم الغماري)، أو الانكفاء وعدم الرغبة في الظهور (الشلطامي)، أو ظروف العمل العام (معمر القذافي) ؛ أما على المستوى الفني فتباينت مستوياتها من المستوى التقريري الإخباري الذي لا يتوخى صاحبها تقديم أية قيمة بلاغية أو فنية، بل تسجيل حوادث وملاحظات بعينها (عمر التومي الشيباني، محمد بوكر)، في حين اتسمت بعض الأعمال بالقدرة على الصياغة الأدبية والفنية الراقية، أو التأملات الفلسفية، كما نلمس ذلك بالطبع في كتابات بعض الأدباء المعروفين.وتشكل كتابات الطاهر أحمد الزاوي حالة خاصة، فمجمل كتاباته تسجيل لواقع عايشه، إلا أن سيرته ذابت في خضم كتابة التاريخ، فتوزعت بين أعماله، حيث نستطيع مثلاً ملاحظة خط سير رحلاته من خلال كتابه معجم البلدان الليبية، وهكذا في باقي كتبه الأخرى، كما أشرنا إلى ذلك في هامشه ؛ وهذا الأمر ينطبق على كثير من الكتاب الآخرين، ولكنه عند الطاهر الزاوي أبين.

وتعكس هذه الأعمال مدى إحجام الليبيين عن تسجيل معاناتهم وخبراتهم وملاحظاتهم، ففي الحج نجد عملاً واحداً مطبوعاً (يوسف الجهمي، عام 1965) رغم ارتباطهم بالحج، مع أن الرحلات الحجازية المخطوطة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة أو في أحسن الأحوال اليدين الاثنتين، كما ظهر عمل واحد عن معاناة ظروف السجن ومرارته (خليفة المنتصر في الأربعينات).

أعطينا القارئ فكرة ولو بسيطة عن محتوى هذه الأعمال، فيما يعرف بالببليوغرافيا المشروحة، قدمنا فيها ملخصاً لكل مطبوع، إما بتلخيص أو اقتباس مما كتبه المؤلف، أو من خلال تلخيصنا أو قراءتنا وملاحظاتنا الشخصية عن العمل، فتوسعنا في ذلك، دون التزام حَرفي بالأسس المنهجية المتبعة فيه، لأسباب تتطلبها طبيعة الموضوع وظروف إعداده، كذلك لم يتم تحقيق العدل في التعريف بها، فتباينت مساحة التعريف من كتاب إلى آخر، ليس لتحيز أو أية ميزات نريد أن نسبغها على عمل دون آخر، أو تشهير نود إبرازه، ولكنها ظروف قراءة كل عمل، وواجهتنا صعوبة تلخيص الأعمال الأدبية التي كتبت بشكل أدبي أو فلسفي، فاكتفينا بالإشارة إلى عمومها ؛ وحاولنا أن نؤكد أهمية الصورة، فأشرنا إلى بعض مواضع الصور التي وشّت كثيراً من هذه الأعمال ؛ كما اجتهدنا في تدقيق وتصحيح تاريخ ولادة الكتاب والمؤلفين الأحياء وولادة ووفاة الراحلين، ووضعناها بين

قوسين مقابل أسمائهم الكاملة – قدر الامكان – لنعطي صورة أكثر وضوحاً عن عصرهم، وتحديد الفترة التي عاشوا فيها، حتى نساعد على تلمس ظروفها وتقريب صورتها وزمنها، وكذلك الحال بالنسبة للشخصيات الليبية الأخرى التي وردت أسماؤها في ثنايا الحديث(29)، وقد بلغ عدد أصحاب هذه الأعمال الأحياء 28 كاتباً، أما عدد المتوفين منهم فبلغ 20، إضافة إلى تجمع واحد، وشركة واحدة ؛ أما الحالات التي غمض فيها ذلك فوضعنا إشارات استفهام دلالة على عدم توصلنا لمعرفتها ؛ وأثقلنا المتن بالعديد من الهوامش ؛ ولم نشر إلى الطبعة الأولى كما هو متبع، فعدم الإشارة إلى رقم الطبعة يعني أنها الأولى، كما استعنا ببعض الاختصارات المتعارف عليها، فوضعنا بين معقوفتين ‚] ما أضفناه إلى الأصل، وكذلك الأعمال التي لم نطلع عليها بشكل مباشر وضعناها بين معقوفتين ؛ كما وضعنا إشارة تعجب (!) أمام المواضع الغريبة، أو تلك التي لم نعثر على مصادرها وكانت موضع تساؤل أو استغراب منا ؛ أما بقية الاختصارات فهي:

جـ : جزء. د.ت : دون تاريخ. د.م : دون مكان نشر د.م.ل : دليل المؤلفين الليبيين.

ص : صفحة. ص ص : من صفحة إلى صفحة. ع : عدد. م : ميلادي.

م.ج.ل.د.ت : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية هـ : هجري.

كما يلاحظ القارئ أننا تحدثنا في عدد من الهوامش عن اتصالاتنا الشخصية بالكتاب والأدباء لتأكيد حقائق واتصالات تصبح تاريخاً، ومحاولة لتسجيل الأحداث بشكل أكثر دقة وفق مساهمتنا فيها، فالتاريخ تفاصيل صغيرة يجب ألا تترك.

وأخيراً آمل أن يعذرني القارئ الكريم عن كثير من الهنات والهفوات سواء العلمية التوثيقية، أو الشكلية، فقد جاءت المساهمة لتسد ثغرة ؛ وهي لا تدعي العلمية والكمال الأكاديمي، ولكنها سعت لتفتح باباً للتصحيح والتمحيص والإضافة ؛ خاصة إننا لم نكن يوماً من المتخصصين في علوم المكتبات والمعلومات والتصانيف، رغم تطفلنا عليها، ولكن حب ليبيا والتألم على جوانبها المهملة ورطنا في أعمال قد لا ترضي البعض، إما شكلاً أو موضوعاً.

1 – أبوسنينة، الهادي محمد سليمان (1944-)

1 – صفحات مشرفة في الجهاد القومي، الهادي محمد سليمان أبوسنينة .

1(م) – ط 2.– ,طرابلس] : الشركة العامة للورق والطباعة ، 1991، 84 ص.

1(م) – ط 3.– ,طرابلس] : الشركة العامة للورق والطباعة، مطبعة الوثيقة الخضراء، 1998، 122 ص[30].

– المؤلف عسكري محترف، متحمس للقضايا القومية، ومتحصل على مجموعة من الأوسمة والأنواط[31] ؛ سافر مع الدفعة الأولى من المتطوعين الليبيين في 1971/11/27، إلى مطار دمشق ؛ وفي المساء أعلنت الإذاعة الإسرائيلية عن قدوم الجيش الانتحاري الأحمر كما أسمتهم، ويصف شوقهم للانتقام من المحتلين، ويصف دمشق ومظاهر الحزن التي تكسوها، واستقبال لفيف من القادة الفلسطينيين لهم، في مقدمتهم سعد صايل، قائد قوات اليرموك، وتدريباتهم، ومساهمة عدد من المتطوعين الليبيين في عملية صفد الكبرى، التي استشهد فيها ثلاثة من المتطوعين الليبيين، وردود الأفعال العالمية للعملية ؛ وحرب المئة ساعة، في الجنوب اللبناني في أواخر شهر فبراير 1972، كما تحدث عن المؤتمر الصحفي الذي عقده ديفيد أليعازر رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد الذي خلف الجنرال "بارليف" حول نشاط الثوار، وتهديده بالانتقام من اللبنانيين، وأضاف بأن أربعة آلاف (إرهابي) عربي عادوا إلى جنوب لبنان منذ شهر نوفمبر 1972 من بينهم حوالي مئة (إرهابي ليبي) ؛ وإسقاط طائرة ميراج من قبل المقاتلين الليبيين بواسطة (م ط 23)، والهجوم الذي شنه الإسرائيليون يوم 1972/2/25، والعمليات التي شنتها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، القيادة العامة، ومن بينها عمليات قادها أحمد جبريل بنفسه، كما يتحدث عن وصول السرية الأولى من كتيبة عمر المختار إلى أرض المعركة بقيادة غازي عبد ربه الغناي ورفاقه الليبيين، والكتيبة 404 لقوات العاصفة بقيادة "أبو موسى"، ويستمر في وصفه للمعركة بمساعدة سكان الهبارية وحاصبيا ومرج عيون من مسلمين ومسيحيين على السواء، رغم المنشورات

التي كانت تلقيها الطائرات الإسرائيلية بإبعاد المقاتلين، ويشيد ببعض الأسماء من السرية الأولى، كما يتحدث عن الخسائر التي ألحقوها بالإسرائيليين، ويفسح مجالاً لذكر مناقب بعض الشهداء (العريفي الفيتوري دوزان، حسين محمد حسن المسلاتي، عبد الفتاح عطية المهدي، السيد خليفة القذافي، سالم معمر الحمادي الورفلي، مفتاح أحمد فرحات، عبد القادر علي عبد القادر الكشر ؛ كما ينشر صور بعض الشهداء (صالح رمضان، فرج بوحويش محمد، صالح عبد الغني الفزاني، توفيق حمادي ربيع كما تحدث عن بعض الشهداء من الفلسطينيين وصورهم، إضافة إلى بعض البلاغات الفلسطينية، وأورد مقابلة قصيرة مع المجاهد عبد العزيز رفعت ؛ وقد بلغت الصور بالكتاب 45 صورة جاءت في معظمها غير واضحة نتيجة لسوء التصوير أو الطبع.

2 - **أبومدين، عبد الفتاح ,مفتاح بن امحمد بن عبد الله بومدين] (1926 -).**

2 - حكاية الفتى مفتاح، عبد الفتاح أبو مدين- جدة : الشركة السعودية للتوزيع، 1996، 340 ص.

- المؤلف يعمل حاليا رئيساً لنادي جدة الأدبي ؛ والكتاب سيرته الذاتية منذ ولادته في ليبيا،

والظروف الصعبة التي عاشها مع أسرته تحت سلطة الطليان في بنغازي، وذكرياته عن والده المسن ضعيف النظر الذي كان يبيع الفحم والحطب بالكيلو، ثم دراسته القرآن، وكيف حالت والدته دون ذهابه للمدارس الإيطالية خوفاً عليه، فاشتغل بمقهى، ثم عمل بأحد الأفران، تحدث أيضاً عن أحداث الحرب العالمية الثانية في بنغازي، وجلاء الطليان، ودخول الإنجليز، ومذبحة آل جعودة، وبيعه الخضار في الفندق، وكرم عبد العزيز ماضي بالجبل الأخضر، وكيف تعلم البناء واللياسة من ابن خالته أبوبكر العجيلي، وعن ابن عمته محمد الكاديكي ودراسته بالخارج، وتعيينه مسؤولاً في بنغازي، وعن رحلته الأولى وهو طفل إلى المرج مرافقاً إحدى الجارات لزيارة لأهلها، ورجوعه في بابور السكة، ثم ذهابه إليها مرة أخرى للعمل في البناء أيام الإدارة البريطانية، واصفاً الزراعة فيها، وبزواج شقيقته الصغرى بقي هو والدته فقط، مما سهل ذهابهما عام 1944 في أول دفعة حجيج ليبي بعد انتهاء الحرب عبر منطقة

الرويصات حيث مقر سكناهم إلى مقر تجمع الحجيج، فصعدوا الشاحنات عبر الأراضي المصرية ؛ بدعوة من خاله مصطفى بدر الدين الذي كان موظفاً بجمارك درنة قبل الاحتلال الإيطالي، ثم هاجر ونظم الجمارك في جدة وترأسها، وبوفاة والدته في الحج، انقفل باب عودته إلى ليبيا، فبقي برعاية خاله حتى وفاته عام 1953، فاندمج في الحياة العامة بالسعودية، وأصبح من أبرز الوجوه الثقافية التقليدية فيها ؛ كما يتحدث عن حياته الجديدة التي كانت صعبة في بدايتها(32) ؛ أما ذكرياته الليبية الأخرى، فعودته إلى طرابلس لدراسة الإنجليزية بها بعد أن سئم من لندن، ثم ذهابه إلى بنغازي، فبنى بيتاً على أرض ورثها من والده(33)، وتعاقد مع الخارجية السعودية للعمل في قنصليتها ببنغازي، وبعض الذكريات مثل حفلة أم كلثوم الشهيرة عام 1969 وحفلة عبد الوهاب، وحديثه عن بعض الشخصيات فيها، مثل الباحث علي الساحلي ؛ ويتحدث أيضاً عن مساعدة مدير المراسم حميدة الزليطني له، وخروجه في إجازة مع أسرته في يوليو 1969 إلى الشام، ثم عودته إلى عمله ببنغازي، وتردده على أسرته في الشام، إلى أن قرر إلغاء عقده، ورجوعه إلى السعودية ؛ إضافة إلى تفاصيل حياته في السعودية.

3 - الأسطى، محمد (1898- 1991/2/17).

3 - ورقات مطوية، محمد الأسطى.- طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1983، (سلسلة كتاب الشعب ؛ 10)، 415 ص.

- تناول المؤلف طفولته في طرابلس، عندما كانوا يرشون التلاميذ بماء الزهر، وبعض الأحداث التي عاصرها كأول استخدام للطائرات الحربية في العالم الذي كان في ليبيا، وهجرة عائلته إلى الحجاز، كما يعرض بعض الوجوه المألوفة من طرابلس التي وجدها هناك، ودخول المؤلف لمدرسة الصنائع بأزمير، وعن بعض البطولات الليبية في الدردنيل، ومدينة ليبية في تركيا، والجمهورية الطرابلسية، والمعتقلات التي نقلت إليها قبائل بأكملها، وحياته لمدة ثلاث سنوات في بلدة الزنتان بعد العودة وحديثه عن اليهود والطليان بها، وأيامه التي لا تنسى فيها على حد قوله، وحديثه عن تجنيس الليبيين، ولتبرير ذلك أطلق الإيطاليون على الليبي المتجنس اسم "إيطالي مسلم"، وكيف اشترى جهاز راديو، وحيازة الراديو في ذلك الوقت تحتاج على سلسلة من الاجراءات، فثمة

رسوم وضرائب سنوية، ويتعين التوجه إلى مبنى البريد لتسديد الرسوم، والتأخير يعني مضاعفة الرسوم وإمكانية مصادرة الجهاز في حال تكرار التأخير.كما تحدث عن سقوط قلعة قاهرة بسببها، وغيرها من الأحداث ؛ جاء الكتاب في 30 فصلاً متنوعة[34].

4 – الأسطى عمر، إبراهيم .إبراهيم عبد الكريم بن إبراهيم بن الأسطى عمر بن محمد البحري (1908-1950/9/26)[35].

4 – ديوان البلبل والوكر للشاعر إبراهيم الأسطى عمر، جمع عبد الباسط سليمان الدلال، عبد اللطيف محمد شاهين[36].– الإسكندرية : مطبعة م. ك ،1967.– (من تراث الأدب الليبي) ،167 ص [37].

4 (م).– ديوان إبراهيم الأسطى عمر، جمعه وحققه عبد الباسط سليمان الدلال[38].
– درنة : دار الفاتح للطباعة والنشر ،[1993]، 136 ص.

– كتب الشاعر يومياته ووردت في الكتابين، وقدم لها بهذه بمقدمة جاء فيها.. (فقد رأيت وقد عزمت على تدوين يومياتي أن أقدم هذا العمل بترجمة عجلى لحياتي حتى يستطيع المطلع على هذه اليوميات أن يكون له فكرة عن كاتبها، تمكنه من معرفة المؤثرات المختلفة التي أحاطت بحياتي..) جاءت اليوميات على الصفحات 19 – 36 من ديوان البلبل والوكر، وأعيد نشرها في ديوان إبراهيم الأسطى عمر، ص ص 8 -20 [39] تناولت هذه الترجمة حياة المؤلف بعد موت والده وهو في الثامنة، وكانت أسرته ثرية وكان والده في عداد الأغنياء، يقضي كل صيف في نزهة بحرية إلى تركيا تستمر إلى ثلاثة أشهر من خلال ما كانت تدره عليه حرفته في إصلاح الأسلحة "زنايدي" حتى دخول الطليان وتوقف عن هذا العمل، وفتح مقهى، وليعيل والدته وأختيه اشتغل حمالاً وحطاباً، وعين عام 1921 مباشراً في دائرة جمارك درنة، ثم بدأ تعلم العربية والإيطالية، ثم زاد شغفه بالقراءة فطالع الصحف والكتب التي جاءته من مصر حتى كون مكتبة صغيرة ؛ ثم عين بالمحكمة الشرعية، وبرزت قدرته على الإنشاء فحسنها بتعلم قواعد اللغة بنفسه، ثم اشترك في أداء امتحان أهلية التعليم باللغة العربية بنجاح فائق ؛ وكون في عام 1934 مع آخرين نادياً أدبياً يجمع مثقفي وأدباء

وظرفاء درنة، أثر فيه نبأ القبض على عمر المختار، فقرر الهجرة، ورغم ظروف التشديد إلا أنه استطاع أن يذهب إلى مصر في صيف 1938 بإحدى السفن، فمكث فيها شهراً واحداً، محاولاً الحصول على تأشيرة إلى العراق أو سوريا، وفي سوريا التقى بعمر فائق شنيب، ثم سافر إلى بغداد، فلم يرق له المقام هناك، ورجع إلى سوريا، وساعده علي باشا العابدية المقيم في قرية المفرق، ثم تحصل على عمل في الجيش البريطاني كرئيس عمال في خط قطار حيفا بغداد، بأجرة زهيدة، (15 قرشاً يومياً)، ثم سمع في الصحف نبأ تشكيل جيش ليبي بمساعدة الحلفاء فاتصل بعمر شنيب لينضم إليه، وانتظر على أحر من الجمر وصول الموافقة، وتوقفت يومياته عند هذا الحد
50) - الأفريقي، محمد طارق (1886-1963/10/15)(40).

5 - **مذكراتي في الحرب الحبشية - الإيطالية (1935-1936)، محمد طارق الأفريقي - دمشق : مطبعة جريدة الإنشاء، 1937، 121 ص.**

- يتحدث عن دافعه للاشتراك في حرب الحبشة، خاصة أن له معرفة بسير الحروب؛ وقصة تطوعه بعد رجوعه من لاجوس بنيجيريا على رأس من بيت المقدس لجمع التبرعات من أمراء المسلمين فيها، وفي إيطاليا عرف أنها قررت الحرب على الحبشة، فاتصل في بور سعيد بقنصل الحبشة للتباحث حول اشتراكه في الحرب، ورجوعه إلى دمشق حيث يقيم فوصلها في 1935/8/12، بعد رحلة طويلة دامت ثمانية أشهر بين آسيا وأوربا وأفريقيا، ثم يتحدث عن وصوله إلى الحبشة عبر مصر ومقابلته للإمبراطور هيلا سلاسي، وتكليفه بقيادة بعض القوات، ثم تحدث عن جغرافية الحبشة واقتصادها وتاريخها وبأس شعوبها، وأسباب ارتباكات العالم وأزماته الحاضرة، ومنها طمع إيطاليا في الحبشة، فيرجعه إلى صلح فرساي، واستسلام هيلا سلاسي للسياسة الإنكليزية، ورغبة موسوليني في التفاهم معه، ووضع الجيوش المتخاصمة ومقدار قوتها، فتحدث عن وضع الجيوش الإيطالية ومقادير قواتها، سواء في الجبهة الشمالية بقيادة المارشال دي بونو، أوفي جبهة أوغادن بقيادة غراسياني، وعن اجتياز الجيوش الإيطالية حدود الحبشة بغتة دون إعلان للحرب وأعمالها العسكرية مثل معركة "قوراتي" في 1936/2/18، كما تحدث عن تغيير القيادة العامة للجيوش الإيطالية وقيامها بالأعمال الحاسمة، وابتداء المعارك الفاصلة، مثل معركة "طامبيان" الأولى في

1936/1/19، وخطة الماريشال بادوليو ومناوراته، ومعركة "امبارادام" في 1936/ 2/10، و"طامبيان" الثانية في 1936/2/29 وانسحاب الأحباش وراء نهر "تكازا"، وقيام الطائرات بنصيبها بإلقاء آلاف القذائف الفتاكة والغازات السامة ففتكت بألوف الأحباش، كما تحدث عن معركة "شيرا" الكبرى في 1936/2/29، واستعدادات الجيوش الإيطالية للتغلغل داخل البلاد الحبشية واحتلالها، حيث ألقى الإيطاليون على الأحباش آلاف القذائف، وكثيراً من الغازات السامة، وعقد فصلاً عن الغازات السامة وتأثيرها المهلك والوقاية منها، وعن تنظيم وتنسيق الجيوش الإيطالية للتغلغل داخل البلاد الحبشية، وكيف استلم هيلا سلاسي إدارة الحرب وقيادته لمعركة "بحيرة اشانكي" الحاسمة في 31/3-1936/4/1 لتحتل الجيوش الإيطالية أديس أبابا، وخروج هيلا سلاسي إلى جيبوتي فوصلها في 1936/5/6، وعن المعارك الجبهة الجنوبية بأوغادن، مثل معركة "جاناغوبو" في 14-1936/4/17، وانتقد أعمال الطرفين، وحالة الأحباش تحت قذائف الطائرات، وكان الفصل الأخير عن سيكولوجية الحرب وفلسفة نفسانية الأحباش في المعارك، فذكر بعض الحوادث التي شاهدها، كما تحدث عن النساء الحبشيات في الحرب، وبعض طبائع الحيوانات الحبشية فتحدث عن خوف الأسود من النيران، وخوف القردة من التماسيح فتسقط تلقائياً عند رؤيتها إياها لتبتلعها في الحال، وكيف أن السباع تتناحر على قتلى المعارك، فيتم دفنها نهاراً لتأتي السباع ليلاً لتخرجها، وهكذا دواليك، ليجد أنه يخصص جزءاً من جهده لمقاتلة ومشاغلة هذه السباع.

6 - **المجاهدون في معارك فلسطين (1367 هـ - 1948م) : مذكرات عن الحرب الفلسطينية، أربعون معركة وأسماء شهدائها وجرحاها، محمد طارق الأفريقي.**

- سورية: دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1951، 181 ص[41].

- لما كنت أحد قادة المجاهدين الذين قادوا معاركها، حيث قمت بإدارة أربعين معركة مسجلة ضد اليهود في جبهتي غزة والقدس، رأيت من واجبي أن أسجل هذه المعارك وما يحيط بها من الأسرار وكيفية وقوعها وجريانها مع ذكر أسماء شهدائها وجرحاها وغنائمها، وليس بالإمكان في الوقت الحاضر المجاهرة ببعض الحقائق عن المعارك النظامية للجيوش العربية أو ببعض حقائق الحوادث كما جرت، رأيت من المناسب أن

أكتفي بالتلميح بما يغني عن التصريح فيما سجلته[42]، هذا باختصار فحوى الكتاب الذي أورد فيه نبذ عن المعارك الأربعين التي جرت تحت قيادته، وكان قد كتب تمهيداً عن تاريخ اليهود منذ القدم حتى تفكيرهم في وطن قومي لهم بأرض الميعاد في فلسطين ؛ كما يستعرض واجبه العسكري منذ أن قررت الهيئة العربية العليا تعيينه قائداً عسكرياً بناء على دعوة من الحاج أمين الحسيني، فتحدث عن تأسيس قيادة جبهة غزة، وتحديد حدودها وكيفية إدارة أعمالها، وتعيين قوادها المساعدين له، وقد سرد أسماء المعارك التي قادها ابتداءً من معركة الفالوجة الأولى في 1948/3/13، والمجدل، وبربرة، وأسدود، وبيت، دارس، وقرية جورة، ومعسكر جوليس، وسجل شجاعة سكان قضاء المجدل ورئيس بلديتهم السيد "أبو شرخ"، وكيف باعوا حلي نسائهم وبناتهم لشراء الأسلحة والعتاد، والصعوبات التي واجهتهم في مصر لشراء وإرسال الأسلحة إلى الجبهة، فيتحدث عنها بالتفصيل، وظروف إقامة الوفد بمصر، إلى عقد الهدنة الأولى وذهابه إلى دمشق في 1948/5/12، ثم رجوعه مرة أخرى إلى الجبهة، ماراً بالقدس، فأبقاه حاكمها العسكري، وعينه في 1948/7/11 قائداً على إحدى مناطقها العسكرية، فقاد مجموعة معارك مثل معارك النبي داود، وأبي طور، وجبل المكبر، وعرب السواحرة، ووادي ربابة، وسلوان، وغيرها، وبمعركة دير أبي طور في 1948/10/25 اختتم قيادته لهذه المعارك وحديثه عن بعض للظروف السيئة التي واجهها في الجبهة فقدم استقالته في 1948/10/22] ورجع إلى دمشق ؛ مع تسجيل عدد من الملاحظات حول الحرب، وكشف بأسماء الشهداء والجرحى العرب، إضافة إلى نشره لحوالي عشرين صورة لبعض القادة والمواقف التي ضبطتها العدسة ومن بينها مقتل الكونت برنادوت، مبعوث الأمم المتحدة، ومساعده الفرنسي الكولونيل سيرو في 1948/9/17، الذي قابله في الجبهة قبل مقتله بقليل.

6 – **الباروني، سليمان عبد الله (1870-1940/5/1)[43].**

7 – صفحات خالدة من الجهاد : للمجاهد الليبي سليمان الباروني، إعداد زعيمة سليمان الباروني[44].– القاهرة : مطبعة الاستقلال الكبرى، 1964، 529 ص.

– الكتاب تجميع لمذكرات الزعيم والشخصية التي سبقت عصرها المجاهد سليمان الباروني،

والأوراق الخاصة به[45]، تناول الفصل الأول مرحلة ما قبل الجهاد، منها بعض المقالات التي نشرت في جريدة الأسد الإسلامي، أما الفصل الثاني فكان عن بدايات الحرب وصور طبق الأصل من الرسائل والبرقيات المتبادلة بين المجاهدين في خضم المعارك، والثالث عن بعض الوقائع والأحداث أواخر الجهاد، وحديث عن رحلته إلى الجزائر لزيارة قبر شيخه محمد اطفيش، والرابع باقة من الرسائل الهامة والمستندات الرسمية خلال أيام السلوم، إضافة إلى نشر بعض صور من مستندات ووثائق أخرى مهمة.

8 – صفحات خالدة من الجهاد : للمجاهد الليبي سليمان الباروني، إعداد زعيمة سليمان الباروني.– بيروت : (د. ن)، 1968، جـ 1 من الكتاب الثاني، 470 ص[46].

– تضمن الحوادث التي جرت بين سنتي 1916-1922، وبعض الوثائق المتعلقة بها، وملاحظاته عنها ؛ تضمن الفصل الأول وصول الباروني إلى مصراتة، ورسائل ووثائق بدء العمل وتوحيد الصفوف، أما الفصل الثاني فهو عن وثائق ورسائل ومذكرات أثناء الحرب، وتضمن الفصل الثالث نداء الخليفة وحيد الدين للجيش والأسطول، ووثيقة تشكيل مجلس الحرب برئاسة الأمير عثمان فؤاد، إضافة إلى بعض رسائل القادة ؛ أما الفصل الرابع فهو عن مواد الهدنة وإعلان الجمهورية الطرابلسية، وقانونها الأساسي وبعض الرسائل، كما تضمن الفصل الأخير عدة رسائل كرسالة هيئة الإصلاح المركزية، ورسالة الوالي الإيطالي وبعض الزعماء العرب طلباً لإنهاء الخلافات التي كانت قائمة في الجبل الغربي ؛ والكتاب حافل بصور الوثائق والصور النادرة.

7 – **بن حليم، مصطفى أحمد (1921/1/29-).**

9 – صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي : مذكرات رئيس وزراء ليبيا الأسبق. مصطفى أحمد بن حليم.– قليوب : مطابع الأهرام التجارية. 1922، 847 ص.

– كان رئيساً لوزراء ليبيا خلال الفترة 1954- 1957 ؛ تحدث عن حياته وطفولته وتخرجه مهندساً من مصر، ووصوله إلى الوزارة، بعد أن بدأ بمقدمة عن لماذا هذه المذكرات، وعن الحالة السياسية في برقة أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، وزياراته إلى لندن، وإعجاب إدريس ببريطانيا العظمى، ثم عن حاشيته، وموقفه من

الديمقراطية، ومقتل الشلحي ناظر الخاصة الملكية نتيجة صراعه مع أسرة أحمد الشريف، وعن المحاولة الأولى لتطبيق النظام الجمهوري في ليبيا (!)، وكيف أن عبد الناصر نصح بعدم إنهاء الاتفاقية الأمريكية، وقصة القواعد الأجنبية، وعن اندلاع ثورة الجزائر، والأزمة الدستورية سنة 1954 بحل المحكمة العليا، والعلاقات مع فرنسا وقصة خروجها من فزان، وعن الحدود، وقصة البترول في ليبيا، والعلاقات مع مصر من خلال أزمة السويس وشخصية عبد الناصر والعدوان الثلاثي، ومخططات الملحق العسكري المصري، ومؤتمر القمة العربية في بيروت عام 1956، وتدهور العلاقة مع البوصيري الشلحي، وبعض الزيارات إلى ليبيا كزيارة الملك سعود بن عبد العزيز، وزيارة ريتشارد نيكسون نائب الرئيس الأمريكي الذي كلفه الرئيس ايزنهاور بجولة أفريقية شملت ليبيا ومحاولة وزير الخارجية د. علي الساحلي عرقلة هذه الزيارة بالتعاون مع الشلحي، وأزمة تعديل الحدود بين الولايات الثلاث، وبعض الأحداث التي مسته مباشرة كاستقالته وخروجه من ليبيا، ضم الكتاب أيضاً مجموعة كبيرة من الصور والوثائق خاصة من الأرشيف البريطاني، ص ص 565 – 847.

8 – **بوكر، محمد خليفة ,محمد بن خليفة بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بوكر]** **(1936/9/7-).**

10 – لمحات من سيرة عائلية، محمد خليفة بوكر.

– إصدار خاص ,دون معلومات ببليوغرافية]. 2001 ف، 111 ص.

– تناول ملامح من تاريخ عائلة بوكر ، ص ص 10– 23، ونسبتها إلى الأشراف، ونزوحها من الأندلس، وتوزعها في عدة مناطق كمحلة الظهرة بطرابلس، وتاجوراء، وعرّف بجدهم سيدي بوكر، الذي تسمى باسمه مقبرة الظهرة، وما ورد في كتاب سكان ليبيا حولها، وما حكاه له وكيل وزارة الزراعة السابق عثمان الجربي بخصوص سكناها للمدينة القديمة ؛ وعن بعض عاداتها، ونبذاً عن والديه وأجداده وأقاربه ومنهم شقيقه عبد اللطيف الكاتب العام السابق لأمانة الإعلام والثقافة الذي قضي في حادث سير في1997/8/27؛ وعن سيرته الذاتية، ص ص 25 – 93، منذ بداياته الدراسية، وحصوله على بكالوريوس زراعة من بغداد، وعودته في يوليو 1958،

وتعيينه باحثاً اقتصاديا بالبنك الوطني الليبي، ومساهماته فيه، وإيفاده لدورة دراسية لمدة سنة بأمريكا ؛ وانتقاله إلى وزارة الزراعة وجهده في تنظيمها وتطوير العمل بها، وإيفاده ثانية إلى أمريكا للحصول على الماجستير، وتكليفه بعد عودته عام 1969 بمهمة مدير مكتب التعاون الفني والعلاقات الخارجية بوزارة الزراعة ؛ وبعد الثورة ساهم في تسمية عناصر ذات كفاءة لتسيير هذا القطاع، واقتراحه إنشاء المنظمة العربية للتنمية الزراعية التي أقرت على هامش اجتماع منظمة الفاو بروما عام 1969 ؛ وعمله بلجنة إنشاء الصوامع، وتعيينه في 1971 وكيلاً لوزارة الزراعة ؛ ومديراً للمكتب الإقليمي للمنظمة العربية للتنمية الزراعية 1978 – 1944؛ ضم الكتاب كشفاً بالمؤتمرات والوفود التي شارك فيها ؛ وملحق اللوحات، ص ص 94 – 103، ويضم شجرة العائلة وأصهارها عائلات : البزنطي، الشاوش، عطية، طاباق ؛ وملحقاً بالصور، ص ص، 103 – 111[47].

9 – جلال، فوزي (1938-)[48].

11 – التائه أبداً يعود، فوزي جلال.- طرابلس : دار مكتبة الفكر، 1974، 130 ص.

– يتحدث بأسلوب أدبي عن رحلاته وانطباعاته عن الدول والمدن التي زارها : تركيا، بولندا، النمسا، تشيكو سلوفاكيا، المجر، ألمانيا، إيطاليا، بريطانيا.

10 – الجنزوري، عبد الرحمن (1931 –).

12 – رحلة السنوات الطويلة : وقائع و تأملات في سيرة مواطن ليبي، عبد الرحمن الجنزوري. – طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،2000.– (سلسلة السير و التراجم ؛ 4) ،477 ص.

– يتحدث عن حياته في المدينة القديمة بطرابلس وملامح المجتمع فيها، ص ص11-63،

وأحداث الحرب العالمية الثانية وإفرازاتها، ص ص 65-116، وأضواء على الحركة الوطنية بعد خروج الطليان، ص ص 117-164، ومشاركته في حرب فلسطين عام 1948، ص ص 165-207، وحديثه عن رحلته في الحياة بعد عودته من فلسطين، ص ص 367-311، وعمله بالقضاء، ثم عمله بالمحاماة منذ نهاية خمسينات القرن العشرين، ص ص 269-361، إضافة إلى ملحق الوثائق، ص ص 433-363.

11 - الجهمي، خديجة (1921/3/18-1996/8/10)[49] .

13 - خواطر بنت الوطن : خديجة الجهمي ، إعداد عزيزة محمد الشيباني[50].- طرابلس : مكتبة طرابلس العلمية العالمية، 1996، 160 ص.

- ذكريات وخواطر كتبتها خديجة الجهمي قامت المعدة بجمعها وأصدرتها في شكل كتاب... إنني أدون خواطر وملاحظات تخطر لي على البال، أي كلما عنّت لي فكرة أو خاطرة بمخيلتي.. تحدثت الكاتبة عن طفولتها وحياتها وتجربتها في الحياة وبعض الخواطر، في عدة مقالات، أرخت كتابتها بين عامي 1986 - 1989، خلال ص ص 10 - 102، والختام كان بشهادات بعض الكتاب مثل الأساتذة علي مصطفى المصراتي، السنوسي العربي، ومحمد التركي التاجوري[51].

12 - الجهمي، محمود احميدة (1893-1970/9/27)[52] .

14 - مذكرات مجاهد : محمود الجهمي، تقديم محمد عبد الرزاق منّاع[53].

- بنغازي: دار الاتحاد للطباعة والنشر، (د. ت)، 168 ص.

- يبدأ الكتاب بفصل موجز عن (ملامح عهد صبا المؤلف) ص ص 9 - 28 للكاتب محمد مناع ؛ ثم تحدث المؤلف بصيغة المتكلم عن طريقة انضمامه إلى المجاهدين، ولقائه بعزيز المصري، ثم نجيب الحوراني، وذهابه إلى الإسكندرية لنقل ابن عمه المصاب في معركة الرجمة، وفي طريق عودته مر على المجاهد أحمد الشريف الذي أمر عمر المختار بمنحه رتبة (قومندان)، كما تحدث عن جهاده والمهام التي أوكلها إليه عمر المختار، والمجموعات المتمردة التي ضمها إلى المجاهدين، واتهامه بقتل الألماني ومرافقه الجزائري[54]، فقد كلفه إدريس السنوسي بمرافقته إلى مرسى اليهودية بخليج سرت، بعد أن فشل المجاهد موسى اليمني في ذلك لتشاجره معه في الطريق، وأمر بألا يذهب الألماني إلى أي مكان عدا المرسى المذكور، وفي منطقة أم الغرانيق تسلل مع مرافقه الجزائري، والبحث عنهما دون جدوى، حتى حضر شخص يدعى صابر الحاسي الذي أخبرهم بأنه شاهده منذ مدة، وذهب إليهما، ولظروف ما قتلهما، وجاء بأموالهما وأوراقهما، ثم إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن لمدة شهرين في مكان مظلم، والإفراج عنه بعد أن أثر ذلك على بصره، ثم عودته إلى بنغازي، ورفضه لطلب

الإيطاليين التعاون معهم، ثم دخوله السجن لتفوهه بحديث معادٍ للطليان، فبقي يلقي دروساً دينية في السجن، حتى خروجه، فحددت إقامته وأنذر بالإعدام، وبقي يعيش حياة الكفاف ؛ وقرض الكتاب بكلمة للشاعر عبد ربه الغناي ص ص 145-161، إضافة لما احتواه الكتاب من صور، وبعض المقولات والحكم التي لا نعلم سبب نشرها في نهاية الكتاب.

13 - **الجهمي، يوسف محمود (1938-).**

15 - مناظرات وملامسات في الحج والحجيج، يوسف محمود الجهمي.- بنغازي : المطبعة الأهلية، 1966 ،51 ص.

- رحلة حجازية نشرت مسلسلة بصحيفة (العمل) الصادرة ببنغازي عام 1965، بعد عودته من الحج مباشرة، ونشرها دون أن يرفقها بالصور (حوالي 12 صورة) فأضافها بالكتاب ؛ بدأت الرحلة من ميناء بنغازي، فطبرق، مروراً بقناة السويس، ثم ميناء جدة، كما يتحدث عن طابور الحافلات إلى مدينة الحجاج، حيث يوجد المطوفون، وذهابهم إلى جدة ثم مكة لأداء مناسكهم التي تحدث عنها باختصار، وتناول بعض الحوادث التي واجهت الحجاج، كإصرارهم على البقاء لمدة ثمانية أيام بالمدينة المنورة، وتدخل السفير الليبي والسلطات السعودية في هذا الموضوع ،كما يتحدث عن تهجمات بعض الحجاج الليبيين على مسؤولي البعثة، وضرب أحد الحجاج لشقيق المطوف السعودي، ورفض السلطات السعودية الاهتمام بشاب يمني ملقى في الطريق يعاني سكرات الموت، إلا بعد موته بخمس ساعات عندما حضرت سيارة الإسعاف، وعن طرق التسول في الحج، وتلاعب بعض سائقي الحافلات بابتزاز الحجاج، وسبب تكرار الحج عند البعض، والحوار الطويل الذي دار مع فلسطيني شاب يبيع العطور معدداً ثقافته، وعن صفات قدسية أطلقها على حمَام الحرم، كما يوجه نصيحة للحكومة السعودية بأن تهتم بجلود الأضاحي ولحومها التي ترمى في الشوارع، ويقترح إنشاء مدبغة للجلود وثلاجة للحوم ، وعن الجرائم كقيام حاج من أحد الجنسيات العربية بسرقة محفظة حاج آخر فوق جبل عرفات بواسطة مدية، وإلقاء القبض عليه ومعاقبته، ويورد منشور بعثة الحج لطمأنة الحجاج رداً على إشاعة تأخير عودة بعضهم، ويلاحظ المؤلف أن النظام لدى الحجاج الليبيين مفقود، إن في الصعود أو النزول، فقد تسبب

تدافع بعض المودعين في بنغازي بمكان التجمع بمدرسة النهضة "توريللي" في وفاة حاجة مسنة، وتحدث عن سفينتي الحجاج "هنريتة لاتسي"، و"مريانا لاتسي"، وعدد محاسن الدرجة الثالثة فيها، وكال لها مديحاً عالياً، وأخيراً طرح مجموعة ملاحظات على المسؤولين، بدأها بأهمية دور الشيخ مصطفى التريكي من خلال حل منازعات الحجاج الذي قرّض الكتاب، وأشاد بدوره ودور الشاب عبد القادر غوقة المسؤول بالبعثة، كما طلب محاسبة المطوفين، وتحدث عن الأسعار الغالية في مقاهي السفينة، وطلب إبعاد بعض الحسناوات (اليونانيات) اللاتي يعملن بالسفينة عن أعين الحجاج، وعن دخول مشعوذ إلى السفينة في غفلة من السلطات المختصة، ويقترح شراء سفينة لنقل الحجاج عوضاً عن الأموال التي تذهب في الكراء، كما يشيد بالخدمات التي تقدمها البعثة الطبية الليبية، التي امتدت إلى المحتاجين من الجنسيات الأخرى.

14 - **خشيم، علي فهمي (-١٩٣٧)**[55].

16 - الحركة والسكون، د. علي فهمي خشيم. طرابلس : دار مكتبة الفكر، 1973، 216 ص.

16 (م).- الحركة والسكون وفصول أخرى، د. علي فهمي خشيم.-مصراتة : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1428 (1998م) ،287 ص.

- الكتاب تجميع لمقالات سبق للمؤلف أن نشرها متفرقة، وجاء الفصل الثاني بعنوان من أوربا وعنها، يتحدث فيه الكاتب عن بعض انطباعاته وملاحظاته من خلال رحلاته إلى أوربا[56] وجاءت كالآتي : باريس الأمريكية، حضارة جماجم، مع الكلوشار، مصرف الروح المقدس، الشيخ زروق في المتحف البريطاني، حضارة التيك تاك، اقرأ انجيلك في هايدبَرك، دكتاتورية التين آيجرز، رينقو جاه وليد، عندما تفكر جيني.

17 - هذا ما حدث : بعض ما وعته الذاكرة من حوادث وأحداث وحالات وشخصيات، علي فهمي خشيم.- بيروت : دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004، 548 ص + 10 ص مص.[57]

- الكتاب عبارة عن السيرة الذاتية للمؤلف قسمه إلى جزأين، الأول بعنوان زنقة شلاكة وما حولها، ص ص 9 - 355، والجزء الثاني بعنوان زنقة شلاكة وما بعدها

ص ص 356 – 543 وهي الزنقة التي كان يقطنها خاله بالمدينة القديمة، وكانت أول ما عرف من طرابلس، ومنها اقترن بابنة خاله وأم بعض عياله التي ظهر تأثره على وفاتها مريضة بالسرطان، تناولت السيرة أهم المحطات التي صقلت وأثرت في شخصية كاتبها، وهي كثيرة، وعن دراسته ابتداء من مصراتة إلى طرابلس ودراسته بالجامعة الليبية في بنغازي، وفي مصر، ثم في جامعة درهام، والمناصب التي تقلدها، ومنها وكيل وزارة الإعلام والثقافة، ووزير اتحادي مقيم بالقاهرة، وبعض المواقف التي حدثت له مع السادات، في محاولة لرصد محطات منتقاة لحياة حافلة بالكثير، وأعقب الكتاب بمسرد لمؤلفاته التي وصلت إلى 35 كتاباً.

15 – **الديب، علي (1922/4/15-   ).**

18– مؤامرة بن حليم على الديمقراطية في ليبيا 1954، علي الديب.– القاهرة : مطابع المنار العربي، 1966، 273 ص.

– الكتاب جاء رداً على ما ورد في مذكرات مصطفى بن حليم، خاصة الباب الثاني حول الأزمة الدستورية بحل المجلس التشريعي لولاية طرابلس الغرب عام 1954، حيث كان المؤلف رئيساً له ؛ تحدث عن أبعاد الأزمة الدستورية وجذورها، والأمر الملكي الذي سبب في اندلاع الأزمة، وسقوط وزارة الساقزلي، فتشكيل وزارة بن حليم، واستقالة أعضاء المحكمة العليا المصريين، وتصفية المحكمة العليا وقصة إنشاء المحكمة الدستورية العليا، وغيرها ؛ وضم الكتاب مجموعة كبيرة من الوثائق شكلت أكثر من نصف الكتاب، ص ص 121 – 267، منها المرسوم الملكي بحل المجلس التشريعي لولاية طرابلس الغرب في 1954/1/19، وقد جاء في ثلاث مواد، الأولى بحل المجلس، والثانية بإجراء الانتخابات والتعيينات للمجلس الجديد في خلال تسعين يوماً من تاريخ الحل، والثالثة تطلب من والي طرابلس (الصديق المنتصر) تنفيذ هذا الأمر والعمل به، كما ضم حكم المحكمة العليا في 1954/4/5 الذي رفض دعوى الدفوع الثلاثة ببطلان اختصاص المحكمة بنظرها؛ وببطلان الأمر الصادر في 19يناير 1954 بحل المجلس التشريعي لولاية طرابلس الغرب، وما ترتب عليه من آثار، مع إلزام المدعى عليه بالمصروفات.

16 - الراجحي، محمد العالم (1943/7/4 -)[58].

- محلة الظهرة، ملتقى الخصوصية والعمومية (1939- 1969)، محمد العالم الراجحي.- دمشق : دار قتيبة، 2004 ، 346 ص.

- هذه أوراق صغيرة حول الحي المعروف باسم محلة الظهرة بمدينة طرابلس، لم أفكر يوماً في تقليب صفحاته أو تسجيلها أو بثها لو لم يطلبها مني أحد الزملاء في صيغة تساؤل كان منشؤه عنده إطلاعه على جرعة تخرصات أربكت أو كان أن تربك نظرته حول هذه المحلة[59] جاءت هذه المذكرات لترسم صورة (وردية) عن الحي وتاريخه وتكاثف سكانه وشجاعة قبضاياته وفتواته ؛ بدأه بنظرة على تخوم المحلة، والدخول إليها الذي ظل متاحاً من جميع جهاتها، ثم تحدث عن مساكنها، ومصادر معيشة سكانها، وأجوائها الاجتماعية، كالقبضايات والأفراح وغيرها، كما تحدث عن الوسط الثقافي والفني كالكتاتيب وشيوخها وإنشاء النادي الأدبي في عام 1943 وعن مدرسة الظهرة الابتدائية للبنين، وتحدث عن أشهر المطربين وفرقة الفنون والصنائع التي تأسست عام 1936، وتحدث عن الميدان الرياضي والترفيهي، وعن الأعياد والمناسبات في المحلة، كما تحدث في عجالة عن انتخابات عام 1965، وعن مرشح الحكومة والمرشح المقابل له (كامل المقهور) وكيف أن وزير الداخلية استدعاه وأفاده بأن الحكومة لا ترغب في ترشيحه، وأنه إذا تخلى عن ترشيح نفسه، فإنه يعده بأنه سيعين رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الكهرباء، وأردف كتابه بملحق قائمة عائلات محلة الظهرة خلال زمن بطاقة التموين (القرامات) 1939 - 1950، ص ص- 328 261، ووشى الكتاب بأكثر من ثلاثين صورة تاريخية ذات علاقة وطيدة بالموضوع.

17 - زارم، أحمد , أحمد زارم بن خليفة بن عمر بن سعيد المجذوب الرحيبي] (1906-1995/6/3)[60].

20 - ذكريات من الماضي القريب ، حتى لا يضيع التاريخ، أحمد زارم.- طرابلس: دار الحرية للطباعة، 1972، 176 ص.

- هذه الذكريات تركز محتوياتها على حركة المهاجرين الليبيين في منطقة المغرب العربي ضد الاستعمار الإيطالي في بحر اثنين وعشرين عاماً، ولا تشمل فترة الإدارة

البريطانية في ليبيا، إلا لمحات خاطفة اقتضتها ظروف سرد الذكريات(61).

21 – مذكرات، أحمد زارم.– ليبيا ؛ تونس : الدار العربية للكتاب، 1979، 351 ص.

22 – مذكرات... صراع الشعب الليبي مع مطامع الاستعمار (1943 – 1968)، أحمد زارم.– ليبيا ؛ تونس : الدار العربية للكتاب، 316 ص.

– ذكريات ومذكرات المؤلف عن أحداث الجهاد ضد الطليان والفترات التي أعقبته، وهي بأجزائها الثلاثة المذكورة تشكل عملاً واحداً، وقد سبق نشرها متفرقة في صحيفة (شعلة الحرية)، وفي صحيفة (الأسبوع الثقافي) ابتداء من العدد 231، بتاريخ12/11/1976.

18 – الزاوي، الطاهر أحمد (1890-5/3/1986).

– (تأتي كتابات الشيخ الزاوي التاريخية المتعلقة بليبيا امتداداً لموضوعنا بشكل أو بآخر، فقد توزعت سيرته الذاتية ومذكراته بين ثنايا هذه الكتب، وهو في كثير منها يكتب ملاحظاته وآرائه عنها، خاصة منها ما يتعلق بالجهاد ضد إيطاليا، أو تلك المناطق التي زارها وشارك في أحداث كانت فيها ؛ ويمكن بقراءة جديدة لآثاره استخلاص سيرته الذاتية منها ؛ لذلك أوردناها في هذا السياق مع التحفظ بما يتعلق بموضوع هذه المساهمة لغلبة تصنيفها عملاً تاريخياً، مع تقديرنا الكبير لدور هذا الوطني المؤرخ).

19 – الزروق، أحمد، أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي] (31/5/1442-1493).

23 – الكُنّاش، صور من ذكريات الأولى، تقديم وتحقيق د. علي فهمي خشيم.– طرابلس: جامعة الفاتح، (مستخلص من مجلة كلية التربية، ع5 ؛ 1975-1976)، 114 ص(62).

– يتحدث فيه عن ولادته بالتحديد كما أخبرته جدته الفقيهة الصالحة أم البنين التي كانت أول معلميه تعلمه الصلاة والوضوء وغيرهما، وتدربه على نقد الكتب وتحذره من الشعر، وعن وفاة والدته بعد يومين من ولادته، ووفاة والده سادس ولادته، وعن مال أبيه الذي أوصى به إليه، وعن مرضعته وحجه للمرة الأولى الذي كلفه مئة وسبعون

ديناراً، ولم يكن يملك يوم عزم عليه درهماً واحداً، وزواجه من خمس من النساء، وكيف أن والده سماه محمداً، فلما مات نقل إليه اسم أبيه أحمد، كما تحدث عن بعض الوقائع الغريبة التي واجهته في حياته ودراسته، ومعاينته مذبحة اليهود سنة ثمان وستين، ثم تحدث عمن اجتمع بهم مثل الفشتالي، العبدوسي، الوزروالي، المكناسي، الأنفاسي، ابن املال، المغيلي، العطار، الفيلالي، صاحب الظهر، وغيرهم، ثم تحدث عن خروجه لزيارة سيدي أبي مدين، وكيفية الاشتباه أكثر من مرة أنه يهودي، والأحداث التي واجهها في رحلته، ثم يتحدث عن بعض شيوخه الذين تتلمذ عليهم في مصر، وعن بعض الكتب التي كان يقرأها، لتنتهي هذه السيرة ببعض التذييلات (ص ص 106-114). واستقر الشيخ زروق بمصراتة بعد ذلك، وتوفي ودفن بها، فهو مغربي الأصل، وعادة ما يحدث في هذه الحالات تنازع انتماء للمؤرخين في هذه الأقطار لنسبتهم إليها بالولادة أو الوفاة..الخ.

20 - الزوي، محمد أحمد (1942-).

24 - هوامش على تذكرة سفر، محمد أحمد الزوي.- طرابلس : الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، 1978، 190ص.

24(م) - ط 2.- طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1986، 190 ص.

- رسائل أدبية من وارسو، موسكو، بوينس أيرس، القاهرة، لندن، المدينة المنورة، أثينا، أمريكا.

21 - شرف الدين، محمد مصطفى (1929-).

25 - الفنان العربي الليبي محمد مصطفى شرف الدين ,دون معلومات ببليوغرافية]، شركة الخدمات الإعلامية، 16ص][63].

- كتيب صغير تحدث فيه المؤلف عن تجربته الفنية والمسرحية بضمير المتكلم، منذ بدايته المسرحية عام 1949 بمسرحية الأمين والمأمون، وما جاء بعدها من أعمال ،كما شارك الكاتب مصطفى الأمير في التأليف المسرحي لعدد من المسرحيات، كما تحدث باختصار عن تطوعه في حرب فلسطين عام 1948 حيث تدرب على السلاح في منطقة "هاكتستيب" بالقاهرة لمدة ثلاثة أشهر الأمر الذي جعله يتردد لحضور أعمال

كبار الفنانين المصريين المسرحية، ثم انتقل إلى سوريا واستكمل التدريب في معسكر "قكنا" قرب دمشق، ومنها إلى طبرية للمشاركة في عدد من المعارك، ثم عاد على ليبيا، وشارك في العصيان المدني وسجن لمدة 6 أشهر، ثم كون فرقة مسرحية مع زميله محمد نجاح، واستمر في نشاطه المسرحي كمشاركته للفنان يوسف وهبي في مسرحيات المائدة الخضراء، (راس بوتين) راسبوتين، سفير جهنم، كرسي الاعتراف، عندما جاء الأخير إلى ليبيا عام 1954، ثم تعاون مع الفنان التونسي محمد العقربي عندما جاء إلى ليبيا منتصف الخمسينات ،كما تعاون مع المسرح الجامعي كموجه مسرحي، وشارك بأدوار صغيرة في من بطولة الممثل الأمريكي جون واين، والممثلة الإيطالية صوفيا لورين، وغيرها من الأعمال.

22 – الشريف، عبد الكبير المهدي (1944-)[64].

٢٦– جانب من قصة الثورة الليبية، الرائد عبد الكبير المهدي الشريف.– بيروت : دار الشورى، 1997، 180 ص.

–.. إنني لا أكتب قصة كاملة للثورة، فهذا ليس من حقي ولا أستطيعه.. بل مجرد رواية لجوانب منها، أحداث عشتها بنفسي، وتجربة مررت بها[65] ؛ وقصة تأليف هذا الكتاب كانت في شهر ديسمبر 1972 عندما كان جالساً في مكتبه بمدينة الأبيار وفكر في ذلك... يتحدث عن طفولته ومراحل نموه الفكري، ويفرد حيزاً لمجلة الكشاف التي أصدرها الطالب معمر القذافي، وعن بعض صفاته، ونشر صورة للمنزل الذي ترعرع فيه مع أهله، وأورد فحوى التحقيق الذي أجري مع بعض طلاب السنة المتقدمة بالكلية العسكرية الذي أجراه ضابط الخفر عندما وجد ملازم معمر القذافي مجتمعاً بهؤلاء الطلبة في عنابرهم دون إذن، كما يتحدث عن القوات المسلحة الليبية، سيما كتيبة المشاة الثالثة، وعن قبض ملازم عمر الحريري في طرابلس على ولي العهد، وعلى عبد العزيز الشلحي من قبل ملازم أبوبكر يونس وهروبه، واحتلال الرئيس عبد السلام جلود والرئيس عبد المنعم الهوني لمبنى الإذاعة الذي حسم بتدخل ملازم محمد الحاراتي برعيل مدرع، واحتلال ملازم صالح حبيش للمطار، وفي بنغازي احتلال ملازم معمر القذافي وملازم امحمد المقريف وملازم عبد الفتاح يونس بجنود المخابرة لمبنى الإذاعة، وعن كيفية احتلال مخازن الرجمة، ورسم مخططاً تقريبياً لذلك، وأورد

الحديث الذي جرى بينه وبين مستشار بريطاني قبض عليه الجنود واحضروه إليه ؛ وبالكتاب شهادات بعض الضباط، بعد حصوله على موافقة هيئة التنظيم والإدارة على نموذج طلب إجابات عن أسئلة محرر في 10 فبراير 1973، وأورد إجابات نقيب أحمد محمود، ملازم أول الهادي امبيرش، وملازم ثان سالم أبونوارة، ملازم إبراهيم محمد نجيب، وملازم أول يوسف بو حجر، ويضم الكتاب بعض الصور ذات العلاقة بالموضوع.

23 - **الشريف،يوسف، (1938-).**

27 - جدل القيد والورد، أو ستون.. يوسف الشريف : دراسات.. شهادات.. مختارات.. سيرة، إعداد أحمد الفيتوري[66].- طرابلس : مطابع الثورة العربية، 238 ص.

- يهمنا في هذا الكتاب الفصل الأخير الذي جاء بعنوان "الرواية الشفاهية لسيرة الشريف (التكوين)" ص ص 209 - 236، تناول بداياته في التعرف على المجلات المصورة مثل الكواكب والمصور، والأثر الذي تركه كتاب "أسرة أوتمانتوف" لجوركي، وتوالي اهتمامه بالأدب السوفيتي المترجم، فجاءت ارتباطاته الفكرية والعقائدية ومعاناة الإنسان منه، وليس من الكتب التنظيرية، ويتحدث عن تكون الوعي لديه عندما خرج في مظاهرة بداية الخمسينات وعمره 14 عاماً، ضد المعاهدة الليبية البريطانية، وعشق الروايات البوليسية التي كونت كيانه القصصي، وأولى قصصه التي نشرها عام 1959، ويتحدث عن معاناته في الكتابة الشفاهية وهي أشد وطأة عليه، ويتحدث عن تأثير الأسرة الكبيرة التي عاش في كنفها، وشقيقه الذي ضحى بدراسته في سبيل الأسرة، فأخذ يوزع الصحف والمجلات، فساهمت في تكوين وعيه وتحديد مساره، وزادت ظروف ومعاناة أسرته فاضطر هو إلى بيع الصحف، ومساعدة أحد الخبازين في حي الظهرة ليتحصل على الدفء وعلى فردة خبزة محترقة، وكان حافيا في المدرسة فأول حذاء مطاط ارتداه وهو في سن الثانية عشرة، عندما دخل والده الفصل وانحنى أمام الطلبة وألبسه الحذاء ؛ ولد في ودان وجاء إلى طرابلس صغيراً، أيام الحرب العالمية الثانية وقنابل الطائرات، ومعسكر المارينا بفشلوم، وعن جنود يحملون نجمات سداسية يدخلون كتاب الشيخ عبد السلام مدججين بالسلاح، تحدث

عن هذا الشيخ وتأثيره فيه وبعض الصدف معه، وعن تلك "البنية "الشقراء التي أحبها، لقد غادرت الزنقة مع أسرتها في عربة وهو خلفها مودعاً، وبعد خمسين عاماً يكتشف أنها تسكن الشارع الخلفي ؛ لقد شكلت قراءاته للأدب الروسي سؤال الحرية لديه، فقسوة والده وأمه لها ما يبررها، ومرض الجذري الذي أصابه في سن مبكرة، ومعاناة مئة يوم منه، ونهوضه بواسطة سلك يعضه بأسنانه، ودور "عتيقة" السوداء في العناية به، وما خلفه المرض من بثور بوجهه، مما أبعده عن الأطفال، ففي لعبة عروسة وعريس لم يجد من تختاره من البنات(67)، فرجع إلى الكتاب يعب منه معاناة الإنسان وسؤال الحرية، ولغياب والده الطويل يتاجر في بعض الأشياء البسيطة كانت المدرسة ملاذاً له بعد البيت، يستولي أو يتقاسم مع بعض التلاميذ الآخرين على إفطار أبناء الأغنياء تحت التهديد ؛ كما يتحدث عن شخصيات بسيطة أثرت في حياته.

24 - **الشلطامي، محمد (1944/10/13-).**

28 - حوارات مع الشاعر محمد الشلطامي، د. محمد محمد المفتي.- مصراتة : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 2004، 160 ص.

- محاورة بين صديقين، حول جزء من سيرة للشاعر محمد الشلطامي استشهد فيها الكاتب كثيراً بشعره، فتحدث عن ولادته في ظروف وأحوال صعبة وسيئة ببنغازي، فتعلم التسكع والتدخين مبكراً، وكانت بداية اهتمامه بالشعر أثناء العدوان الثلاثي على مصر، اشتغل عاملاً، ودرس بالمساء ؛ شاهد وشارك في أحداث يناير 1964، عندما رأى الشرطة يطلقون النار على الطلاب عرف أن العدو قد لا يكون أجنبياً ؛ كانت قصيدة "من أغاني البحارة" أول ما نشر في "الحقيقة" في 8 يوليو 1968 ؛ انضم إلى حركة القوميين العرب، وسجن بسببها في أغسطس 1967 بطرابلس، انفصل عن القوميين العرب ؛ وكان قد عمل في مكتبة بنغازي العامة، ثم مدرساً من 65-67 حيث سجن وطرد، ثم أعيد إلى سلك التعليم بداية عام 69 حتى 1973 حيث طرد مرة أخرى، وجُمد نشاطه الوظيفي، فأوفد عام 77 إلى بريطانيا لمدة عام لدراسة علم المكتبات ؛ ساعد في إصدار صحيفة عربية أثناء إقامته في اليونان عام 1982، وتعاطف مع بعض قضايا التحرر ؛ اطلع في وقت مبكر على أشعار الشابي وأبي ماضي، وجرب كتابة الشعر الحر ؛ في أواخر 1960 تعرف على شعر للسياب،

فاستلمه من مدرسة أبولو، وتحدث عن تأثير والدته من خلال أغاني الرحى، و أشعار أخيها المنفي إلى إيطاليا، والفقر الذي علمه بسرعة ؛ أثر الابتعاد عن الناس، وارتبط بزيارة المقابر، درس عامين في الكتّاب ،انتمى إلى الطريقة العلوية الشاذلية، ثم انفصل عنها، وتأثر ببعض مناهجها وأورادها ؛ كما تحدث عن تأثير بعض الشخصيات التي لعبت دوراً في تكوينه مثل رشاد الهوني ؛ وعن كرهه لحب الظهور، ويتذكر لقاءاته العبرة ببعض الشعراء والكتاب كالبياتي والنواب وعلاقته بالنيهوم ؛ وإشادته بخليل حاوي وعلي الرقيعي ؛ وعن اللغة الصوفية في شعره، وعن الفن وحظوظه في الحضارات ؛ وعلاقته بالدين، فالأديان في الأصل دين واحد، وعن تأثير القرآن في شعره ؛ وهو ضد كل من يقمع الناس، وقال أن قيام الثورة في ليبيا حدثُ هز مشاعر الناس، لأنها بشرت بما كان يحلم به ؛ لأنه يساري ينادي بالثورة والعدل، موضحاً أنه لم يعتنق الفكر الماركسي، ولم ينضم إلى أي حزب شيوعي، ولم يكن ملحداً، ولم يشرب الخمر، تحدث باختصار عن سجنه عام 1973 وقصيدته التي استوحاها من ظروف سجن الحطيئة وبعض القصائد الأخرى، ويستنتج بعد أن بلغ الستين أن العقل الجماعي أشبه بعقل الحيوان ؛ تحدث عن قراءة وجدانية لوصية الشيخ عبد السلام الأسمر في فجيعته بمقتل ابنه عمران باسم "بشارة الطائر المسافر إلى أهالي سدوم" ؛ ولخص مسيرته بأنها طموح نحو الخير والمعرفة والحق ؛ أما دوره نحو الآخرين فيلخصه في الشهادة على ما رأى لينضم إلى المدافعين عن الإنسانية ؛ وعن بعض محطات العلاقة مع صاحب هذا الحوار الطويل.

25 – شلوف، السنوسي محمد (1935-؟/؟/2001م)[68]**.**

29 – صور من جهاد الليبيين بفلسطين (1948 – 1949)، السنوسي شلوف.– بنغازي : الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، 1980، 115 ص.

29 (م) – ط 2.– 1982.– طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، (سلسلة كتاب الشعب ؛ 5) 1982، 254 ص.

29 (م) – ط 3.– 1987.– مصراتة.– الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، (سلسلة كتاب الشعب ؛ 53)، 254 ص.

– الكتاب عبارة عن مذكرات أحد المجاهدين الليبيين الذين شاركوا في (حرب العرب المقدسة) على أرض فلسطين لمنع العصابات الصهيونية من احتلالها وإقامة دولة يهودية في الأرض العربية، وفيها وصف لأهم المواقع والمعارك التي خاضها العرب ضد العصابات الصهيونية و يتطرق إلى (المؤامرة الخيانية التي شاركت فيها رؤوس العمالة والخيانة من الحكام العرب لتسليم فلسطين إلى اليهود)(69).

26 – الشيباني، عمر التومي (1930-2002/1/3)(70).

30 – مسيرة علم وعطاء : أ. د.عمر التومي الشيباني.– إعداد : د. عبد الرحمن الأزرق، د. ضو محمد بوني، د. محمد أحمد جرناز، د. الصيد أبوديب طرابلس: جامعة الفاتح، كلية الآداب، نقابة أعضاء هيئة التدريس، 2004 ف ،371 ص.

– توجد بالكتاب السيرة الذاتية للدكتور عمر التومي الشيباني بقلمه، ص ص 1 – 89، وقد كتبت بلغة إخبارية، وقسمت إلى 12 فصلاً، عن الكاتب وأصله ومدينته مصراتة، ودراسته بها ثم انتقاله إلى زليتن بزاوية سيدي عبد السلام الأسمر، ودراسته بكلية دار العلوم بالقاهرة ورجوعه إلى ليبيا وتعيينه معيداً بالجامعة، ثم سفره للدراسة العليا بأمريكا، والوظائف التي تقلدها بعد رجوعه، والمشاكل التي واجهها في الجامعة خاصة مع رئيس الجامعة مصطفى بعيو، وانتقاله إلى كلية للمعلمين انشاتها وزارة التعليم، ثم انتقاله إلى ديوان الوزارة أواخر عام 1966، فبدا بتنظيم مجلس التعليم الأعلى ووضع لوائحه، إلا أن تعيين مصطفى بعيو وزيراً للتعليم جعله ينتقل إلى وزارة الشباب التي كال المدح لوزيرها ووكيلها، حتى قيام الثورة فتم تعيينه في 1969/10/15 رئيساً للجامعة الليبية خلفاً لعبد المولى دغمان، فتحدث عن دوره في تنظيمها وتطويرها، ثم تحدث عن السبب الذي جعله يغادر الجامعة عام 1973 ويقدم استقالته بعد خطاب زوارة وإعلان الثورة الشعبية، فتحدث عن بعض ملابساتها وإرباكها للعمل الإداري بالجامعة ؛ إضافة إلى حديثه عن العوامل التي أثرت في مسيرته العلمية، والآثار العلمية التي تركها(71).

27 – الصيد، محمد عثمان (1925/3/12-)(72).

31 – محطات من تاريخ ليبيا، مذكرات محمد عثمان الصيد (رئيس الحكومة الليبية الأسبق)، إعداد طلحة جبريل.– الرباط : طوب للاستثمار والخدمات، 1996، 377 ص.

– تحدث عن بداياته في فزان وطفولته فيها واحتلال الفرنسيين لها، وعن لجنة التحقيق الرباعية لبحث مستقبل ليبيا، ودخوله المعترك السياسي، ولقاءاته مع مندوب الأمم المتحدة، والملك، وعن إعداد الدستور، وتشكيل الحكومة، واستقلال ليبيا، والمشاكل التي واجهت حكوماتها، وعن القواعد البريطانية والأمريكية، وعن قضية عبد الله عابد السنوسي، وتكوين الجيش الليبي، واغتيال الشلحي، ومحاولة الملك الاعتزال، والتحالفات بين الأقطاب السياسيين، وإنشاء البنك المركزي، والعلاقات مع مصر، وعن الحكومات التي سبقته، وكيف أصبح رئيساً للحكومة في 1960/10/16، فتحدث عن الأحداث التي مرت بحكومته كطريق فزان، وتعديل قانون النفط، وتدخل البوصيري الشلحي في أعمال الحكومة، وعن ولاية العهد، وزيارة ولي العهد إلى أمريكا، وإنشاء سلاح الطيران، وعن الثورة الجزائرية، ومشكلة الحدود بين ليبيا والجزائر، والعلاقات مع المغرب وتونس ومصر واليمن، ومشكلة الكويت والعراق، وإقالة الدكتور العنيزي من البنك المركزي، ومشكلة حزب البعث في ليبيا الذي كان يتزعمه المحامي عامر الدغيّس، وترحيل بعض المتهمين العرب ومنهم العراقي سعدون حمادي، وقضية صالح بويصير(73)، وزلزال المرج، وأول محاولة انقلابية عسكرية، واغتيال العقيد العيساوي، وتعديل الدستور، وبعض المحاولات لاغتياله عندما كان رئيساً للوزارة، وعن محي الدين فكيني وخلافه معه، كما تحدث عن الحكومات التي جاءت بعده حتى خروجه من ليبيا واستقراره في المغرب، وأضاف بعض الملاحق مثل مشروع بيفن سفورزا، ونص قرار الأمم المتحدة باستقلال ليبيا، وبعض المعاهدات والاتفاقيات التي عقدت مع بعض الدول، ص ص 299 – 336، وملحقاً بالصور، ص ص 339 – 369، وتغطي المذكرات الفترة ما بين مايو 1943 – أغسطس 1969(74).

28 – الضبع، عبد الواحد محمد (1973/12/25-).

32– أوراق وأروقة : سيرة ذاتية لأب وولده، عبد الواحد محمد الضبع.– طرابلس : مطابع الثورة العربية، 2000]، 85 ص.

– مغامرة أدبية لأحد الشباب، جاءت في كتيب صغير، وقسمها إلى ستة أجزاء، يريد من خلالها كتابة سيرة والده وسيرته يستعرض فيها ظروف المجتمع ماضياً وحاضراً، بأسلوب قصصي، حتى ليحار المرء في تصنيف هذا العمل هل هو عمل أدبي محض،

أم سيرة ذاتية واقعية، لولا ما جاء على غلاف الكتاب وبأخطاء إملائية طفيفة "سيرة ذاتية لآب وولده" (!) (.. تحوي جانباً من الجوانب الرمزية... فأحلام تعني الحلم بالثورة، وعبد الحق : كل ما موجود بالكتاب)... يتصور حياة والده الذي يعيش في قرية (وامس) إحدى قرى مزدة، من خلال ما رواه له والده، ويستمر في سرد هذه السيرة الأدبية المشتركة حتى قيام الثورة في 1969/9/1 ، فيقول على لسان والده... وعند رجوعنا إلى وامس بقينا زهاء شهر أتم ولدي عبد الواحد بحثه وطبعه وتناول فيه العديد من المحاور والمواضيع والرؤى فيعددها ويصفها بقوله : الوحدة العربية، والتوجه الأفريقي المكمل له... وعلاج الموروث، ومهرجان الأغنية البديلة، وإحياء المنارات والطرق الصوفية المقبولة والزوايا... وخطط التنمية، ومعجزة النهر الصناعي.

29 - **عبد القادر، خديجة (1937-).**

33 - المرأة والريف في ليبيا، خديجة عبد القادر.- بيروت : مطابع الأهرام ، 1961، 105ص.

- ما جاء في كتباها من فصل بعنوان "تجربة"، ص ص 4 - 18، حول تجربتها في الدراسة خارج وطنها، فقد كانت من الفوج المتخرج عام 1954 من كلية المعلمات بطرابلس، ويضم 27 طالبة، فاهتمت بثقافتها، فعكفت على القراءة بتشجيع من شقيقها الأكبر علي صدقي عبد القادر، واستطاعت أن تخرج كأول فتاة ليبية - حسب قولها - للدراسة بالخارج أوفدتها الحكومة الليبية، فركبت الطائرة لأول مرة، وتصف راكبيها ؛ جارتها السويسرية التي حدثتها عن أسرتها وحياتها وفقدها لابنها في حادث سير، وأسرة أمريكية بأطفالها، وأحد الزنوج ينفخ دخان غليونه ؛ كانت تجربة الاختلاط لأول مرة في حياتها، وفي القاهرة تجد من يستقبلها من معهد تنمية المجتمع، بعد أن وصفت ثرثرة أحد موظفي الجمارك وإجراءاته، وحيرتها بين أن ترجع على الطائرة نفسها، أو أن تواصل مسيرتها في الكفاح ؛، كما تصور حياتها في قسم التدريب العالي لخريجي الجامعات مع طلبة وطالبات من مختلف الأقطار العربية، فاندمجت في الحياة بالمعهد، بفضل تشجيع أسرته ورسائل شقيقها علي، كما تحدثت عن الزيارات الميدانية إلى القرى والأرياف، والعلاقات التي كونتها، حتى أن فلاحة أرملة جاءت تودعها بأكلة بلدية فوق رأسها لتكون زادها في الطريق عند عودتها إلى

ليبيا، ورغبتها في مرافقتها ؛ وكانت أطروحتها التي قدمتها في السنة النهائية عام 1957 بعنوان "المرأة الليبية والتربية الأساسية" قد لاقت استحساناً وإعجابا من أسرة المعهد ونوقشت فيها طويلاً، وعاشت تجربة تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر عام 1956 وأيام الرعب كما تصفها وتجربتها في ارتداء البذلة العسكرية والتدريب على الأسلحة حتى انتهت هذه الأزمة بسلام ؛ كما تحدثت باختصار عن زيارة المعهد البحرية إلى كل من اليونان ويوغسلافيا وإيطاليا، وانعكاسها على تجربتها، وبعد رجوعها إلى أرض الوطن قامت بتأسيس "جمعية النهضة النسائية" وإعداد النظام الأساسي لها، ويتكون من 6 أبواب تضم 26 مادة (أنظر نصه، ص ص 86- 93) بالتعاون مع شقيقها علي، وإتمام بقية الإجراءات حتى تمت الموافقة عليها، كما أوردت نص القانون رقم 6 لسنة 1959 بشأن حماية حق النساء في الإرث، ويضم 7 مواد.

30 - عريبي، محمد حسن (1928-)[75].

34 -. الليبيون وأبناء العمومة في حرب فلسطين، محمد حسن عريبي.- القاهرة : مكتبة السعيدية ،96 ص][76].

- لم نتحصل على هذا الكتاب ولم نطلع عليه، وقد أخبرني المؤلف عن أسباب تأليفه، وبعض المعلومات عنه، كما ورد في الهامش.

35- صراع الفدائيين، الفدائيون الليبيون في حرب فلسطين 1948، محمد حسن عريبي.- طرابلس : مكتبة الفرجاني، 1968، 416 ص.

35(م)- صدرت طبعة ,مصورة عن الطبعة الأولى تغير فيها غلاف الكتاب فقط] مصر الجديدة، القاهرة : دار الفرجاني .

- قد دونت أحداث هذه القصة في حينها، ونقلتها كما دونت بعد تهذيبه، وحذف أسباب الإثارة... سأحكي لكم قصتي كما عشتها، وهي قصة آلاف الفدائيين الليبيين وهبوا أرواحهم لله والوطن... أحببت أن أروي قصتي لأبنائنا ليحفظوا عهد آبائهم، ويوطنوا النفس على تحرير وطنهم، مهما طالت الأجيال[77] ؛ والكتاب تجربة المؤلف في حرب فلسطين عام 1948 بكل التفاصيل التي عاشها.

31 – الغماري الميموني، إبراهيم العربي (1909-؟/؟/2000)[78].

36 – ذكريات معتقل العقيلة، إبراهيم العربي الغماري الميموني.– طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (سلسلة المذكرات التاريخية ؛ 7)[79]، 1995، 90 ص.

– ذكريات المؤلف، بدأها بتوصله إلى نسبه الحسني الشريف، وأنه من قبائل غمارة، واستقرار والده بالكفرة بعد الرحلة من الجغبوب إلى تاج الكفرة، ومولده فيها، وسفره مع ابن خالته الشيخ عبد الحميد بومطاري إلى زاوية العزيات، وتنقله بين درنة واجدابيا ومناطق الجبل الأخضر، وسفره إلى الجغبوب في رحلة صحراوية استمرت خمسة أيام، ونفاد الماء منهم، والالتقاء بموكب سيارات إدريس السنوسي تحت حراسة إيطاليين مع مرافقيه، وكان في زيارة لقبر جده بالجغبوب، وقد ذهب المؤلف لإحضار شقيقته المريضة المطلقة من أحمد الثني، وموتها في طريق العودة إلى إجدابيا، فغسلها ودفنها مع صغر سنه، بإرشاد مرافقيه، ثم سفره إلى الكفرة، فتحدث عن قبيلة زوية وفروعها، وكونها ملجأ للمحتاج ففيها من طرابلس وبنغازي والجبل الخضر والحجاز والسودان، حتى انه يعرف فيها نجاراً من أفغانستان يسمى المبروك الكابلي، وأهم ما جاء في المذكرات، ذكرياته الأليمة عن معتقل العقيلة، الذي فقد فيه معظم أفراد أسرته المذكورين بالكتاب.

32 – فشيكة، محمد مسعود (١٩٠٤– ٢٩/١١/١٩٩٠)[80] .

37 – كأنك معي في طرابلس وتونس، محمد بن مسعود.– طرابلس : مطبعة ماجي، 1953، 160 ص [81].

ذ– الكتاب توثيق لرحلة مدرسية من طرابلس إلى تونس انطلقت في 3 مارس 1949، يتحدث عن المشاركين في الرحلة، وخط سير الرحلة بواسطة حافلة كان يقودها يهودي فرنسي مستعرب، فيتحدث عن المدن والمناطق التي مرت بها مع لمحة عنها، وقد استمرت الرحلة غرباً فوصلت القيروان وعين دراهم، كما يتحدث عن مقابلة الوفد محمد الأمين ملك تونس، فيصف لقاءه وخصاله وخلقه، وعن الحفلة التي أقامها لهم المقيم الفرنسي وبعضاً من كبار الفرنسيين وعلية القوم الحكوميين، وزاروا الوزراء التوانسة في مكاتبهم، ؛ وعموماً فقد ذكر الكاتب حوادث الرحلة، وتحدث عن البلدين

ليبيا وتونس، مستفيداً من تخصصه في التاريخ، فجاء الكتاب مزيجاً بين الرحلة والتاريخ، متحدثاً عن ثروة البلدين الزراعية وسكانهما وأعمالهم، وتاريخهما، ووصفه لمدينة تونس فذكر معالمها العشرة، كما تحدث عن المدينتين القديمة والحديثة بطرابلس وشوارعها ومعالمها ؛ وبالكتاب تفاصيل كثيرة، وطريقة مختلفة في الهوامش والفهارس التفصيلية، إضافة إلى تزويده بأكثر من أربعين صورة مع ذكر مصادرها، جاءت واحدة منها للحبيب بورقيبة متخفياً بالزي الليبي، أثناء هروبه إلى مصر (ص 62).

33 – **الفقهي، عبد الله موسى (1949/5/24-   ).**

38 – أنا والزمن : أولاد صولبا، عبد الله موسى الفقهي.– الجزائر : مؤسسة دار الجزائر للصحافة ،1997، جـ 1، 139 ص.

– قبل أن يتحدث المؤلف عن طفولته، وما أسماها (وثورة الحجارة) ضد اليهود في الحارة بالمدينة القديمة التي اشترك فيها عام 1956، وحرب الأيام الستة وقيام الثورة عام 1969 وسنوات 1970 – 1971، كان المؤلف قد تحدث عن منطقته بني وليد وسكانها قبائل ورفلة وأوديتها وأضرحتها، ثم تحدث عن قبيلته الفقهاء وجامعها وملكية الأرض فيها، كما تحدث عن الشيخ محمد النعاس الفقهي، وعن بعض المعارك في المنطقة التي اشترك فيها أهله ؛ ومن المعلوم أن (أولاد صولبا) اسم يطلق على ورفلة، ولكن وقع خطأ في تشكيل الكلمة في غلاف الكتاب فكتبت (صولبّا) بتشديد الباء والصحيح بباء مهملة وتاء مربوطة، وهي تحريف عامي لكلمة، (صُلبة) المأخوذة من الصلابة التي وُصف بها أهالي ورفلة.

39 – أنا والزمن : دنيا العرب، عبد الله موسى الفقهي.– الجزائر : شركة دار الأمة، 1999، جـ 2 ،207 ص.

– نظراً لعمل المؤلف بالسلك الدبلوماسي، فإنه اعتمد على تجربته الشخصية، فيتحدث عن بداياته الأولى وعن قصته مع برنامج البسباسي عام 1971 والرسالة التي أرسلها إليه من مدرسة المردوم التي كان يشتغل بها وظروفها السيئة، وكيف نقل بسببها إلى وادي نفذ ليؤسس مدرسة أخرى في الصحراء ؛ وعندما أعلنت الثورة الشعبية عام 1973 كان من بين المجموعة التي زحفت على مراقبة التعليم بالخمس واختير من

ضمن اللجنة التي تسير التعليم فيها، وعن انتقاله إلى جامعة الفاتح وعمله بقطاع الخدمات فيها، وعن عمله بالبعثة التعليمية الليبية لتعليم اللغة العربية بموريشيوس خلال الفترة 77- 1979، وتحدث عن شعبها وعاداته ومعالمها السياحية، كما يتحدث عن الجزائر خلال عمله بها أعوام 85 - 1987، وعمله بتنزانيا خلال الفترة 88 - 1991، أميناً للمكتب الشعبي الليبي (سفيراً) فيها، فتحدث عن العلاقات مع تنزانيا والوفود التي زارتها والمساعدات التي قدمت إليها، كما استعان بمذكرات الأميرة سالمة عن زنجبار، وهي ابنة السلطان سعيد سلطان عمان وزنجبار، وتحدث عن مجلة أفريقيا الجديدة التي أصدرت عدداً خاصاً عن تنزانيا، ووصف المؤلف رئيس تحريرها علي أحمد الطبولي بأنه من أهم رجال الإعلام المشهورين ! وتحدث عن مدرسة المجاهد (أبومنيار) بتنزانيا، وأورد لقاء مع السكرتير العام للصحافة بتنزانيا، ولقائه بالزعيم مانديلا عام 1990 في أعقاب الأسابيع الأولى لإطلاق سراحه، وأورد مقابلة أجريت مع المؤلف، كما أورد صفحات عديدة للحديث عن تاريخ وثقافة وعادات التنزانيين ؛ وأورد بعض القصائد الشعرية العمودية من نظمه، والكتاب مزدان بأكثر من ستين صورة توضح لقاءات المؤلف المتعددة مع بعض المسؤولين ومشاهد أخرى.

34 - **الفقيه حسن، حسن ([1738- 1868]).**

40 - حملة نابولي على طرابلس (1244 هـ - 1828م) ؛ تحقيق محمد الأسطى، عمار جحيدر[82]، تقديم علي الفقيه حسن.- طرابلس : مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، (مصادر التاريخ الليبي ؛1)، 1978، 61 ص.

- كتب بلغة قريبة من اللهجة المحلية كعادة المؤلف، وهو يوميات المؤلف ومذكراته عن هذه الحملة، بدأها يوم (الأرباح) 24 محرم 1244 هـ [1828/8/6]، حتى يوم (الثلاث) 18 ربيع الثاني 1244 هـ [1828/10/28] عندما وقع الصلح.

41 - اليوميات الليبية، حسن الفقيه حسن ؛ تحقيق محمد الأسطى، عمار جحيدر. - طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (سلسلة نصوص ووثائق ؛7 - 1)، 1984، جـ 1، 977 ص.

41 (م)- ط 2.- طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،2001 ، 977 ص.

42 – اليوميات الليبية، حسن الفقيه حسن، تحقيق عمار جحيدر.- طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية،2001 .- (سلسلة نصوص ووثائق ؛7-1)، جـ 2، 1212 ص.

– يغطي الجزء الأول الفترة من 11 شعبان 958 هـ الموافق 1551م إلى 11 صفر 1248 هـ ، الموافق 1832م، وتبلغ 1706 يوميات، منها ما يربو على مئة وعشرين يومية من النقول تعود إلى فترات أسبق من حياة المؤلف، أما اليوميات التي عاصرها ودونها المؤلف فهي تغطي معظم عهد يوسف القرمانلي، ولكن المؤلف لم يدرك بعمله بداية عهده، ويبلغ الجزء الثاني من اليوميات 2804 يوميات، تغطي أحداث الحرب الأهلية بطرابلس 1832-1835، التي أدت إلى انهيار الأسرة القرمانلية، وعودة الحكم العثماني الثاني، وكان المؤلف يقطن بالمدينة القديمة، ويسجل يومياته حول الحرب أولا بأول، ويسجل أدق تفاصيلها، مثل حالات القتلى والموتى، وعدد القنابل التي كانت تسقط على المدينة من قبل الثوار الذين كان يتزعمهم حفيدا يوسف باشا ؛ تضم اليوميات في جزأيها أكبر مجموعة فهارس تاريخية ليبية جاءت في 486 صفحة، ففي الجزء الأول، ص ص، 771-977 وفي الثاني، ص ص931-1211، ضمت فهارس : الأعلام، والأماكن والبلدان، والفرق والطوائف والجماعات، والعملة، والبحرية، والنظم والإدارة، والأشياء، والحيوان، والشؤون الحربية، والأمراض والأوبئة، والمسافرين، والقادمين، والمواليد، والوفيات، والقتلى ؛ إضافة إلى دقة التحقيق وإثراء الهوامش والتعليقات والإيضاحات(83).

35 – القذافي، معمر ، معمر محمد عبد السلام أبومنيار القذافي] (1942 -)(84).

43– قصة الثورة : يرويها العقيد معمر القذافي، رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الاتحاد الاشتراكي العربي.- طرابلس : الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي، (د.ت).- (مطبوعات قومية، عدد خاص)، جـ 1، 64 ص(85).

– بدأ الكتاب بمقدمة في أربع صفحات جاء فيها : (إن قصة الثورة لم تروَ كاملة بعد، ولم يكشف النقاب عن ملحمتها الكبرى حتى اليوم... وما عرف من هذه القصة حتى الآن لا يتعدى القليل من صفحات سجلها الخالد... وفي محكمة الشعب التي ابتدأت

جلساتها يوم السبت 6 شعبان 1394هـ، الموافق 24 أغسطس 1974 سوف يتكشف جانب واحد من القوى الرهيبة التي كانت تتربص بالضباط الوحدويين الأحرار وتلاحقهم)، ونشرت كلمة الرائد بشير هوادي رئيس محكمة الشعب في تقديمه للمحاكمة، ص ص 3 – 6 ؛ ثم أورد الكتاب ما تحدث به العقيد معمر القذافي رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد العام للقوات المسلحة لوكالة الأنباء الليبية عن بداية الثورة[86] ؛ جاءت في 16 فصلاً، تحدث عن كثير من الأحداث من بينها الفصل الثالث عشر منها عن (محنة الانفصال 1961).. عندما كان طلاباً في السنة الثانية الثانوية القسم العلمي بمدرسة سبها، وذكر أسماء زملائه في الدراسة والمظاهرة، واجتماعهم في حطية حجارة قرب سبها، وأحداث المظاهرة في 1961/10/5، وعن مقابلة البي محمد سيف النصر له في بهو منزله والمقابلة الغضبة التي واجهه بها بعد أن أحضرته سيارة الشرطة إليه، وإبلاغ مدير المدرسة إياه بقرار الطرد من فزان، وذهابه في سيارات الجيش إلى مصراتة، ومقابلة محمد خليل ومعرفته بالمشرفين في القسم الداخلي، حيث تحصل على سرير في آخر العنبر.. أقحمناه بالكاد عند مدخل القسم، وكانت بداية لمرحلة جديدة في الحركة الثورية حيث تعرفت على عمر المحيشي الذي أصبح عضواً في مجلس قيادة الثورة، وعلى العديد من الشباب الذين أصبحوا ضباطاً وحدويين أحراراً فيما بعد.

44 – صفحات من قصة الثورة : يرويها العقيد معمر القذافي[87] (رئيس مجلس قيادة الثورة).- طرابلس : دار مكتبة الفكر، 1974 [88].

44(م)- ط 2.- 1974، 120 ص.

- تحدث عن الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة عام 1969، وأحداث الطلاب عام 1964،

وأن التدبير العملي للثورة بدأ منذ عام 1959 (عندما كنا طلبة في الثانوية) ثم التركيز على الدفعات الجديدة في الكلية العسكرية، وعن اللجنة المركزية للضباط الوحدويين الأحرار واجتماعاتها، والمخاطر التي كانت تحف بهم، خاصة وأن التنظيم لم تكن له مخابرات أو مباحث تحميه، والعلاقة مع البوليس الذي كان بعضه من الضباط الأحرار، وتحدث عن التخطيط للثورة، وخلق مناعة للتنظيم ضد الحزبية،

وكيفية التغلب على مشكلة عقد الاجتماعات، والقيود التي فرضت على أعضاء التنظيم وتشكيلاته مثل شرب الخمر ولعب الورق وارتياد الملاهي، وعدم ترك الصلاة، والتشجيع على الانتساب إلى الجامعة الليبية، وكيف كانت رواتبهم هي رصيد الحركة للإنفاق على المصروفات العامة، وأن مفاتحتهم للرتب الكبيرة لم تعطِ ثماراً، فكانوا متخوفين من القواعد والقبائل وقوى الأمن، وعن موعد الثورة الذي حدد في مارس 1969، ولكن إقامة حفل غنائي لأم كلثوم أدى إلى التأجيل، فرجع إلى واستأنف سيره إلى بنغازي عبر سرت، والحادث المروري الذي تعرضوا له، وكان سبباً مباشراً بعد ذلك لمنع الخمور بعد الثورة، وتحدث عن الوشايات وتسرب أخبار الحركة، والمنشورات التي كانوا يوزعونها، وعن محاولاتهم لضم مدنيين مثل نوري نجم شقيق محمد نجم الذي أخبرهم عن بشير المغيربي الذي تمكن من شراء بعض المفرقعات، فتعرفوا عليه للمرة الأولى، ومحاولاتهم للتحريض ضد القواعد الأجنبية بتوزيع المناشير، وقصة توزيعه للمنشورات في سيارته بطرابلس، وعن اضطرابات العمال وزحف أهل الزاوية على الملاحة، وخيبة أمله في الحزبيين، وعن المؤتمر العسكري الذي عقد في بنغازي لضباط الجيش، وجمعهم للعتاد والذخيرة، والمواقف المحرجة التي واجهته في ذلك، وعن عدم علم أحد في الداخل أو الخارج عدا قلة من المدنيين الذين فوتحوا بموعد الثورة الذي تقرر في 12 مارس، ثم تأجل إلى 24 منه، كما تحدث عن بعض المفارقات التي واجهتهم ليلة الثورة وغيرها من الأحداث، ويحتوي على بعض الصور لأعضاء مجلس قيادة الثورة وبعض الضباط المشاركين فيها.

45- قصة الثورة، العقيد معمر القذافي.- بيروت : دار العودة، 1974، 136 ص.

- بعد مقدمة الناشر التي جاءت في ست صفحات وقبل أن يأتي دور هذه القصة التي جاءت في 14 حلقة مختصرة، ص ص 75 - 132 ؛ وردت بعض الفصول النظرية حول الخارطة الفكرية للثورة الليبية، والثورة الليبية في غمرة العمل، وارتفعت راية الثورة، والثورة الليبية في مواجهة مسؤولياتها، والبناء الثوري والتحدي، كما وردت كلمات أخرى حول النص بعنوان قراءة أدبية لقصة الثورة، ص ص17-72.

46 - رحلة القائد الإسلامية إلى أفريقيا : "سجل وثائقي".- طرابلس : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1427من ميلاد الرسول , 1997؟]، 268 ص[89].

- بدأ الكتاب بمقدمة تحدثت عن جملة من القضايا منها التمازج الحضاري والعلاقات التاريخية بين سكان شمال وجنوب الصحراء، وعن نشر اللغات الأوربية في أفريقيا وإعاقته لعملية الاتصال بين شعوبها، واستهداف الإسلام من الغرب، ثم يتحدث عن وقائع زيارة نيامي بالنيجر يوم 1997/5/8، ومراسم الاستقبال الرسمي من قبل الرئيس النيجري إبراهيم مناصرة وكبار المسؤولين وزعماء الصوفية، وعن أداء الصلاة في اليوم الأول من الشهر القمري، وأورد نص الكلمة التي ألقاها معمر القذافي بالمناسبة، ثم لقاؤه بقادة الأحزاب في النيجر، وطلبة المدارس الإسلامية، والتصريح الذي أدلى به كل من الرئيس النيجري مناصرة، والعقيد معمر القذافي قبل مغادرة النيجر ؛ إضافة إلى حوالي خمسين صورة ملونة بالمناسبة، ص ص 28 - 56؛ أما عن زيارة نيجيريا فكانت بداية من الاستقبال الرسمي من قبل الرئيس ساني أباشا وكبار المسؤولين والسلاطين وأمراء الممالك الإسلامية في كانو والاستقبال الشعبي الحافل، وعن صلاة الجمعة، التي أمها العقيد معمر القذافي، كما أورد نصها، وعن التظاهرة الثقافية التي شملت عرضاً للفروسية وتقديم هدايا، والاستقبالات التي جرت في العاصمة أبوجا رفقة الرئيس النيجري مناصرة، والكلمات التي ألقيت بالمناسبة، وأكثر من ستين صورة ملونة بالمناسبة، ثم ورد فصل عن الاستقبالات التي جرت في النيجر ونيجيريا، ضم أكثر من سبعين صورة ملونة، ص ص 123 _ 155، وكان الفصل اللاحق بعنوان (العودة الميمونة إلى الجماهيرية العظمى) ص ص 157- 196، تناول وقائع الاستقبالات والكلمات والمبايعات التي جرت في سبها، والجفرة والمنطقة الوسطى، وكلمة مؤتمر الشعب العام، والمهرجان الخطابي الطلابي بكلية الدعوة الإسلامية العالمية، إضافة إلى حوالي ثلاثين صورة بالمناسبة، وأورد في نهاية الكتاب ردود الأفعال في الصحافة العالمية.

47- الرحلة الجهادية التاريخية الثانية للثائر المسلم معمر القذافي، قائد القيادة الإسلامية العالمية في أفريقيا : " تشاد "، كتاب وثائقي مصور.- طرابلس : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، (د. ت)، 24٠ ص.

- كانت هذه الرحلة في بداية السنة القمرية الموافقة لشهر مايو 1998م، تضمن الكتاب وقائع الرحلة منذ الاستقبال، وصلاة الجمعة في انجامينا، واللقاء بعلماء

المسلمين وأئمتهم ومقدمو الطرق الصوفية وقادة العمل الإسلامي في تشاد، ونشر لوثائق العهد والمبايعة، وكلمة معمر القذافي في الجلسة الترحيبية للجمعية الوطنية التشادية، والعودة ؛ كما تضمن الكتاب الأصداء الإسلامية والعالمية والإعلامية للرحلة.

48 – رحلة القائد الجهادية التاريخية الثالثة إلى أفريقيا : (الرحلة الجهادية التاريخية الثالثة للثائر المسلم معمر القذافي قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية في أفريقيا).– طرابلس : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، (د. ت)، 144 ص[90].

– كانت الرحلة في شهر يوليو 2000، بدأت بأغاديس في النيجر، ثم زندر، نيامي، بوركينا فاسو، كوماس، أكرا، لومي، بنين[91].

36 – القذافي، معمر، وآخرون (عبد السلام جلود، بشير هوادي، مصطفى الخروبي، عوض حمزة).

49 – ذكريات الثوار: لقاء بإذاعة الثورة الشعبية، العقيد معمر القذافي، الرائد عبد السلام جلود، الرائد بشير هوادي، الرائد مصطفى الخروبي، الرائد عوض حمزة.– طرابلس : الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي (د.ت).– (عدد خاص)، 70ص.

– لقاء أجراه المذيعان ناصر عبد السميع وعلي الشيباني من إذاعة الثورة الشعبية بمبنى الإذاعة بطرابلس، مساء السبت 13 شعبان 1394هـ، الموافق 31 أغسطس 1974، تركز الحديث حول كيف تم التعارف واللقاءات بينهم منذ تفكيرهم الأول في التغيير، وعن معمر القذافي أيام كان طالباً، كيف فكر في الثورة، وكيف تعرف على زملائه، وكيف بدأت حركة الوحدويين الأحرار، والاجتماعات التي عقدوها كاجتماع طلميثة، واجتماع سرت، ومحاولات رصدهم من أجهزة المخابرات مثل كشفهم من قبل (الشلماني)، الذي اتضح أنه ليس من فرع الشلمان بقبيلة الدرسة، وإنما أخذ نسبه من زوج أمه، ومتابعات (محمد سيدا) لأعضاء الحركة، إضافة إلى ما جرى ليلة1/9/1969.

37 – القشاط ، محمد سعيد (١٩٤٠م –)[92].

50 – مشاهدات صحفي، محمد سعيد القشاط .– بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر، 1975، 125 ص.

- انطباعات ومشاهدات صحفية للمؤلف في كل من السودان، مصر، ألمانيا، موريتانيا.

51- من ظفار إلى الساقية الحمراء، محمد سعيد القشاط .- بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر، ,1974ع]، 102 ص.

- رحلتان للمؤلف ؛ واحدة في أغسطس 1973، إلى ثوار ظفار ومعايشتهم، ص ص 13-43، بدأها بقصيدة عمودية في 23 بيتاً بعنوان "من ظفار إلى الساقية الحمراء"، وكانت الرحلة بواسطة طائرة صغيرة أقلعت من مطار عدن حتى نزلوا في أرض فضاء، قيل أنها مطار "قشن"، ثم نزلت بـ "الغيظة" إحدى قرى حضرموت، وبعد ثلاث ساعات بسيارة صحراوية وصلوا إلى قرية "دمقوت"، ومنها بدأت مناطق الثوار، فاستضيفوا في خيمة بين مسلحين، وناموا على الأرض دون فراش، وفي صباح اليوم التالي انطلقوا بين الصخور السوداء لصعود الجبل بصعوبة، لتفادي الإنجليز والبلوش الذين يشتغلون في خدمة السلطان قابوس ؛ كما تحدث عن إحدى الطائرات يقودها إنجليزي هوت به بعد أن أسقطها الثوار، ثم وصولهم إلى قرية "حوف" فشاهدوا آثار الدمار الذي خلفته الطائرات، ثم الوصول إلى الثوار الذين كانوا يتدربون على الأسلحة، وحديثه معهم حول تدخل إيران في المنطقة، وذكرياتهم عن الثورة التي وقعت في 9 يونيو 1965 ؛ أما الرحلة الثانية إلى ثوار الساقية الحمراء ووادي الذهب بالصحراء الغربية، وكانت في ديسمبر 1973، وخلال فبراير 1974م، ص ص45-102، والكتاب مزود ببعض الصور الحية عن رحلته ؛ وكتب بلغة صحفية عندما كان الكاتب يمارس الصحافة ورئيساً لتحرير مجلة الوحدة العربية(93).

38 - القويري، عبد الله محمد (1930/3/7-1992/1/17)(94).

52- الوقدات، عبد الله القويري.- ليبيا ؛ تونس : الدار العربية للكتاب، 1984، 257 ص.

- يقسم الكاتب هذه السيرة قسمين ؛ الأول عن طفولته، والثاني بعد دخوله معترك الحياة ،وكتابته في صحيفة المساء، فيتحدث كيف نمت عنده شهوة القراءة منذ السنة الثالثة أو الرابعة الابتدائية وحصوله على نسخة من مجلة الطالب عندما كانت أسرته مهاجرة في الريف المصري هروباً من الطليان، وكيف أن وضع وعادات عائلته

المهاجرة كذبح الذبائح أثناء الموت، ولبس البياض انعكس عليه بهروبه إلى القراءة، وكيف فقد البصر صغيراً فكان يلعب أمام دكان والده، وهو يرد على المتسائلين "توا يصح.. توا يصح"، وحالات الحمى التي كانت تنتابه، ووالدته وهي تدهن رأسه بزيت الزيتون وتتمتم مستنجدة بسيدي عبدالسلام فارس سعيدة، وبصقة "الشعالية" العجوز في فمه للعلاج، وتفاصيل حياته التي أثرت في تكوينه وانكفائه ؛ السيرة لا تأخذ خطاً تصاعدياً، بل تتقدم وتتأخر حسب الظروف الفنية التي رسمها المؤلف للكتاب، يتخلل هذه السيرة علاقته بأسرته الصارمة في تربيتها، أو حالات الحمى التي كانت تنتابه، وعلاقاته في المدرسة فقد كان منكفياً على نفسه سواء في الابتدائية أو الجامعة حين تحدث عن الطلبة وهم يحرقون القاهرة، أو يدعونه للانضمام إلى أحزابهم المتعددة، وفي مظاهراتهم "عبد الهادي كلب الوادي"، أو يغلظون القول لطه حسين : "أنزل يا أعمى"، وهو يرد : "الحمد لله الذي خلقني أعمى حتى لا أرى وجوهكم الكالحة"، وهو لا يرى في دعوته أن التعليم كالماء والهواء عندما وصل إلى وزارة المعارف، إلا دعوة لتخريج كتبة وموظفين حكوميين ؛ كما يتخذ من ترعة الإبراهيمية كنقطة دالة لذاكرته وذكرياته ؛ هو يحاول أن يقدم الفرق بين الصعايدة والفلاحين، فينحاز إلى الفلاح الذي يرى فيه نفسه وهدوءه، وفي خضم هذه التفاصيل الكثيرة يتذكر شخصيات وحالات ومواقف، مثل أم كعبور وهي تنوح على ابنها وزوجها القتيلين لا تكف بمرور الأيام " ياعيني يا ضنايا" ؛ كانت الأحاديث عن الغسل أو الطهارة في الجامع تجعله ينسحب من الحلقة التي يتواجد فيها عمه الشخصية الصارمة ويتأكد من قول عم إبراهيم : أنتم المغاربة واعرين"، كان عمه يستعجل الرجوع إلى وطنه، ولكن المنية وتربته كانت في مقبرة العائلة في "قلوصنا" على حافة النهر ؛ تحدث عن رحلته إلى الإسكندرية ولقاؤه ببعض الليبيين فيها فكانت تحولاً مهماً في تلمس ملامح المجتمع الليبي، ويتأكد بأنه غرس في طين الفلاحين، لذلك نرى للفلاحين وتفاصيلهم مساحة كبيرة في تفكيره وكتابه، ؛ كما تحدث عن بدايات كتاباته في صحيفة المساء، ورحلة عودته إلى الوطن، وهو يرى الفرق منذ مروره على الحدود وتلك المساحات الشاسعة والجبل الخضر وبنغازي، إنها رحلة العودة بكل تفاصيلها.

53- أشياء بسيطة : مقالات، عبد الله القويري.- طرابلس : دار الكتاب العربي، 1973، 115 ص.

53 (م)- ط 2.- طرابلس : المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، 1983، 334 ص.

- إنها سيرة ذاتية لفترة معينة، أردت بها أن أعرض الجوانب النفسية والاجتماعية التي عملت على إيجادها، هي فترة بسيطة، ليس فيها ما يدهشك كل ما هنالك إنها استقطبت داخل نفس راويها أحداثاً مضت وما زالت تؤثر، وأحداثاً معاشة تفعل فعلها وأحداثا متوقعة يهز توقعها النفس[95].

تضمن الكتاب أشياء بسيطة رقم 1،2،3، ومقالات، وأشياء بسيطة ٤، وهي مسرحية عمر المختار، ص ص 219 - 276، وأشياء بسيطة 5، ص ص 276 - 334، بعنوان كلمات إلى وطني، وهي مقدمة و8 رسائل وتعقيب، لهذا يؤخذ الكتاب بشيء من الحذر على أنه سيرة ذاتية.

39 - الكيب، نجم الدين غالب (1934-1988/2/21).

54- ذكريات مسافر، نجم الدين غالب الكيب.- ليبيا ؛ تونس : الدار العربية للكتاب، 1977، 154 ص.

- رحلاتي إلى بعض البلاد التي أقمت بها زائراً.. أو تلك التي ذهبت إليها في مهمات رسمية

..وتشتمل في مجموعها على انطباعات وذكريات وتأملات سياحية[96]..وفيه تحدث الكاتب عن رحلاته إلى أثينا، البسفور، ألمانيا الشرقية، مالطا، لندن، روما، بلغراد، مسينا، الجزائر، وباريس.

40 - مادي، يوسف ([1914]- 1994/5/12).

55- دور يوسف مادي في حركات التحرر العربية، إعداد وتقديم مصطفى حامد رحومة، أحمد محمد العاقل، محمد علي بوشارب.- طرابلس : مركز الجهاد ضد الغزو الإيطالي ،1991.- (سلسلة المذكرات التاريخية ؛ 6) ،304 ص.

- الكتاب عبارة عن مقابلة طويلة مع المناضل يوسف مادي، قام بها مجموعة من باحثي مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي[97]، تناول فيها سيرته الذاتية منذ طفولته، وما سمعه من والده من مآسي الطليان، ومشاركته في المظاهرات ضد

الإنجليز وتعرضه للسجن، ومشاركته في حزب المؤتمر، وعلاقته بالمناضل المغربي عبد الكريم الخطابي وابنه عبد السلام، وأحمد بن بلة، ومشاركته في دعم الجزائر، وعلاقته بعباس فرحات وهواري بومدين، ودوره في تأسيس مدرسة جميلة بوحيرد لتدريب بنات شهداء الثورة الجزائرية في منطقة جنزور، كما تحدث عن مساهمته في تأسيس مكتب لحركة التحرير الفلسطينية عام 1963، وتأسيس لجنة لجمع التبرعات برئاسة الشيخ محمود صبحي استمرت حتى عام 1967، كما تحدث عن النكسة، وتكوين لجنة لجمع التبرعات وبيعه لعمارته وتبرعه بثمنها (50 ألف جنيه) وإرسال التبرعات إلى الأردن للصرف منها على أبناء وبنات الشهداء، وتأسيسه لمؤسسة اجتماعية تربوية باسم بيت المقدس لرعاية أبناء وبنات الشهداء، ودوره في تهريب الحبيب بورقيبة إلى مصر، ومشاركته في معركة بنزرت وسفره إليها وتشجيعه للمناضلين التونسيين ؛ إضافة إلى مجموعة من الصور والوثائق بالخصوص وما كتبته الصحافة الجزائرية والأردنية عنه.

41 - **مازن، الأمين مختار (1935-)[98].**

56- مسارب : 1، أمين مازن.- طرابلس : منشورات مازن، 1998، 385 ص.

57- مسارب : 2، أمين مازن.- طرابلس : منشورات مازن، 1998، 407 ص.

58- مسارب : 3، أمين مازن.- طرابلس : منشورات مازن، 2001، 528 ص[99].

- بالجزء الثالث يكمل مثلث مسارب ضلعه الثالث، وتتحد وفقاً لذلك الدائرة الكاملة أو شبه الكاملة من هذا النص الذي اخترت له مبدأ التهجين بين الذاتي والموضوعي، المحلي والوطني، متمثلاً في الأسرة والواحة والوطن... هي رحلة تعود بداياتها إلى أواخر عهد الاستعمار الإيطالي وفترة الحرب العالمية الثانية، مروراً بفترة الإدارة البريطانية أثناء تقرير المصير الليبي، وما أحدثه من تغيير في الحياة وصولاً إلى التجربة التقليدية ثم السنوات الثلاث الأولى من السبعينات (موضوع الجزء الثالث) وهي شديدة التميز في التاريخ الليبي المعاصر، وكذلك التعاطي فترة من قبل المجايلين[100].

42 - **المحمودي، عون سوف(1893-- 1947/8/14)[101].**

59 - مذكرات المجاهد عون بن سوف ؛ تحقيق وتقديم د. محمد سعيد القشاط .- بيروت: دار الملتقى، 1998، 171 ص.

– مذكرات عون سوف عن أيام الحرب بعد عودته إلى الوطن عام 1919، وكذلك عن نضاله في أرض الهجرة بمصر، واتصالاته بالإنكليز (الحلفاء) والفرنسيين للقتال إلى جانبهم لتحرير الوطن، هذه المذكرات تسلمتها من ابنه أحمد عون سوف بعد أن بيضها بيده وبخطه، وقال لي أن والده هو الذي أملاها عليه في حياته[102]).

43 – المسلاتي، مختار خليل (؟ –)[103].

60 – أمريكا كما رأيتها: مذكرات شخصية، تحليل سياسي اجتماعي، مقارنة، مختار خليل المسلاتي.– الكويت : مكتبة المعلا، 1986، 648 ص.

– مذكرات طالب ليبي من وجهة نظر متأثرة بأحد التيارات الإسلامية، أنهى كتابتها مع نهاية شهر يوليو 1985، وقد خرج الكاتب من ليبيا عام 1979، بعد تخرجه من الجامعة عام 1975، ثم دراسته القانون إلى السنة الثالثة، حيث توقف وذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعاش ودرس فيها منذ ذلك الوقت، وتزوج من أمريكية ساهم في إسلامها، ثم طلقها، والكتاب كتب بروح مقارنة بين المجتمع الأمريكي، والمجتمعات الإسلامية، في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية فتحدث عن نظام الحكم فيهما، ونظام الأسرة فيهما فتحدث عن المشاكل التي تواجه المراهقين، وضرب الزوجات والشذوذ الاعتداء الجنسي والاغتصاب والخطف والسرقة، الخ ، كما تحدث عن تعاطي المشروبات الكحولية والقوانين والسجون، وعن اليهودية والنصرانية والإسلام ومؤسساتهم في أمريكا، وعن الخدمات العامة فيها، كما تحدث عن رفاقه في السكن من بنغلاديش وأمريكا وإيران وألمانيا، وتحدث عن تفاصيل في علاقاته وأموره المالية والإدارية، ربما كانت أصل الكتاب فيما يقوم به البعض بتدوين خصوصياته ومصروفاته، فطورها إلى كتاب، أنهاه بقائمة من المراجع العربية والإنجليزية.

44 – المشيرقي،(أبناء) ،شركة أبناء إبراهيم المشيرقي في ميدان التجارة والعمل، تأسست عام 1930].

61 – شركة أبناء إبراهيم المشيرقي في ميدان التجارة والعمل : قصة كفاحنا في الميدان الاقتصادي.– طرابلس : مطبعة ماجي ،[1960]، 50 ص.

– للوهلة الأولى يبدو كتيباً من كتيبات الدعاية للشركات، ولكن من خلال قراءة هذا

الأثر الذي ظهر في شكل نشرة، يتضح انه يمثل تجربة أبناء إبراهيم المشيرقي (علي، محمد، عبد المجيد، الهادي، وأخيراً سليمان، الذي انسحب لاحقاً) منذ البدايات في النصف الثاني من عشرينات القرن العشرين وحتى عام 1960، لقد أراد أفراد الشركة من هذا العمل تشجيع العاملين على العمل، وبث روح الثقة في المثابرين، سردنا مراحل كفاحنا وتطورنا واستعرضنا الأسباب والنشاط بصفة مفصلة عن التجارة، ، فتحدث عن مزرعتهم النموذجية ومنظمة السياحة والفنادق الليبية (أوتال) التي أنشأوها، ومصنع الورق، وشركة الأسمنت، وفروعها في بنغازي وسبها ؛ كما توزعت في هذا الكتاب العديد من الصور منها صفحة تضم صور الإخوة الخمسة تتوسطها صورة كبيرة نسبياً لوالدهم، والحديث عن أن عائلة المشيرقي من العائلات التي وفدت على ليبيا من تونس إبان دخول الفرنسيين إليها عام 1881، ومن الطريف أن نجد صورة تمثل حفل انتخاب ملكة جمال طرابلس لعام 1956 تتوسط لجنة التحكيم بالغراند هوتيل (الفندق الكبير)، وكان من ضمن الأنشطة الفندقية التي يديرها آل المشيرقي، كما نشرت صورة لعمارة (جنة العريف) التي شيدوها بشارع المغاربة، وتحتوي على ما يزيد عن 300 مكتب و15 متجراً . ومخازن باطنية.

45 – المشيرقي، الهادي إبراهيم (1908/1/19-)[104].

62 ليبي في اليابان، اليابان بلد السحر والجمال، مقتطفات من مشاهدات ليبي في رحلة سياحية حول العالم، الهادي إبراهيم المشيرقي.- طرابلس : المطبعة الحكومية ،1957، 94 ص.[105]

– الكتاب في مجمله يوميات المؤلف في اليابان منذ يوم الأحد 1956/12/19م الذي ضاع من مذكراته نتيجة لفرق التوقيت بين الغرب والشرق حيث قدمها من أمريكا، حتى يوم الأربعاء 1956/12/19، فتحدث عن دوافع وأسباب الرحلة، ورحلته من هونولولو إلى اليابان، وتجوله في طوكيو، وزيارة قصر كاساكة الإمبراطوري، ومركز أساكوسا وقصر الحكومة وحديقة هيبس، ثم زار بلدة نكو وجبلها وشلال كوجون، ثم زار مدينة يوكوهاما، وهاكوني، في رحلة سياحية زار فيها معالم اليابان السياحية، سيما هيروشيما ونقل صوراً حية عن ضحاياها وأبرز لها صفحات وافرة، وصوراً قاربت السبعين صورة، (ص ص 34 – 45) فضلاً عن مشاهداته الأخرى[106].

63– مشاهداتي في بلاد الهند، الهادي إبراهيم المشيرقي.– طرابلس : المطبعة الليبية، 1967، 113 ص[107].

– تعددت وسائل النقل التي استعملناها في قطع المسافات في دواخل الهند، وقطعنا مسافة عشرة آلاف وخمسمائة كيلو متر، والسبب المباشر للقيام بتلك الرحلة الممتعة إلى الهند هو انعقاد مؤتمر سياحي عالمي لأصحاب الفنادق في دلهي في شهر فبراير 1955، كل الصور في الكتاب خاصة بالمؤلف، إضافة إلى أكثر من 60 صورة عن الهند وآثارها، والكتاب انطباعات ومشاهدات المؤلف في ربوع الهند المختلفة ومن خلال خريطة بلاد الهند في آخر الكتاب نجد أن المؤلف قد طاف بالهند شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، فمثلاً زار تاج محل، وأطنب في وصفها، ص ص 32 – 38، ومن خلال زياراته استعرض أساطير الهنود وغرائبهم ومعابدهم مثل بئر المعرفة والأساطير التي تروى بخصوصها والمعبد الذهبي ومعبد القردة، ومعبد القوت ومعبد الشهوات، وعنه يقول قادتني قدماي إلى باب صغير... واكتفيت بأول نظرة، وراعني ما رأيت... فتراجعت في الحال، وفي مذكرتي وضعت نقاطاً فقط عن فضاحة ما شاهدت ؛ كما تحدث باستفاضة عن الإسلام والمسلمين في الهند فتحدث عن كيفية دخول الإسلام شبه القارة الهندية الباكستانية، واضمحلال وسقوط الحكم الإسلامي، وبداية الحكم البريطاني، ثم عن حركة المسلمين الجماعية، ومحنة المسلمين خلال الحكم البريطاني، والنهضة الإسلامية ودور مسلمي الهند في حرب الاستقلال، والمسلمون والقومية الهندية، وأخيراً المسلمون في طريق الانفصال، وميلاد باكستان فتحدث عن عواقب التقسيم.

64 – ذكريات في نصف قرن : من الأحداث الاجتماعية والسياسية، الهادي إبراهيم المشيرقي.– طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (سلسلة الوثائق التاريخية ؛7) ،(د.ت)، 432 ص.

– إن كنت حاولت أن أسجل هنا شيئاً شاهدته وعايشته طفلاً وشاباً ورجلاً، وعلى امتداد أكثر من نصف قرن من الزمان، فليس هذا من قبيل ادعاء البطولة، أو حتى الإلمام بالمعرفة، فكتابتي تصدر عن زاوية ذاتية محصورة في إطار ذكريات، منها ما مسني في شخصي، ومنها ما تجاوزني[108]..المتأمل في الكتاب لا يرى ذكرياته

فقط، بل هو جهاده ونضاله وذكرياته التي بدأها السن المبكرة التي تعود إلى عام 1917، حتى الاستقلال بداية النصف الثاني من القرن العشرين، يبدأ هذه الذكريات أثناء احتلال ترهونة وتأثر مباشر مدرسة العرفان الابتدائية بطرابلس بهذا الحدث، كما تحدث عن بعض الممارسات الإيطالية، ورحلته إلى القدس عبر مصر عام 1934، ولقاؤه ببشير السعداوي، وبعض الشخصيات الوطنية في الشام، مثل عمر شنيب، وتحدث عن بساطة السعداوي وبيته وأكله، وأثاثه، ولا نستطيع في هذا المقام حصر كل تلك التفاصيل الصغيرة التي زخر بها هذا الكتاب، فقد ضم أكثر من 160 حدثاً وطنياً بكل حدث عدة تفاصيل، توزعت على 19 فصلاً، ويكفي أن نعرف منها دخول الكاتب وشقيقه السجن نتيجة لمواقفهما الوطنية، والعمل الوطني بتغيير اسم شارع بالبو، إلى شارع عمر المختار، وتحطيم لوحات أسماء الشوارع من أو الشخصيات الإيطالية إلى الأسماء العربية، ومنها تسمية ميدان الشهداء باسمه الحالي بدلاً عن ميدان إيطاليا، وبسببه حكم على شقيقه عبد المجيد بالسجن لمدة عام، أضيف إلى الكتاب ٨ صفحات، عبارة عن فهرس أعلام، وصورة بشير السعداوي أهداها إلى المؤلف عام 1940، وقد حرص الكاتب على تزويد كتابه بمجموعة كبيرة من الصور والوثائق، ص ص357– 424[109].

65 – قصتي مع ثورة المليون...شهيد، الهادي محمد المشيرقي.– الجزائر : شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، 639 ص[110].

– تجميع لمراسلات ورسائل وبرقيات وأحداث وغيرها مع زعماء الثورة الجزائرية كأحمد بن بلة ،

وحسين أية أحمد، كان المؤلف يحتفظ بها في أرشيفه الخاص، وقد نشر صوراً عنها بين أوراق الكتاب وبلغت أكثر من 250 وثيقة ؛ والكتاب مساهمة أحد الليبيين المقتدرين مادياً في وقته في أحداث الجزائر وثورتها، ابتداء من عام 1947، وحتى عام 1962، كتب تصديره المكلف بشؤون الدعاية والإعلام بليبيا خلال الثورة الجزائرية محمد الصالح الصديق، وكتب مقدمته رئيس اللجنة الشعبية ,الليبية] لدعم ومساندة الثورة الجزائرية آنذاك الشيخ محمود صبحي.

46 - المغيربي، محمد بشير (1923-).

66 – وثائق جمعية عمر المختار : صفحة من تاريخ ليبيا، محمد بشير المغيربي. – القاهرة: دار الهلال، 1993، 508 ص.

– المؤلف كان أحد أعضاء جمعية عمر المختار فتحدث عن الوثائق السياسية للجمعية، وبداية العمل السياسي، ومرحلة تقرير المصير، وقضية ليبيا في الأمم المتحدة، وإعلان استقلال برقة، والأمم المتحدة تقرر استقلال ليبيا، والأوضاع في برقة وبداية التطور الدستوري، ومعركة انتقال السلطة، ووثائق نشاط رجال الجمعية بعد حلها، ووثائق العمل القومي لجمعية عمر المختار.

47 - المفتي، محمد محمد، (1943/9/11-).

67 – هدرزة في بنغازي، هوية المكان الجميل : مقالات، د. محمد محمد المفتي.– طرابلس: منشورات مجلة المؤتمر، مركز دراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، 2004 ، 127 ص.

– الكتاب عبارة عن مقالات بخصوص بعض المعلومات التاريخية والذكريات عن بنغازي خاصة في خمسينات القرن العشرين، تضمن الكتاب فصلاً عن يوم في حياة الكاتب، بعنوان : اكتساب المعرفة في مكان بعينه، ص ص 13 – 20، وقد نشر هذا الفصل أولاً في صحيفة المشهد الصادرة عن رابطة الأدباء والكتاب، ثم جمع مع بقية مقالات كان قد كتبها لصحيفة أخبار المدينة، وهي الصحيفة المحلية لمدينة بنغازي، حيث يقيم المؤلف، ويشتغل طبيباً هناك أما الفصول الأخرى فقد جاءت بعدة عناوين، التاريخ حكاية، إعادة تركيب الماضي، بدايات مدينة، من وراء شرشاف باصمة، بنغازي بعد الحرب، نبض الحياة في بنغازي في أوائل الخمسينات.. من الجرد إلى البيشة، أسواق بنغازي قبل نصف قرن.. القطاع العام ذهاب وإياب، أسواق بنغازي في نهاية القرن العشرين(111)، وأنهى الكتاب بفصل بعنوان تداعيات شارع دبي، الماضي بوابة المستقبل.

48 - المقهور، كامل حسن (يناير 1935-2002/1/4)(112).

68 – محطات : سيرة شبه ذاتية، كامل حسن المقهور(113).– طرابلس : دار الرواد، 1995، 332 ص.

– سيرة ذاتية أدبية للمؤلف، كتبت بأسلوب أدبي رفيع، فمؤلفها أحد رواد وفرسان القصة القصيرة في ليبيا، ورغم المناصب السياسية التي تقلدها، والقضايا الكبرى التي ترافع عنها كالجرف القاري مع تونس، وقضية لوكربي، لكنه لم يتحدث إلا عن سيرة طفولته بمحلة الظهرة بطرابلس، ودراسته فيها وانتقاله إلى القاهرة، حتى نجاحه في الثانوية العامة، تمهيداً لدخوله الجامعة فكانت عناوينه قصصية كالآتي : من المحلة إلى الجامعة، المحلة والمقصود بها محلة الظهرة التي ولد وعاش فيها حتى وفاته، أنا الطوير الأخضر، عن السكان، رياش العسكر، مرسال.. عاشور والحانة، الرحلة إلى المدينة، المدرسة، الشيخ... صالحة والحاج، الغربة.. خنّاقة، وحدووووه، لوزة... وأم حسين، الأزهر والحسين، بعد عطيات...أم سيد، القاهرة.. المدرسة... مرة أخرى، العودة إلى المدينة، و.. الوحدة حرّاقة، و... إنهم ليحرقون !!.

49 – الملتقى العام لرفاق القائد [مؤسسة تضم رفاق معمر القذافي قبل عام 1969 وأسرهم] (تأسس عام 199 ؟).

69 – القذافي ورحلة 4000 يوم من العمل السري : شعبة التثقيف بملتقى رفاق القائد.– ,طرابلس] : (د. ن)، 1429 (1999ف)، 270 ص[114].

– نشر الكتاب بمناسبة مرور 40 سنة على تأسيس الخلايا الثورية الأولى في سبها، (تلك هي بعضاً من ذكريات القائد والمفكر والمناضل العقيد معمر القذافي مع الثورة قبل الفاتح 1969، روى أحداثها في أكثر من مناسبة، والجهد الذي بذل فيها جمع من شتاتها وألف بين أحداثها ووقائعها ورواياتها)[115].. يتكون الكتاب من خمسة فصول، الأول ص ص 15 – 74 مدخل مليء بالمفاجآت والتطورات والأحداث المفاجئة والخطيرة في إطار قصة الثورة ؛ والثاني ص ص 75 – 126 يتعلق بالسنوات الأولى لنشأة معمر القذافي ودخوله المدرسة الابتدائية وبدايات تكوينه للوعي السياسي والتفكير الجدي في تكوين الخلايا الثورية ؛ والثالث ص ص 127–182 بخصوص الحديث عن فطرة القيادة لديه ووقائع مظاهرة سبها عام 1961، وانتقاله إلى مصراتة؛ والرابع ص ص 183– 216 حول دراسته بالكلية العسكرية، وانضمام أعضاء الحركة العسكريين واجتماعاتهم، والظروف التي أحاطت بهزيمة 1967 ؛ والأخير ص ص 217 –270 يتعلق بوقائع الأيام الأربعة الأخيرة التي سبقت يوم

الفاتح 1969، يوماً بيوم وساعة بساعة، ودوافع الثورة، ثم محاولة الإجابة عن سؤال: هل حقيقة يمكن أن تأكل الثورة أولادها، وهل من الضروري أن يحدث ذلك، وإن كان ضرورياً، فكيف يحدث ذلك[116].

50 - **المنتصر، خليفة عبد المجيد (1919/1/5-؟/؟/1989)**[117].

70- ذكريات لا تنسى : 30 شهراً وراء الأسلاك الشائكة...، خليفة عبد المجيد المنتصر.- بيروت : دار العلم للملايين، 1970، 255 ص[118].

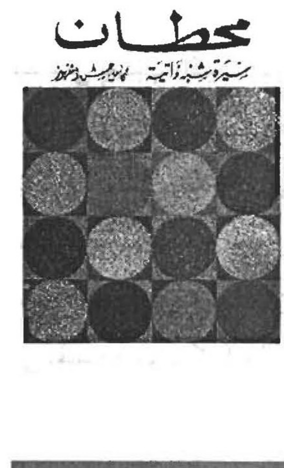
- سبق نشر هذه الذكريات بجريدة (العلم) الليبية [119].. يتحدث المؤلف بالتفصيل كيف لعب الرقم 13 لعبته معه ؛ فيقبض عليه، لتعامله مع الطليان، ويرسل أولاً إلى السجن بمصراتة، والمواقف التي حدثت له هناك، ثم نقله إلى طرابلس، ثم إلى المعتقل رقم 303 ؛ وذكرياته مع الأسرى الطليان والألمان والليبيين، وفرار الألمان عبر نفق حفروه، والمذبحة التي حدثت لهم، ثم نقلهم إلى الهند وكينيا، ومذبحة الأسرى الطليان من قبل الجنود اليونان بسبب السجائر، وأنشطة الليبيين لسماع سيرة أبي زيد الهلالي وعنترة، وسرده لقصة ألف ليلة وليلة بشكل ملفق ؛ وسوء التغذية بالمعتقل، ثم تحسن نوعية الأكل والخدمات بشكل مفاجئ، والسماح بمزاولة الأنشطة الرياضية والثقافية ومنها المسرح، وتدبر المؤلف لحيلة ليخرج إلى المستشفى بسبب الكبت الذي يعانيه الأسرى، وتسلله خلسة إلى السينما، فيعاد إلى المعتقل نتيجة وشي أحد المخبرين الليبيين الذي كان زميلاً له في الدراسة، ثم تدبره بعد مدة لحيلة أخرى بادعاء الجنون، فيحال إلى مستشفى الأمراض العقلية، وتتعاطف معه إحدى المرضات الإيطاليات فينقل إلى المستشفى المركزي بقسم الجلدية، ويكتشف أن صديقته الإيطالية قد تزوجت إنجليزياً وغادرت، فيرجع إلى نفسه ويتوب كما قال، وينكب على قراءة القرآن وأمهات الكتب وأعلام الأدب كطه حسين والعقاد والرافعي، وما كتبه المنفلوطي عن المجاهدين الليبيين، ويقارن بين الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران، ثم يعاد إلى المعتقل، فيجد الورود والجنينات المنسقة أمام حظائر الطليان، على العكس من حظائر الليبيين، ثم يصله الفرج ويتنفس هواء الحرية[120].

51 – وريث، محمد أحمد (1942/9/25-).

71– فطاني ثورة مجهولة تواجه المستحيل، محمد أحمد وريث.– طرابلس : الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1978، 191 ص.

71(م)– ط2 –. طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1982، 200 ص.

– رحلة للمؤلف خلال الفترة3-1976/6/23 إلى ثوار فطاني بتايلند، نشرها أولاً على حلقات في صحيفة (الجهاد) الليبية في الفترة 18/7-1976/8/22؛ قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام ؛ الأول، ص ص 11-91، معلومات عامة بعنوان المكونات والتاريخ والثورات، والثاني، ص ص97 – 171 وقائع الرحلة، وكانت بعنوان الثورة والشعب الثائر، أما الثالث فهو ملحق للصور، ص ص 179 – 1950..خمسة عشر يوماً أمضيتها للوصول إلى معاقل الثوار في فطاني، وخمسة أيام كاملة قضيتها معهم داخل فطاني في جبال (بودور) الشاهقة، وفي الغابات والأدغال، متنقلاً بين مراكز تجمعهم الثابتة وقواعدهم المتنقلة(121).







1 – لا ننسى المساعدات واللمسات التي قدمها بعض الأخوة من الأساتذة والأصدقاء والعارفين، فإن جاءت معظم فسيفساؤها متفرقة لا يسع المجال للإشادة بأصحابها الكثر فرداً فرداً في هذه العجالة، فمجموعها كان بالنسبة لي شيئاً لا ينكر فضله، أثرت المساهمة وحسنّت أداءها.

2 – ونحن إذ نقدم هذه الملاحظات أو غيرها عن قصور بعض الأجهزة أو المؤسسات العامة، ليحدونا الأمل أن تكون ملاحظاتنا دافعاً للتطوير، وللبحث عن أوجه القصور والضعف وتفاديها ؛ ونأمل ألا يؤخذ بقصور نظر باعتباره ملاحظاتنا تشهيراً أو انتقاصاً أو عرقلة، إضافة إلى أن هذا القول لا يقصد به الأشخاص العاملين فيها، الذين نعرف معاناتهم اليومية وبذلهم الجهد في مؤسسات شبه ميتة .

3 – لمسنا ذلك ليس من سيرته الذاتية فحسب، ولكن أثناء زيارتنا له بمكتبه بالنادي الأدبي بجدة الذي يرأسه، صيف عام 1997 عندما كنت أعمل قنصلاً بالقنصلية الليبية العامة بجدة .

4 – المجموع، مجلد صغير من 80 ورقة، هو الآن في حوزة قسم الوثائق والمخطوطات بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سجل فيه قيوداته وملاحظاته الخاصة، وأودعه جملة من فتاويه، وطائفة من رحلاته وأسفاره إلى الحجاز ومصر وتونس والآستانة، وبعض المسائل الأخرى ؛ أنظر : جبران، محمد مسعود، محمد كامل بن مصطفى 1828– 1897 وأثره في الحياة الفكرية في ليبيا – طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ط 2، 1996، (سلسلة السير والتراجم ؛ 2)، 312 ص .

5 – ورد في كتاب الشعر والشعراء لمحمد الصادق عفيفي أنه من مواليد 1916 ؛ وقد أفادتني قريبته الشاعرة حواء القمودي الحافي، في لقاء قصير معها يوم 2004/12/14 بأنه من مواليد 1919.

6 – أنظر : علي مصطفى المصراتي، محمد ميلاد مبارك، الهادي عرفة شاعراً وأديباً (1973) طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1995، (سلسلة الكتب العامة ؛6)، 1995، 151 ص.

7 – توجد صورة منها لدى الصديق الكاتب عبد الله مليطان، أخبرني عنها ؛ وانظر كذلك : د.م.ل : ص177.

8 – أطلعني الكاتب علي مصطفى المصراتي (1926/8/18-) عليها في أحد لقاءاتنا بمنزله بمنطقة شارع الصريم بطرابلس، وهي بخط السعداوي المشرقي الجميل، وأخبرني أنه بصدد دفعها للطباعة.

9 – نظراً لكثرتها فلا يتسع المجال للحديث عنها جميعاً، وقد حاولنا التعرف على الكثير منها، واكتفينا بما تم ذكره.

10 – يمكن إضافة بعض الأعمال الأخرى، مثل : كتاب الإرشاد لمعرفة الأجداد، لمحمد عبد الكريم العسوّس، وكتاب القصور والطرق في الجبل، لإبراهيم الشماخي .

11 – من الشائع أن ولادته في 12 مارس 1890، حتى أنه في العهد الملكي كانت تمنح عطلة رسمية بالمناسبة تعطل فيها المصالح الحكومية، وبعد الرجوع إلى ما دونه أحمد الشريف السنوسي في مخطوط كتابه "الشموس الشارقة" فيذكر أنه ولد يوم الجمعة بعد عصر 17 رجب 1307 هـ، وهذا التاريخ يوافق يوم 1890/3/7، وليس كما هو مشهور خطأ.

12 – نشرت هذه المذكرات عقب مقتل الشلحي بصحيفة الزمان الصادرة ببنغازي بالعدد 58 بتاريخ الخميس 1955/1/27 بالصفحتين الأولى والسادسة، إضافة إلى مقابلة نشرت معه بالعدد نفسه نشر بالصفحتين الأولى والثانية .

13 – نشر متسلسلاً أسبوعياً بصحيفة طرابلس الغرب خلال الفترة1962/11/11 حتى 1963/7/7؛ أنظر أيضاً : د.م.ل، ص 122، وقد حدثت بعض الأخطاء المطبعية في ترقيم تسلسل الحلقات، وحدث تغيير في التاريخ بين الصفحة الأولى والصفحة التي وردت فيها الحلقة في العدد 367، وغيرها من الملاحظات الشكلية التي تكاد لا تخلو منها صحيفة.

14 – أنظر ترجمته في : الفن والمسرح في ليبيا، بشير محمد عريبي، ص ص 56 – 58، وأنظر صورته الشخصية، ص 290 ؛ ومع نشاطه الملحوظ في الموسيقا، فقد علمت عن طريق بعض أقاربه بأنه كان لا يجيد القراءة ولا الكتابة.

15 – كنت قد استلمتها من خليفة التليسي في مكتبه بالدار العربية للكتاب بطرابلس، وراجعتها طباعياً، وأرسلتها إلى (عراجين) لنشرها.

16 – أفادني بذلك ابنته حنان خالد.

17 – صدرت عن م.ج.ل.د.ت سلسلة الروايات الشفوية للمجاهدين الليبيين الذين شاركوا في الجهاد ضد الغزو الإيطالي لليبيا، ووصلت إلى 42 جزءاً، مع الانتباه إلى الأعداد التي لم تصدر حتى حينه، وأرقامها : 10 – 14 – 15 – 17 – 20 – 21 – 24، ومع هذا فهي تمثل إضافة مهمة إلى الذكريات الليبية، ورصداً لتجارب وأشعار الليبيين في ظروف الحرب والنفي والمعتقلات والتشريد، ولأن معظم المساهمين فيها لا يجيدون القراءة والكتابة، فقد سجلت أولاً صوتياً، حيث قام باحثو المركز بجمع أحاديثهم وتفريغها كتابة، في جهد يشكل أس عمل المركز وعموده الفقري، وبلغت ما مجموعه 7779 شريطاً مسموعاً، تضم 8896 مقابلة، وفي الوقت نفسه (وبدون تقصّد) فالرواية الشفوية عملٌ لتوثيق اللهجة الليبية التي تتآكل في كثير من خصائصها ومظاهرها، فتحورت وتطورت، وبهتت ألوانها، لتغدو يومياً شيئاً آخر لا نحس بتحرك عقارب ساعاته لتحصي تغافلنا وساعات سباتنا لرصد اللهجة الليبية وخصائص تطورها، فالعمل إضافة إلى كونه مادة تاريخية، فإنه يشكل أيضاً مادة ألسنية لغوية لهجوية، سيستفاد منها يوماً على هذا السياق، وسياقات أخرى تقتضيها طبيعة الاستفادة المتوخاة منها .. وعانت هذه السلسلة من بعض التأخير في النشر وأسبابه المتعددة ؛ فقد يصدر جزء منها، ويتأخر صدور آخر، كما أن بعض الأجزاء لم تصدر حتى حينه رغم أسبقية تسلسلها وعصفت بها طاحونة الإدارة والمطابع المرتبكة .

18 – يذكر الهادي المشيرقي بأنه كان قادماً من تونس إلى طرابلس في الثلاثينات من القرن العشرين، وعند الحدود كان رجال الجوازات والجمارك الإيطاليين يقومون بتفتيش دقيق للعابرين، كان معه مجموعة من الأوراق السرية التي يعاقب عليها القانون، منها رسالة من الأمير شكيب أرسلان رداً على رسالة منه، فما كان منه إلا أن تنحى جانباً عن العيون وبلع الرسالة والقصاصات التي كان يحملها ؛ أنظر : المشيرقي، الهادي ،

19 – أنظر : من رسائل المنفيين، إعداد : محمد شوقي هيكل، إبراهيم سالم الشريف، الفرجاني سالم الشريف .– عدد خاص بمناسبة إحياء الذكرى الثمانين لأكبر عملية نفي وإبعاد، طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1991 (سلسلة وثائق ونصوص ؛ 19)، 298 ص .

20 – أخبرني مختار بن يونس انه أنجز تحقيق إحدى عشر رسالة للأستاذ الطاهر الزاوي، وهي تحت الطبع حالياً لتصدر في كتاب ؛ كما نشر الباحث عمار جحيدر في مجلة الناشر العربي لعام 1990 ثلاثاً من رسائل الشيخ الزاوي تتعلق بظروف تحقيقه لكتاب التذكار.

21 – وقد كتب منير برشان في مجلة المرأة، ع 3، بتاريخ 1946/4/16مقالة بعنوان : كيف عرفت فقيدة الأدب العربي، الآنسة مي زيادة، ويقال أن بينهما مجموعة رسائل، وهي في طي الكتمان من قبل ورثته .

22 – نود أن نشير إلى بعض ما صدر من يوميات عامة كنموذج لهذه الأعمال، ففضلاً عن السجل القومي الذي صدر منه حتى الآن 34 مجلداً سنوياً في أكثر من طبعة، لابد أن نشير إلى أعمال أخرى مثل يوميات الثورة، ويوميات الجهاد، ولم نثبتها في المتن لأسباب موضوعية، وهذه بعض نماذجها :

– يوميات ثورة الفاتح من سبتمبر، القسم الأول، من أول سبتمبر 1969 إلى أخر أغسطس 1971 ,طرابلس، إعداد الأمانة العامة للثقافة والإرشاد القومي، بالجمهورية العربية الليبية، 488 ص.

– يوميات ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة، القسم الثالث، من أول سبتمبر 1973 إلى آخر أغسطس 1974 ، إعداد قسم الثقافة الجماهيرية، الإدارة العامة للثقافة والإرشاد القومي، أمانة الإعلام والثقافة، 472 ص + 29 ص للصور .

– برقيات وتصريحات ورسائل العقيد معمر القذافي، رؤية مستقبلية، قضايا وأحداث عالمية –1، طرابلس، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، 2001 إفرنجي، 236 ص، بالإضافة إلى المحتويات 24 ص .

– برقيات وتصريحات ورسائل العقيد معمر القذافي، رؤية مستقبلية، قضايا وأحداث عالمية – 2، طرابلس، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، 2001 إفرنجي، 310 ص، بالإضافة إلى المحتويات 23 ص .

– يوميات الجهاد العربي الليبي ضد الغزو الصليبي الإيطالي، سرت، إعداد : قسم البحوث

والدراسات، اللجنة الشعبية العامة التعبئة الجماهيرية والتوجيه الثوري، 1400و.ر، (1990) ،281 ص .. وتتضمن حصراً لهذه المعارك ويوم وقوعها، وسنتها، وموقعها، والبلدية التي يقع في نطاقها .

23 – نظراً لنفاذ ومحدودية توزيع هذا الكتاب وتقادمه، فكثير من الباحثين والمهتمين بالتصنيفات البيليوغرافية لا يعلمون عن صدور هذا الكتاب أصلاً، حيث لم يدرج في أي جهد سابق في هذا الشأن، وقد تطلب مني البحث عنه جهداً، حتى اهتديت إلى مؤلفه، فأفادني بصدوره، ولظروف ما أدت إلى احتراق مكتبته فإنه لا يملك أية نسخة منه .

24 – حازت هذه المحلة نصيب الأسد في نشر السير والذكريات حولها، فصدرت عنها أعمال ثلاثة للأسطى والمقهور والراجحي .

25 – أعكفُ حالياً على تحقيق هذه الرحلة، وترتيق رقوعها، واسمها "ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل آخر سلاطين فزان" ونسختها الأصلية بالمكتبة الوطنية بباريس، وإضافة إلى الجوانب الفنية في رصد النص، فقد أثقلته بالهوامش التاريخية والجغرافية واللغوية، والشواهد الشعرية العامية التي تخدم النص، وتجلو أبعاده المتعددة، سيما وقد تخللته الكثير من الكلمات العامية الدارجة التي وجب توضيحها في سياقاتها المختلفة، كما تتبعت بالسيارة معظم مسارات هذه الرحلة عبر السعودية ومصر وتونس والجزائر ؛ تحدث فيها عن حياته وزواجه من ابنة وزير سلطان برنو، والظروف التي جعلت منه رحالة غصباً عنه، زائراً أو هارباً أو هائماً على وجهه في أصقاع الأرض، من تيبستي، إلى سلاطين برنو، ثم الأراضي الليبية، ليحضر اللحظات الأخيرة من حياة والده وعمه سيف النصر، ثم يخرج هارباً إلى الصحراء وتأخذه الصدف إلى مصر والحجاز، والعودة إلى مصر، ثم السفر إلى استانبول، فتضعه السلطات التركية في سجن طرابزون مع غومة المحمودي وبقية الثوار الليبيين الآخرين، ثم يهرب إلى مالطا، ويغادرها إلى تونس، ثم إلى الجزائر، وهنا تتمدد التجربة وتطول الأحداث والمواقف بصاحبها إلى أن يغادر إلى باريس عام 1852، فينبهر بها كما انبهر معاصروه، مثل المصري رفاعة الطهطاوي، والتونسي ابن أبي الضياف، صاحب الإتحاف، ويكتب عنها شيئاً منثوراً أسماه شعراً.

26 – كتب عنها الباحث علي مصطفى المصراتي في كتابه مؤرخون من ليبيا، والدكتور الجزائري أبوالقاسم سعد الله في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر .

27 – هو : امحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبد السلام الشريف زغوان، د.م.ل، ص ص 400–401، وانظر ترجمته كذلك في : مجلة الرفقة، ص ص 98–101 ؛ وقد ورد في د.م.ل : أن اسمه محمد علي بن محمد الخ، والصحيح كما ذكرنا حسبما أفادني بذلك زميلي محمد زغوان حفيد المؤلف .

28 – جاءت هذه الرحلة عقب زمن دقيق بالنسبة لتاريخ الحجاز، حيث انسحب الشريف حسين وأبناؤه

تحت وعود الإنجليز، وحل السعوديون محلهم ؛ بدأت الرحلة من طرابلس يوم الأحد 27 شوال 1344هـ، الموافق 1926/5/9، فسجل فيها تسجيلاً دقيقاً مسار رحلته البحرية عبر مالطا والإسكندرية والسويس، ثم جدة، وما شاهده ولمسه، ثم عاد إلى طرابلس فوصلها في 1926/8/14 ؛ ويقوم صديقنا د. جمعة الزريقي المستشار بالمحكمة العليا على تحقيق هذه الرحلة، وسبق أن نشر مقالاً عنها في العدد العاشر من مجلة (الرفقة)، الصادرة عن ملتقى الرفاق، الصيف (يونيو) 2004، ص ص 97 - 115 .

29 - إضافة إلى معلوماتنا الشخصية في هذا المجال، نود أن نشير إلى استفادتنا مما ورد من معلومات في دليل المؤلفين الليبيين، ومعاجم عبد الله مليطان، وحاولنا تدقيقها ما أمكن .

30- جاء تعرفنا على هذا الكتاب وإطلاعنا عليه في نهاية إعداد هذه المساهمة، ولضيق الوقت لم نتمكن من البحث عن الطبعة الأولى للتعرف على بياناتها .

31 - بعد التقديم والمقدمة، وبعض الكلمات الأخرى، كتب عن مشروع هرتزل، ووعد بلفور ونتائج الحرب العالمية الأولى، والهجرة اليهودية إلى فلسطين .

32 - وأشار إليها في أكثر من مؤلف من بينها كتاب له أهداني إياه بعنوان "وتلك الأيام" فيه بعض ذكرياته الليبية، وأذكر أنه أثناء زيارة الملك سعود بن عبد العزيز إلى ليبيا عام 1957، كان أحد المشاركين في الترحيب به في صحيفة ومجلة طرابلس الغرب .

33 - أثناء تطبيق التجربة الاشتراكية في ليبيا عام 1978 بما يعرف بقانون رقم ٤، طبق هذا القانون على بيته، وقد تحدث عنه بشيء من التفصيل في سيرته هذه، وقد مررت أمام هذا البيت أثناء حضور أحدى الندوات ببنغازي في نهاية شهر 2004/11 فوجدت حيطانه الخارجية وقد ملئت بخربشات الصبيان والذكريات السوقية وتشجيع الأندية المختلفة .

34 - نشرت هذه المذكرات مسلسلة بصحيفة (الأسبوع الثقافي) الأسبوعية تحت عنوان (شريط الذكريات)، ابتداء من العدد 216 بتاريخ 1976/7/30، ثم جمعت في هذا الكتاب، بدون الصور التاريخية القيمة التي أوردها في الصحيفة نظراً لضياعها ضمن أرشيف الصحيفة، وقد بحثت عنها الزميلة أسماء الأسطى ابنة شقيق الكاتب أثناء تصديها لنشر هذا الكتاب في الثمانينات، بدون جدوى.

35 - أنظر : د.م.ل، ص 1.

36 - عبد اللطيف شاهين (?-2004/8/?)

37 - يوجد بالكتاب 183ص، أهمل الترقيم منذ الصفحة 167.

38 - عبد الباسط الدلال (1935/11/11-?/?/2000).

39 – رغم اختلاف اسم الديوانين، إلا أنه يمكن اعتبار ديوان الأسطى عمر طبعة ثانية ومزيدة لديوان البلبل والوكر، مع ملاحظة اختفاء اسم عبد اللطيف محمد شاهين أحد محققي الديوان (توفي في أغسطس 2004) وقد سألتُه أثناء لقائنا في درنة عام2001، في ذكرى مرور خمسين عاماً على وفاة الشاعر الأسطى عمر، عن سبب عدم ذكر اسمه بالديوان في طبعته الجديدة التي تغير اسمها، وهل حقاً ما يشاع في بعض الأوساط الأدبية بدرنة من أنه زهد عالم الشعر، واتجه إلى التصوف والروحانيات، فأجابني بأنه لا يعرف سبب إسقاط اسمه من قبل الشاعر عبد الباسط الدلال ابن شقيقةِ إبراهيم الأسطى عمر ؛ خاصة وأن عبد اللطيف شاهين قد ذهب في عام 1967 للإشراف على طبع الديوان بالإسكندرية، وبذل في ذلك جهداً، ولاقته مصاعب ؛ وكان عبد الباسط الدلال قد توفي عام 2000 مريضاً بالأردن، فلم نتمكن من معرفة وجهة نظره للوصول إلى السبب الحقيقي .

40 – المجاهد محمد طارق الأفريقي، من أصول أفريقية، فلقب بالأفريقي ؛ ولد في نيجيريا كما يقول، وعاش في طرابلس، عني بتربيته أحد المسؤولين الأتراك، فتخرج من المدارس العسكرية بطرابلس، ثم أكمل دراسته العسكرية بتركيا فتخرج برتبة ملازم، ثم التحق بدورة تدريبية في ألمانيا ؛ التحق بحركة الجهاد، وخرج بعد صلح أوشي لوزان عام 1912 مع الضباط والجنود الأتراك، ثم عاد مع الأتراك العائدين إلى ليبيا أثناء الحرب العالمية الأولى، فانضم إلى أحمد الشريف، ثم إلى سليمان الباروني، ولما فترت حركة الجهاد تسلل إلى تونس، فقبضت عليه السلطات الفرنسية وسجنته ؛ يقول د.محمد سعيد القشاط أنه كتب جزءاً من مذكراته وسجنه في جريدة الأمة السودانية سنة 1945(!)، (وأخبرني عندما سألته، بأنه شاهد عدداً واحداً به إحدى الحلقات)، ثم في ظروف غامضة خرج من تونس وساهم في جمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي بالشام، وقدم خبراته العسكرية في حروب البلقان والحبشة وسوريا وفلسطين، وتوفي في دمشق، أنظر صورته بملابس الجزيرة العربية في كتاب : ليبيون في الجزيرة العربية لمحمد سعيد القشاط، ص 157، وبالملابس العسكرية في كتاب صفحات خالدة من الجهاد من إعداد زعيمة الباروني، ص 455، هدية إليها من زوجته وابنته إلفت مؤرخة في 1968/10/16.

41 – أنظر تعريفاً بالكاتب في : القشاط، د. محمد سعيد، ليبيون في الجزيرة العربية .- بيروت : دار السراج للطباعة والنشر، 2003، 216 ص، وبالتحديد (ص ص 157– 174) .

42 – ص ص، 4 – 5 .

43 – د.م.ل، ص ص، 147 – 148 .

44 – زعيمة سليمان الباروني (1910-1976/5/10) .

45 – للمؤلف أيضاً مخطوط في 14 صفحة بعنوان (مختصر تاريخ العائلة البارونية) جاءت رداً على سؤال تحدث فيه عن أسرته، وأصولها التي جاءت من الجزيرة العربية كما يرى ؛ وكنت قد طلبت نسخة عنها من حفيده المرحوم عز الدين إبراهيم الباروني، في عزاء والده عام 1996، فتفضل مشكورا في اليوم التالي بإحضار الأصل إلى مكتبي، وقمت بأخذ صورة عنه .

46 – ظن بعض الباحثين أن الكتابين، كتاب واحد، لذلك لم يتطرق إلا لكتاب واحد في د.م.ل، وفي معاجم مليطان، رغم اختلاف المعلومات داخلهما، كما أسلفنا.

47 – وزع الكتاب على نطاق محدود داخل عائلة بوكر وأصهارها، وطبع منه (24) نسخة فقط، كما أفادني المؤلف، وهي بتجليد فاخر ؛ وهناك رأي علمي بأن التوزيع المحدود يعتبر في عداد المخطوط، ولا يعد في المطبوع ؛ ورغبة في التعريف بهذا النوع من السير والكتابات العائلية التي ستكون مصدراً مهماً من مصادر كتابة التاريخ الليبي رأينا نشرها، للحث عليها وحتى يهتدي بها الراغبون في كتابة سير عائلاتهم وأسرهم ؛ كما نما إلى علمنا إن هناك مساهمات من هذا النوع لبعض العائلات مثل عائلة سيالة، الكريكشي، الأسطى، الكيخيا، إلا أننا لم أطلع على أي منها .

48 – أنظر : د.م.ل، ص، 314 .

49 – ورد في بعض الكتابات أنها من مواليد 3/15، وبمقابلة التاريخين الهجري والميلادي مع تحديد اسم اليوم وهو الجمعة يتضح صواب ما أوردنا، وكذلك الخطأ في تاريخ وفاتها فيكتب أنه يوم 8/ 11، وهو يوم دفنها على ما يبدو.

50 – عزيزة محمد الشيباني (1937/9/6-) .

51 – أعدت أسماء الأسطى السيرة الذاتية للسيدة خديجة الجهمي، ونشرت منها ثلاث حلقات في صحيفة (الفتح الثقافي) ؛ أنظر : أسماء مصطفى الأسطى ،"أنا خديجة الجهمي"، الفتح الثقافي، ع 6، 7، 8، (1428/4/12,3/30,3/15م [1998]، والعمل مخطوط قدم عام 2002 إلى مجلس تنمية الإبداع الثقافي ببنغازي للعمل على نشره .

52 – ورد في د.م.ل، ص 451 : أن وفاته في 1970/9/26، وقد ورد في مذكراته أنه توفي قبل يوم من وفاة جمال عبد الناصر.

53 – محمد عبد الرزاق مناع (1930-1992/9/26) .

54 – هو الألماني " مانسمان"قتل في 1916/4/10 ؛ كان قنصلاً بطرابلس قبل دخول الطليان ، ثم أصبح مندوب ألمانيا لدى أحمد الشريف يسهل عمليات الغواصات وإمداد المجاهدين بالسلاح وغيره، وذهبت توقعات الغربيين إلى اتهام إدريس السنوسي بتدبير قتله، ولكن ما ذكره المؤلف قد يجلو شيئاً من الحقيقة عن ظروف مقتله .

55 – أنظر : د.م.ل، ص ص، 273 – 275 .

56 – نشر الكاتب مجموعة مقالات عن رحلاته في صحيفة (الشمس)، بعنوان : حتى مغرب الشمس .

57 – توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية ؛ طرابلس .

58 – أبلغني المؤلف شخصياً بتاريخ ميلاده .

59 – من مقدمة المؤلف ؛ والكتاب كما نعرف يشكل رداً على ما كتبه كامل المقهور في سيرته الذاتية

(محطات)، وما اعتبره المؤلف إساءة وتشهيراً بأهل محلة الظهرة، لذلك نشر تعليق على الكتاب بقلم عزة كامل المقهور، فيه رد وتصحيح لبعض المواضيع من وجهة نظرها ؛ أنظر : عزة كامل المقهور، كي لا يعبث بتاريخنا الحديث .- صحيفة المشهد (الصادرة عن رابطة الأدباء والكتاب)، س 2، ع 28 (7. 15 . 2004) .-ص ص 6 – 7 .

60 – أنظر: د.م.ل، ص ص، 45 – 46 ؛ وأتذكر أيضاً يوم دفنه ونحن نقوم بإدراجه إلى قبره، وكان الوداع لجسد صبر صاحبه وأحسن البلاء والجهاد، فكأنها آخر الذكريات معه .

61 – أنظر: ص 176 من الكتاب .

62 – توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة / الرباط تحت رقم 1383، ونسخة أخرى بدار الكتب الوطنية / تونس، تحت رقم 1911 ؛ أنظر : إبراهيم سالم الشريف، فهرس المخطوطات بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس : م .ج . ل . د . ت، 2000، (سلسلة الفهارس ؛ 12)، ج 2، ص 166، وسبق للكناش أن طبع في المجلة المذكورة أعلاه، ص ص 106 – 114.

63 – كتيب صغير لم يرقم، والترقيم من وضعنا بعد عد صفحاته.

64 – من الغلاف الأخير للكتاب.

65 – من مدخل الكتاب .

66 – أحمد الفيتوري (1955-) .

67 – حتى أن أحد الكتاب في التسعينات ولخلاف معروفة أسبابه في الأوساط الأدبية كتب عنه مقالة بإحدى الصحف الليبية بعنوان "المنقرط" معيراً إياه بتلك البثور، فكانت حافزاً لصاحب السيرة، وبعض الكتاب الآخرين للإشادة بهذا الجدري الذي أصبح رمزاً لصاحبه يعتز به، وبحياة الفقر التي عاشها.

68 – أنظر معلومات مختصرة عنه وصورته في ص 120من كتاب : المجاهدون العرب الليبيون في حرب فلسطين 1948 (سير وأخبار)، أبوسيف بوزيد الجبو .- طرابلس : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2000، (سلسلة نصوص ووثائق؛ 31) 456 ص .

69 – من غلاف الكتاب الأخير ومقدمته .

70 – يقول المؤلف نفسه عن تاريخ ولادته بأنه بين سنتي 1927 – 1930، ولم يقطع بأمر ؛ أما تاريخ وفاته فقد ورد في هذا الكتاب انه توفي بلندن يوم 2002/1/6، والصحيح كما أوردنا، وقد يكون ذلك تاريخ دفنه بمصراتة .

71 – أما الأبواب الأخرى التي ضمها الكتاب خلاف السيرة الذاتية، فكانت حول كتبه وبحوثه والرسائل التي أشرف عليها أو ناقشها، والندوات والمؤتمرات والمحاضرات التي شارك فيها، كما تضمن نماذج من نتاجه الفكري، وحفل التأبين الذي أقيم له، والكلمات التي ألقيت فيه، كما ضم مختارات من الصور، وبعض الشهادات حوله .

72 – عند مقابلة تاريخ ميلاد المؤلف الهجري في 17شعبان 1343 بالتاريخ الميلادي أتضح أن ما أوردناه هو الصحيح، وليس كما ورد بالمذكرات، أنه من مواليد17أكتوبر 1924.

73 – صالح مسعود بويصير (1925– 1973) ؛ أنظر ترجمته في د.م.ل، ص ص 159 – 160.

74 – ذكر المؤلف انه بصدد إعداد الجزء الثاني من هذه المذكرات .

75 – د.م.ل، ص، 346 ؛ أنظر معلومات مختصرة عنه، وصورته في ص 326 من كتاب : المجاهدون العرب الليبيون في حرب فلسطين 1948 (سير وأخبار)، أبوسيف بوزيد الجبو، طرابلس : مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، 2000، (سلسلة نصوص ووثائق؛ 31) 456 ص، وقد سألته عن تاريخ ميلاده الدقيق فاخبرني بأن أسرته لم تسجله بدقة، ولكن نظراً لأن أحد أقاربه لديه ابن في سنه، وكان هذا القريب ذا ثقافة استقاها من الإيطاليين، ويحرص على تسجيل أبنائه، فمن هنا عرف بأنه من مواليد1928.

76 – في لقاء مع المؤلف مساء يوم الأحد 2004/12/5 بمزرعته في منطقة السراج بطرابلس، أفادني بأن هذا الكتاب قد فقد منه نهائياً في حريق أتى على مكتبته، وقد صدر الكتاب عام 1952 عن المكتبة السعيدية بدرب الجماميز بالقاهرة، في أقل من مئة صفحة، وجاء رداً على مزاعم الصحف المصرية ومنها الأهرام، وما كانت تنسبه من بطولات للجنود المصريين، وهي في الحقيقة من أعمال المجاهدين الليبيين في حرب فلسطين عام 1948، وقد كان المؤلف أحد المشاركين فيها وشاهداً عليها، وجاء أسلوبه في هذا الكتاب يعكس حماسه وسنه، فلما نضج، أصدر كتابه الثاني عام 1968، الذي نظر إلى الأمور بتسامح أكبر .

77 – من الكتاب .

78 – يذكر المؤلف أنه ولد عام 1329 هـ، الموافق 1909 بقرية التاج بالكفرة، والصحيح أن عام 1329 يوافق عام 1911م، إلا إذا كان يوافق سنة مالية عثمانية فالأمر يختلف، أما أسرته فقد أفادوني بأن تاريخ ميلاده كان عام 1906، ولم أتحصل على تاريخ وفاته بالتحديد رغم المحاولات العديدة مع أسرته.

79 – نظراً لعدم دراية المؤلف بالصياغة الفنية لكتابة ذكرياته، فقام المختار الهادي بن يونس بمساعدته على صياغتها، كما أفادني بذلك.

80 – أنظر : د.م.ل، ص ص 430 – 433 ؛ وأنظر : الأستاذ محمد مسعود فشيكة (1904 – 1990) : كلمات في تأبينه وبيان آثاره، تقديم وتوثيق محمد مسعود جبران.– طرابلس : م.ج.ل.د.ت، 1998إفرنجي، (سلسلة الوفاء ؛ 3)، 194 ص ؛ ولم نجد في الكتاب تاريخ دقيق لوفاته فساعدنا بعض الأصدقاء، ومن بينها اتصال بابنته .

81 – أما ما كتب على الغلافين الأول والأخير بالتفصيل فبيانه الآتي : كأنك معي في طرابلس وتونس، ينبئك عن أحوالهما أسلوباً وصوراً وتنسيقاً كأنه الشريط السينمائي الدقيق الرائع، بقلم الأستاذ

محمد بن مسعود، بمدرسة طرابلس الثانوية ومؤلف تاريخ ليبيا العام، حقوق الطبع والترجمة والنقل والاقتباس محفوظة للمؤلف، 1372هـ، مدينة طرابلس الغرب، (مطبعة ماجي) 1953 (وعلى الغلاف الداخلي كررت المعلومات نفسها، وأضيف إليها عبارة (الطبعة الأولى) .

82- عمار محمد جحيدر (1953-) .

83- لا يزال الجزء الثالث مخطوطاً، ويغطي أحداث ربع قرن، 21 محرم 1251 هـ (1835م) - 4 شوال 1277هـ (1861م) أي ما أدركه المؤلف من العهد العثماني الثاني، ونتمنى على صديقنا المحقق المجتهد : عمار جحيدر الإسراع بالشروع في إنجاز هذا المشروع .

84 - أنظر : د.م.ل، ص، 474.

85 - طبع بمطابع الثورة العربية، طرابلس .

86 - نشر في القسم الأول من يوميات ثورة الفاتح من سبتمبر تواريخ سرد حلقات قصة الثورة الليبية فكانت على التوالي : الحلقة الأولى بتاريخ 9/12، والثانية في 9/15، والثالثة في 9/30، والرابعة في 10/6، ثم في 10/14تحدث مع الإذاعة المرئية للجمهورية العربية المتحدة عن أسباب قيام الثورة وعن قصة الثورة وبدايتها، والحلقة الخامسة في 1969/11/10

87 - لم نشر إلى ما أعيد تدوينه في بعض مجلدات السجل القومي من هذه الذكريات .

88 - لم نطلع على ط ١، وهذه المعلومات أخذناها من ط 2.

89 - وصدر ملحق لهذه الرحلة، عبارة عن كتيب صغير عنوانه : رحلة القائد الإسلامية إلى أفريقيا (خطب وأحاديث)، 58 ص .

90 - مع أن هذه الرحلات الثلاث كتبت بشكل توثيقي ووقائعي، ولا تدخل في إطار نقل التجربة الشخصية المباشرة لصاحب الرحلة، إلا أننا آثرنا إيرادها تحقيقاً للفائدة .

91 - لم نحاول تتبع الرحلات الأخرى التي جاءت من خلال الزيارات الرسمية.

92 - أنظر : د.م.ل، ص ص 355 - 356 ؛ ولكن في كتبه الأخيرة كتب في التعريف به بأنه من مواليد 1942.

93 - من الطريف أن الكاتب أصبح فيما بعد أول (سفير) غير مقيم لليبيا في سلطنة عُمان .

94 - أنظر : د.م.ل، ص ص، 230 - 232 .

95 - ص 9، من الكتاب .

96 - من الكتاب .

97 - الاسم القديم لمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية قبل أن يتم تعديله .

98 - ورد في معجم مليطان أنه من مواليد 1937/12/25.

99 – طبعت الأجزاء الثلاثة بمطابع الثورة العربية .

100 – من مقدمة الجزء الثالث ؛ وقد حظيت المسارب بقدر وافر من الدراسات والمقالات النقدية والتحليلية .

101 – وقد نعته صحيفة طرابلس الغرب، ونشرت نبذة عنه في اليوم التالي لوفاته في عددها الصادر في 28 رمضان 1366 هـ، الموافق 15 أغسطس 1947 .

102 – من مقدمة الكتاب ؛ ويرى الباحث مختار بن يونس أن هذه المذكرات منتحلة، وأنها ليست من عمل المجاهد عون سوف، وقد حدثت مواجهة نقدية بمركز جهاد الليبيين بطرابلس بينه وبين الدكتور القشاط، وهو في سبيل إعداد كتاب بالرد .

103 – لم نعثر على تاريخ ميلاده، ومن خلال تخرجه من الجامعة نستطيع أن تلمس تاريخ ميلاد تقريبي له ربما يعادل عام 1951.

104 – ورد في د.م.ل ، ص ص 492، 493 إنه من مواليد 1909، والصحيح كما أوردنا، نقلاً عن الجنسية العثمانية للمؤلف (بخبشة) السلطان العثماني عبد الحميد، وتوجد صورة عنها بالصفحة 8 من كتابه "قصتي مع ثورة المليون شهيد"، وشاهدنا صورة أخرى عنها في مكتبه بمنزله بطرابلس، وتأكيد الكاتب نفسه.

105 – لا توجد معلومات ببليوغرافية عنه في د.م.ل، وورد فيه اسم الكتاب بشكل يوحي أنه كتابان لا كتاب واحد.

106 – العنوان على غلاف الكتاب "ليبي في اليابان"، أما على الصفحات الداخلية فهو "اليابان بلد السحر والجمال، مقتطفات من مشاهدات ليبي في رحلة سياحية حول العالم"، مع ملاحظة أن اسم المؤلف كتب على الغلاف الخارجي الأخير فقط ؛ زود الكتاب بصور سياحية، وقد طبع منه ما مجموعه : 000 10 نسخة حسب ما أفادني به المؤلف، خصص ريعها للثورة الجزائرية، وظهرت به صور الزعماء الجزائريين الخمسة وهم مكبلين بالأصفاد في قصة خطفهم المثيرة من قبل فرنسا، كما أورد تعريفاً بالمسألة الجزائرية .

107 – كتب مقدمة الكتاب أحمد الشقيري، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ونشر 12 صورة في، ص ص 7 – 15، من صور للمآسي التي تعرض لها الفلسطينيون، وخصص ريع الكتاب لصالح القضية الفلسطينية كما أخبرني المؤلف.

108 – من مقدمة الكتاب، ص 7.

109 – والملاحظ أن اسم الكتاب جاء على الغلاف خطأ : ذكريات في نصف قرن، والصحيح : ذكرياتي في ...الخ.

110 – زرت المؤلف في دارته بطرابلس خلف فندق المهاري يوم 2004/10/20، ومع سنه المتقدمة

(97 سنة) فقد حدثني عن ظروف رحلاته وكتابتها، وأضاف بأن له مخطوطاً تحت الطبع بعنوان (قصتي مع وعد بلفور)، يتناول رحلته إلى القدس عام 1934 ؛ وأضاف بأن له كتاباً آخر، يقوم بإعداده للنشر الزميل : محمد رجب طرنيش، يتناول رحلاته إلى 120 دولة في العالم .

111 – يبدو أن هذا الفصل قد أودى بتوزيع الكتاب داخل ليبيا، فصادرته الرقابة، لأنه يتحدث عن أسواق بنغازي عام 1984م، عندما خرج من (السجن)، فوجدها فارغة يخيم عليها الصمت، ومن بينها الأكياس العشوائية التي كانت ترمى للمشترين، إلى آخر القصة التجارية المعروفة التي لم تأخذ إلا أسطراً معدودة، مع أن الكل عاش هذه الأيام وتفاصيلها.

112 – أنظر : د.م.ل، ص 317.

113 – صمم غلاف الكتاب الفنان عبد المنعم بن ناجي(16/6/1935-18/9/2001).

114 – طباعة الشركة العامة للورق والطباعة، طرابلس ،

115 – الكتاب، ص 9.

116 – من الفهرس التفصيلي، ص ص 11 – 14.

117 – أنظر : د.م.ل، ص ص، 125 – 126 ؛ ويبدو أن سيرة المؤلف حلقات من المغامرات والاتصالات الغريبة وتغيير التحالفات، أما تدقيق تاريخ الولادة وترجمة سريعة للكاتب وصورته الشخصية، فانظر كتابه : ليبيا قبل المحنة وبعدها، طرابلس : وزارة الأنباء والإرشاد، (سلسلة الكتاب الليبي ؛ 2) الورقة الأخيرة ما قبل الغلاف، وكان المؤلف سفيراً في السودان عندما قامت الثورة عام 1969، وقام بتأليف كتيب بعنوان : اللقاء الثوري الثلاثي في الخرطوم (114 ص) بخصوص لقاء الزعماء عبد الناصر، القذافي، ونميري .

118 – أنظر : د.م.ل، ص 125.

119 – من المقدمة، والغلاف الأخير للكتاب ؛ علماً بأن جريدة "العلم" هي امتداد لصحيفة طرابلس الغرب، بعد تغيير اسمها في ديسمبر1967 .

120 – تتبدى قدرة المؤلف على السرد وتقنياته، فنلاحظ تماسك بنية النص الفنية، بلغته الأدبية، إضافة إلى البوح والجرأة التي لم نعهدها في الأعمال الليبية المشابهة، مثل انقضاض أحد الأسرى الليبيين على شاب إيطالي وسيم يلعب دور فتاة بالمعتقل نتيجة لحالة الكبت، وما حدث للأسير الليبي بعدها ؛ وبائعة هوى يهودية كانت تلوك أغنية أم كلثوم (على بلد المحبوب وديني) ودخلت للغرفة التي كان فيها المؤلف لتمارس الجنس مع أحد الجنود في حضوره، وعن غرامياته مع إحدى الممرضات الإيطاليات يكاد يصف العلاقة معها بالتفصيل في مجتمع وأسرة محافظين، في زمن ليس هو الآن بالطبع .

121 – من مقدمة الكتاب .

تفصيلات التباين

مقاربات نصية للوحات عادل جربوع

منذ القدم اتسمت لغة التفاهم الأولى بوصفها ذات طابع تصويري، يتوحد فيه الرمز والمرموز، ويتداخل عبر نسيجه المبنى والمعنى، بينما ظلت حلقة الوصل بين الفنون عند مفصل التقاء الفنان بالكون، والذات بالموضوع، والروح بالمادة. الفن لغة واللغة فن، وهي في كلا الحالين - بتعبير هايدجر - أخطر النعم.

عراجين

أي تشكيل عبثي
يقترفه هذا اللون الآثم
فيما الرسام نازلا السلالم
يصفِّر لحنـًا متثائبـًا
ويخرج منْ باب خلفي في اللوحة
شاحذًا قدميه على رصيف متخيل
ومعلقـًا حضوره الموارب
على شماعة أسفل الكادر

من ديوان الماء ليس أكيدًا / محمد زيدان.

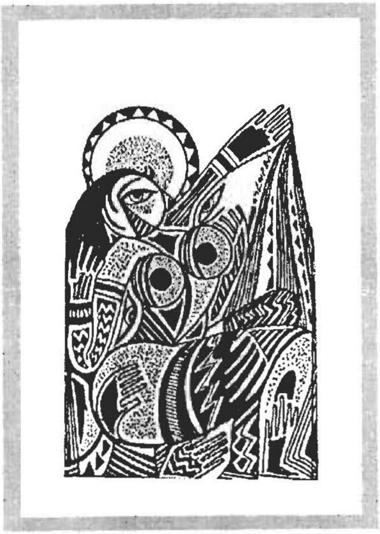






















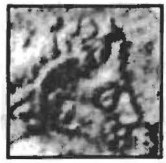








ذاكرة



خديجة عبد القادر

امرأة خارج نطاق العزلة

فاطمة غندور

هذا ما يجعل الذات تقوم بهذا السعى آخذة على عاتقها مهمة التآلف، إذ كل تآلف هو موقف تجاه الحياة والتجربة، وهذا الموقف يمثله فى أسمى معانى المخاطرةوالمجازفة وروح المبادرة

«كن أنت» نيتشه

شهدت فترة أواخر الخمسينيات وأوائل ستينيات القرن الماضى بروزًا للمرأة الليبية فى العديد من الميادين، وذلك لمواكبة إعادة بناء الدولة الليبية الحديثة.

ففى الوقت الذى عادت فيه السيدة حميدة العنيزى رائدة العمل النسائى فى ليبيا، من تركيا حيث أكملت دراستها فى معهد المعلمات، لتؤسس أول جمعية نسائية فى الفترة من 1953 إلى 1954 وذلك بمدينة بنغازى . فقد عملت كل من السيدتين رباب أدهم وماجدة المبروك بعد عودتهما من الدراسة فى الجامعة الأمريكية ببيروت عام 1958م على خطاها وليتوليا نفس مهام العمل والتوعية الاجتماعية الأهلية فى طرابس. وكانت خديجة الجهمى التى سبقت إلى العمل الإعلامى، تعمل على توعية وتثقيف المجتمع وتضم حولها نخبة الليبيات الرائدات فى مختلف المجالات خاصة الثقافية والاجتماعية، من خلال الصحافة المسموعة

والمكتوبة، فى هذا الوقت برزت خديجة عبد القادر الشريف، وهى أحد أهم رائدات العمل النسائى فى ليبيا، إذ إلى جانب تأسيسها لجمعية النهضة النسائية فى طرابلس، عملت على توثيق تجربتها الشخصية فى السفر والرحلات لتلقى العلم والمعرفة، وشهدت الفترة من 1959 إلى 1963 نشاطا صحفيا لأول كاتبة ليبية تعالج أدب الرحلات بإسلوب متفردلتنتزع اعترافا بالوجود وتخلد لذاتها مكانا متفرداً.

خديجة عبد القادر التى ولدت بشارع كوشة الصفار عام 1938 حصلت على الشهادة الابتدائية عام 1950، وتخرجت من معهد المعلمات عام 1954، لتشق بذاتها المتوثبة طريقا اختارته بملء إرادتها، وتنتزع إجابات أسئلتها، لتتجاوز حالة الحجاب والعزل المجتمعى وتخلف أوضاع المرأة الاجتماعية، ولتجنح إلى التحصيل العلمى ومواصلة الدراسة فى خارج ليبيا التى لم تتهيأ فيها الظروف بعد. وهنا برز دعم الأخ الشقيق لجهود شقيقته وهو على صدقى عبد القادر المحامى، المثقف والمناضل الوطنى الذى لا يخفى على أحد، فقد أنار الطريق أمام شقيقته التى اكتشف فيها ـ كما عبر عن ذلك ـ جسارة وحماسة وتشبع بروح المغامرة، وهى لم تنكر دور شقيقها الداعم لها وأفاضت عرفانا له بالجميل في كتابها (المرأة والريف فى ليبيا) وفى سلسة مقالاتها (ذكريات ليبية فى بلاد الإنجليز).

خديجة عبد القادر ... مخارج العزلة

تنوعت مجالات نشاط خديجة عبد القادر، لتحقق مشروعا متفردا للمساهمة فى الحركة النهضوية للمرأة الليبية سعيا لتحديث مجتمعها الليبي ، فهى أول ليبية ترشح لنيل دبلوم مركز التربية الأساسية فى العالم العربى بسرس الليان بقرية المنوفية بمصر عام 1956 مقدمة أطروحتها عن (المرأة والريف فى لييبيا) والذى قدمت عبره خبرتها وسعة اطلاعها واهتمامها المنهجى بقضية المرأة الليبية من ناحية، ولتبحث عبرها مشاركتها فى قضية المجتمع عن مخارج منطقية تخرج بها المرأة الليبية من عزلتها التى اتسمت تلك الفترة الزمنية بمحدودية دورها الثقافى والعلمى والاجتماعي.

وكان أول عمل تدعم به موقفها هو تأسيس جمعية النهضة النسائية في طرابلس عام 1958 وأسندت مهمة التأسيس القانوني من نظام أساسي ولوائح عمل إلى شقيقها علي صدقي عبد القادر المحامي، كما قامت بتأسيس مكتبة دار المعلمات عام 1960 التي

اشتغلت أمينة لها، وعبرها استطاعت أن تنمي دور المكتبة في تثقيف المرأة الليبية ولتساهم بذلك في شعبية وانتشار ثقافة القراءة بين النساء.

وقد اعترف المجتمع الليبي بادوار خديجة، وتم اختيارها لتمثل بلادها في الحلقة الدراسية التي عقدتها منظمة اليونسكو بالتعاون مع مركز تنمية المجتمع التي عقدت في مصر عام 1959 لتقدم بذلك أنموذج الفتاة الليبية المتطلعة إلى تحقيق ذاتها، ولتنجز مشروعها الأول نرصد تجربتها في إصدارها الأول (المرأة والريف في ليبيا).

ليبية في بلاد الإنجليز.

* فصل آخر يشي بالدهشة والتشويق، ويرصد مدونة خديجة عبد القادر في رحلتها الثانية بعد حصولها على منحة دراسية في مجال علم المكتبات في المجلس الثقافي البريطاني، وذلك خلال عام (1996 - 1963)، ولم تكتف خديجة عبد القادر في رحلتها هذه بتطوير قدراتها في علم المكتبات فقط، بل عملت على اكتشاف المجتمع المغاير، ونقلت عبر مذكراتها التي نشرتها تباعًا صحيفة طرابلس الغرب على نقل صورة بصرية للحياة اليومية والاختلافات المجتمعية الجوهرية لمجتمع متحضر متقدم.

* وكسبت خديجة في إسهامها الثقافي المتميز (ليبية في بلاد الإنجليز) مصداقية المرأة الليبية وموضوعيتها في التعامل مع الواقع وإن اختلفت تفاصيله، ويبدو ذلك في انفتاحها وتسامحها الإنساني الذي برز في كتاباتها عبر تعبيرها عن شخصيات صادفتها من مختلف الجنسيات والأديان والتخصصات.

واحتفاء بالدور الريادي الاجتماعي والثقافي والصحفي للكاتبة الرائدة «خديجة عبد القادر» تقدم عراجين في ذاكرة « ذكريات ليبية في بلاد الإنجليز».

ذاكرة



ليبية في بلاد الإنجليز

إنطباعاتي عن بلاد الثلج والضباب والعادات

خديجة عبد القادر

حلقة 1

الزمان : إحدى عشيات أوائل شهر أغسطس، كتب على ورقة التقويم أنه يوم الأحد 1961/8/6م.

المكان : مطار إدريس الدولي بطرابلس، حيث ننجز إجراءات السفر الرسمية، سمة الخروج جواز السفر يرى في يد كل مسافر، حقائب مختلفة الألوان تذاكر الطائرة شهادة التلقيح، وماهى إلا لحظات حتى وجدتني أسير بإرادة لا واعية في مجموعة من المسافرين تضرب الأرض بكعوب أحذيتها في خطوات سريعة في اتجاه الطائرة الرابضة. كان يصل إلى أذني بوضوح طرق كعوب السيدات المسافرات ترك في نفسي إحساساً غير واضح قد يكون الإحساس بالسفر بالوداع بالغربة مسبقاً بأشياء أخرى. وصعدت سلم الطائرة وكانت تحيات من المضيفة توزعها بأعلى السلم علينا أصابتني منها إيماءة وبسمة وتحية، وظل الإحساس غير الواضح مصحوباً بطرقات الكعوب يلح عليّ بكل ما فيه من كثافة

* نشرت الأستاذه خديجة عبد القادر ذكريات رحلتها «ليبية في بلاد الإنجليز» بجريدة طرابلس الغرب مسلسلة اعتبارا من يومم الأحد 162/11/11، وانتهت الجريدة من نشرها بتاريخ 163/6/30. وتعذر على الأستاذة/ فاطة الغندور التي أعدت هذه الذكريات العثور على بعض الأعداد التي تناولتها.

تتصارع خلاله العوامل السلبية والإيجابية وأنا أجلس قرب النافذة بجوف الطائرة كأني أداة من أدواتها، كان ذلك كله بالرغم من أن سفريتي هذه لم تكن الأولى بل سبقتها سفرياتي الكثيرة إلى الشرق والغرب، وفي الجو بدأت تختفي عن عيني مزارع الزيتون والنخيل وسطوح المنازل البيضاء وقباب المساجد لتحل محلها سحب كأكوام القطن المتناثرة وعلى صوت المضيفة ذات الرداء الأزرق إلتفت فناولتني منديلاً مبللاً بماء الكولونيا لمسح الوجه واليدين للشعور بالإنتعاش وتلطيفاً لحرارة الجو الذي يبلغ أشده في هذا الشهر بليبيا وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط واستمرت الطائرة تنشر جناحيها للريح، وانبعث صوت نسائي يتمنى للمسافرين رحلةً طيبةُ ذاكراً نوع الطائرة واسم قائدها وسرعتها وارتفاعها عن سطح البحر وموعد وصولها إلى لندن بعد تحليق مداه خمس ساعات، وتتابع تقديم الوجبة الخفيفة المألوفة للركاب، ولاحظت أن أغلب المسافرين نساء ورجالاً من ذوي الملامح السكسونية التي تتميز بإحمرار البشرة وزرقة العيون وصفرة الشعر وارتفاع في مقدمة الأنف أحياناً، بعضهم نسى وجوده في كتاب أو صحيفة، وبعضهم استسلم للنوم، ومنهم من أذاب نفسه في زجاجة كحول وسيجارة، وعرفت من بعد أن كثيراً من أفراد الشعب الإنجليزي لا يفضلون في ساعات راحتهم عن الخمر شيئاً، ولعل بعض ذلك راجع إلى طقسهم البارد المتجهم الذي يهربون منه عبر فقاقيع الكأس.

وظل الصمت يعم أركان الطائرة لأن الإنجليز كعادتهم لا يتكلمون إلا همساً إن تكلموا، ذلك أنهم يفضلون القراءة أو النوم فالوقت ثمين يجب الاستفادة منه فكرياً أو صحياً، إذ المعروف أنهم غير ميالين لتحريك ألسنتهم بالكلام، كأن الطائرة في سباق مع الزمن ومع الشمس في آن واحد، السباق الزمني جعلنا نكسب ساعة نضيفها لوقتنا عندما آخرنا عقارب ساعاتنا ستين دقيقة حسب توقيت لندن الصيفي أما السباق الشمسي فيتمثل في ملاحقتنا للشمس باستمرار في مدارها اللا متنا هى وهى هاربة، الأمر الذي جعلنا ندركها بلندن بعد توقيت غروبها بليبيا بساعتين تقريباً استمر الطيران أكثر من خمس ساعات وفي اتجاه خطوط العرض الشمالية وقبل موعد وصولنا إلى لندن، بدأت السحب الشهباء تتكاثف شيئاً فشيئاً والجو يبرد نسبياً في فصل الشتاء هكذا كل شئ بدأ يتغير الجو، الطبيعة، الركاب، صارت أيدي المسافرين تمتد إلى المعاطف الصوفية لتستقر على الأكتاف

وحتى المظلات أثبتت وجودها بيد كل مسافر، بينما في بلادي تقام المعاطف والمظلات في كسل بخزائن الملابس في هذا الفصل وتخرج ألسنتها لأشعة الشمس في تثاؤب وكسل، لقد توقعت أن يكون جو لندن أبرد قليلاً من جو طرابلس، ولكن لا يعني ذلك أن يكون فصل شتاء بالنسبة لنا سكان ليبيا.

إن السفر من طرابلس إلى لندن يعني أكثر من انتقال مكاني من مدينة لأخرى يعني انتقالاً فصلاً من فصل صائف إلى فصل شات خلال ساعات خمس لقد بدأنا الرحلة الساعة الرابعة عشية من طرابلس والمضيفة توزع علينا المراوح المصنوعة من الورق، ريثما تبدأ التهوية التي تتساقط علينا نسماتها من ثقوب الطائرة تلطيفاً لحرارة الطقس ولكننا ونحن نقترب من الشتاء في آن واحد.

وهبطت الطائرة بمطار لندن والساعة تشير إلى العاشرة مساءاً حسب توقيت لندن، وبالرغم من ذلك فإن ضوء النهار لا يزال مشعاً ولولا تلبد السماء والغيوم وهطول الأمطار لكانت الشمس ساطعة، نزلنا بمطار لندن وهو يعتبر مدينة لوحده لضخامته، تجوبه سيارات الباص بركابها، وترتفع بداخله المباني والمنائر والأبراج وتتفرع به الطرق تتخللها الأشجار والأزهار والحدائق الصغيرة، ونزلت فيمن نزل من الطائرة ونحن نهرول تفادياً من بلل المطر المنهمر متلففين بمعاطفنا وناشرين المظلات على رؤوسنا، وتمت جميع إجراءات الدخول الرسمية بسرعة ونظام ونحن في طابور طويل يسوده الهدوء وكانت كلمة شكر تتكرر وتسمع بوضوح من الموظف الرسمي أو الموظفة وتسلم الجميع حقائبهم ولم تفتح أية واحدة منها، غير أنني لاحظت أن أحد رجال الجمارك طلب من أحد الإنجليز أن يرى ساعة يده الصغيرة التي في معصمه فناوله إياها فقلبها بين يديه لحظة ثم أعادها إليه ومعها كلمة شكراً شكراً .. لقد كان المطار به عدة محلات تجارية تغص بالتحف التذكارية الجميلة والروائح وأشياء أخرى مختلفة ومكاتب للاستعلامات وتحويل العملة ولحجز نزل بالهوتيلات من أية درجة شئت، أقلتنا سيارة شركة الطيران إلى مكتبها بالعاصمة البريطانية وأخذت تسير على شمال الطريق كما ينص على ذلك نظام المرور بإنجلترا والسير على الشمال لا وجود له إلا بإنجلترا وبعض بلاد ما وراء البحار التابعة لها أو في السويد، والإنجليز على استعداد لأن يخالفوا العالم كله في أى نظام إن وجدوه يغير من عاداتهم وتقاليدهم، لذلك نراهم يخالفون النظام العشري السهل في نقودهم ويجعلون

الشيلن به اثنى عشر بنساً، ولا يزالون يحافظون في مقاييسهم على الياردة والقدم والبوصة وفي موازنتهم على الباوند بينما العالم كله تقريباً يستعمل المتر والكيلو والنظام العشري، كانت السيارة تجري وحبات المطر تتعقبها وتطرق النوافذ الزجاجية في إصرار وطريق الأسفلت المغسول بالمطر يلمع تحت مصابيح الشارع التي أوقدت لتوها، كنت أرى ذلك على صوت مثقب التذاكر التي يستعملها الكمسارية التي كانت لا تمل من ترديد كلمة شكرًا شكرًا باستمرار وهي تطوف على الركاب وتحتضن آلة صغيرة بها النقود المعدنية، كل فئة وحدها للشرعة في عد النقود ولتفادي إضاعة الوقت.

الحلقة 2

واستمرت السيارة في طريقها تشق الشوارع والميادين المكتظة بالعابرين وقد أخذت أنوار النيون الملونة للإعلانات تضيء وترتعش في حركات مختلفة إلى أن توقفت أمام شركة الطيران حيث استقبلتني أنسة إنجليزية تحمل في ساعدها شريطاً كتب عليه بالحبر الأسود "المجلس الثقافي البريطاني" وبيدها ورقة كتب بها معلومات عني وعليها اسمي ونادتني بلكنة إنجليزية لتتأكد من أنني أنا الموصوفة بالورقة التي بيدها، ورحبت بي وانتشرت على وجهها بشاشة رقيقة لدرجة جعلتني أشعر كأنها تعرفني من قبل، وأخذ صوتها يصل إلى في حديث ودود جعلتني أحس بأن لفظة الغربة فقدت خصائصها المميزة، ركبنا سيارة تاكسي وقادتني إلى أحد الهوتيلات بمنطقة "كنسنجتن" التي تعتبر من المناطق الرائعة، وكانت الورود المصطبغة بالألوان الزاهية تبدو في كل مكان بجنينات البيوت بمحطات القطار، بأبواب الكنائس. قطعت الطريق في حديث مع فتاة دانمركية تسافر في نفس الاتجاه تزور إنجلترا كعادتها في صيف كل سنة خلال العطلة المدرسية وعندما وصل القطار مدينة إكسترا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر وجدت في انتظاري مديرة المدرسة التي سألتحق بها بسيارتها وقد أخذتني إلى بيت العائلة الإنجليزية التي سأقيم عندها لمدة شهر طيلة مدة وجودي بهذه المدينة، ويبعد عن المدرسة بحوالي عشرة دقائق سيراً على الأقدام، هكذا قالت لي المديرة، وهى سيدة وقورة طيبة وقدمتني إلى ربة البيت التي تدعى السيدة فريزر وهى سيدة عملاقة ذات عينين زرقاوين تجاوزت عقدها الرابع ولكنها أمرأة ديناميكية مشحونة بالنشاط والحركة، إنها أم لبنتين تشتغلان بالتمريض إحداهما بأمريكا والثانية بلندن وتقيم مع زوجها بنفس البيت يشغلان بعضه،

ويؤجران بعضه الباقي إلى الطلبة، عمل زوجها بالجندية خلال الحرب الأخيرة، أما الآن فهو موقف لا ينفك يجتر ذكرياته عن الحرب ويطالع بشغف كل ما يكتب عنها من أسرار، إنه رجل هادئ الطبع كثيراً ما يحبسه الكتاب بأحد أركان مكتبة البيت ويتسلى بمشاهدة التليفزيون وهوايته هى ممارسة لعبة كريكت بأحد النوادي الرياضية المشترك فيها بعد عودته من عمله الرسمي بالتوظيف الذي يقضي به ساعات نهاره من الصباح حتى الساعة الخامسة عشية، يومياً عدا يومي السبت والأحد المعتبرين عطلة نهاية الأسبوع كما يسميها الإنجليز، وتسري هذه العطلة على جميع المكاتب الحكومية والمحلات العامة الكبرى، وهذا يدل بجلاء على ارتفاع مستوى المعيشة.

الحلقة 3

وبعد أن رحبت بي ربة البيت أخذتني إلى غرفتي التي سأقيم بها وهى تقع بالطابق الأول ذات أثاث قديم بسيط ولكنه أنيق وجميل ثم طافت بي في جميع أركان البيت وأبهائه وتقف بي أمام كل تحفة أو صورة تذكر لي تاريخها وتاريخ واضعها وقيمتها الحضارية وماذا تمثل ولم تنس أن تتحدث عن كلبها الذي مات وخصاله النادرة التي لم تجتمع في كلب غيره كما تقول وأنه ينحدر من أسلافه المعروفين العريقين في النسب، وشيئاً من تاريخ شجرة الورد التي غرست بمدخل البيت والتي جئ بها من الشرق من وراء البحار.

وتقفل المدينة:

وعند الساعة الخامسة والنصف مساءً بدأت ربة البيت تطوف حول المائدة بعد أن مدت الخوان في حركة سريعة ورشيقة تعد وجبة المساء المكونة من قطعة لحم وبيض وشاى ولبن وبسكوت وزبدة ومربى وقطع من الحلوى، ما أن دقت الساعة حتى كان عددنا متكاملاً ؟ محلقين حول المائدة. لقد جمعت المائدة طالبات من ألمانيا وسويسرا والبرتغال وربة المنزل وزوجها وأخذت مكاني بينهم وأيقنت أنها وجبة العشاء ثم أخذت ربة البيت تتمتم بصلاة قصيرة هامسة وهو تقليد يقوم به كثير من الإنجليز قبل تناول وجبة الطعام، أنه صلاة شكر الله على نعمائه وخيراته، إن الساعة السادسة والسابعة تعنيان ساعتا العشا لدى أغلب الأسر البريطانية التي تذهب إلى مضاجعها للنوم ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة ليلاً إنه الوقت الذي تغلق فيه دور السينما والمسرح أبوابها باستثناء النوادي الليلية التي تستمر مفتوحة حتى الصباح .. حقاً إن ربة البيت سيدة نشطة إلى أبعد حد

استطاعت أن توفق بين عملها كربة أسرة وكصاحبة بيت للطالبات وزرعها وغرس بعض الخضراوات البسيطة التي تستعملها في المطبخ وهذا كله لا يحرمها من نصيبها في المطالعة والدرس من أجل الثقافة العامة حتى لا تتخلف عن موكب المعرفة وعن عصرها الذي يسير دائماً ولا يتوقف وهي لا تنسى الترفيه عن نفسها بالبيت وخارجه في بعض الأحيان.

- السقوف المدببة والآجر الأحمر -

وهذا كله يرجع الفضل فيه للآلة والتخطيط في حياة الإنسان المعاصر فالمرأة بإنجلترا بلغت بالآلة والتخطيط هذا المستوى المعيشي الأرفع، إنها تباشر كل شئ بالآلة تستعملها في التنظيف في الطهى في الفلاحة في جميع مرافق الحياة، بالإضافة إلى عامل التثقيف وهو عامل جوهري حاسم في الميدان العام والخاص.

إن الاعتماد على التخطيط لدى المرأة مكنها من تنظيم وقتها وبيتها ومن خلالهما تنظيم مجتمعها مما جعلها تستغل وقتها وتمنع التفاهات من امتصاصه بعد أن ألغت من حياتها صفة التكرار والاجترار.

لاحظت أن الفن المعماري يختلف عن فننا في شكله وفي مظهره الخارجي. إن شكل فنهم المعماري جعل سقوف المنازل والأبنية مُدببة في هيئة زاوية منفرجة حتى يسهل ذوبان الجليد عند سقوطه بالشتاء وحتى لا تتجمع الثلوج. وهذه الهندسة المعمارية متبعة في أغلب مباني أوروبا منعاً لتكاثف الجليد وانحباسه. أما المظهر الخارجي لهذه المباني فهو المسحة السوداء التي تغطيها ولعل ذلك سببه راجع لكثرة المصانع والمعامل وما تنفته مداخنها من ذرات سوداء ولما ينتشر في الجو من دخان القطارات والبواخر، والقوم هناك يرفعون جدرانهم بالآجُرّ المرصوف بعضه فوق بعض وتبدو فواصل الآجُرّ ذات الخطوط الأفقية والعمودية وكأنها تشكل مظهراً من مظاهر الزينة، أما النوافذ فهي زجاجية وليس بها أبواب من الخشب أو شبابيك من الحديد كما هو الحال عندنا للوقاية من حرارة الشمس اللافحة خاصة في فصل الصيف. وذلك أن الجو بإنجلترا دائماً قاتم مظلم من كثرة الغيوم واحتجاب الشمس وهذه النوافذ الزجاجية تجعل سهرات الأسر الإنجليزية سهرات مفتوحة تبدو للرائي عابر الطريق من خلال الضوء المنبعث من زجاج النوافذ الخالية من الأبواب ويظل معروفاً امتداد سهرة أية أسرة باستمرار الضوء خلف الستائر.

- أعياد الشمس -

إن الشمس لا تطلع إلا في أيام الأعياد، وأقصد بأيام الأعياد الأيام التي يحتفلون فيها بطلوع الشمس لأنهم يجعلون منها أعياداً فطلوعها يكفي لإقامة العيد ويتحدث عنها الجميع الكبير والصغير بالشارع والبيت، عن الساعات المشمسة الجميلة حتى أن معظم الإنجليز حين يبدأون حديثهم يفتتحونه بالسؤال مثلاً : اليوم الشمس مشرقة أليس كذلك، الطقس جميل أليس كذلك إن هذا السؤال التعجبي بالنسبة لي يبدو غريباً وأنا التي اعتدت أن أرى الشمس دوماً ساطعة بطرابلس تمدنا بدفئها الذي يبعث حرارة الحياة والنشاط وعندما سمعت هذا التعجب لأول مرة قلت لنفسي ماذا حدث بالجو والشمس فالطقس دائماً جميل والشمس وظيفتها أن تسطع ولكنني في الحقيقة نسيت أن أضع في حسابي أن خط العرض الذي يمر بلندن وطبيعة هذه المدينة تجعل من إشراقة الشمس حدثاً سعيداً يملأ كل بيت ويصنع فرحة تتحول إلى بسمات على الشفاه كل الشفاه.

ويذهبون إلى أكثر من ذلك فيعرضون أجسامهم أطفالاً وشباباً وشيوخاً بحدائق البيوت الخاصة والحدائق العامة الجميلة الفسيحة ذات الورود المختلفة الأشكال والألوان وما أكثرها بإنجلترا مثل حديقة الهايد بارك وجيمس بارك ليربطوا حياتهم اليومية بحياة الطبيعة أُمنا الهادئة الجميلة. إن الشمس في إنجلترا تعني أكثر من الشمس في مفهومنا نحن أبناء بلاد الشمس الصافية، الشمس عندهم إله عظيم جدير بالعبادة عندما يتفضل ويظهر في شكل أشعة شمسية تدفئ وتضئ لذلك نراهم يستقبلون هذا الإله بالمتنزهات العامة وعلى شواطئ الأنهار والبحيرات في مجموعات كبيرة هائلة بعضهم متمدد على الحشائش يجتمع في حلقات عائلية يأكلون ويشربون ما حملوه من زاد أما الأطفال فإنهم لا يكفون عن القفز والضحك ومعابثة البط السابح في الماء وركوب الأراجيح المنصوبة في كل مكان.

الحلقة 4

الشعب الإنجليزي من مميزاته اللطف الذي يقدمه لك في صحن به برودة طقسهم وفي شكل جاف باعتباره جزءاً من طبيعتهم، وهذا اللطف خلية من الإلحاح والتكرار المعروفين للشرق... فهو عندما يقدم لك مساعدة لا تنفرج أساريره إلا بقدر، ولا تتحول بسمته إلى ضحكة إلا في حالات خاصة، فمن السهل على الغريب في بلاد الإنجليز أن يجد نفسه على

الطريق ويمارس حياته الجديدة وينشط في عمله لما يلمسه من أفراد الشعب هناك من مساعدات في كل مكان في البيت في الشارع في مدرج الدراسة في مختلف القطاعات ... ولكنه يجب عليه أن يضع في حسابه وقت الإنجليز الذي يحافظون عليه كشئ ثمين، ولذلك يتحتم أن يتجنب مضايقة المشغول في عمله بالأسئلة ولا يطمع منه بالمساعدة وقد حدث لي مرة أنني حاولت سؤال بائع الصحف عن شئ ما في حدث في شوارع المدينة - وايت هول فما إن علم أنني مصممة على سؤاله حتى أشاح بوجه قائلاً لي بلهجة إنجليزية مقتضبة ليس لدى وقت للأسئلة، وظللت أتذكر هذا الموقف في كل مرة عبرت ذلك المكان كانت تقع عيني عليه وهو يرتدي كامل ملابسه كأى مواطن عادي بالرغم من أنه بائع صحف بسيط ولم تخل رقبته من ربطة العنق وسترته من المنديل الأبيض المتفتح على صدره الأيسر ذو وجه طويل تتجمع الحمرة حول أنفه وملامحه سكسونية ١٠٠٪.

- لغتهم .. و .. -

ومما لاحظته على الشعب الإنجليزي أنه زاهد في تعلم لغات غيره من الشعوب فهو لا يخاطبك إلا بلغته العامرة بمثله من الباعة ولكنه ما أن ... ويفترض في أى زائر لبلاده أن يكون ملماً بلغته وتاريخه بل وتقاليده التي ظلت ثابتة على مرور الزمن، لا يدركها التغير ولا يحاول فهم الذي لا يجيد لغته والطريف أن أحدهم وصف قومه بالكسل لعدم تعلم اللغات الأخرى هذا بالنسبة للطبقات الشعبية أما الطبقات الأخرى ذات الاختصاص فإنها تدرس دائرة إختصاصها في عمق وروية وتطلع على تاريخ اللغات الأخرى حتى لهجاتها المحلية وعاداتها وأمثالها الشعبية تكون موضع تعليق ودرس وتأصيل تاريخي.

- وكسبت اسماً -

فالإنجليزي يجد صعوبة بالغة في نطق الكلمات غير الإنجليزية حتى أن ربة البيت التي أسكن عندها حاولت مراراً نطق أسمي ولكنها كانت في كل مرة تتناثر حروف اسمي من زاويتى فمها وتنفجر ضاحكة لأنها عجزت عن النطق الصحيح، وتعتذر السيدة فريزر الطيبة عن ذلك وهى لا تخفي تعجبها من قدرة العرب على نطق اللغة الإنجليزية وعجزها هى عن نطق كلمة عربية واحدة فقط. ثم قالت : ألا يكون اسم كاترينا يشبه إلى حد بعيد اسم خديجة، ومن بعد صارت تخاطبني بهذا الاسم المستعار.

إن أغلبية الإنجليز والأوروبيين عموماً لا يعرفون عن العرب والمسلمين شيئاً يذكر أو يظهر أن لفظة العرب عندهم لها إيماءات أسطورية تصلح لكتاب ألف ليلة وليلة من جديد، ولها ترابط في الوقت نفسه بأشياء تافهة كقصور الحريم وحلقات مجالس الأفيون، ولا ينفكون يسألون بإلحاح عن تعدد الزوجات ومضارب الرمال والخيام لأنهم سمعوا من خلال أحداث الحرب العالمية الثانية بأن البلاد العربية صحراوية يتخيلون أن النمور والأسود والفيلة تتجول في مدنها وتعيش مع الإنسان العربي بموجب معاهدة غير مكتوبة لأن العرب أميون، هكذا يتخيلون بتأثير الشباب الصهيونيين الذين لا يتورعون عن أن يصوروا العرب كقبائل المتوحشين آكلة لحوم البشر، وهم يعيشون هذه الصورة البشعة لتغطية جرائمهم في فلسطين ونشاطهم هذا امتداد لخطة منظمة قررتها الصهيونية باعتبارها مذهباً عنصرياً كالنازية والفاشية، ومما يؤسف له أن افتراءات الصهاينة تجد طريقها لآذان الناس بواسطة الصحافة والإذاعة والتليفزيون وبأموالهم وأشياء أخرى استطاعوا أن يشتروا بها الضمائر المتعفنة ليؤثروا على بسطاء الشعب الطيبين، وليفسدوا عليهم وجدانهم وهم لا يعرفون شيئاً عن العرب الذي كانوا في أجيال مضت لهم دور قيادي في العلم غمروا الدنيا بعطائهم الحضاري السمح، والحقيقة أن صوت الدعاية الصهيونية النشاز انفرد بالقوم هناك، واللوم في هذه الحالة على الحكومات العربية التي لم تعمل بشكل جاد ومنظم على تكذيب الإفك والترهات، إن الحقيقة الواحدة التي وصلت إلى أهل تلك الأرض أن بلادنا تنتج البترول ولكن حتى هذه الحقيقة لم تسلم من حبكة الأساطير والخرافات أنهم يفترضون في العربي الذي يرونه أنه غني وصاحب حقول بترول بل يكادون يعتقدون إننا نزرع الذهب في حقولنا بدل حبوب البقول.

الحلقة 5

عندما غادرت مدينة "اكستر" التى بقيت فيها شهراً إلى لندن كانت صاحبة البيت الذى أقمت به، أبت إلا أن ترافقنى للمحطة وراحت تلوح لى بمنديلها حتى غاب عنها القطار فى أحضان الأشجار الشامخة.

من الألف إلى الياء

وعند وصولى إلى لندن وجدت فى انتظارى آنسة من المجلس الثقافى البريطانى (الدليلة) فارعة الطول ذات عينين تتلاطم فيهما زرقة ماء البحر وشعر أشقر اتجهت لى

وكعب حذائها يطرق الأرض طرقاً متتابعاً وهى تسألنى: هل أنتِ الفتاة الليبية؟ بعد أن شقت الزحام من كثرة الناس بمحطة القطار وهى تعتذر عن عدم تمكنها من رؤيتى فى اللحظة الأولى وبسرعة البرق انحنت على حقيبتى وحملتها ووقفت بالطابور لنركب التاكسى على زندها شريط به: المجلس الثقافى البريطانى ليدل عليها وفى يدها كتاب دليل لندن، الكتاب المعروف الذى يسمى لندن من الألف إلى الياء وبه خريطة لندن وجميع الشوارع وكيفية الوصول إليها بجميع طرق المواصلات السيارات وقطارات تحت الأرض مع بيان أرقامها ومواعيدها. إن لندن كبيرة جداً وهى لوحدها عالم بحاله، فيها كثير من المجاهل التى يحتاج اكتشافها وارتيادها لعمر طويل بدون نوم وحتى الإنجليز أنفسهم لا يمكنهم السير فيها دون استعمال الدليل والخريطة كتاب-لندن من الألف إلى الياء وهذا الكتاب لا يخلو منه جيب أى إنجليزى أو أجنبى فى لندن وتجده يتمدد فى أبرز مكان بالبيوت والمتاجر ليكون فى متناول أيدى الجميع إنه يدلك على المسارح والمتاحف والمكتبات والعيادات الطبية والنفسية والفنادق ودور السينما والملاهى والنوادى ومواعيد المواصلات البرية والبحرية والجوية والمقاصف والمطاعم ودور السفارات والصحافة والتسعيرات لمختلف الأشياء واختصاصات مصالح الحكومة.

ما عليك إلا أن تفتحه على أية صفحة لترى الدنيا بكل أعاجيبها ومفارقاتها بوجهها الساخر عندما ترى على صفحة إعلان لحانوتى يبيع توابيت الموتى وبجانبه صورة عارضة أزياء تعلن عن أجمل فستان لعروس الموسم.

- تكاد تميل -

ظللت فى لندن طوال سنة دراسية كاملة، لندن التى تميل بملايينها التسعة من البشر بسبب الثقل وهى أضخم عاصمة بأوربا، يبدأ فيها العمل من الصباح وحتى الساعة السادسة وتستمر المتاجر والمحلات العامة مفتوحة طوال النهار باستمرار والناس يمشون سراعاً بل يجرون بين الشوارع والأسواق والمحلات العامة يلهب ظهورهم زمن المواعيد المحددة التى لا ترحم، فالأعمال والأسواق والمتاجر والمواصلات لها توقيت بل حتى جلوس العائلة حول المائدة له ميقاته المضروب.

- التذاكر قبل أشهر -

فالناس هناك لا يعرفون ما يسمى بالمفاجأة أو العفوية لقد أصبحوا عبيداً للنظام ولم يستعملوا النظام عبداً لهم، النظام يجعل مواصلات مدينة لندن تتوقف فى أيام الآحاد والأعياد قبل موعدها فى الأيام العادية بساعة، وكان المستحسن أن يمتد زمن عملها فى أيام الأعياد أكثر من الأيام الأخرى لأن الناس فى العطلات يتزاورون ويسهرون - النظام يجعل المسارح تبيع تذاكرها قبل ثلاثة أو أربعة أشهر وأننى لأذكر أننى حجزت تذكرتين لى ولأخى (على) قبل أن يحضر إلى لندن بثلاثة أشهر لسماع سيمفونية الموسيقار الألمانى بتهوفن فى أعظم مسارح لندن وأفخمها (فستغال هول)، وقد حضرت ملكة بريطانيا إليزابيث لمشاهدة مسرحية ما كبث للشاعر الإنجليزى شكسبير فى مسرح أولدفك المخصص لمسرحيات شكسبير فقط.

- الطوابير الطويلة-

وإدعاء النظام جعل المسارح هناك تبدأ حفلاتها الساعة السابعة والنصف مساءً وتنتهى قبل العاشرة والنصف، ومعنى ذلك أن زوار المسارح يخرجون منها والشمس لم تغرب بعد صيفاً، أما دور السينما والمطاعم فإنها تغلق أبوابها قبل الساعة الحادية عشرة ليلاً باسم النظام، النظام هذا الغول الذى يتحكم فى القوم هناك، أما نظام الطوابير التى نراها لمحطات الباص وأمام بوابات المحلات العامة حيث يقف الناس وقتاً طويلاً فى انتظار دورهم من غير ضجر أو تبرم وقد أخرج كل واحد من جيبه كتاباً أو صحيفة يقرأها فى انتظار الدور دون أن يحيد عن وقفته فهو شئ مألوف عندهم بل هو يشكل جزءاً من طبيعتهم.

الحلقة 6

ظلت الدليلة معى ترافقنى فى كل ساعات النهار ثلاثة أيام حجزت لى سكناً فى بيت الطالبات بلندن لمدة شهر ثم بحثت لى عن بيت آخر للطالبات قريب من الكنيسة التى أدرس بها وحجزت لى مقدماً سكناً به، إن عادة الحجز قبل الميعاد يتبعها القوم فى كل شئونهم

الحياتية فى المسارح فى الحفلات حتى فى العيادات الطبية عليك أن تحجز مكاناً قبل مدة طويلة لأن الطابور هو كل شئ فى حياة الإنجليز.

- عضوة شرف -

زرت المجلس الثقافى البريطانى الذى يتربع فى عمارة كاملة بلندن وهو بمثابة خلية نحل تسمع خفقات الألة الكاتبة من كل مكان وترى الساعين بالأوراق والملفات يملأون ممراته فى حركات عجلى نشيطة يعج بالموظفين أغلبهم من بنات حواء اللاتى دخلن جميع مرافق الحياة وكثيراً ما ترى فى غرف الانتظار مجموعات من الطالبات والطلبة من مختلف بلاد العالم كل مجموعة مع مسئولة خاصة بهم تتولى شئون بعثتهم ودفع مكافآتهم وإسكانهم وتنظم الزيارات والرحلات لهم والعمل على راحتهم وحل مشاكلهم وبالتإلى كتابة تقرير سرى عن حياة كل واحد وسلوكه، ومدى استفادته من البعثة الدراسية واستقاء المعلومات الصحيحة من المدرسين والمحاضرين والمديرين بالكليات التى يدرس بها الطالب، والمجلس الثقافى لا يتأخر عن إنهاء بعثة أى طالب لم يستفد من الدراسة أو كان سلوكه معيباً وذلك حفاظاً على المستوى الأرفع الذى يجب أن يحافظ عليه المبعوث وبمبنى المجلس قادتنى السيدة الإنجليزية إلى مكتبها حيث طرحت أمامها ملفاً يحمل غلاف اسمى وهى تردد الجملة المألوفة باللغة الإنجليزية التى تقال عند اللقاء: يسرنى أن اجتمع بك. إن هذه الآنسة الطيبة هي التي كانت مسئولة عني طوال عام وجودي بانكلترا، إنها تعلم عني كل شيء بل تعرف الكثير عن بلدى واستمرت تقول والبسمة تنتشر على وجهها إنها على أتم استعداد لتقديم أية مساعدة وحل أية مشكلة ويسرها أن يكون الاتصال بها مستمراً سواء شخصياً أو بالتليفون أو بالكتابة وأضافت قائلة إن طبيعة عملها هو مساعدتى، ناولتنى بعض الرسائل الخاصة بى من قبل مكتب الأخبار الذى أجرى معى تحقيقاً صحفياً فيما بعد نشر على صفحات جريدة المحرر بطرابلس الأسبوعية الصادرة باللغة الإنجليزية فى خريف ١٩٦١م على الصنداي قبلى وعلى الصحف البريطانية بإنجلترا، ورسالة تتضمن تسجيل حديث على شكل سؤال وجواب باللغة الإنجليزية واللغة العربية وقد تم تسجيلهما فيما بعد الأول أذيع فى البرنامج الإنجليزى بالإذاعة البريطانية والثانى

بالبرنامج العربى من إذاعة لندن ورسائل أخرى من جمعيات نسائية ومؤسسات اجتماعية وهيئات منها جمعية التاج النسائية التى ألقيت بها محاضرة عن وطنى ليبيا، وتفضلت رئيسة الجمعية فسجلتنى عضو شرف بالجمعية وجمعية التاج هذه لها نشاط فعال على مستويات اجتماعية وفكرية وتعاونية.

- **غول الوقت** -

وزودتنى بالخرائط الخاصة بجميع وسائل المواصلات لندن تحت الأرض وفوقها وبكل وسائل الإعلام، إن القوم هناك يحرصون على مواعيد الناس لتنجز فى وقتها المضبوط بالدقيقة ولا يسمح العرف بتقديم أو تأخير الميعاد عن الوقت المضروب ولن تجد من يغفر عدم المحافظة على الميعاد ولو لعذر قاهر إلا إذا أعلنت عن عذرك بالتليفون، وأبديت الأسف لعدم التمكن من الحضور فى الميعاد بسبب عذر مقبول، وكثيراً ما رأيت أن القطار الفلانى يتحرك عند الساعة 13.35 مثلاً وكنت أظن أن الدقة فى المواعيد إلى هذا الحد غير مقصودة ولكنى أعجبت عندما تقلع المواصلات وتصل فى مواعيدها المحددة بالدقيقة، إن التقيد بالمواعيد يحفظ للإنسان وقته ويمنع تسربه وضياعه، ويكسبه السيادة على تصريف أموره فى أزمنة موقوتة، وبالتالى فإنه يعطى الإنسان قدرة على أن يستوعب حياته كل حياته بطولها وعرضها. إن الذى يجعل العمر يضيع من بين أصابعنا ونحن نقبض عليه بكلتا يدينا هو نسياننا لأنفسنا لوقتنا لوجودنا مما يجعل العمر يمر فى دقائق قصيرة تتجمع فى شهور.

- **الوجوه السمر** -

إن المتجول فى شوارع لندن وميادينها تقع على كثير من ذوى البشرة السمراء الذين دخلوا بلندن كطلاب أو عمال استقروا ونسوا أوطانهم الأصلية وما ذنب تلك الأوطان الطيبة البعيدة إذا كانت فقيرة لأن ثروتها نهبت فى ليلة من الليالى التى غاب فيها القمر، تجدهم وأسنانهم تصطك من البرد الذى لا تعرفه بلادهم الدافئة وهم يشتغلون فى مختلف الأعمال اليدوية ترى السيدة الملونة كما يطلق عليها هناك تقطع التذاكر فى السيارات العامة تقف فى محطات قطار تحت الأرض تشير بالإقلاع والتوقف وتراقب الركاب بنشاط ولباقة وأغلب هؤلاء الملونين يعيشون ويجتمعون فى مواسمهم وأعيادهم ليستمعوا إلى شيوخهم الطاعنين فى السن وهم يروون أخبار الوطن وذكريات الغابة وصيد البقر

الوحشى وسلخ جلد الثعابين والنمور والثعالب ورقصاتهم الشعبية على شواطئ الأنهار والشلالات حول النيران الموقدة تحت ضوء القمر غير أن هناك اتجاها فى إنجلترا ينادى بمنع هجرة الملونين من الكومنولث إلى بريطانيا وتحصل بين الحين والآخر بعض المظاهرات ضد الملونين، والسلطات هناك بسبيل إصدار تشريع يحد من هجرة الملونين إلى بريطانيا.

حلقة 7

عند حلول نوفمبر كانت شوارع لندن كأنها تتحرك بمن فيها من العابرين وكان رصيف الشارع تسرى به رفة الحياة، لأن الأعياد على الأبواب، والناس يهرولون من متاجر الملابس إلى متاجر الهدايا والتحف وقد تفتحت مخيلة الأطفال فراحوا يحلمون بهدايا الأعياد وأفراحها وأخذت تتزين واجهات المتاجر بالأنوار، وصارت تطل شجرة عيد الميلاد برأسها من نوافذ المتاجر، ووقف أبو الأطفال الأسطورى بابا نويل فى كل واجهة محل عام بثيابه الحمراء ولحيته البيضاء المنحدرة على صدره الذى يضم أكبر قلب، وقد تعلقت بشعرات لحيته الليالى والأيام، ووجهه الذى اكتسب الملاحة من الدفقة الأولى للشمس عندما ظهرت منذ الأزل لتبدأ رحلتها عبر الأفق.

- دعوة الحياة -

إن كل شئ يشعر فى أعماقه بإرادة الحياة تدعوه ليفرح ليبتسم ليقول كلمة، أية كلمة عن الأعياد المقبلة، التى تتركز فى نهاية رأس السنة، فالحياة تدعو حتى علب الحلوى وزجاجات المشروب المزينة بالأشرطة الملونة، والموضوعة فى صناديق مبطنة بالمخمل الحريرى المزركش بالواجهات والنوافذ التجارية، المتلالئة حولها المصابيح الكهربائية بألوان قوس قزح، فالقوم هناك يعيشون عيد الميلاد ورأس السنة قبل تاريخها بشهرين، إنهما عيدان تتجدد فيهما كل أسرة، وكأنها تفكك حياتها الأولى لتعيد بناءها بكل ما فيها من نزوع إلى التطور، ومن نهم إلى الحياة لاستقبال مرحلة جديدة من العمر لا تأتى إلا مرة واحدة ثم لا تتكرر ويشعر كل فرد بوجوده ضارباً فى وجود غيره، مثله كمثل الشجرة الضاربة فى جذورها بين جذور شجرة الغابة، لذلك ينظر الإنسان فى الأعياد إلى نفسه، ويبحث عن جذوره فيصل أولى القربى، ويتبادل معهم الزيارات ويشتركون جميعاً فى أغنية كانت أثيرة لدى الأسرة قبل أن تتفرق وكانوا يغنونها فى مثل هذه الأعياد والمناسبات

المفرحة ويروون تاريخ الأسرة المشترك ويتحدثون عن عاداتهم التى كان أسلافهم يمارسونها وقد رأوها رأى العين، ويتجمعون فى ضحكة من نكتة ورثوها عن السلف.

-نداء العيد-

ومن تقاليد هذه الأعياد أن يتم فيها ضم شتات الأسرة للاجتماع حول المدفأة لذلك ترى النازح والمهاجر عندما يتسم موسم هذه الأعياد يعمل كل ما فى طاقته من جهد ليحضر إلى أهله لأن نداء العيد له رنين فى أعماقه وعندما يبدأ الرنين فإنه لا يتوقف عادة إلا بالعودة إلى الأهل.

- حرق رجل من الخشب -

فى أوائل شهر نوفمبر رأيت فى شوارع لندن شيئاً غريباً لم تعتد عيني رؤيته فى الشوارع هناك، شاهدت مجموعة من الفتيات والفتيان اليافعين والواقفين على قارعة الطريق، وبجانبهم تمثال رجل من الخشب مرتدياً بدلة كاملة من مجتمع القرون الوسطى، وعلى رأسه برنيطة موضوعة بشكل يوحى بالتحدى واسم هذا الرجل الصناعى التمثال الخشبى (جلى فوكس) وكانت هذه الفتيات والفتيان يتعلقون بالمارة ويطلبون فئات صغيرة من النقود (بنسات)، وتتحرك الفتاة التى بيدها صندوق النقود المجموعة بداخله فتحدث صوتاً لإلفات نظر المارة، وتوكلت على الله ووضعت بالصندوق الذى قدم لى بعض ما بقى في محفظتى من النقود المعدنية القليلة، وعندما سألت عن هؤلاء الجباة الصغار الذين لم أرهم من قبل، والذين انتشروا على أغلب الشوارع والميادين الهامة وفرضوا على المارة أنفسهم فرضاً خالياً من التعسف، وهو لا يعدو أن يكون دعابة لطيفة مستحبة تقبلها الجميع بابتسام، قيل لى انه تقليد يقوم به الفتيان فى مثل هذا التاريخ من كل سنة، إن تمثالهم الخشبى يرمز ويمثل (جلى فوكس) الذى حاول حرق الملك جيمس الأولى وبرلمانة والنقود التى ستجمع يشترى بها الصواريخ الملونة، لإطلاقها فى حفل بهيج بميدان (الطرف الأغر بلندن) حيث يحرق تمثال هذا الرجل ولهذا التقليد قصة، ففى سنة 1605 حاول رجل يدعى جلي فوكس حرق البرلمان (مجلس العموم البريطانى) و أشعل النار فعلاً وشب لهيبها ولكنه فشل فى إتمام فعلته، وأن الشعب البريطانى شعب محافظ يتمسك بالعادات القديمة، بل انه يحافظ عليها وعلى الغبار المتراكم فوقها بمرور الزمن أنه لا يكلف نفسه حتى نفض الغبار عن العادات، وإنما ينظر إلى ذلك الغبار كأنه جزء منها لذلك فإن

الشعب يحتفل بهذه الذكرى التى جعل منها الناس بمرور الزمن عيداً فى مساء اليوم الخامس من شهر نوفمبر من كل عام.

-أصوات بالليل-

لقد حضرت أنا شخصياً هذا الاحتفال السنة الماضية 61م، لميدان الطرف الأخر وهو يشبه أعياد المولد عندنا بليبيا يحتفل الأطفال بإقادة القناديل والشموع وإطلاق الصواريخ، وعيد النيروز لدى الفرس التى توقد فيه النيران، وشهدت هذا المهرجان يحتفل به الناس على مستوى شعبى، وقد أمتلئ الميدان على سعته بالمتفرجين جاءوا ليشهدوا هذا المهرجان الليلى وقد تركوا بيوتهم الدافئة ليلسعهم البرد فى هذا الفصل الذي تكون فيه لندن قد لبست الثقيل من الثياب، وتأنقت بغراء الثعالب الملتفة بأعناق النساء.

الحلقة 8

وفى أمسية اليوم الخامس من نوفمبر يطلق الفتيات والفتيان الصواريخ الضوئية الملونة فى سماء ميدان "الطرف الأغر" وتتناثر تلك الأضواء بالجو تبعث فى النفوس البهجة وفى غمرة هذا المهرجان يحرق ذلك التمثال الخشبى والناس يصيحون ويصفرون، ساخرين من الرجل الصناعى المحترق الذى كان يدعى عندما كان حياً جلى فوكس، إنهم يضحكون من الفكرة التى عششت برأسه وألهبت قدميه إلى البرلمان لإحراقه، ترى لو لم يفعل فعلته هل كان يذكرهُ أحد الآن؟

- من الباب الخلفى -

لقد عاشت معه وفى عصره الملايين من الناس، ولكن مكنسة التاريخ ألقت بهم سلته المهملة ولم يعد يذكرهم أحد غير أن جاى فوكس استطاع أن يدخل التاريخ ولكن من بابه الخلفى المهمل وأصبح الناس يذكرونه بإحراقهم له فى كل سنة. إن النار التى حاول بها إحراق مجلس العموم هى النار نفسها التى تلتهم ألسنتها فى أمسية اليوم الخامس من شهر نوفمبر من كل عام على مرأى من الناس الذين أصروا على إعادته للحياة، فى شكل تمثال بارد من الخشب وسحبه من زمنه الذى عاش فيه قبل أكثر من ثلاثة قرون ونصف ومن رقدته بقبره وإحضاره وهو بملابس القرن الذى عاش فيه لأن الشعب قرر إحراقه.

- شعب تقاليد -

كان البوليس يحافظ على الأمن بالميدان ويعمل على حصر النار المشتعلة حتى لا تنتقل وتصبح خطراً على الحاضرين للاحتفال، وأخذ يبعد الناس عن شرورها، بعد أن اشتد أوارها، واستمرت الصواريخ الملونة تنطلق فى الهواء والشعب يفدُ إلى ميدان الطرف الأغر نساء ورجال وأطفال، وظلت قطارات تحت الأرض تدفع للمكان بجمهور جديد، ودم جديد إلى ساعة متأخرة من تلك الليلة، وقد أصر الناس على حرق ذلك الرجل من جديد، ولكن فى العام المقبل من الليلة نفسها لا لشئ إلا لتثبت أن الشعب البريطانى شعب تقاليد وعادات.

- عندما تفيض البيوت بالأعياد -

ويحتفل الناس هناك بعيد الميلاد احتفالاً ضخماً يفيض من البيوت على الشوارع والميادين حيث الزينات تغمر شوارع لندن الرئيسية بالمصابيح الملونة كشارع "ريجن ستريت" و "اكسفورد ستريت" على هيئة تيجان الملكة مزخرفة بالألوان تحملها أسلاك على شكل عقود تتدلى على الطريق فى نظام هندسى رائع تمتد على طول الطرق والميادين وترفرف البالونات الكبيرة الحجم الملونة بأصباغ مختلفة وهناك عدد كبير من تماثيل الملائكة التى تحلق فوق السيد المسيح موضوعة على كبريات المؤسسات العامة والمحلات التجارية، وفى كل زاوية تبدو شجرة الميلاد وقد كستها الثلوج بغلالة بيضاء زادتها جمالاً، وبالرغم من هبوط درجة الحرارة فى هذا الفصل، ترى سكان لندن وقد أغراهم هذا المنظر الجميل بالخروج إلى الشارع.

- الثلج وشجرة عيد الميلاد -

إبان حلول موسم الأعياد تفتح لندن بوابتها الكبيرة للسياح الذين جاءوا ليشهدوا وجه العيد على ضفاف "التايمز" وليروا حبات الجليد والثلج تتساقط رخات تعبث بها الريح لخفتها فتغطي شجرات عيد الميلاد بأوراق بيضاء وتبدو كأنها ورود بيض، وليعيشوا فرحة الأعياد من خلال الزينات التي اشتهر بها اللندنيون في هذه المناسبة التي تنشط فيها الهيئات المحلية ومجالس البلديات والمحلات العامة فتعمل جميعاً على تعميق معنى العيد فى النفوس وإدخال المسرة فى كل قلب. وهى بذلك ترسب معنى إنسانياً وتؤكد الفعالية الروحية تجاه المادية التى ظنت أنها تخلصت من طاقات الروح.

ومن المناظر المألوفة رؤية السواح أفراد الشعب يأخذون الصور التذكارية للزينات ولمظاهر العيد الماتحة الجميلة ويتألق الضوء الخاطف لآلات التصوير فى النهار، لأن الشمس فى هذا الفصل لا تحضر إلا لماماً وتظل غائبة لأيام وأسابيع متوالية وينشط عمال السينما والتليفزيون لالتقاط مناظر الشوارع والميادين والواجهات وهى تصحو وتنام على أضواء المصابيح الكهربائية التى تعكس ألوانها الزاهية على الجدران والطرق المغسولة بالمطر وعلى وجوه الناس عابرى الطريق وهم يسعون من أجل العيد، هذا يحمل صندوقاً به لعبة لطفلة وتلك تتأبط فستاناً جديداً صمم بشكل مبتكر وهى تكتم سر التصميم حتى تفاجئ به زميلاتها فى يوم العيد، وذلك يشترى أشهر أنواع الحلويات والمشروبات وآخر مشغول بانتقاء كروت المعايدة ليبعث بها إلى أقاربه وأحبابه، وأغلبها بها شجرة عيد الميلاد أو وجه بابا نويل بلحيته البيضاء وببرنسه الأحمر وحظيرة بها خراف وأبقار تمثل العمد الذى ولد به السيد المسيح فى بيت لحم بفلسطين. كما أن هناك كروتاً تمثل عيد رأس السنة وهى صورة نافذة مفتوحة على الشمس وطيور تنطلق بالجو أو نجمة مُذنبة تسبح فى الفضاء، أو عربة تنزلق على الجليد يجرها أطفال، إن أعياد نهاية السنة أهم أعياد القوم، يوقدون لها المصابيح قبل حلولها وبقدر ما يحتفل سكان جنوب بريطانيا بعيد الميلاد، يحتفل شمالها والاسكتلنديون خاصة بعيد حلول العام الجديد إذ أن اسكتلندا تعتبر الاحتفال برأس السنة من أعيادها الشعبية الخاصة

حلقة 9

كان يوم الأحد 1961/9/10 عندما دعتني زميلتي في غرفة النوم لزيارة إحدى عجائب لندن حديقة (الهايد بارك) زميلتي أمريكية من جزيرة (بربيدو) اختصاصها الطب وهى فتاة تأكل الشيكولاتة أكثر من الخبز وتشرب كل السوائل إلا الماء وتضحك وتتكلم في آن واحد وتسرح شعرها وهى تغني وتصفر.

إن كل زائر للندن لا يعدم من يغريه لمشاهدة الهايد بارك، وبيت الطالبات الذي أعيش فيه عندما تحل به طالبة جديدة يتطوع كل من فيه لمساعدة من تستجد. وهكذا وجدت نفسي في مجموعة من الطالبات تذرع لندن الممطرة ذات السماء الرمادية في طريقها إلى الهايد بارك كنا خمسة أنا من ليبيا وزميلتي من بربيدو والثالثة من أندونيسيا والرابعة من

جامايكا والخامسة من إيران والسادسة من السويد وأضفنا لعدد ركاب القطار تحت الأرض ست تذاكر سحبناها على الآلة التي بادلتنا التذكرة بثمنها، وكم في لندن من آلات تعطيك كل شئ عند الضغط على الزر بعد وضع الثمن في الخرم المعد لذلك. وبعد أن غيرنا القطار وتعلقت عيوننا أكثر من مرة بالخارطة المعلقة بمدخل المحطات والمثبتة بسقف القطارات ولفح وجوهنا الهواء الصناعي خرجنا من سراديب تحت الأرض على السلم الكهربائي درجة تعلو درجة فالواقف أوله كأنه يقف على رؤوس من في آخره والسلم يدور ويصعد، الوجوه تتغير بعد أن ينزل السابق ليركب اللاحق ودولاب السلم يدور ذلك ديدن الحياة يذهب المتقدم ليحل محله المتأخر.

- عندما تتمطط الساعات -

خرجنا لنرى الهايد بارك وقد تلاصقت بها الأقدام وكان أهل الأحد بكل ما فيه من فراغ انه يوم لندن على ميعاد بهذا المكان إنه يوم عطلة بقوة القانون يحتاج فيه الناس الأشياء لملئ ساعاته التي تتمطط أكثر من ساعات أيام العمل وكأنها تتعطل وتنام فلا تتقدم، ويشتغل التثاؤب أفواه الناس الذين يتمددون على الحشائش مستمتعين بأشعة الشمس والحمام أو البط السابح بالبرك، أو يراقبون الأطفال وهم يلعبون ويقفزون ويغنون بأفواههم الصغيرة حتى ينطقونها صغيرة مثل أفواههم وبسيطة كحياتهم التي لا يملؤها غير اللعب والأكل والنوم.

ولا ينسى الناس عند خروجهم من البيت معطف المطر والمظلة لأن جو لندن يتغير باستمرار فإذا ما أطلت الشمس وأسفرت عن وجهها لا تلبث أن تداعب القوم وتتبرقع بسحابة أو غيمة ويكفهر الجو وتقترن السماء بالمطر ويصحو الجو في نفس الساعة وتشرق الشمس مجدداً وتطوي المظلات التي كانت منتشرة على الرؤوس وتختفي معاطف المطر التي تأخذ طريقها للمحفظات والجيوب في انتظار عودة المطر !.

- التفكير بصوت مرتفع -

الهايدبارك أو المدينة التي يفكر فيها الناس بصوت عال فكل مختزنات العقل الباطن التي تتعذب من رقابة العقل الواعي تجد طريقها في هذا المكان وكل الأفكار تطرح على المستمعين ولو كانت منحرفة. وهي لا تعدو أن تكون مكاناً تمارس فيه عملية التنفيس بحرية ولكن لا تنال من حرية الغير في حدود القانون طبعاً.

وأحسب أن عملية التنفيس هذه على مستوى شعبي تعطي صورة - ولو أنها غير متكاملة - عن المتكلم عندما يعرض نفسه من خلال الفكرة. وتبدو عارية كما هي كما تعطي صورة عن المستمعين وهم يتفاعلون في شكل مناقشة تستبين فيها الاتجاهات الأيديولوجية.

ترى البوليس بقبعته السوداء التي تغطي جبينه وتظلل عينيه يتمشى معقود اليدين خلف ظ٤هره أو تتدليان إلى جانبيه فكأنه ... هو تتدليان إلى جانبيه، فكأنه جاء هو لا يتدخل مهما اشتد النقاش والخصام ما دام يدور على اللسان، وما دامت الأيدي لم تتحرك لأن البوليس لضمان حركة اللسان فقط وأى نشاط لليد يبدو لشل حرية الكلمات يسرع البوليس لتجميده حتى يحافظ على تقاليد "جنينة الهايد بارك" التي اتخذتها بريطانيا واجهة عريضة رفعتها في وجه العالم كعجيبة من عجائب الناس لتولد للسياح عادة التفكير بصوت عال مرادفة لعملية التدخين عندهم، وكما أن بعض الناس يستهويهم التدخين لا لشئ إلا لتلويث الهواء النقي الذي يستنشقونه فإن بعضهم يثرثر في ايام الأحد بجنينة الهايد بارك ليجهد نفسه ويرهق سامعيه ويعود لبيته منهوك القوى كما يعود إلى بقية أيام الأسبوع مجهداً من العمل ويكون حقق لنفسه التعب الذي يجلب له النوم بالمساء وأغلب الخطباء يغلب عليهم التهريج ويعوزهم التركيز العلمي.

- غسل الأدمغة -

إن يوم الأحد من كل أسبوع من الساعة الثانية بعد الزوال حتى الساعة السادسة مساءاً مخصص للخطباء وهناك تلتقي بمختلف شعوب العالم الوافدة على بريطانيا لمشاهدة هذه الأعجوبة فالخطيب يتكلم كما يشاء في أى موضوع يروقه وكل ماهو غير مقبول خارج أسوار الحديقة مسموح به داخلها، فالإنسان فيها له حرية التكلم في الموعد المحدد وله أن يطرح عن كتفيه المشاكل التي تشغله بكل بساطة وينشر غسيل دماغه بكل شجاعة. دخلت الهايد بارك وتنقلت بين الخطباء الذين منهم من يدعو إلى تحريم الأسلحة النووية ويستمر في عملية إحصاء طويلة لتأكيد خطرها على الناس وعلى الوجود الحضاري ذلك أن الإشعاعات تتعلق بذرات السحب وتسقط مع المطر فتلوث النبات وحتى الحيتان في البحر لا تسلم من خطرها وبالتالي تتشوه المخلوقات ثم تموت في بطء وهو يعرض على مسمعيه صوراً عن مخلوقات شوهتها وأفنتها الإشعاعات الذرية ويقول إنها الإعدام بالجملة يجب منع مجانين العالم من مقارفة هذه الجريمة لأن حياتنا ليست ملكهم.

وأسمع خطيباً آخر يتحدث عن المرأة بتحامل، ويقول بأنها خلقت لتسلية الرجل وعملها ينتهى عند مساعدته، وليس لها دور قيادى فى الحياة وإنما هى دائماً تابعة له، تجلب له النفع بقدر ما تأتى بالغرم، فتش عن المرأة فى كل مشكلة. وصاحت فى وجهه امرأة من المستعمات. هل تنكر فضل المرأة أمك؟ التى هزت سريرك وأنت طفل، وصبرت السنوات الطوال لتعلمك النطق بالكلمات، حتى تعلمتها ووقفت الآن لمضغ الكلام وتحسب نفسك تتكلم، إنك لم تع درس أمك فثرثرتك هذه تضيع علينا وقتنا فأرفق بنفسك واسترح من عناء الثرثرة ولو بحث فى كل شئ عظيم لرأيت خلفه المرأة بكل ما فيها من فعالية وعطاء تبنى وتشيد، وشاهدت خطيباً وبجانبه صورة كندى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ويظهر أنه أمريكى الجنسية، فى مساعدة الشعوب يقول إنه دافع الضريبة بأمريكا يسهم في مساعدة الدول الصديقة لتحقيق الرخاء، وهنا سأله أحد المستمعين الإنجليز: هل إقامة القواعد الأمريكية العسكرية ببريطانيا تعتبر مساعدة وإذا كانت مساعدات أمريكا تتمثل فى إقامة القواعد العسكرية فإننا سوف نشكرها إذا حرمتنا من مثل هذه المساعدة بسحب قواتها.

- إصحاح وبخور -

ورأيت حلقة من الناس من حول قسيس وقف يردد عليهم بعض الإصحاحات من الإنجيل ويزاول الطقوس والناس من حوله يتمتمون بالصلاة وقد غطت النساء شعرهن بمناديل كمظهر من مظاهر الخشوع والتبتل، وأصابعهن على صلبانهن الصغيرة المعلقة بالرقاب والجميع مستغرقون فى تمتماتهم لا يحسون بما حولهم يستنشقون البخور وتبللهم قطرات ماء القسيس المقدس. واستمعت إلى رجل زنجي وقف يخطب بحماسة وتجمع حوله من الذين تدل بشرتهم على أنهم من أفريقيا وأسيا وأمريكا الجنوبية وهو يندد بالتفرقة العنصرية ويفند خرافة تفوق الإنسان الأبيض على أخيه الملون ونادى بتصفية الاستعمار الذى أهدر حرية الإنسان وكرامته.

- بريطانيا المحتاجة -

وارتفع صوت من أحد المستمعين الإنجليز يقول له: إن الرجل الأبيض هو الذى تعيش فى ضيافته هنا وهو الذى منحك عطاءه وحضارته لماذا لا تغادر بلاد الرجل الأبيض وتذهب غير مأسوف عليك لبلدك حيث ينتظرك التخلف والحرمان والفقر وأجابه الخطيب الزنجي إن بلدى أغنى من بلدك وهو الذى يزودك بالمواد الخام فقميصك من قطن بلدى

وحذاؤك من جلد بلدى ولو انحبست عنكم خيرات بلادى ومنتجاتنا التى تنهبونها لتوقفت أيديكم العاملة بالمصانع ولعمتكم البطالة المدمرة، إن بريطانيا هى التي تحتاج للكومنولث وليس الكومنولوث محتاج لها واستمر الرجل الزنجى يثبت وجوده ومكانته للرجل الأبيض ويدلل على إيجابيته وسلبية محاوره مناقشة.

- بأطراف الكلمات -

وأنصت لخطيب آخر يرتدى بدلة أنيقة سوداء كأنه مدعو لحفلة ساهرة يتكلم فى وضوح بتركيز كأنه يقرأ فى كتاب يتناول لسانه الكلمات من أطرافها ويطلقها فى اذان سامعيه. بطريقة فيها التكنيك الفنى الظاهر، يدل مظهره على أنه من قطاع المثقفين الذين قضوا أمداً فى معاناة الكلمة حتى يمتلك القدرة على توجيهها وإكسابها فعاليتها، تناول فى حديثه المركز الشيوعية كنظام وعقيدة من خلال الأيديولوجيا المذهبية وراح يهاجمها ويشجب مبادئها ونادى بمحاربتها وبعدم مهادنتها باعتبار أن الحرب الفورية بمثابة عمل وقائى، وبالتإلى ضرورة ملحة ذلك أن الشيوعية تعمل جاهدة لتأخير إعلان الحرب عليها لأن الزمن فى صالحها، وقال لا انتصار بلا حرب كما أنه لا حرية مع الموت إنما الحرية مع الحياة، وقاطعهُ أحد المستمعين ليقول له إننا نريد السلام يا داعية الحرب، السلام يا عدو السلام.

- ضريح السجن -

ووقفت مع من وقف أسمع خطيباً آخر إنه رجل قصير بدين تلمع برأسه صلعة واضحة تنزلق عليها النظرة الأولى تنوء قدماه بحمل أكثر من قنطار شحم ولحم ودم كان مظهره غريباً. لقد انتشر الوشم فى جميع جسمه والوشم ظاهرة تبدو فى كثير من أجسام الإنجليز، لقد انتشر الوشم فى جميع جسمه وخديه وذقنه وأذنيه ولم تسلم من الوشم حتى المساحة الصغيرة بين الهدب ورمش عينه، قال إنه قضى شطراً من حياته باغلب سجون بريطانيا وراح يحدث المستمعين عن ذكرياته خلف قضبان الحديد. ويحدثهم عن نزلاء السجن، وكيف يمضون مدة عقوبتهم وطالب بإلغاء نظام السجن الحالي. لانه يهدم كرامة الإنسان ويفقده الثقة بنفسه واقترح بأن تنشأ منطقة خاصة بالسجناء يزاولون فيها مهنهم ويخرجون مرة بالأسبوع ليقضوا سحابة يومهم فى زيارة أهلهم وفى ممارسة نشاطهم الاجتماعى كمواطنين ويؤذن لهم بالخروج من السجن فى مثل حالة مرض الاقارب وحضور الجنازة. وقال إن عدم تمكين السجين من زيارة أهله من شأنه أن يجعل ابناءه وزوجته

ينسون وجوده ويفقدون الرباط المقدس الذى يشدهم، وقال بأنه يوافق على حرمان السجين من هذا الحق إذا ما ارتكب جرماً جديداً أثناء مدة العقوبة وبهذا العمل يمكن أن يقوم سلوك المنحرفين وبهذه الطريقة المثلى تحفظ للمواطن المنحرف كرامته وللقانون هيبته.

- الوجودية -

واستمعت إلى فتيات ثلاث ورجل، وكان أربعتهم يتناوبون على منصة الخطاب ومظهرهم يدل على أنهم من اللامباليين الذين يدعون بالوجود، والوجودية أول ما ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية تمارس نتيجة ما خلفت الحرب من قلق وهى تجتذب الشباب فيحيون حياة بوهيمية لا يطلبون أكثر من كاس وسيجارة ورقصة على أنغام موسيقى مجنونة ويسهرون الليل وينامون النهار، حياتهم ضياع وقلق وصدرت باريس التقليعة (الوجودية) إلى الخارج مع ما صدرت من (موضة) فساتين وأصابع حمرة وعطور وما أكثر الوجوديين فى بريطانيا وهذه البوهيمية لا تتصل بالوجودية كمذهب فكرى الذى من أعلامه الفيلسوف سارتر وكامو، وقفت أنظر إلى الخطيبات الثلاث وهن يرتدين بنطلونات ضيقة جداً وقمصاناً ملونة وغلائل صوفية خشنة مثل التى يرتديها العمال من الرجال والبحارة وينتعلن أحذية سميكة أشبه ما تكون بأحذية الجنود ومنهم من تنتعل قبقابا من الخشب إغرافاً فى الغرابة، وشعورهن تتدلى على وجوههن فى غير نظام وقد تجردن من أصباغ الزينة فبدت ملامحهن رجالية أكثر منها نسائية، ذلك هو المظهر الخارجى الذى يتعمد كل وجودى إبرازه وفلسفته هى اللامبالاة فى كل الأحوال، وكانت هذه الفرقة أو المجموعة تتألف من ثالوث من الفتيات واحدة منهن فى عمر الزهرة. يرافقهن رجل وجودى هو الأخر يرتدى ملابس غريبة غير مرتبة قميصه أسود فكت أزراره، يكشف عن صدره ووضع فوق كتفيه سترة حمراء، أهمل شعره فتدلى على عنقه على شكل أفاعى ملتوية ووضع قرطين بأذنيه، ثيابه تبدو متسخة وقد ترك شعر لحيته ينمو على وجهه ويستطيل كما يشاء، وكأنه لا ينبت على وجهه ولا يحس به لإثبات أنه موجود عند نفسه فقط ولا يهمه أن كان وجوده وارداً عند غيابه أولاً.

- الضياع -

وبقدر ما كانت مظاهر هذه المجموعة مشوشة فإن أفكارها فوضوية إلى أقصى نقطة تبلغها الفوضى كانت الفتيات الثلاث يتناوبن على منصة الخطبة وينادين بإلغاء عادة إبرام عقود الزواج الملزمة للطرفين مدى الحياة تحت سقف واحد لا لشئ سوى تطبيق العقد

والخطيبة تدعو إلى الزواج والمعاشرة على أساس التفاهم والود، وعندما يفتقد هذان العنصران فلا موجب هناك لاستمرار المعاشرة وبهذه الطريقة تتوفر الحرية وتتواجد السعادة على الأرض، السعادة التى طمس مفهومها ما يسمى عقد الزواج ذلك العقد الذى ساوى بين هذا الرباط المقدس وبين رباط مادى تعاقدى، مثل رباط عقد البيع والشراء فى سوق الخضراوات، ويسأل أحد المستمعين هذه الخطيبة البوهيمية: وما مصير الأولاد ولمن ينسبون ومن يتولى رعايتهم فأجابت فى قحة لا تحسد عليها ندعهم يعيشون فى بيوت الحضانة والدولة لا تزال بخير وهى مفتوحة باستمرار تستقبل الوافدين حيث يجدون التربية الصحيحة والعناية أكثر مما يجدها عدد كبير من أطفال الأسر التى تتوافر لديها إمكانات اقتصادية ونفسية وثقافية، فكثير من الأطفال سوء حظهم أوقعهم فى أسر سكيرة أو الوسط الموبوء حاملين معهم عقداً مجنونة أو مجرمة فيشبون فى ذلك أهلهم المدمرة! بينما الذين يعيشون فى دور رعاية الدولة يجدون الاخصائيين الاجتماعيين يقومون على تربيتهم لينشأوا تنشئة صالحة وقد اغتاظ أحد المستمعين من إجابة الفتاة فانفجر فى وجهها غاضباً قائلاً لها أنتِ ضائعة، أنتِ ضائعة، وخرج من مجموعة المستمعين يُفسح لنفسه الطريق لمنكبيه وذهب وهو يقول : افسدتم علينا سعادتنا بثرثرتكم واجابته الفتاة أنا لست ضائعة إننى جامعية ونحن الأربعة لا نزال نواصل دراستنا بالجامعة ولسنا ضائعين واستمر الأربعة يتناوبون فى الموضوع الأول بالذات ويثرثرون بالمناداة بحرية الزواج وعدم ربطه بالطقوس الدينية أو العقود المدنية وإطلاقه من قيد التعاقد مدى الحياة وفاتهم أن الحرية من غير قيد ينظمها تتحول إلى فوضوية فاقدة لأدنى مراتب الحرية.

- إنجليزى مسلم -

وانتقلتُ إلى خطيب آخر وقد رفع إلى جانبه لافتة كبيرة كتب عليها بالعربية والإنجليزية "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وتحتها كتب ما يلى: أنا إنجليزى مسلم، إنهُ رجل فى منتصف العمر تدل تقاطيع وجهه على أنه سكسونى يشحن كل كملة تخرج من فيه بكل ما فيها من فعالية وتضغط على الحروف كأنه يختصر ما فيها من دلالة لتفعل ما يريده لها فى مستمعيه، كانت ألفاظه التى تخرج من فيه ألفاظاً موجهة بحيث إنه يعلم مسبقاً مكانها فى وجدان الحاضرين.

قال الخطيب إنه مسيحى بالولادة وقد درس علم اللاهوت والأديان المختلفة ووقف عند تلك التعاليم وقفة الدارس متجرداً من كل الرواسب والعوامل التى تفسد عليه نظرته الحياتية الموضوعية فوجد الدين الإسلامى دين العقل والمنطق والأخوة وكم أعجبه تشريع الزكاة الذى جعل للفقير حقاً فى مال الغنى مما يعتبر اشتراكية إسلامية وتعرض لأحكام الميراث وقال إن عطاء العرب الحضارى أخصب مدينتنا فى الوقت التى كانت فيه أوربا بالقرون الوسطى تغط فى نوم وكسل، وقال إنه لا يتصور وجود الحضارة الحالية لو لم يتقدم العرب بأعمالهم المجيدة عبر التاريخ، وقال إنه سبق أن زار الهند وإيران والجمهورية العربية المتحدة واستراليا وتعرف على المسلمين فوجدهم قوماً مسالمين يساعدون الغريب ويقرون الضيف. إنهم الآن يقفون تجاه مسئولياتهم ليسهموا فى رخاء العالم وحضارته كم ساءنى عندما شاهدت جزءاً من هذا الشعب الذى كان فى يوم من الأيام له دور قيادى يعيش تحت الخيام لاجئاً بالرغم من أن الأمم المتحدة قررت عودته لوطنه فلسطين وتعتبر الهيئة الدولية مسئولة إلى حد كبير عن حرمانهم من العيش فى وطنهم أحراراً.

- حتى اليهود -

وهنا ارتفع صوت مبحوح كله نشاز من بين المستمعين ليصيح: يظهر أيها الخطيب إنك أجير للرئيس جمال عبد الناصر وهو الذى أوحى إليك بهذا الكلام وتطلعت إلى مصدر الصوت فوجدت صاحبه من ذوى الأنوف المعقوفة إنه يهودي تتجمع فيه لعنة القرون وكان فمه ينزف بالصديد والحقد الأسود على العرب لأن لهم تاريخاً فى الوقت الذى أسقطه القدر هو وفصيلته من التاريخ، ورد عليه الخطيب بقوله لست أجيراً لأحد إننى بريطانى مسلم واعتز بجنسيتى وأفخر بعقيدتى وأعذرك عندما اتهمتنى بالأجير لأنك إسرائيلى كما اعتقدت، والإسرائيلي لا يعرف غير القبض والدفع لأنه أجير ولأن سلوكه المادى المنحرف يغلق عليه تفهم القيم الإنسانية ولا يؤلهُ للصعود لمستواها الأرفع. إننى لا أنكر إعجابى برئيس الجمهورية العربية المتحدة لمحاولاته الناجحة من أجل غد أفضل لقد استطاع أن يثبت وجوده للتاريخ كرجل عمل لشعبه واستمر يقول لمستمعيه أنى على استعداد لتدريس وتوضيح الدين الإسلامى، أنا متأكد أن عدداً كبيراً من البريطانيين سيعتنقون الإسلام الذى يدعو للأخوة و لا يفرق بين الأجناس.

- **وعلى الأرض الجنة** -

وانتقلت إلى مشهد غريب حقاً حوله تجمع عدد كبير من الناس والمشهد جماعة من النساء والرجال رفعوا لافتة كبيرة كُتب عليها : الطريق إلى الجنة، لندخل الجنة، وهؤلاء الجماعة لا يخطبون وإنما هم يعبرون عن فلسفتهم بالرقص والغناء والأناشيد والأغنيات الشعبية والضحك والتصفيق وإرسال النكت وقراءة الشعر ولا شئ غير ذلك. إنهم يدعون الحاضرين مشاركتهم في الرقص والغناء والضحك لأن فلسفتهم هى : الإيمان بأن الحياة جنة، وعدم طرح الهموم كفر بالجنة ولا يجب الانشغال والاكتراث بالمآسى والأحزان لأن الحياة كفيلة لمحوها وتسوية الأمور فى النهاية ولأن الاكتئاب مهما طال واشتد لا يخفف المصائب ولا يغير طريقها المحتوم وينادون: العمر قصير ولا نأتى للحياة إلا مرة واحدة فلنستمتع بالحياة، ولندخل الجنة وليباركنا الله إننا لا نسفح من عيوننا دمعة واحدة لأن البشرية بكت طويلاً حتى تكونت هذه البحار من الدمع المالح ونخشى أن تجرفنا لنضحك ولنعش فى سلام، وخلال الرقص والغناء يرتفع من بعض أخر أو هذه المجموعة المرحة أصوات الرباب الذى يحمله بعضهم فيعطى للرقص والغناء و الإيقاع والرنين.

حلقة 19

وهناك كثير من الخطباء والفرق الموسيقية والمشاهد الغرييبة والرقصات والأغنيات الفولكلورية التي تغطي بها حديقة الهايد بارك مما يستحيل الاستماع إليها كلها في يوم واحد وأغلب الخطباء يتحدثون في السياسة أو الدين كما أن حلقات نقاش مشكلة السوق المشتركة والسياسات الحزبية مما يجلب آذان المستمعين المحليين.

- **أما القبعة السوداء** -

ومن المألوف أن تسمع النقد اللاذع للحكومة ووزرائها وفي بعض الأحيان عندما يتحمس الخطيب لا يخلو قوله من تهجم على رئيس الوزراء (ماكميلان) ومع ذلك يمر البوليس ويداه معقودتان خلف ظهره. ولا يفعل غير تحريك عينيه في محجريهما تحت قبعته السوداء يميناً وشمالاً تحت قبعته السوداء.

وهكذا فالحرية مطلقة في حديث الهايد بارك في الكلام في المناقشة في الرقص والغناء وفي التمدد والنوم على حشائشها الخضراء، في الكسل إنها عجيبة بلاد الإنجليز سبحانك يارب حتى الفوضى في بريطانيا لها موعدها ومكانها المحددان، ولها تقاليدها التي اعتادت عليها منذ أجيال وتلتقط هذه الحديقة أنفاسها في أصائل أيام الآحاد وتمتلئ رئتاها

بالحياة بمجموعات الناس المختلفين لوناً وعقيدة كل يبحث عن أشياء لا يحرمها ولكنها عجيبة. ويجد كل زائر أشياءه العجيبة.

ويمضي يوم آخر

وتنقضي عشايا أيام الآحاد ويصمت الخطباء وتجمع الخطابة وينفض المستمعون وقد ذهب يوم من أيام حياتهم وهم يستعرضون في مخيلتهم ما شاهدوا وسمعوا وتعود الحديقة لصمتها العادي المطبق ويختزن عقلهم الباطن كل المشاهد المثيرة التي شاهدوها ويعود للحديقة هدوءها الذي تعيشه في غير الأحد من أيام الأسبوع ولكنها تظل تنتظر بشوق يوم الأحد الآتي والذي يتلوه وما بعده وما بعده، ويرجع المغتربون إلى بلدانهم. وتنتهي زياراتهم إلى بريطانيا وكل شئ إلى انتهاء يعودون إلى أوطانهم وقد حملوا فيما حملوا بحقائب السفر ذكريات عن عشية يوم أحد بحديقة الهايد بارك يتحدثون بها كما أتحدث بها إليكم يا قرائي الأعزاء لأن الحياة حديث يسمع أو يقرأ ويتحول مع الزمن إلى ذكرى تستقر في زاوية النفس لتطفو على السطح مرة بعد أخرى في فترات قد تطول أو تقصر لتكرر نفسها حديثاً يقرأ أو يسمع من جديد.

- الطرف الآغر بلندن -

في لندن ميدان الطرف الآغر ويعتبر من أكبر وأشهر ميادينها تقع في وسطه نافورتان كبيرتان تستقر به كل واحدة منهما في كبرياء وتلعب تماثيلها بالماء وتدفعه بأشكال ممتعة وتتساقط حباته كمطر غيمة صيف وترسل خريراً به توشوش في آذان السامعين كأنه أحاديث القلوب. تتحدث عن تاريخها عن اليوم الذي جعلها فيه الفنان كتمثال كان ذات صباح في أحد أيام ربيع، تتحدث عن طابور من الناس جاءوا ليقفوا أمامها يتأملونها في إعجاب منهم من عاد إليها بعد زمن فلم تكن تعرفه لأن الدهر بدل ملامحه بمرور الليالي والأيام ومنهم من لم يعد لأن الزمان طوح به في الإبعاد وهى لا تزال تستقبل بقية الطابور كل يوم أنها في مكانها لا تتحرك لتستقبل غداً من سيولدون بالمستقبل ويظلمون باللعب أمامها أطفالاً وبالتملي والاستمتاع بها شباباً وبالاستراحة والسلام عندها شيوخاً وتستمر في وشوشتها الحالمة في آذان الناس كل الناس ويرفرف الحمام الأشهب يغسل مناقيره الحمراء بأحواضها ويحرك أجنحته وهو يهدل تحت حبات مائها التي يعبث بها الهواء والناس يطعمون الحمام في سعادة فمنهم من يحاول تجديد نفسه ليعود إلى طفولته عندما

يضع حب الذرة على قبعته وفي ثنايا معطفه ويظل منحنياً للحمام الذي ينقر القبعة ويحوم فوق الرأس وبذلك تتحقق الرغبة في المرح بشكل أو بآخر تلامس الجانب الأكثر حساسية في طفولة الإنسان ويظل الأطفال يشترون الحبوب من باعتها بنفس الميدان ليلتقطها الحمام من أكفهم الوردية وهو يحط على أذرعهم الصغيرة الممتدة كغصن زيتون كله اخضرار وحب وسلام.

- بريطانيا تسجن السلام -

في هذا الميدان تتجمع مسيرة السلام الطويلة التي يضم طابورها مختلف الطبقات الشعبية احتجاجاً على استعمال الأسلحة النووية وكثيراً ما يجلس أنصار هذه الحركة على الطريق ليترجموا احتجاجهم المعنوي إلى عمل مادي وإن كان سلبياً إلا أنه من شأنه عرقلة حركة المرور بالطريق ومن بين الذين يفترشون الطريق الفيلسوف الإنساني برتراند راسل هو وزوجته وهو الذي تعتبره الحركة أباها الروحي يجلس بقارعة الطريق وعلى كاهله تسعون سنة وبوجدانه تجارب السنين التسعين كلها. بما فيها من كثافة ولكن في الوقت نفسه يسقط من حسابه ميزاته كفيلسوف ومفكر ويكاد يغسل من معارفه ليتساوى مع أى إنسان عادي يجلس على الأرض ليتخذ موقفاً معيناً بسيطاً من قضية عامة.

حلقة 20

كانت المسيرة الشعبية التي تضم فئات من الناس تضرب أعمارهم في الماضي البعيد وهم الشيوخ، والماضي القريب أعني الشباب وما دونهم وتتحرك كأنها مدينة متموجة بكل ما فيها من رجال ونساء وأطفال تحت المطر وعبر الضباب وتكتسب دماً جديداً ينضم إليها عدد جديد والقافلة تسير وتسير في خطوات وئيدة ولكنها ثابتة ذات وقع خافت غير أنها استطاعت أن تتحول إلى قرعات ناقوس كبير معلق بزاوية الدنيا، سمعة الناس كل الناس فتحدثوا عن المسيرة وعن وجوه أصحابها وعن صاحب الشعر الأشيب والوجه المغضوضن الذي حرثه الزمان طولاً وعرضاً وجه برتراند راسل الإنسان الذي دخل السجن من أجل السلام بعد أن رفض عند محاكمته التعهد بعدم التجمهر والاقتعاد بقارعة الطريق وأقفل باب السجن على الشيخ تطبيقاً للقانون، وكأن الإنسان خلق من أجل القانون لا أن القانون خلق من أجل الإنسان، وسجنت بريطانيا السلام ووجد الفيلسوف نفسه في سجنه حراً كما لم يكن حراً من قبل واتسعت جدرانه لتحضن كلمات الناس الطيبين الذين إنهالت

برقياتهم عليه، بعد أن أذابت أقفال الحديد والأسوار العالية لتستقر بين يديه كحكايات حلوة تتحدى أسوار السجن والسجان.

- الكتاب المقفل -

إن الإنجليز بطبيعتهم يميلون إلى الهدوء لدرجة أن وجوههم المحمرة تظل جامدة لا تطفو عليها الإنفعالات وكأن أغوار نفوسهم ليس لها قرار لأنها تعاني الفراغ ونادراً ما يرتفع الدم إلى الوجه كعلامة لغليان داخلي وعندئذ لا تنتظر منه مرونة عندما تطل من العين الصلابة والصرامة في نظرة حمراء، والمواطن الإنجليزي ليس كتاباً مفتوحاً تستطيع أن تقرأه عند الوهلة الأولى إنه حزمة من الأوراق تشغلك ما بها من كتابة ورموز وعندما يتكلم يكون نصف حديثه غير مفهوم لأن ملامح الوجه جامدة تبقى كما هي بدون انفعال، لا تعطي للكلمات لونها وعمقها ودلالتها، إذ كثيراً ما تعبر تقاطيع الوجه عن المعنى قبل أن تؤدي الكلمات مضمونها من أجل ذلك تكون انفعالات الوجه بمثابة أداة إبانة عن المفاهيم المحتملة وتتحقق بذلك وظيفة ملامح الوجه عندما تنحسر عن المحتوى الداخلي الوجداني، كذلك تكون كلماته تحتمل أكثر من معنى ما دامت صفحة الوجه متجمدة لا تظهر عليها موجات النفس التي تساعد المستمع على التلقي وتشده إليها تلقائياً وهكذا كان الإنجليزي كتاباً مقفلا غير مقروء.

- نوافذ مقلوبة -

والإنسان هناك أشبه ما يكون ببرج قديم نوافذه مقلوبة تفتح على الداخل فهو مشغول عما حوله بنفسه لا يسمح أبعد مما تصل إليه دقات قلبه إنه يكاد يجهل كل شئ عن جاره الذي يشاركه في الجدار فهو لا يزيد في علاقته الاجتماعية معه عن إيماءة وتحية ونصف ابتسامة باهتة ثم لا شئ غير ذلك فليس هناك تقليد تبادل الزيارات بين الجيران، أو محاولة معرفة أخبار الجار والاهتمام بأمره واللقاءات العفوية التي تحصل بين سكان العمارة أمام باب المصعد أو على ناصية الشارع أو بممر الحديقة لا تطول أكثر من لحظات لتبادل كلمات عادية وعادية جداً فاقدة لدفء العاطفة ثم لا تلبث أن تتلاشى ويمتصها الهواء ويتلمس كل طرف طريقه لا يلوي على شئ في عجلة ظاهرة كأنه على ميعاد خطير، والقوم هناك لا يمشون وإنما يهرولون لأنهم في سباق دائم مع الزمن الذي يجري وهم يلهثون خلفه على أرصفة الشارع وفوق سلم القطارات، وكم يودون أن تكون أسرة نومهم التي

يهجعون عليها ليلاً بها أقدام هى الأخرى لتسعى وتكمل عملية التسابق مع الزمن التي تتوقف عادة عند ساعات النوم، وربما كانت الأحلام التي تطوف حول وسائدهم وهم نائمون لا تخرج عن حلم السرعة فمسابقة الزمن تمتص كل أفكارهم حتى عقلهم الباطن وطبعت شعورهم بطابعها الذي لا يرحم، لذلك نراهم عندما يسافرون إلى مسافات بعيدة يفضلون ركوب القطار أو الطائرة التي ترحل بالليل، لأنهم يريدون سبق الزمن حتى وهم نيام ليجدوا أنفسهم عندما ينهضون من النوم قد وصلوا إلى غايتهم بعد أن يكون القطار أو الطائرة قد قطعت مسافة الرحلة بالليل أثناء إغفاءة المسافر الذي استغل ساعات نومه في التسارع مع الزمن وبذلك تتأكد الرغبة في استمرار التسابق حتى خلال النوم.

حلقة 21

- بخار الحساء -

أغلب أفراد الأسرة لا يجتمعون على وجبة الظهيرة إلا لماماً وفي مناسبات الأعياد لأن سباق الزمن يشغلهم فالأطفال بالمدرسة لا يعودون لبيوتهم إلا عند العصر ويتناولون طعامهم بالمدرسة والرجل لا يعود لبيته ظهراً لأن عمله يحبسه ولا يسمح له الوقت، إلا بقدر ما يصيب بضعه لقمات على عجل يدفعها إلى جوفه وهو لا يشعر إن كانت حامضة أو حلوة، والمرأة غالباً ما تكون هى الأخرى موظفة أو عاملة وتناولها لوجبة غذائها ليس أحسن حالاً من الطريقة التي يضطر زوجها لاستعمالها في محل العمل أما إذا كانت ربة بيت فإنها تقضي يومها تنجز أعمال الأسرة تتعهد جنينة المنزل بما تحتاج له من عناية. وتتناول أكلة الغداء وهى أيضاً معه بسرعة بالمطبخ في أغلب الأحيان لتتفرغ لإكمال واجباتها البيتية وليست جامعة للأسرة مثل وجبة الإفطار التي يختلفون بها كثيراً ويتناولون فيها أكلة كاملة تحتوي على اللحم والبيض والفاكهة والزبدة واللبن والمربى وغيرها وهم يفعلون ذلك باعتبارها أهم وجبة، إنها تأتي بعد أطول فترة صيام في الأربع والعشرين ساعة بعد ساعات الليل بطولها وعرضها وبدقاتها في الظلام وهى تتمطط في استرخاء، ووجبة المساء التي هى دون وجبة الإفطار في الدسامة تحرص الأسرة فيها على الاجتماع للاستماع بالتحقيق على المائدة فتتقابل الوجوه على ضحكة أو حديث، كما تشترك في الحساء الذي يرتفع بخاره من كل صحن لينعقد ثم يتلاشى في الفضاء فوق خوان المائدة.

- قلق وضياع -

والجيل الجديد في انجلترا - الذي عاش تجربة حياة الحرب العالمية الأخيرة أو الذي ولد خلالها - عدد كبير منهم أصيب بتمزق وهو يخفي شعوره بالضياع والقلق، وبالتالي يعيش أزمة نفسية حادة هزت وجوده الداخلي كأعمدة الدخان التي ارتفعت في كل شارع من أغلب البيوت عقب الغارات الجوية طوال ليالي الحرب، وقوائم قتلى الحرب الطويلة التي تصدرها وزارة الدفاع يومئذ ومنظر المشوهين العائدين من الميدان كل ذلك جعل الرؤية مهزوزة عندما ينظر إلى القيم السلوكية إذ أصيب الناس بما يشبه الصدمة عندما رأوا بأعينهم أن من يقتل أكبر عدد من الأبرياء ومن يملك القدرة على التحكم في أعصابه، ويصب اللهب والحديد على المدن والقرى يعتبر بطلاً ويستحق التكريم، وهذا يشكل عملية محو كامل لمبادئ الخير والسلام التي تلقن للأطفال على مقاعد الدراسة بالمدارس، لذلك كان التمزق ميزة العصر وأصبح عدد كبير من شباب الجيل أسقطوا من حسابهم الوازع الأخلاقي وفقدوا الجانب الروحي في نفوسهم حتى أن منهم من لا يتحرج من أن يقول إنه حر يفعل ما يريد ما دام لا يضر أحداً ولو خالف المألوف ولا يجد غضاضة في أن يقول لأبويه مثلاً إنه ملحد ولم يعد يؤمن بدين وأن تعميده وهو طفل بالكنيسة قد ضاع ولم يبق منه شئ ومنهم من صارت هوايته ممارسة طقوس دينية مختلفة في آن واحد وكأنها لا تختلف في شئ عن القميص الذي يرتديه ويخلعه مرة بعد أخرى.

- المفتاح -

والفتاة عندما تبلغ - سن الرشد - واحداً وعشرين عاماً تقام لها حفلة عائلية وأطرف ما يقدم لها كهدية علبة مغلفة بورق مذهب تزينها ربطة شريط وردي، وعند فتحها تكون المفاجأة، إنه مفتاح ولا شئ غير ذلك يرقد في تلك العلبة الجميلة هانئاً يرمز إلى بلوغ الفتاة مرحلة من العمر يسلمها أهلها فيها مفتاح مستقبلها تستطيع أن تستعمله بالطريقة التي تراها وهي غير ملزمة بالرجوع إلى أهلها عندئذ، ولكنها تتحمل وحدها مسئولية تصرفها إن هذا المفتاح ظل وديعة بأيدي والديها قبل هذا التاريخ ولكن بعد ذلك تجد نفسها سيدة من الجهد والتعب لا يخلوان من العرق وفي بعض الأحيان من الدمع وتعيش تجربة الخطأ الصغير في طريقها إلى الصواب، أما إذا كان الخطأ تحول إلى انحراف وأسيء استعمال المفتاح فإن المنحرفة لن تجد رحمة من المجتمع وسيلفظها أقرب الناس إليها باعتبارها من الزوائد الغريبة المتحتم طرحها بعيداً.

لا يشعر الإنسان بمسئوليته كما يشعر بها في ديار الغربة عندما ينظر حول نفسه ليجد العيون كل العيون تتجه إليه باعتباره يمثل أمته العربية لأن تلك العيون ترفض أن تقر له بحق التصرف الفردي بل تصر على أن يعتبر حتى أعماله الفورية ترشح عن مجموعة أخلاقية وسلوكية كثفتها البيئة العربية داخل الإنسان العربي على مرور الزمن بحيث لا ينظر إلى عمله الفردي إذ عبر هذا الإطار الذي اتخذته العيون الأجنبية جزءاً من الصورة التي لا تتكامل إلا به، ويعتقد الأجنبي أن أية حركة يقوم بها العربي ولو كانت جانبية فهى لابد صادرة عن رواسب معطيات تاريخية وتراثه التي تشكل طبيعته وتحدد شخصيته وتعطيه القدرة على اتخاذ مواقف معينة عندما تطرح عليه الحياة المشاكل والأحداث لذلك يضع الإنسان العربي في حسابه بأرض الغربة أنه يمثل أمته وهو مدعو في الوقت نفسه لأن يضع أمام العيون بلاده وشعبه وقيمته من خلال تصرفاته باعتباره رد فعل للمواقف التي يجد نفسه تجاهها غير مختار ؟.

- مؤتمر فلسطين -

وعلى ضوء هذا التشكيل السيكولوجي يتصرف في الغالب تصرفاً مشرفاً لبلاده لتثبيت الشخصية ووضعها بالكامل الذي يتواءم مع الفكرة الحضارية المعروفة عن الأمة العربية، وقد تجسدت هذه الصورة في المؤتمر العربي المنعقد في 1962/5/13م بمدينة لندن من أجل فلسطين والذي شارك فيه الطلاب العرب وسفراء الدول العربية في بريطانيا والجاليات العربية والإسلامية هناك، كما حضره الأحرار من الإنجليز وغيرهم الذين آمنوا بكرامة الإنسان وحقه في بلاده وشهدت المؤتمر ومعي زميلة لي إنجليزية لأفسح لها المجال لمعايشة مأساة العرب في فلسطين حتى تتمكن من إجراء عملية غسل الدماغ لإزالة ما علق به من مفتريات الصهيونية التي تسخر الصحافة والإذاعة لخدمتها ... افتتح المؤتمر بكلمات أساتذة وطلاب عرب انطوت على التنديد ببريطانيا التي خلقت إسرائيل بمساعدة أمريكية واتفق المتحدثون على أن إسرائيل لا يمكن أن تعيش لأنها دخيلة على المنطقة ولأن العرب خططوا نهايتها عندما خطط الاستعمار بدايتها، وتحدث أستاذ الجامعة ومؤلف إنجليزي وقد سبق أن كان أستاذا بعدد من الجامعات بالشرق الأوسط وقد لمس قضية فلسطين لمساً علمياً مركزاً ناقش مزاعم الصهيونية وأظهرها بمظهر المغتصب ووضعها أمام قدرها

المحتوم. فالتاريخ ضدها لأنها حاولت تزييفه والحق تبرأ منها لأنها عملت على تطويعه لخدمتها، وانتهى إلى أن اليهودية دين وليست قومية، ووجود اليهود حالياً بفلسطين لا يجعلهم مواطنين لإسرائيل لاختلاف جنسياتهم واتجاهاتهم لدرجة أن الحكومة لا تساوي بينهم في المعاملة، وبالتالي فإنهم يفتقدون الوطن لأن جزءاً منه اغتصبوه من أهله العرب بالقوة والجزء الثاني اغتصبوه من هيئة الأمم المتحدة بالقوة أيضاً.

- يخجل لأنه إنجليزي -

- وترفض يدها -

... وهكذا انعقد المؤتمر حول الكلمة النظيفة شارك فيه أحرار من مختلف الجنسيات غير إننا أثناء انعقاد المؤتمر وقفت فتاة في حالة عصبية هستيرية تقاطع الخطيب ومنتصرة لإسرائيل ... ولاحظت خروج عدد من الرجال والنساء قبل انتهاء المؤتمر واعتقد أنهم من اليهود لأنهم عجزوا عن مجابهة الحقيقة متعصبين للعنصرية وللعرق ولليهودية ...

- وضحكوا منه -

عند فتح باب الأسئلة بعد انتهاء الخطب سألت إحدى الحاضرات المتهودات قائلة تحدث أغلب الخطباء عن فضائح إسرائيل تجاه العرب ولم يتحدثوا عن فضائح حكومة مصر عندما طردت اليهود خلال أربع وعشرين ساعة أبان حرب السويس سنة 1956م فأجابها أحد الخطباء العرب بقوله : إن ذلك لم يحدث إلا للأجانب الخطرين على سلامة البلاد المخربين والجواسيس فقط وهو عمل مشروع للدولة يمكن أن تمارسه بريطانيا ضدك إن كنت أجنبية ورأت وجودك في بلادها غير مرغوب فيه، وتكلم شيخ مسن ذو لحية طويلة تدل ملامحه وأنفه المعكوف على أنه يهودي كلامه تشم منه العنصرية والتعصب، كلامه غير مفهوم سيطر عليه الغضب فضحك منه الناس وعقب عليه الذي يدير الجلسة بقوله : إن الأسئلة هى التي تجد جواباً لدينا أما الثرثرة والهذيان والغموض فلا مكان لها هنا.

حلقة 28

- النداء البعيد -

هناك في لندن البلد البعيد حيث الجزر البريطانية تتكسر على صخورها السور القديمة أمواج المحيط الآتية من الآفاق النائية مدينة التسعة ملايين من البشر يتواجد بها حوالي مائتى ألف مسلم.

- **عندما ترحل البلدان** -

ففي أوائل شهر مارس سنة 1962م كنت مع زميلات لي من الملايو وأندونيسيا وإيران وتركيا على الدرب في طريقنا إلى مسجد شاه جهان في ضاحية من ضواحي لندن بمنطقة ساري ووكينج لأداء صلاة عيد الفطر وهى منطقة جميلة، وفي ذلك الصباح الهادي لا يسمع فيها إلا صوت مرتل القرآن عبر الميكرفون يتماوج مع الأشجار السامقة في ذلك الصباح الطري، ويعتبر من أهم المراكز الدينية الإسلامية بأوروبا يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة 1889م عندما شيده مسلمو الهند وأسموه باسمه الحالي الشاه جهان، كانت الطرق المؤدية إلى المسجد تدفع جماعات المسلمين إليه فكنت أرى المصلين في رحاب المسجد يرتدون الألبسة الوطنية لبلادهم فالهنود بعمائم والسودانيون بجلابيبهم والباكستانيون بسراويلهم البيضاء الضيقة وكثيراً منهم وأثناء وجودي في بريطانيا أتيحت ... (محذوفة) حضرن مع أزواجهن في ثياب شرقية مزركشة أغلبهن يرتدين الساري الهندي - كما حضرت للمسجد البعثات الدبلوماسية الإسلامية بما فيها السفراء والوزراء والطلبة المسلمين وعدد كبير من الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام والمستشرقين إنه لمنظر مهيب يضم المسلمين من كل جنس وصوب من مدغشقر وغينيا الجديدة وسيلان والصين واليابان والبلاد العربية وحتى من أمريكا وغيرها فيشعر الإنسان أن العالم الإسلامي العريض تفتحت نوافذه أمامه وبدل أن يرحل إلى تلك البلدان البعيدة ترحل تلك البلدان إليه فيعيش مع شعوبها حياة تلك الأصقاع من خلال لباسهم القومي وعاداتهم التي تطفو على سلوكهم الشخصي وتراثهم وبالتالي يحس أنه غير منفصل عن الزواج بالإنجليزيات أو الأوروبيات ... وقدر هذه الأقوام التي لا يكون من السهل بعض الأحيان التفاهم معها لغة وقد يشعر الإنسان لأول مرة بتفاهة وظيفة اللغة لأن التفاهم معها عقيدة متكاملة ؟

- **ضيافة الله** -

فالمسجد لم يسع تلك الآلاف من الناس فضربت الخيام لهم بالحديقة وافترش الآلاف منهم الأعشاب في العراء وعند أداء الصلاة انفصلت النساء عن الرجال ووقفوا جميعهم أمام الله بعد أن تجردوا من هموم الدنيا وأهوائها بكل أثقالها.

وفي قلب لندن يقع مسجد آخر هام هو المركز الثقافي الإسلامي الذي كثيراً ما نسمع منه آذان الصلوات يتصاعد من فم مؤذنه الباكستاني تتأرجح فيه نبرات غريبة حلوة يفتح

قلب سامعه على ملكوت الله المختوم، ونقش بجداره رأس الحكمة مخافة الله وقد حضرت فيه صلاة عيد الأضحى لشهر مايو 1962م مع زميلتي الاندونيسية.

... إمام المسجد الباكستاني د. علي عبد القادر ... كانت الخطبة بالإنجليزية، دعا للمسلمين والعرب والفلسطينيين، ويقضي المسلمون يوماً جميلاً في مسجدهم يتعرفون على بعضهم بعضاً، وقد تعرفت أنا في ذلك اليوم على الأميرة عائشة ابنة ملك المغرب الراحل محمد الخامس التي حضرت هى الأخرى لأداء صلاة العيد وكانت أميرة طيبة يحمل رأسها أكثر من فكرة جميلة بناءة، والمسجد به مكتبة ومدرسة لتعليم أبناء المسلمين وتدرس اللغة العربية للمسلمين والأجانب، فالمساجد هناك ليست دور عبادة فقط بل هى مركز للإشعاع الفكري بها المكتبات والمدارس والنشاطات الاجتماعية بها صالات للسينما وقاعات للاجتماعات والمحاضرات ولجمع التبرعات لصالح المغتربين أو لإرسالها لأوطانهم ... وأغلب عواصم الدنيا بها مثل هذه المراكز إلا عاصمة إيطاليا - روما - فلم يسمح للمسلمين فيها بإقامة مسجد لأن الفاتيكان يعارض ذلك.

الحلقة 29

- قف أنا التاريخ -

إن الأمة عندما تجسد تاريخها في أعمال أدبية تضمها دفات الكتب أو في تماثيل بالميادين تقول للغادي والرائح قف ها أنا ذا أنا التاريخ لا يتجاوزه السنوات والأجيال لأنها مهما دارت تجد نفسها أنها حول التاريخ، وبالتالي لا يمكن تجاوزه. وستبقى الأيام والسنون مجرد أرقام دلالة رقمية لأن دلالتها أصغر من التاريخ فهى لا تدل عليه بقدر ماهو يدل عليها لأنه التاريخ أكبر من زمن، من الأرقام، من الرقم المهمل.

والأمة التي قدرت تاريخها فترتفع به إلى مجال التقديس وتجعله يرقى إلى مرتبة التصورات العقائدية المرتبطة بالانفعالات الروحية الدينية فتستوحي منه وجودها المتصل بقاعدة تراثها وتأخذ عنه كل معطيات أمجادها وعزتها. هى الأمة التي تبدو للدنيا بوجه حضاري تميزها عن غيرها، إغناء المجتمع بكل ما في تاريخها من تراثها وتأخذ عنه كل معطيات أمجادها وعزتها. هى الأمة التي تبدو للدنيا بوجه حضاري يميزها عن غيرها، إغناء المجتمع بكل ما في تاريخها من تراث إنساني. والشعب البريطاني عندما يحتفل

بالشاعر العظيم ، وليم شكسبير1564 - 1616 فإنما يحتفل به كإنسان لا يزال يعيش حياته بعد أن عجز الموت عن عزله في دائرة الفناء والنسيان. بينما الناس العاديون من أهل عصره شبعوا موتاً وليس لهم من وجود بعد أن ضرب الفناء سوراً عالياً بارداً برود الموت، بينهم وبين الحياة وليس من يذكرهم.

- حنين مهد -

لقد اتخذ القوم هناك من مدينة شكسبير - سترات فوردان أفن - التي تبعد عن لندن بحوالي 100 ميل وتقع على نهر أفقي - مسقط رأسه محجاً يزار طوال السنة يؤمه آلاف من الشعب والسياح فلا يزال بيته يضم أثاث أسرته على حالة بل إن مهده الذي كان يتمدد فيه على ظهره وهو طفل وعيناه مسمرتان بالسقف لا يزال هذا المهد الخشبي في موضعه يشكو من فراق صاحبه ولا تزال مرائى الأثاث القديم تتحسر على الزمن الغابر الذي كان فيه أفراد أسرة الشاعر يقفون أمامها يصلحون من شأنهم ويتأملون في أحداق عيونهم في أعماق عيونهم محاولين معرفة سر الحياة، والزائر لبيت الشاعر وهو يتجول داخل حجراته وعبر ممراته، يسيطر عليه شعور قوي بأنه سيلتقي بالشاعر وجهاً لوجه في لحظة مفاجئة لا محالة على باب إحدى الغرف أو بأحد الممرات وشعره مسدل على كتفيه وبلباس أهل القرون الوسطى. بل إن الزائر يخيل إليه أنه يسمع خفقات أحذية أهل البيت الراحلين وحفيف أثوابهم ويكاد يحس بأنفاسهم تتردد في جو البيت يقول لك الدليل أن هذه الخزانة الخشبية طالما فتحها الشاعر لينتقى منها الثواب الذي يرتديه وهذا الكرسي كثيراً ما جلس عليه ليكتب وليكتب لا لجيله فقط ولكن للأجيال القادمة أيضاً، وتلك المنضدة التي تناول فوقها غذاءه اليومي والأدوات التي كان يستعملها في عصره حتى البيانو - المعزف الذي كانت أصابعه تمر فوقه فترتفع منه الأنغام - والمكتبة التي لا تزال كتبها تحمل صفحاتها الصفراء رائحة الشاعر لا تزال بادية عليها بصمات أصابعه وهو يقضي الساعات الكثيرة من ليل بريطانيا الطويل بفصل الشتاء وما أطول لياليها الباردة التي ليس لها آخر وهو يصطلي بنار الحطب للتدفئة ووجهه يتراقص عليه ضوء القنديل البدائي يستصبح به، ولا تزال كتاباته بخط يده على منضدة الكتابة بالبيت وكأنه فرغ منها لتوه.

- وجد جمهوره -

ولد الشاعر من أب مزارع وصانع قفازات في مدينة - سترات فورد - وتجاوزت أعماله الأدبية الخالدة حدود بلاده وراحت تجوب البلدان واستطاعت أن تتخطى حواجز اللغات لأن اللغة نفسها طوعت نفسها لنقل هذه الروائع وحملت أقصى ما تتحمله الكلمة من أجل الإبداع الفني، ولم يعد تباين اللغات معوقاً لدخول هذه الأعمال الفكرية الرائعة لآداب تلك اللغات. لقد كان شاعراً وروائياً وجد جمهوره على أرضه وحتى خلف حدود بلاده وهذا الجمهور يتجدد مع الزمن ويزداد تعلقاً به على طول المدى ولا يمر يوم دون أن تعرض رواياته على المسرح والشاشة والتليفزيون في كل بلاد العالم.

- وعرى اليهود -

فالمشاهد لروايات - شكسبير - التراجيدية تهتز وتتحرك عواطفه ويشعر بعد العرض بأن نفسه اغتسلت في الكلمات التي خدمت عذابات الإنسان ولابد أن يبكي ولا يهم أن تكون الدموع من العين أم من القلب ولكنه بكاء على اية حال.

أما رواياته الكوميدية فهى مليئة بالمرح تحبب للمشاهد الحياة وتؤكد له أن العالم يمكن أن يكون أجمل وألطف مما هو الآن لو سلم من المجانين، وتقول رواياته إذا كانت نهاية حب الشباب الزواج ونهاية الشيوخ الثرثارين الصمت فإن الحكماء وحدهم يعيشون حياتهم طولاً وعرضاً بلا نهاية لأنهم مرحون ضاحكون متفائلون. لعل من أسباب قوة روايات شكسبير ونجاحها اتصالها بواقع الناس المعاش في مضمونها، كما أن ديناميكية مؤلفها المتعلقة بعدة صفات ذاته الشخصية جعلت أبطال رواياته يتسمون بالحركة اللولبية والحيوية فكأنه يمسك بهم عن طريق أسلاك خفية ليؤدوا أدوارهم بالحركة قبل الكلمة وتصرفاتهم تدل على أخلاقية معينة من أجل الإنسان والحياة، وكثيراً ما تشحن عقدة الرواية الجو المسرحي بانفعالات تفرض على النظارة فيحسون بالحيرة والتمزق والقلق. أما لغة الحوار فلا أجمل ولا أحلى يقدر كل حرف منها هز خفايا المرء وتحريك أنبل عواطفه وبالتالي فهى تتمتع بإنسانية عميقة أنها طريقته في التعبير المؤثرة قراءة وسماعاً ومشاهدة وهذا يرجع إلى حب الشاعر للناس وتفتحه على مشاكلهم ولا أدل على ذلك من رواية تاجر البندقية التي فضح فيها اليهودي المرائي الذي يتعامل بدم مدينه فكشف عن غدر اليهود الذي يجري في دمائهم ويشكل جزءاً من طبيعتهم المؤذية للناس كل الناس غير اليهود وبذلك أعطاهم حقيقتهم وعراهم أمام أنفسهم.

والزائر لبيت الشاعر بمدينة سترات فورد لا يحرم من زيارة الكنيسة التي تضم ضريح الشاعر وقد بدأ بقرب المذبح مع قبور أفراد أسرته تتصاعد من حولهم بخور الرهبان وأنغام الأرغن عند كل قداس.

تمثاله في الحديقة، متحفه الخاص أما تمثاله الرائع الذي يبدو فيه وقد اسند رأسه على كفه مفكراً وهو بلياس عصره القديم تحف به أربعة تماثيل وقد نقش على قاعدته أبيات من شعره فهو يقع بجنينة جميلة حياله نافورة.

أذكر كلمة قالها أحد قادة العسكريين الإنجليز : إن بريطانيا مستعدة لتتنازل عن إمبراطورية ولكنها غير مستعدة للتنازل عن شكسبير.



قصيدة باب البحر

د. خليفة التليسي

يصفونهم، فيقولون عنهم، إنهم أصحاب (كَيفْ) والكيف هنا، معناه أصحاب مزاج، وأبناء ذوق يجمعون فيه بين أخلاق الفتوة كما رعاها العرب القدامى، نجدة، ونخوة، وفزعة، وغيرة، وشهامة إلى غير ذلك من الصفات الإيجابية التي تلخصها كلمة المروءة، وبين أخلاق الشاب الظريف في الاستمتاع باللحظة الهاربة، والسعي إلى اغتنامها عند هبوبها ؛ وقد علمتهم أخلاق البحر أن الريح الشرقية لن تظل شرقيةً إلى الأبد، كما أن الريح الغربية لن تظل غربيةً، وأن لكل هامدة هبوباً ولكل خامدة صعوداً، وأن الأيام دُول، من سره زمن، ساءته أزمان . وكونهم أصحاب (كيف) يعني إنهم ليسوا بخلاء لا على أنفسهم، ولا على غيرهم وشعارهم (اصرف ما في الجيب يأتِ ما في الغيب) والكيف يستعمل عند العامة بمعنى محدد ضيق، هو صداقة المُدَام، وهذه أيضاً يعطونها حقها،

ولهم تقاليد فيها موروثة ؛ وقد ينفقون مكسبهم فيها وهم يرددون (رزق الماء يمشي في الماء) أي ما جاء من الماء ينبغي أن ينفق في الشراب .

وفيهم من يوفق توفيقًا رائعًا بين أشواق الروح وشهوات الجسد ؛ فترى له فلسفة المتصوفين وسلوك العابثين المتحررين، وحين تسأله عن هذا التناقض في المسلك يقول لك (واحدة لله وواحدة لعبد الله) أو (أدِ الفرض وأثقب الأرض) على أن فيهم فعلاً من يعاني هذا الصراع، فيبلغ به في أعماقه ما بلغه بعض الأدباء والفنانين من صراع بين شهوات الجسد وأشواق الروح .

وقد يَستهلُ حياته ابنَ كَأس، ويختمها مع أصحاب المواجد الصوفية، وكانت تعيش في أعماقهم ثقافة خاصة خلقها التعامل مع البحر الأبيض المتوسط، وقد مستهم بإرادة منهم أو غير إرادة، أخلاق القراصنة وهناك عائلات ترجع أصولها إلى هؤلاء القراصنة، وقد اعتنق بعضهم الإسلام، وأقام بهذا الحي، فنقل شيئًا من سلوكه، وشيئًا من حكاياته وأساطيره، وأحاطته البيئة بشيء من التسامح والتغاضي تشجيعًا له على إسلامه . وكانت البيئة نفسها محكومة بهؤلاء القراصنة الذين بلغ بعضهم سُدة الحكم .. فصار والياً على البلاد، وكان بالأمس مجرد مغامر يمارس الغزو في أعالي البحار . فهو نفسه كان رقيق العقيدة لحداثته فيها مثل محمد الساقزلي وعثمان الساقزلي .

وباب البحر مِصهر عجيب لشتّى الأجناس، فلن نجد في أي حي من أحياء المدينة هذا العدد من الأجناس المختلفة من عرب ويهود ومالطية وإغريق وطليان، وحتى أسبان وأرمن، فضلاً عن أن داخل العنصر العربي الإسلامي عناصر صغرى، فيها من عرب وبربر الجبل، وفيها من فزان، وفيها من جربة وقابس وصفاقس وقرقنة ما ظل بعضهم يدل عليه بلقبه اللاصق به ؛ ولكل هؤلاء شخصية، ولكل هؤلاء ألوان تذوب كلها في هذه الأسرة الكبيرة التي اسمها باب البحر . وليس من المبالغة في شيء إن تقول أن باب البحر كان (قبيلة واحدة) وإن الشيوخ في هذه القبيلة يعرفون كل شيء عن أفرادها ؛ فيكفي أن تقف أمام أحدهم حتى ينسبك على الفور، ويحدثك عن جدك وجدتك من الطرفين وأخوالك وأعمامك، وقد يسميهم لك واحداً واحداً، وقد يسألك عن أحوالهم واحداً واحداً ؛ وهذا أمر لا تلمسه في غير هذا الحي، حيث الحياة مغلقة، والفردية متحكمة في غيره من الأحياء .

هذه حياة باب البحر كما أدركناها في نهاياتها، وغروب شمسها ؛ أما اليوم فلم يبقَ منها إلا ما بقي من الطلل العربي القديم، وقفة شاعر يرثي ذكرياته ويستعيد أيامه .

وابنة باب البحر الأصيلة تتميز بجميع الصفات الإيجابية التي للرجال، وتزيد عليها أنها الحافظة لتقاليد الحي ؛ وكان يقال عنها .. إن (بنت باب البحر ترقص على هبّات النسيم) وهم يعنون بذلك ..أنها طروب تستقبل الحياة بفرحة غامرة، ومثلما يقوم الرجل بدوره في الحياة الاجتماعية الرجالية، فهي أيضا تقوم في إحماء الأفراح والأتراح في المجتمع النسائي، واللباس النسائي الطرابلسي القديم الذي شاع اليوم، فصار إلى ما يشبه اللباس الوطني، إنما هو لباس المرأة الساكنة في باب البحر ؛ هو اللباس الذي كان يجلبه البحارة، من موانئ نابولي وجنوا وفينسيا، أو هو ما يعودون به في الأصل من غنائم الغزوات البحرية، وكانوا يعودون من هذه الغزوات باللباس ولابسة اللباس ؛ وما من شك في أن في ملامح بعض نساء باب البحر ما يعود بأصوله إلى الموانئ الإيطالية، ولا ينعكس التمازج العرقي كما يمتزج في جزر البحر الأبيض، التي تعرضت للتداول والتناوب بين المتصارعين، مما ولد جنسًا ظل حتى العصر الحديث يفخر بانتمائه إلى أجناس البحر الأبيض المتمازجة ؛ وعلى الجملة فإن المستوى الحضاري الأعلى في المدينة إنما كان يمثله هذا الحي بحكم انفتاحه على البحر الأبيض المتوسط، وكنتُ ذات مرة أمازح بعض الأصدقاء وأفاخره بهذا الحي فأقول إذا كانت مدينة طرابلس هي عاصمة البلاد، فإن باب البحر هو عاصمة المدينة ؛ وقد فكرت ذات يوم في كتابة فذلكة تاريخية عن (باب البحر) فوجدتني أكتب (حكاية مدينة) بحالها لأراها كلها في هذا الحي ؛ والشواهد التاريخية تدل على ذلك ؛ فهذا قوس ماركوس أوريليوس الذي وقف أمامه (العبدري) مشدوهًا، يعود بنا إلى أهمية الموقع الذي نصب فيه، وكذلك الحفريات التي تدل على الأصول القديمة للمدينة الفينيقية، وتتابع الشواهد حتى تدرك عهد الاحتلال الأسباني لقلعة طرابلس، ثم تسليمها بعد ذلك إلى فرسان مالطا، ثم استيلاء الأتراك عليها . وأكثر البناءات المعمارية التي تعود بها إلى هذا العصر كانت في باب البحر، ومنها مسجد درغوت، ومدرسة عثمان باشا ؛ ثم في العهد القرمانلي والعهد العثماني الثاني حيث كانت مقار القنصليات، وهيَ في الواقع سفارات ذلك العصر ؛ بل كان القنصل يتوفر على امتيازات، وحرية في التصرف، وتمثيل دولته، واتخاذ المواقف الفورية أكثر مما ينعم به السفير الممتاز (فوق

العادة) في عصرنا الحديث ؛ وقد كانت للقنصلين الفرنسي والإنجليزي أدوار سياسية كبيرة في دعم الأسر الحاكمة أو الولاة أو الإطاحة بهم وفقا لمصالح دولهم ؛ وكانت طرابلس مسرحًا للصراع الإنجليزي الفرنسي على البحر الأبيض المتوسط وقواعده ومداخله، وقد أقام القنصل الإنجليزي وارنجتون 32 سنة قنصلاً للمملكة البريطانية حتى لقب ذات يوم بأنه (باشا طرابلس) .

وبنت باب البحر هذه يسري عليها ما يسري على بنات المدينة، تجلى للناظرين حتى العاشرة، فإذا أخذ الهوى في الاحتفال، حجبت ومنعت من الخروج إلا في صحبة رجالية أو نسائية من أقاربها ؛ وللبنات ألعابهن وللذكور ألعابهم الخاصة، فإذا تجرأت إحداهن ولعبت مع الأولاد أو وقع الاشتباه بأنها لعبت مع الأولاد، فسرعان ما تعير بذلك، وهناك ترديدة مشهورة ترددها البنات في تعيير من تلعب مع الذكور (لعَّابَةَ مع الوُلِدَّة رُكَابَةَ فوق السُدَّة) والركوب فوق السدة تهمة خطيرة، ومع ذلك كان يتم هذا الركوب فوق السدة في غفلة، ويكون فيه شيء من العبث الطفولي البريء الذي يقتصر على الشمة أو الضمة ؛ ويدل هذا القول على صرامة الحجاب في هذه المدينة .

إن مجرد الدخول في لعبة بريئة مشتركة يجر هذا الاتهام الخطير؛ فانظروا على أي مفاهيم انفصالية نشأ جيلنا ؛ لقد كان مجرد النظر إلى وجه فتاة حظوة كبرى لا يمكن أن تظفر بها إلا خطفًا، حين تقف وراء باب موارب ترقب به الحياة التي تجري وراء الأسوار، أو تعدل (بنبوكها) أمام جمع قادم من الشباب .

والبنبوك، ولست أدري ما أصله، هو الفتحة التي تنظر منها المرأة المحجبة بالرداء المحلي ؛ وتعديل البنبوك هو الذي صوره عمر بن أبي ربيعة حين قال (وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا) .. الحسن بطبيعته يرفض القناع، وهو هبة الله إلى البشر، فلابد أن يسفر عن حقيقته، ويتحايل في ذلك عن الشرائع السماوية والأرضية .

حتى شيوخ باب البحر وفقهائه ممن حصلوا على علمهم من المدارس والزوايا القريبة، وقليل منهم من رحل إلى الأزهر أو الزيتونة يتميزون بالتحرر العقلي والتيسير في فتاواه، ويتوفرون على رحابة وسهولة تذكرك بالفقه عندما كان عربياً خالصاً لا تعقيد فيه ؛ وهم على بساطة تحصيلهم الذي لا يرفعهم إلى مستوى الأعلام الكبار يشكلون مرجعيةً . وقد

أفتيت والدي مرة في ظرفه الصحي بالإفطار فلم يقبل مني فتواي، وقبلها من شيخ بسيط التحصيل لمجرد أنه شيخ معمم وله لحية، وقد أسعدني أن تكون فتواه مطابقة لفتواي، وهو دوني علماً وتحصيلاً، وكان هؤلاء الفقهاء البسطاء اللطفاء النبلاء يجمعون بين الفقه وحب الفن، فكانوا في (الحضاري) من أصحاب الذِكر ؛ وفي المألوف من أصحاب الفن ؛ كما كان بعضهم يتابع المجلات الشرقية ويستعملها في دروسه الرمضانية كالرسالة ونور الإسلام وما إلى ذلك من المجلات التي كانت تصل في تلك الأيام ؛ ويقبل أهل باب البحر على الدروس الرمضانية، ويتميز بعضهم بحافظة ناسخة تكاد تردد عليك من جديد الدرس كما ألقاه شيخه ؛ كانوا أميين ولم يكونوا جهلة، ونحن نلتقي اليوم بالجهلة غير الأميين ؛ فأنا أعرفُ من بعضهم معرفة بالفقه لمجرد ملازمتهم الدروس الرمضانية أو الدروس التي تعطى في بعض المساجد بعد العصر، أو حسب جداول مقررة، وفق تقاليد ثابتة قديمة، وهو يستطيع أن يرجع بك إلى مصدر الرأي والفتوى ممن تلقاه من الشيوخ، وكانت هذه الدروس تعتمد إحياء علوم الدين للغزالي، ورسالة أبي زيد القيرواني .

وليست لهم كهنوتية ولا ملابس خاصة يتميزون بها عن الناس، ولكنها ملابسهم الوطنية العادية التي يلبسها الناس في الشتاء، أو تلك الخفيفة الهفهافة الفضفاضة في الصيف .. وكنا نشعر لهم بتلك الهيبة الواجبة لهم بحكم السن والمكانة، وإن كان الشعور أخذ يتنامى في أنفسنا مع الزمن، وزيادة التحصيل بأنهم فقهاء متوسطون ومرشدون ووعاظ (على قد الحال) أي أنهم لم يكونوا من العلماء الأعلام .. ولكنهم أفادوا بعلمهم هذا القليل ما حفظ لهذه البيئة الفقيرة هويتها العربية الإسلامية عبر عصور متوالية منذ الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث، وليس هذا بالأمر الذي يستصغر أو يستهان به، ويقول شيخنا الجاحظ إنه يمكن لصاحب العلم اليسير المحدود أن يلقنه لمن لا علم له .

والحديث عن الدروس الدينية يقودنا إلى الحديث عن الجو الديني الذي كانت تعيشه المدينة بأجناسها المختلفة ؛ فالمعروف أنه كانت هناك جوالٍ أجنبية، أهمها وأكبرها – بحكم الوجود الاستعماري في العهود الأخيرة – هي الجالية الإيطالية ثم اليهودية ثم المالطية واليونانية، ثم أفراد متفرقون من الأسبان والأرمن ؛ أما الأجناس التركية أو الأرناؤوطية فهي مندمجة دائبة في المجتمع الليبي الإسلامي، فلا تكاد تتميز بخصوصية سوى خصوصية الامتياز الذي يعطيه لها أنها سلالة الأتراك الذين تحكموا في البلاد حيناً من

الدهر ؛ وكما كان الأتراك يتعالون على العرب، فإن العرب كانوا يسخرون دومًا من العقلية التركية ؛ وأنت إذا تأملت مساجد المدينة ومعابدها، رأيت ما نعنيه بهذا التسامح، فهذه كنيسة (سانتا ماريا دللي انجلى) وهي أقدم الكنائس في المدينة، تقع إلى جوار الكنيسة اليونانية الأرثوذوكسية إلى جانب مسجد درغوت باشا ومدرسة عثمان باشا ومسجد قرجي وجامع محمود، وتقام هذه الشعائر في هذه المعابد دون أن يكدر صفوها أحد، بل إن قرع النواقيس في الكنيسة كان أعلى صوتًا من الأذان الذي كان يؤَدي في هذه المساجد أداءً عَادِيًا مالكيًا، لم يعرف مكبرات الصوت في ذلك الأوان .

ويتحول هذا الجانب من المدينة في أيام الأعياد الإسلامية وأعياد الجوالي الأجنبية إلى مهرجان متعدد المشاهد متعاقب الأيام على غير ترتيب مقصود، سوى الترتيب الذي يقرره لها موقعها من التاريخ الهجري أو الميلادي أو اليهودي .

وحين استعيد صورة هذه الأعياد البهيجة، أتذكر العبارة الإيطالية الجميلة التي يستعملها الإيطاليون في أفلامهم وقصصهم وصفًا لهذه الفئات الاجتماعية وهي (Poveri ma belli) وترجمتها فقراء ولكنهم ملاح، والترجمة بالعامية أدق (فقراء ولكنهم حلوين) .. نعم إنهم فقراء ولكنهم ملاح ظراف .. حتى اليهود كانوا فقراء وعلى درجة رهيبة من الفقر والتعاسة والعوز، ولعل فقر القوم هو الذي أشعرهم بقرابتهم الإنسانية، وجعل هذا الجو من التسامح الديني، والتعايش الذي يسود علاقاتهم جميعًا .

وما من شك في أن أجمل موكب تعرفه المدينة كل عام، وأعظم مهرجان فيها هو خروج الزاوية الكبيرة والزاوية الصغيرة في مسارين مختلفين، يجعل المدينة تعيش يومها كله من صباحه حتى مسائه الأخير في حفل وبهجة لا نظير لها، تعبر فيه المدينة الصغيرة عن حبها لهذا النبي العظيم . لقد كان للأعياد رونق وطعم لا أدري كيف زال، وكان يزيد من هذا الحماس أنه وسيلة من وسائل التحدي للوجود الاستعماري، والدفاع عن الهوية ؛ ولابد أن يشهد المرء أنه رغم ما يحمله هذا المهرجان من هذه المعاني، إلا انه لم يتعرض للتعطيل أو التوقيف، لا في العهد الإيطالي ولا في العهد الإنجليزي، بل ربما اتهم الإيطاليون بتشجيع الطرق الصوفية سيرًا على السياسة التي سارها الفرنسيون في الشمال الأفريقي وقد وصفت هذه المهرجانات في كتب القراءة المقررة آنذاك، مما يدل على عدم التحسس نحوها .

وتتميز في هذا الموكب كل زاوية بلونها وخصائصها . وقد اشتهرت الزاوية الصغيرة بتفوقها في (المألوف) واشتهرت الزاوية الكبيرة ببروزها (بالذكر) فموكب الذكر في الزاوية الكبيرة موكب طويل مهيب ؛ وموكب المألوف في الزاوية الصغيرة بهيج رائع .. وقد يتقدمه قارب يجر بأشرعته فوق العربات للدلالة على هوية الزاوية كما تتقدم الزاوية الكبيرة الأعلام المعبرة منها، وتتخلل مشاهد كثيرة من الانجذاب، كما يجد الضاربون على الدفوف وبازات الذكر فرصة لزيادة الحماس إذا التقت عيونهم بعيون الملاح في النوافذ والشرفات، فهناك تسامح في هذا اليوم المشهود، وتبرع بالابتسامات والنظرات والزغاريد التي لا يجود بها الزمان إلا في مثل هذه المناسبات، أو في غفلة من غفلاته، كل ذلك ببركة النبي العظيم الذي قال : حُبِّب إلي من دُنياكُم ثلاَث، الطِّيب والنِّساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة . والطيب هنا هو ماء الزهر أو العطر الذي يرش مع الزغاريد من الشرفات والنوافذ ؛ هذا المهرجان بشكله الذي يتم به هو شكل نادر حتى في البلدان الإسلامية، ولم يتوقف إلا أيام الحرب، واستؤنف بحماس شديد عقب خروج إيطاليا، وربما كانت انطباعاتي عنه تعود إلى هذه الفترة بالذات ؛ نعم .. كنا جميعًا فقراء ولكننا كنا ملاحًا ظرافًا (حلوين) تجمعنا هذه المدينة الرائعة على ألفة نادرة ومحبة صادقة.

ويتبع هذا الموكب الكبير المكون من الزاوية الصغيرة والزاوية الكبيرة مواكب أخرى تابعة لطرق أخرى وزوايا أخرى، تكمل المشهد الكبير في ذلك اليوم أو الأيام الذي تليه، وتعقد تلك الأيام المخصصة في داخل الزاويتين خلال أسبوع المولد، مما يوفر جوًا لا نعرفه في الأعياد الإسلامية الأخرى .

ليس هناك سطوع للشمس أروع من سطوعها في هذا الحي، ولا إشراق أجمل من إشراقها فيه، ولا غروب أجمل من غروبها الذي يوزع الألوان الجميلة المتعددة بسخاء، وتتحول به السماء التي تتخذ ألوانًا مع كل درجة من ميلان الشمس والغروب، أما إذا كان الفصل خريفًا وتوزعت فزع من السحاب هنا وهناك، فإن الغروب يتحول إلى مهرجان للألوان العجيبة، وترى من بدائعه ما لا عين رأت، ولا يزال هذا المشهد قائمًا حتى اليوم لمن يريد متابعته في هذا الوقت، وكان ينبغي أن تكون العشايا فرصة لتأمل هذا الجمال، ولكن الحس الجمالي خَبَا عند الناس، فلم يعد يلتفت إليه حتى الذي يقيم بجواره، لنقصان التَّربية الجمالية التي يمكن أن تتذوق هذه الطبيعة الأخاذة ؛ وجميع الرسامين من فناني

الضفاف الشمالية للبحر الأبيض المتوسط استوحوا البحر وحياة البحارة، وربما ظفر البحر من العناية في الرسم بأكثر مما ظفر به في الأدب المكتوب، ولمنظري الشروق والغروب فيه وألوان السحاب مكان ظاهر .. هل هي نزعة متأصلة لعداء البحر وإغفاله ؟ تؤكدها ظاهرة حجب البحر . فما يكاد يقترب البحر منا ونقترب منه حتى نحجبه عنا بالمباني أو المقابر أو الأسوار ! وتأملوا المباني التي تراكمت عند الشعاب لتحجب المنظر الهلالي الذي تغنى به جميع الرحالين الذين عبروا هذه الديار ؛ هذا استطراد لا بد منه حتى نعمل على مصادقة البحر، وتوفير الفرصة ليخاطبنا في جميع الفصول دون حجاب أو أسوار أو قلاع أو أولياء أو مقابر .

أنا أول ملاحم باب البحر الأدبية وآخرها. وما أظن باب البحر سينجب ملحمة تضارعني أو تضارع ملحمتي فيه، لقد تحول إبداع الملاحم إلى أحياء أخرى، بل وإلى بلدان أخرى، وإلى صحراوات داخلية . أقول هذا لا للمباهاة، ولا للفخر، ولا للاعتزاز، ولا للتيه، ولا للغرور، ولا للصلف، ولا لتضخيم الذات والتنويه بدورها الخلاق، ولا لأزعم أن لا أديب بعدي في هذا الحي، ولكن أقول لأبرهن على غربتي بهوايتي فيه . فحين ركبتني هواية الأدب والقراءة كنت غريبًا عن البيئة المحيطة بي في دوائرها المختلفة، فالبيئة العائلية كانت أمية، وتقتصر فرحتها على أن وجد بين أفرادها من يقرأ أو يكتب، وكان هذا في حد ذاته يحتفى به ويحتفل، ولو كان في وسعهم لاحتفلوا به كما تحتفل القبيلة العربية القديمة بميلاد الشاعر ونبوغه ضمن أفرادها ؛ والبيئة الخارجية بيئة أيضًا أمية لا تختلف عن البيئة العائلية، والبيوت كلها بشبابها وفتيانها وشيوخها تكاد تكون بيتًا واحدًا مكررًا في مستواه الثقافي العام ؛ أما الأتراب والأنداد فقد اجتذبهم البحر، فانخرطوا أو أخذتهم الحياة العملية فاستهوتهم، أو دفعهم فقر الأهل إلى التماس العمل بأي طريق من الطرق، وهذا هو الواقع التاريخي للحي الذي عشت فيه، فلا أعرف إنني جلست لترب من أترابي في قضية أدبية ؛ ولقد احترم هذا الحي عزلتي، وتركني أترابي (لحالي)، فلم أكن أشاركهم لهوهم ولا ألعابهم، وكان يغيظهم ذلك، ولكنهم ألفوه واعتادوه بمرور الزمن، ولم يكن يشبهني إلا شاب يهودي من أبناء اليهود الموسرين، كان والده يملك عمارة عند السور الأوطى من باب البحر، فكنت دائماً أراه مستغرقًا في القراءة، وهو أكبر مني، وقيل إنه جن بعد ذلك، ويزعم بعضهم أن القراءة كانت من أسباب جنونه .. وإذا كان هناك من جن أو

جنون في القراءة فذلك الذي يزيدك إغراء بها، فلا تنفك عنها، وتنتقل فيها من قراءة إلى أخرى، كما تنتقل الفراشات من زهرة إلى أخرى ؛ وعرفت في المدرسة، وخاصة في المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية بأني عاشق للأدب وأني أنظم الشعر وأرويه، وهو أمر يؤكده بعض الصحاب والرفاق ممن لا يزالون على قيد الحياة ؛ ومع هذا الاعتراف بمواهبي أو بهوايتي، فقد كنت أيضاً أشعر بالوحدة والغربة، لأن أغلب الأصدقاء الذين صاحبوا رحلة حياتي لم يكونوا يعشقون الأدب، وكان تكوينهم يميل بهم إلى الاختصاصات العلمية والرياضية، وأرجع الآن بالذكرى إلى ما كان يسود أحاديثنا فلا أجد الأدب يشغل مكاناً فيه، وإنما هي أخبارنا ووقائعنا اليومية وفكاهاتنا ومداعباتنا لبعضنا البعض، وقد يستغرق منا هذا اللهو والعبث أمسية كاملة لا تختلف في لغوها وعدم جدواها عن أي جلسة مع جملة من الناس العاديين ؛ وليس لهذا الجو أن ينمي المواهب الأدبية، فكان الإنسان يقرأ لنفسه ويختزن لنفسه، بل وقد يتعرض أحياناً للسخرية والانتقاص، لأنه يصرف أيامه في الجري وراء الأوهام ؛ وكان علي محمود طه شاعر الجندول قد أسعف هؤلاء بجملة (أنا من ضيع في الأوهام عمره) وأنت تسأل اليوم من هو الذي ضيع في الأوهام .. أهو المشهور المذكور أم المتنبي المذكور ؟ الواقع أن القراءة خلقت لي بيئة خاصة صاحبتني مدى الحياة، وما أطمح إليه اليوم هو ما ضممت إليه بالأمس زاوية نظيفة حسنة الإضاءة كما يقول همنجواي ؛ أما بعد ذلك، فأنا قادر على خلق العالم الذي يغنيني سواء بالكتابة أو التأمل، ولا أعرف أنني ضقت بجلسة أجلسها وحدي . وليس للإذاعات والقنوات الفضائية أي قدرة على صرفي عن ذاتي إذا أردت أن أخلو إليها، بل وكثيرا ما نظرت إلى هذه الوسائل على أنها وسيلة لتفريغ الذات، وتمكين الآخرين من السيطرة علينا، وأن من السطحية البالغة أن نلقي قيادنا وندع لها الملاعب لعقولنا وأذواقنا على النحو التي تريد، وأنا هنا لا أتحدث عن قناة بذاتها وإنما أعني بها كل القنوات، بما في ذلك القنوات العالمية الكبرى، فلها من التفاهات والسخافات والسطحيات ما لا تختلف به عن القنوات الثانوية، ولا يحتاج الأمر إلا لإتقان بعض لغاتها لتكشف ذلك .

ولعل هذا البث المتواصل طوال 24 ساعة هو المسؤول عن هذه المستويات ؛ أعود فأقول أن هذه البيئة في المرحلتين أي السابقة على الحرب أو التالية تركتني إلى (حالي) هذا الذي أعيش فيه مع نماذج المنفلوطي في (ماجدولين) (والفضيلة) وفي سبيل التاج وفي

نظراته وغيرته أو نماذج جيته في آلام فرتر، أورفائيل لامارتين من ترجمة الزيات، أو الأجنحة المتكسرة لجبران ومقالاته المتفرقة الأخرى المتسمة بالتمرد .

أن ترى العرب واليهود والمالطيين يجلسون في طاولة واحدة، أو يتحلقون حلقة واحدة حول اللاعبين وفي انسجام وزمالة كبيرة، أن لم نقل أخوة، أو أراهم جالسين يفضون إلى بعضهم بمشاكلهم وأزماتهم، ويرقبون البحر ووعوده بالهدوء، أو نذره بالزوابع والعواصف ؛ ويمثل هذه السماحة تجمعهم جلسات الشرب في الخمارات لمن كان من عشاقها .

حمراء صفراء أن مذاقها

كالعيد كل مليحة بمذاق

وقد تحولت هذه السلسلة من المقاهي إلى مخازن ومتاجر كبرى، ولم يعد لذلك الجو الذي يصنعه أي مكان، وأسهم بذلك التحول الاقتصادي الذي طرأ على المدينة، وهجرة اليهود إلى إسرائيل، والإغريق إلى استراليا، والمالطيين إلى مالطا .

ومن جلسات هذه المقاهي رأينا العلم الإسرائيلي يرفرف في ميناء طرابلس على الباخرة التي كانت تنقل اليهود، وقد نظمت إسرائيل بالتعاون مع الإدارة العسكرية البريطانية حملة تهجير واسعة لليهود في ليبيا، ومع ذلك لم يقتنع كل اليهود بالهجرة إلى إسرائيل، وظلت أسر منهم إلى ما بعد ثورة الفاتح ؛ وقد أشيع عقب أحداث 48 التي جرت لليهود في طرابلس وضواحيها أن المخابرات الإسرائيلية كانت وراء ذلك، للضغط عليهم بالهجرة ؛ والوثائق التي نشرت مؤخراً تشير إلى شيء من هذا، ذلك إن اليهود عاشوا دومًا في سلام ووئام مع العرب، ولم تعرف أي حركة موجهة، ونعموا في ظل السيادة القرمانلية والعثمانية برعاية كبيرة، وكان لهم مركز ونفوذ اقتصادي كبيرين تشعره شهاداتهم لهذين العهدين ؛ وصلة يوسف باشا القرمانلي باليهود وعطفه عليهم وعلاقاته باليهودية أستر، أمر معروف للجميع ؛ وقد برع اليهود براعة خاصة في التغلغل إلى بلاطات الحكم لا في ليبيا وحدها ولكن في كل بلدان الشمال الأفريقي، وكذلك في بلاط السلطنة العثمانية، ومع هذه الرعاية فقد كان اليهود – كما هي عاداتهم – مع كل الفاتحين أو الغزاة، أول المرحبين، بل كانوا المرحبين الوحيدين بالحملة الإيطالية ؛ والصور الفوتوغرافية لذلك الوقت تسجل هذه المواقف ؛ كما كانوا أول المرحبين بجنود الحلفاء

وبالإنجليز، ونعموا في ظل الإدارة العسكرية بحظوة كبيرة وتقديم وأسبقية، وكان بين ضباط هذه الإدارة يهود من الإنجليز ؛ كما ساعدت في هذه الحظوة حياتهم الاجتماعية وتحرر بناتهم، اللواتي سارعن إلى إقامة علاقات عاطفية وودية مع هؤلاء الفاتحين الجدد، ولقد نال اليهود في ظل الإدارة العسكرية مكانة لم تكن لهم في العهد الإيطالي، فكان منهم المستشار في مجلس الولاية، وكان منهم الممثل في مجلس الأمم المتحدة، كما نشطوا في خلق حركات اجتماعية ورياضية خاصة بفتيانهم وفتياتهم، وكانوا يرفعون العلم الإسرائيلي في تجمعاتهم هذه، كما كانت لهم نشاطات رياضية تولاها نادي المكابي الذي ظفر بمقر في قلب المدينة، وهو الذي صار فيما بعد مقرًا للمجلس التشريعي للولاية، وقد شكلت هذه الحركات نوعًا من الاستفزاز والإثارة للرأي العام الذي أخذت مشاعره في التغير نحو هذه الجالية التي عاشت معه في أمن وسلام أحقابا طويلة من تاريخه وتاريخها ؛ كان هناك مناخ متوسطي مسيطر على هذا الحي ؛ والآن حين أسمع عن علاقات متوسطية يعود إلى الذهن هذا المناخ الذي كان يتعايش فيه القوم في سلام ووئام . وما من شك في أن العامل الرئيسي في هذا الجو ما وفرته الإمبراطورية من حماية ورعاية لرعاياها الأجانب من إغريق ويهود ومالطية، وإن كانت العلاقة مع اليهود ترجع إلى أصول تاريخية أبعد من ذلك

وقد نعم اليهود بحياة حرة أثناء الإدارة العسكرية، ووجد الضباط في الصبايا اليهوديات ما يرضيهم، وكانت أعياد رأس السنة مواسم بهجة لهم وللأجانب أيضًا، استطاعوا بها خلق مجتمع منفصل كل الانفصال عن المجتمع الحقيقي الأصيل، وكان واقعًا غريبًا حقًا ؛ وقد حاول بعض الشباب أن يتسلل إلى هذا المجتمع في ليالي الأحد بالودان، أو في أيام الأعياد فكان ينظر إليه على أنه متطفل، وقد يرفض صراحة . لقد رفع الاحتلال البريطاني معنويات اليهود بعد أن كانت هابطة إلى الحضيض في السنوات التي صاحبت الحرب العالمية، وكانت فيها السيطرة للألمان، وكان الجندي الإيطالي في ليبيا في ذلك الوقت يبدو ذليلاً مهيناً، وقد أسعد هذا الحال المواطنين الليبيين الذين كانوا يشمتون بالإيطاليين، ويتعاطفون مع الألمان، لا تجاوبًا مع سياساتهم، ولكن نقمة على الإيطاليين ؛ وكانت قد صدرت في هذا الوقت في ألمانيا وإيطاليا قوانين التمييز العنصري، تعرض فيها اليهود إلى الملاحقة الألمانية المعروفة، ولكننا لم نلاحظ أن اليهود في ليبيا قد تعرضوا

لشيء من هذا، لا من قبل الألمان، ولا من الإيطاليين، ولكنهم كانوا يرقبون ما يجرى لبني جنسهم في المعتقلات الألمانية، فما كاد يدخل الجيش البريطاني إلى طرابلس، حتى شعروا بأن غمة رفعت من صدورهم، وانبعث فيهم ما كان خامداً من تعصب وحس قومي، ولكنهم بطبعهم كانوا حذرين يتجنبون الاصطدام المباشر بالعنصر الوطني .

أشد الفصول قسوة على أسرة البحار هو فصل الشتاء، ففيه يقل دخول البحر، ويقل الدخل، فإذا كانت المرأة حكيمة حاذقة تكون قد احتاطت لهذه الأيام بما يسد الزمن، وإذا لم تكن حاذقة فإنها تعاني هي وأطفالها ضائقة شديدة لا يفرجها إلا عودة الصحو والهدوء وتحسن أحوال الجو ؛ أسرة البحار تعيش على الأحوال الجوية، ولابد أن نتصور ما تعانيه هذه الأسرة إذا كان رئيسها أو أقاربها جملة في عرض البحر، ثم تهب أثناء الليل عاصفة شديدة يهيج لها البحر هيجاناً لا تقدر على مقاومته قواربهم البسيطة ؛ فلا يكاد يقترب الفجر حتى يهب أولاد البحارة العرب إلى الشاطئ يتطلعون ؛ أما المالطيون واليونانيون والطليان فتخرج نساؤهم . . وتحدثوا عن مالطية أغرقت العواصف ابنها فكانت تخاطب البحر كلما وقفت أمامه باكية :



آه .. يا خائن.

أي آه يا خائن ؛ وهي كلمة عربية ينطقها المالطيون بالحاء .

إذا جاء فصل الشتاء تحول بعض البحارة إلى النُّول، وقد كان منهم بارعون في نسيج الأردية الحريرية الفاخرة، وكان لي ابن عم من أبرع الحرفيين في هذا المجال، ومن لم يكن منهم بارعًا في هذه الصنعة عمل في خدمات أخرى، أو دخل عاملاً في الميناء، أو ركب البواخر التي يطوف بها حانات البحر الأبيض المتوسط، ويعود ببعض الألبسة الجديدة من إيطاليا ؛ وكانت لهم مباهاة خاصة بالأحذية، فأنت ترى القادم من هذه الرحلة يعرض حذاءه الفاخر المتين الصنع، ويخرجه من قدمه ليقلبه الآخرون ويتأكدون منه، ويتمحور الحديث حول هذا الحذاء، كما يتمحور الحديث حول كباش العيد، وأهل باب البحر يحسنون (الزلّة) أي يحسنون الظهور بما لديهم من لباس نظيف أو أنيق، وقد تجد في كبارهم حرصاً على الأناقة والمظهر، أكثر مما تجدها أحيانا لدى صغارهم .

فهذا الحذاء المجلوب يظل كنز العمر، فلا يظهر إلا مع المناسبة الجميلة التي يركب لها بذلة خاصة بهم لا تجدها إلا عندهم، وهي البنطلون ثم القميص ثم فوق القميص (فرملة) عربية وطاقية حمراء ملفوفة بشال حجازي ذهبي اللون، وحزام حريري يسمى حزام (زلبندى) إنها شيء من بقايا لباس القراصنة، أما الحولي فلا يلبسه إلا كبارهم، أو الساكن الغريب عن أهل المهنة .. مهنة البحر، ولا يصلح للبحّار إلا غطاءً .

من الخطأ الفادح أن يتصور أن هذه المدينة كانت فاضلة خالية من كل رذيلة أو فاحشة، فمجرد هذه الظن تجميد لها وقتل لحيويتها الزاخرة، كانت مثلها مثل أي مجتمع بشري ينزع فيه الجنس الحسن إلى اللقاء بالجنس اللطيف، ويزداد هذا النزوع كل ما أرادت القيود المفروضة عليه، وكل محرم يحلو ؛ ويطالعك في أسراب الحمام الأبيض من لابسات اللباس الوطني (الفراشية) وبراعتهن في الالتحاف بهن لحفة أو لحافًا يميزهن عن النساء المتزوجات .

وقد تمضي في الزقاق فينفتح الباب أي باب فجأة على فتاة رائعة في لباسها المنزلي الخفيف، لتلقي شيئًا إلى الشارع، أو تنادي طفلاً مزعومًا لا أثر له في الشارع، وما كان الطفل غايتها، ولا كان إلقاء شيء في الشارع من غرضها، ولكنها الفرصة التي تريك منها ما أرت صويحبات عمر بن ربيعة وهن يرمين جمار المحصب ؛ خاصة إذا كانت هذه مما يسكن معك في الزقاق نفسه، ومن العارفات بمواعيد عودتك إلى المنزل .. وقد تتجرأ إحداهن فتحييك وتبتسم إليك، وهذا في حد ذاته هبة كبرى من هبات السماء في مدينة تحجب فيها الفتاة منذ العاشرة ؛ فهم يحلونها لك قبل ذلك، حتى إذا احتفل الهوى حجبوها، كما يقول ابن هاني، تراث موروث لم تخرج عنه مدينتنا الإسلامية إلا بعد الحرب العالمية الثانية حين أخذت البنت طريقها إلى التعليم عفويًا ودون دعوة تحريرية، وأخذت الدائرة تتسع بمرور الأعوام حتى بلغت ما هي عليه ؛ وأنا أعزو تشبث بعثة هذه المدينة بالحجاب الصارم إلى التقاليد التركية التي تغلغلت عبر عصور من الاحتلال العثماني، وكذلك المحافظة على الهوية تجاه الاحتلال الإيطالي، فقد كان هناك خوف من انتهاك الأعراض، أو ابتذال المرأة مع أن الإيطاليين لم يعرف عنهم طوال مدة احتلالهم محاولات مخططة لانتهاك أعراض النساء الليبيات، سواء أثناء الحملة العسكرية أو بعدها، وإذا شهد البعض على حالات قليلة فهي حالات فردية لا تشكل سلوكًا، بل أن الجندي الإيطالي كان مكتفيًا ببنات جنسه، وكان يحتقر المرأة الليبية، ويراها قذرة، والشعور بالتمييز

العنصري حماها، ويقول المعايشون لهذه الفترة أنه كان تمييزًا في دور البغاء، فلا يسمح للعربي بغشيان البغايا الإيطاليات.

حجاب المرأة الليبية حجاب أبيض جميل يتلاءم مع إشراق البيئة ونظافتها، ولم يفهم البعض أن الحجاب الأسود لدى بعض البلدان العربية إنما أملته التربة الطينية السوداء، والجو المغبر الذي يحيل كل شيء أبيض إلى وسخ ظاهر ؛ والحجاب الوطني فقدته بعضهن عن جهل، وكان التشبث بالزي الوطني أولى من استيراد ألوان لا تتلاءم مع بيئتنا، ويكفي أن سرب الفراشيات بالبياض أجمل من سرب الغربان السوداء .

الحجاب الصارم كان مقتصرًا على مدينة طرابلس فقط، فإذا خرجت إلى الغرب منها، أو إلى الشرق بضعة كيلو مترات ، وجدت المرأة تشارك الرجل في عمله الفلاحي جنبًا إلى جنب، فتراها تسقي وتزرع، وتقطف وتحصد، وترعى دون قيود، وكنت أعجب وأنا فتى من هذا الوضع الغريب، ولا تفسير له إلا هذا الجو الذي خلعته هذه الفئة من أبناء الأعاجم والقراصنة الطارئين على الإسلام الذين كانت لهم السيادة على المدينة وتقاليدها، وقد ظلت بعض الأسر ترتدي ما يسمى بالبيشة التركية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ؛ لقد كانت هذه المدينة حريصةً على تقاليدها الوافدة أكثر من حرصها على إنشاد تقاليد لها متناسقة مع البيئة المحيطة ؛ ومدينة طرابلس مدينة بحرية متوسطية فيها كل ما في هذه المدن البحرية المتوسطية .؛ ولكنها مدينة أيضًا صغيرة، فضيلتها بحجمها، ورذيلتها بحجمها .

وقد حضرت مرة عرسًا بجنزور، وهي لا تتعدى سوى خمسة عشر كيلومترا، ولفت نظري فيه، وأنا فتى في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ليلة من ليالي العرس يسمونها (الرغاطة) وهي ليلة تتنادى إليها نساء الأسرة وأحبابها للرحي وإعداد مواد الأكل للعرس ؛ وقد لاحظت في هذه (الرغاطة) فقرة منها يسمونها (النَخيخ) يتجمع فيها مجموعة من الفتيات غير المتزوجات، يتمايلن بشعورهن فتكشف الحركة عن وجوههن من حين إلى آخر، والرقصة هذه مقصود بها توجيه النظر إلى الفتيات البالغات سن الزواج، ويقوم الشبان برمي (قراطيس) من الفول السوداني أو الحلوى على الفتاة المستأثرة باهتمام أي واحد منهم ؛ في الوقت الذي كان فيه العرس الطرابلسي صارمًا في فصله بين الرجل والمرأة، ولا يزال حتى اليوم، كما أن اللهيد (الميز) يوم الجمعة يشاهده الرجال والنساء ليست هناك عملية فصل فيه، فتقاليد الضواحي أسلم وأدنى إلى المنطق الطبيعي، كان ينبغي المحافظة عليها، لا التأثر بتقاليد المدينة المؤسسة بعقلية الحريم العثماني .

بل وأزيد أنه في هذه الفترة ولظروف اقتصادية سائدة، كانت المرأة في الدواخل بسيطة في لبسها، الذي تكتفي فيه في الأعم الأغلب برداء ليس تحته شيء سوى اللحم، وقد رأيت فتيات رائعات لا يرتدين سوى رداء قطني مشبوك عند الصدر بخلالتين أو عقدتين .. والصور الفوتوغرافية المحفوظة بهذه الفترة في ليبيا والجنوب التونسي تؤكد هذا .. فأنت إذا رأيت المرأة الأوربية تتحرر من قيود الصدريات أدركت أن البيئة بعفويتها المطلقة كانت متحررة من شعور الإثم وأوهام الخطيئة ؛ ومن المؤسف إننا لم نسجل تاريخًا لنا عبر تطور اللباس، وبصفة خاصة اللباس النسائي الذي يوفر وثيقة حية عن تطور حياتنا الاجتماعية، وأثر التيارات الوافدة عليها، وقد قامت تونس بدور في هذا المجال، ينبغي أن يحتذى سواء في مجاله الرسمي أو الفردي، ومن هنا يتأكد أن الحجاب عملية قائمة في مدينة طرابلس وحدها، أما دواخل البلاد كلها من أدناها إلى أقصاها فقد كانت فيها العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة عادية طبيعية، تجري كما كانت تجري في نجوع العرب ومضاربهم .

ولدت في أسرة قليلة الأعراس أثناء طفولتي وصباي، فلم أشاهد العرس الطرابلسي سوى مرة أو مرتين أثناء طفولتي الباكرة، فلم تبقَ لدي منه سوى صور غائمة، وحين تجاوزت هذه السن صار من المستحيل الدخول إلى هذا (الحرم) النسائي ؛ والعرس الطرابلسي عرس للحريم، وتسيطر عليه – على ما فيه من روعة وأبهة – فكرة الحريم، فلم يستطع أحد من الرجال اختراقه، وقد قابل الرجال أيضًا بما يشبه المقابلة والمعارضة، فالعراسة الرجالية، وعقد القران وقف على الرجال فقط، وهذا من عجائب وغرائب الأعراس في هذا الكون، وأغرب منه أن يظل في القرن الحادي والعشرين متشبثًا بأعراف وتقاليد سادت المدينة منذ القرون الوسطى، وبالتحديد منذ القرن الخامس عشر، ودراسة تفاصيل ملابس المرأة الطرابلسية وترتيباته يعود بك إلى هذه العصور وعلاقتها بموانئ نابولي وفنيسيا وجنوا ؛ أقول إن العرس الطرابلسي عالم حريمي مكتوب على بابه للنساء فقط، وأعجب ما فيه أن التقديم فيه ليس للشابات المتطلعات للزواج، بل للشابات المتزوجات اللواتي يتخذن موضع الصدارة ؛ فالصدارة والصدرة وقف عليهن، وهذا أيضًا من عجائب هذا العرس، وهذا ما يجعل هذا العرس موسمًا للجنس .

والخطر في تقاليد المدن إنها تملك أن تنشرها في الوافدين، أو تغلبها بوسائل الإعلام ؛ وقد سرت هذه التقاليد في من وفد إلى المدينة وأقام بها وتخلوا عن التقاليد

الصحيحة المستقيمة التي كانت لهم في بلدانهم، ولم يستطيعوا هم أن يغيروا شيئًا منها سوى يوم الإطعام، أو الدعوة إلى وليمة رجالية، فهذا لم يكن من تقاليد المدينة، وإنما أشاعه، على نحو مبالغ فيه الطارئون على المدينة، أخذًا بما كان لهم من تقاليد سائدة في الدواخل ؛ وأنا لست من أنصار هذه الولائم وقليل الاستجابة لدعواتها .

والعرس الطرابلسي معرض للترف الذي عاشته المدينة في بعض عصورها الزاهرة، وهذا الترف لا يظهر في شيء كما يظهر في لباس العرس النسائية، وتدل على عناية القوم بنسوانهم . وفي الليبيين إجمالاً نخوة تظهر في تدليل النساء، ومن الأمثال الليبية عن المرأة حين تسأل عن ملبوسها يقال زوجة من ؛ وحين يوصم شرفها يقولون هي بنت من، أي أن فخر الترف عائد إلى زوجها، والإخلال بالشرف عائد إلى أهلها .

وكان اليهود الكبار يتسمّون بأسماء عربية لا تشيء بأي انتماء ديني مثل نسيم وحبيب وركاح وميمون، وغلب على نسوانهم اسم سارة، كما غلب اسم مبروكة على المسلمات عند النصارى، فكان يهتفون للرجل الذي لا يعرفونه باسم (علي) وللنسوة باسم مبروكة ؛ ثم دخلت مع دخول الاحتلال الأسماء الإيطالية على النساء والرجال مثل اليهوديات .

تصور هضبة عالية تشرف على البحر من غرب وشرق وشمال، تستقبل الشمس في الصباح وتودعها في الغروب، في القديم كان يحفها سوران، السور الواطئ، والسور العالي، ويقف عند قمتها برج من هذه الأبراج التي كانت تحمي المدينة في القديم يسمونه برج التراب، ظل قائمًا إلى سنوات قريبة، وبالقرب منه مقبرة مسيحية، فجاء الإيطاليون بأساليبهم الهندسية وقدرتهم على اكتشاف الجمال، فهدموا هذه الأسوار، وبقايا هذا البرج ووصلوا السور الواطئ بالعالي، وأقاموا مكان البرج نصبًا تذكاريًا لقتلاهم في ليبيا، وكان التصميم من حيث الذوق الهندسي رائعًا، وقد أرادوا به أن يواجه القادم من البحر، وأن يصل هؤلاء القتلى بوطنهم الأصلي وراء البحار، وقد ظل هذا النصب قائمًا حتى أواخر العهد العسكري البريطاني، وكأنما أراد المهندسون الإيطاليون العاملون في القسم البلدي آنذاك، أن يبادروا إلى تهديمه حتى لا تكون فيه شماتة من المواطنين الذين سوف يقومون بهذا العمل في أول فرصة تتاح بعد إعلان قيام الدولة الليبية، وقد كان من الممكن الإبقاء عليه، وتحويل معناه إلى معنى آخر غير هذا المعنى، وعلى الجملة فإن الرغبة في إقامة هذا النصب، أدت بهم إلى تنسيق ما جاورها، والكشف عن الآفاق المحيطة .

والإيطاليون قوم يتوفرون على الإحساس بجمال البحار والشواطئ، والكشف عن جمالياتها، فأضفوا على هذه المنطقة ذوقًا أبرز جمالها وجعلنا حتى اليوم نكتشف أن أجمل ما يمكن أن تتطور إليه المدينة كامن في هذه المناطق العلوية الغربية من باب البحر . وكانت هذه المنطقة على أيام طفولتنا تعرف باسم (القبة)، وكانت الاحتفالات التذكارية العسكرية تقام بها، وقد شاهدت وأنا طفل موكب موسوليني راكبًا عربة يجرها حصان يزور هذا النصب التذكاري، كما شاهدت جنازة (بالبو) ورفاقه الذين أسقطتهم البارجة الإيطالية سان جورج في سماء طبرق، وقد ظل جثمانه مسجى بالقبة أيامًا، ثم نقل إلى المقبرة المسيحية بباب قرقارش، وأظنه ظل بها إلى أن نقل رفاته بعد السبعينات إلى إيطاليا بناء على رغبة أهله.

كانت حركة الميناء محدودة، ولم تكن فيه زحمة هذه الشاحنات الداخلة والخارجة، ولم تكن هذه الطوابير من الشاحنات التي تنتظر دورها للدخول أو دورها في التأجير ؛ كان الحي هادئًا ساكنًا يذكرك بأماكن الراحة والاستجمام التي تنفق فيها المبالغ الطائلة للتنعم بمناظرها وهدوئها، وكان هذا كله مبذولاً لنا بلا ثمن سوى أن يكون لك الحس الذي تستمتع به بما حولك، وتفطن فيه إلى الطبيعة وهي تحتضنك من كل الجهات . قد عجبت لقوم يقولون إنه ليس لنا مناظر طبيعية، أليس هذا الإشراق طبيعة ؟ أليس هذا النور الذي يفيض على كل شيء طبيعة؟ أليست هذه الرحابة والانفساح في مد البصر والتنفس طبيعة ؟، أليس في هذا الإشراق الذي لا يغادرنا طوال السنة لا تواريه السحب العابرة إلا لتنقشع عنه بعد حين، فلا تكون له تلك الضبابية الكاتمة للأنفاس في بعض بلدان أوربا الشمالية طبيعة ؟ هذه كلها هبة سخية جميلة، وهي موزعة في كل مكان، وليست مقتصرة على هذا المكان السحري .. الأصيل جميل في غابات النخيل حيثما وجدت، والصبح جميل في الصحراء المنبسطة، والليل جميل في كل مكان من ليبيا، عند البحر أو في أعماق الصحراء، كل هذا الجمال لا ينتظر سوى العين التي ترنو إليه بحنو، والصدر الذي يحتضنه بشوق وإعجاب، والتربية الجمالية التي تنبه الناس إلى ما يملكون من ثروات جمالية .

الحياة الاجتماعية والحياة الداخلية داخل البيوت لا تختلفان في شيء عن الحياة في أي حي قديم شعبي في أي مدينة عربية، سواء كانت القاهرة أو دمشق أو بغداد أو تونس أو الجزائر أو المغرب، فما تكاد تزور هذه المدن وأحياءها القديمة، أو تقرأ عنها فيما كتب

كتابها من القصص أو الروايات حتى تشعر أن الواقع واحد، والموروث واحد، وأن القيم والتقاليد التي تحكم هذا الحي الصغير هي القيم والتقاليد التي تحكم ذلك الحي الكبير، ولا خلاف إلا في ضخامة اللوحة البشرية هناك، وصغرها هنا. البيت هو البيت المقفل على الخارج، المفتوح على الداخل، فالأزقة السكنية خالية هادئة ساكنة إلا من أطفال يلعبون أو يجلسون على ركابة بيتهم، وتنحصر الحركة في الأحياء التجارية، والمرأة لا تخرج إلى الأسواق ولو بشراء حاجة من حاجاتها، وقد تعتمد في ذلك على زوجها، أو على إحدى العجائز التي تجاوزت سن الفتنة، أو على بعض الدلالات اليهوديات اللواتي كن يطفن بالبيوت العربية يبعن بعض ما يهم النسوان وأحيانا يبعن بالآجل وبالتقسيط ؛ والمرأة لا شأن لها سوى حياتها العائلية الداخلية، وقد تدخل بيت الزوجية فلا تغادره إلا إلى المقبرة عند بعض المتزمتين، أو إلى بيوت أقاربها عند المتساهلين، ومن حسن الحظ إنهم يشكلون في هذا الباب الأغلبية، ولكن هذا الوضع أخذ في التحرك والتطور منذ تأسيس أول مدارس للبنات، وقد أنشئت في العهد الإيطالي بعض المدارس الابتدائية في المدن الكبرى مثل طرابلس وبنغازي، وواجه تعليم البنت في هذه المدارس صعوبات جمة، كما واجه تعليم الذكور أيضًا صعوبات كبيرة، حفاظًا على الهوية العربية الإسلامية التي كانوا يشعرون أن هذه المدارس تهددها، وتحاول أن تمسخها ؛ والواقع أن السياسة الإيطالية نحو العرب ذكورًا وإناثًا كانت سياسة شكلية يراد من ورائها التأكيد على البرنامج الحضاري الذي يحمله الاستعمار الإيطالي، ولم يكن من سياسة الإيطاليين دمج الليبيين أو استيعابهم ثقافيًا على نحو ما فعلت فرنسا مع الجزائر خاصة، ومع بقية مستعمراتها أو محمياتها، وهذا خلاف جوهري بين عقليتين استعماريتين، ويرجع ذلك في أسبابه أيضًا إلى الحجم السكاني، فقد واجه الفرنسيون في الجزائر حجمًا سكانيًا لا يمكنهم القضاء عليه ؛ فكان الاتجاه إلى التشرب والاندماج .

أما الإيطاليون ؛ فالحجم السكاني في ليبيا لم يكن يقضي بسياسة الدمج، ولكن سياسة التشريد والإبادة، وهذه من غباوات الاستعمار الإيطالي الكبرى، الذي خرج من ليبيا دون أن يخلف قاعدة ثقافية عمل هو بمناهجه وأساليبه على تأسيسها، ويكاد يعد المرء على الأصابع العناصر الذين أتيح لهم بلوغ التعليم العالي في مستواه الثانوي أو الجامعي، ومع ذلك وجدت بعض العائلات الجريئة التي بعثت ببناتها إلى هذه المدارس التي

تقدم دروساً مزدوجة في الإيطالية والعربية، على أن تحريك واقع المرأة التعليمي إنما كان بعد خروج إيطاليا ! وفي فترة الإدارة البريطانية حيث تم بدون أي معارضة أو إشكال فتح مدارس ابتدائية للبنات، شكلت الانطلاقة الأولى فيما شهدته حركة تعليم المرأة من تطور ونمو، حتى بلغت ما بلغته من مستويات عالية ونسبة عالية، تكاد تكون نسبة فريدة في الوطن العربي كله، قياساً إلى حجم السكان .

أهمية باب البحر في تكويني إنه وضعني منذ صباي الباكر في الصميم من حضارة البحر الأبيض المتوسط، ولهذا حديث آخر من هذه السيرة الذاتية .

نصوص



أبي

عمر أبو القاسم الككلي

الجذع القوي الذي انبثقت منه أغصان الأسرة وحملها غصناً فغصناً، من ماء جبينه استمدت اخضرارها وازدهت بالدفء الصادر من ضرام روحه.

سمعته ذات ضحى بينما كان يسير خلف المحراث حاثاً، بين الفينة والأخرى، الجمل على السير في خط مستقيم، يغني [وأظنها المرة الوحيدة التي سمعته فيها يغني] بصوت غير جميل، ولكن بنبرة تفيض استعطافاً ورجاء:

يا لطيف ويا لطيف

الطف بعبدك الضعيف

لكنه لم يلطف، هو شخصياً، بالجمل المهزول الذي تساقط وبره من على مساحات كبيرة في جانبيه عندما توقف أثناد الحراثة وكف عن جر المحراث. ظل يلهب، بغضب بركاني، جنبيه وكفله بلسعات غصن زيتون طري وهو يرغي حتى تهاوى وأخذ يمد عنقه مصدراً حنيناً حاراً متلفتاً نحو أبي في نظرة كسيرة، كما لو كان يؤكد له معتذراً بأنه إنما توقف عجزاً، لا عناداً.

لا أتذكر أنه قبلني أو احتضنني أو داعبني أو مزح معي مرة بعد أن تجاوزت الخامسة أو السادسة من عمري. عندما كانا، هو وأخي الأكبر، يقومان بالحراثة قريبـًا من مكان السكن كنت أذهب إليهما عند اقتراب موعد عودتهما فأطلب منه أن أمسك بالمحراث وهو يسير إلى جانبي أو أساعد أحدهما في فك عدة الحراثة عن الجمل استعدادا للعودة [كانت معونة تسبب تعويقـًا أحيانـًا] فكان بعض الأحيان يسألني في همس [لم أتبين دواعيه آنذاك]:

امك شِن أديِّر؟

تستغل أمي أحيانـًا خلو البيت في العشية إلا مني ومن أختي الصغيرة فتلتفت إلى جسدها وتقوم بالاستحمام [لا صنابير ولا تجهيزات خاصة] تغسل في لحمها، فيسارع هاشـا إياي ويصفعني على وجهي متلفتـًا نحو أخي محاولاً إخفاء ابتسامة لا إرادية. فيملؤني في كل مرة استغراب حول لماذا أُضرب رغم أني أقول الحق.

كان عندما يصفعني علي وجهي بكفه العريض القوي يسقطني أرضـًا، وكنت سريعـًا ما أغالب نفسي وأنهض فيعاجلني بصفعة أخرى تسقطني من جديد فأعاود النهوض ويعاود الصفع، إلي أن يكف هو عن الضرب.

الآن أكتشف أن جزءًا كبيرًا من مشكلتي معه كان يكمن في محاولتي النهوض. مؤكد أنني لو مكثت ملقى علي الأرض بعد سقوطي إثر الصفعة الأولي لكان تركني.

هاجس النهوض السريع وعدم البقاء ملقى على الأرض هو الذي كان يحركني عندما تلقيت تلك اللكمة يوم نقلونا من سجن الشرطة إلى السجن العسكري.

فتحوا علينا سيارة الصناديق المطلية نوافذها بالأسود، وأخذوا ينزلوننا واحدًا واحدًا صائحين علينا بضرورة الركض.

هَرْوِلْ!.

عندما جاء دوري كان عسكري أمامي منشغلاً عني بضرب أحد الرفاق، وكان عسكري آخر يركض نحوي من بعيد، فانبجست في ذهني خطة إنقاذ مؤداها أن أركض حاملاً

أمتعتي القليلة بأقصى جهدي، كي أتجاوز العسكري المنهمك بالضرب قبل أن ينتبه إليَّ، وأن أفر من العسكري الراكض [كمن يمرق بين لسان لهب توجهه الريح إلى الجهة الأخرى ولسان آخر تدفعه نحوه] وأجتاز منطقة الخطر قبل أن يصلني [لست أدري لما ذا نشأ لدي نوع من اليقين وقتها بأني لو وصلت إلي النقطة التي كانوا يريدوننا أن نقف فيها قبل أن يدركني فلن يواصل مطاردتي. خيل إليَّ أنها منطقة أمان] لكن العسكري المندفع نحوي تمكن من أن ينشب يده في ذيل كنزتي المشقوقة غير المزررة التي لا بد وأن الهواء كان يدفعها إلى الخلف وسدد لي لكمة تحت أذني جعلتني أمدد على البلاط السميك الصلد أطرافي الأربعة [دون أن أسقط أمتعتي] وكان كل همي عندها [من أول إحساسي باللكمة وحتى إحساسي بالأرضية القاسية تحتي] أن أنهض وأواصل فراري تجنباً للركلات المحتملة إن ظللت ملقى، وتفادياً لمزيد من اللكمات. فنهضت سريعاً مستأنفاً ركضي ، وأشبعت تلك اللكمة شهية العسكري للضرب.

منذ أن تجاوزت السادسة تقريباً لم نكن يوماً على وفاق. تمدد فيما بيننا ما أسميه الآن سوء استيعاب متبادل. لم يستوعب متطلباتي وتطلعاتي ولم استوعب رؤيته للعالم التي كانت تبدو لي كلما تقدمت في العمر، شديدة الغرابة والصلابة. ورغم أني كنت أصغر أبنائه الذكور إلا أني لم أكن، خلاف ما هو متوقع، أثيراً لديه ظل يزيد الفجوة بيننا عمقـً واتساعـاً أنني كنت قد ألقيت بنفسي منذ فترة مبكرة في حمأة التمرد والعصيان ثم أفكار وقيم الثورة في مختلف أبعاد الحياة وتفاصيلها.

ما من شك في أنه أحبني. ولكنه حب لم يبده هو، ولم استشعره أنا. حب مقلوب، يمكن القول. يتجه إلى داخله هو بدل أن يتجه نحوي. حب دفين مرصود في صندوق سميك صلب سنوات اللوزة الصماء.

عندما خرجت من السجن كان قد مضى أقل من ثلاثة أيام علي وفاته [توفي يوم الثلاثاء 1988/3/1 وأُخرجت أنا يوم الخميس 1988/3/3 قال عمي:

علي ما عشت مسمعتش مأتم ينقلب فرح. فرح ينقلب حزن سمعت بيه. لكن يولي فرح، هذه أول مرة. كان عمي نابهـاً في التقاط المفارقة، لكن أظن أنه لم يكن دقيقـاً. لم ينقلب

المأتم فرحاً، لكن الحداد والفرح امتزجا امتزاجاً فريداً. الموت والحرية أنتجا مزيجاً مدهشاً. كان الناس يصافحونني ويحتضونني مهنئين ثم يواسونني معزين. والغريب أن عدداً كبيراً منهم كانت تتألق على أساريره علامات التهلل عند التهنئة ثم، مباشرة، يغيم الوجه منه ويتحدر عليه الدمع وهو يعزيني. لقد تحول المأتم إلى عزاء [بالمعنى الحرفي للكلمة]. منذ حوالي أربع سنوات لم أره [منعت الزيارة نهائياً في هذه السنوات الأخيرة] في اليوم التالي طلبت زيارة قبره.

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها مقبرة. كان اسمه محفورا في أسمنت شاهدة القبر. تخيلت أبي المهيب كفحل الإبل الفتي ممداً تحته مغمض العينين بدون رغبات أو مخاوف تتجسد في أحلام أو كوابيس، ودون أن يستشعر لسعة برد أو لفحة حر لا يتذكر ماضياً ولا يعي حاضراً ولا يتوقع مستقبلاً، وقد شرع التحلل يسري في جسده القوي الذي لم يعرف المرض إلا نادراً. هذا الجسد الماكر الذي عندما فوجئ أن المرض قد خاتل أجهزة إنذاره وتسرب إليه خفية كأي عنكبوت أو حشرة صغيرة، ولم يكشف عن نفسه إلا بعد أن تمكن واستفحل وأدرك أن أوان مقاومته قد ولى، فارق فوراً الروح المنهكة الدائخة التي صارت عاجزة عن مساندته مكتفياً من الحياة بحوالي ثمانين حولاً مفوتاً عليه فرصة التنكيل به، وإظهاره ضعيفاً عديم الحيلة وخائراً، وهو الذي عاش متماسكاً منتصباً مرفوع الرأس يشق الفراغ ويقولبه حوله أينما حل. صحيح أنه لم يهزم المرض. ولكنه حقق عليه انتصاراً بأن خيب رجاءه وتذكرت عندها ذلك السجين الذي كان يبدأ، أيام وجبات الضرب بالصراخ ما إن يسمع أزيز الباب المعدني الثقيل يفتحه الجنود، فلا يضربونه إلا ضرباً قليلاً، في حين ينهالون على أولئك الذين يغالبون الصراخ بضرب مبرح إلى أن ينخرطوا في صراخ حاد ناتج عن وجع لا يطاق طالبين الرأفة بهم.

وتصورته من تحت التراب يقول:ما بيتش نكدركم ونثقل عليكم. طلعت من الدنيا زي ما خشيتها. عشت فيها وما طلبتش منها غير الكرامة والستر. سايرت الزمان زي ما طاب خاطره، حذيته، لا جريت نسبقه ولا لهثت وراه، وماكانش هذا ساهل. السمى ما طايلها حد، والوطى عشت عليها، سافرت فيها آلاف الكيلومترات وحرثتها وزرعتها، غرست وعربنت ولقمت فيها آلاف الأشجار ياما كلت منها ومازالت تاكل ناس وحيوانات، تعفر

جسمي بترابها وخش غبارها ريتي. أنا بلقسم بن محمد شلّيق بن أحمد بن سعيد، الككلي، ولد عيشة بنت عبد الصمد، درت إلّي وصلّني ليه عقلي وقدرت عليه، وإذا كان ما جبدني حد بخير ما أظنش فيه حد بيجبدني بشر.

الآن، بعد مرور حوالي سبع عشرة سنة على موته اتسائل لماذا يخطر لي أحياناً أن أشبه أبي بفحل الإبل، ربما بسبب قامته المهيبة وبدنه القوي وصبره الشديد. أتذكر أنه كان يتكلم مرة عن أحد مرافقيه إلى الحج الذي مرض هناك فقال يصف صبره في مواجهة المرض المبرح: صبره صبر جمال.

عندما تحصل هو وبعض أفراد الأسرة على إذن لزيارتي لأول مرة بعد شهور من السجن فوجئت به يجلس منهكاً ذابل الملامح دامع العينين. سبق أن رأيته باكياً في مناسبة أو اثنتين. لكن هذه المرة الأولى التي أراه فيها يبكي من أجلي. بدت نظرته مستسلمة مرتبكة، يمتزج فيها الانحراج من بكائه والرغبة في إخفائه بمشاعر التعاطف معي والإحساس بضرورة أن يظهر لي حزنه عليّ. فآلمني ما حدث له. لقد زج به في نوع جديد من المشاكل أبعد ما يكون عن فهمه، ولا حول له ولا حيلة في مواجهته.

قال لي في الزيارة التي أعقبت الجلسة الأولى من محاكمتنا: توّا، زي ما شفنا ما عندهمش عليكم حاجة. إلا إذا كان يحاكموا فيكم بعدين في مكان آخر محاكمة سرية، هذاك عاد الله وأعلم.

المسكين!.

لا أعلم كيف كان وجهي يبدو ونحن خارجون من جلسة النطق بالحكم، التي لم يتح للجمهور العادي حضورها، مربوطين من أيدينا كل اثنين بالأصفاد، مقادين إلى سيارة السجن، وإن كانت المسافة التي بيننا قد مكنته من أن يقرأ فيه شيئاً، إلا أنه سألني من بعيد متلهفاً: شنو صار؟

رددت بسرعة:

مؤبد.

لم أشا أن أتأكد من ردة فعله. لكنني لمحته، بزاوية عيني، يلطم كأية ثكلى، مقدم وجهه بيديه وهو يتهاوى ببنائه الشامخ الذي لم يسبق له أن اهتز.

ستحكي لي أمي، وأكثر من قريب وقريبة، في أكثر من مناسبة بعد خروجي كيف أنه كان يجاهر بندمه على سوء معاملته لي، وكيف أنه اكتشف، بعد فوات الآوان، أنه لم يقدرني حق قدري، ويتسائل ما إذا كنت سأسامحه.

وكان تلك الصدفة، صدفة اللوزة الصماء، لم تكن لتنكسر وتفرج عن لبها بأقل من تغييبي في السجن.

الآن تذكرني حالة الإنهاك التي كانت تسري في كيان أبي في تلك الزيارة بحالة ذلك الجمل الذي توقف فجأة عن جر المحراث وبنظرته الكسيرة.

هل قلت بأني لم أكن أثيراً لديه؟

أكتشف الآن أن هذا الحكم لم يكن منصفاً. لم يكن موضوعياً، إذا ما استبعدنا التعابير الأخلاقية. على العكس. لقد اتضح لي الآن أنه كان يؤثرني كثيراً. والدليل على ذلك أنه أورثني أهم ما كان يميزه: تأتأته وعناده.

«لكن الأولى عبء محض». سيقول الجميع.

هذا أكيد. إلا أني صرت أرى أن توريث ما هو مفيد فقط إنما يدخل في باب الشفقة، وهي شيء لا يرضى به الكثيرون، وأنا منهم بالطبع. أما توريث السراء مع الضراء فهو الحب الخالص.

لأن ذلك يعني أنه قد اصطفاني لأن أكون امتداداً له.

انتهت يوم 2004/6/5

لما جبتك، كان الربيع منور.

تحكي لي أمي أكثر من مرة.

كانت الدنيا ما زالت ضحى، وكان الجو سمح. كانوا جايينا ضيوف كنت نُحْرُكْ في المطبخ نعوِّل ع الغدى. ناديت يا مبروكة، يا مبروكة، علي مبروكة عمتك، ما ناضت ووصلت فيَّ، ما كانش خاطر عليها عاد، لين كنت جبت وكملت. مشت يا سيدي قصت سرتك، بموس المطبخ، قلتلها هذا كنت نقرض بيه في الثوم والبصل، قالتلي معناها نظيف وما فيه شيء، ما تخافيش عليه، ويبعدين خذاتك وكمكماتك.

ثم تضيف:

ما تعبتش في جيبانك بكل. بعدين تعبتني، بشطانتك.

كانت قد أنجبت قبلي، فرادى ومثنى، عشرة بين ذكور وإناث [لم أهتم بمعرفة عدد كل جانب] وبنتًا بعدي، ولم يتبق لها من مجمل الحصيلة سوى الثلث. ثلاثة ذكور والبنت التي جاءت بعدي.

عمري ما نزلتلي دمعة على عيل ماتلي، غير تركية. ربيت عليها كبد. ماتت كبيرة. عمرها عامين، تلعب وتجري وتضحك وتفرِّز في الكلام وتفهم لما الواحد يطلب منها حاجة. لخرين ما كانوش يكملوا الحول.

كنت في حوالي السادسة من العمر عندما ختنت، ولم أبرأ من جرح الختان سريعًا. نهضت ذات صباح أتعجل التبول، فلم يخرج البول، وكان الوجع حادًا، فأخذت أصيح، جاءت أمي وأخذت تدهن فتحة العضو المتوتر بالزيت فاندفع البول كما لو كان من نافورة، ليصيب وجهها وملابسها. بعدها أحضروا لي مرهمًا فكانت تقوم، على مدى بضعة أيام، بنفس العملية وتتكرر معها نفس الحالة.

لا أذكرها، في أقصى نقطة من الماضي يمكن أن تلامسها ذاكرتي، إلا وهي تشكو من مرض غامض في أحشائها.

حاجة زي الغصة، حاشاك، زي الكورة، ترقى وتنزل بين بطني وصدري. آهيه. غير مس هنى. تأخذ كفي وتضعها على النقطة التي يتواجد فيها، في تلك اللحظة، ذلك الجسم الغامض الذي يتمشى، ذهابًا وإيابًا، بين بطنها وصدرها.

آهيه. لقيتها؟.

لا أشعر بشيء، أو، على الأقل، لا أكون متأكدًا من أني قد لامست الجسم الغريب الخفي.

إيه حق

قال لها أخي الأوسط مرة:

باين هانو جماعة يطبوا في الكورة.

فردت عليه:

يطبوا في راسك.

أكثر من مرة كنت اسمعها تقول لواحدة من صاحباتها:

مش بعيد عندي الراقد.

وأكثر من مرة أشاهدها تشرب مغلي بعض الأعشاب. لست أدري ما الذي جرى لأخـ(تـ)ي الراقد(ة). لكن مرضها استدام وشكواها لم تنقطع، وكثيرًا ما كانت تمر ليال كاملة لا تكف فيها عن الأنين. وفي الليالي التي يعطيها فيها المرض راحة يعلو شخيرها. وكان أخي الأوسط يقول لها أحيانًا:

شورك يا تئني يا تشخري. سكات مافيش.

لكنني لا أتذكر أنها قضت، مهما اشتد بها المرض، يومًا بكامله طريحة الفراش.

كان الشغل مدار حياتها. فقد حصدت، تحت الحر اللاهب، الشعير، والقمح، وجزت الأعشاب والحشائش، وجمعت الزيتون والتين الشوكي والجراد، احتطبت وجلبت الماء، على ظهرها أو مستعينة بحمارة أو حمار، من الآبار والمواجل والغدران، حلبت النوق والأبقار والشياه والماعز ومخضت الحليب واستخرجت الزبدة وصنعت السمن، رحت وغزلت ونسجت وهرست الزيتون واستصفت منه الزيت، اعتلت متون الإبل والخيل والبغال والحمير وحملت الأثقال على ظهرها وتقلدت المناجل والمساحي والجواريف والفؤوس والهراوات [ويبدو لي أنها كان يمكن، إن استلزمت الظروف، وبقليل من الجهد في الإقناع، أن تحمل السلاح وتخوض المعارك، خاصةً وأن صغر بنيتها يساعد على سرعة الحركة وسهولة التخفي. المسألة الوحيدة التي قد يستحيل إقناعها بها هي تخليها عن ملابسها التقليدية وارتداؤها ملابس للقتال.] كما أنها تحملت، دون إذعان، ضربات أبي القاسية، وقتلت الكلاب.

كانت لدينا كلبة أخذت، في فترة ما، تتسلل إلى داخل المسكن لتلتهم العجين الذي كانت أمي تتركه كي يتخمر. لم تكن، بالطبع، تجد صعوبة في معرفة وجوده وتحديد مكانه. لم تحاول أمي أن تتفهم دوافع الكلبة، بل اعتبرت ذلك «خيانة طبع» أي «انحرافًا سلوكيًا» بتعبير آخر. أتصور أن تكييفها للقضية اتخذ السياق التالي: لم تكتف الكلبة بما كان يمنح لها، إضافة إلى ما كان يمكن أن تتحصل عليه في حياة البراري. إنها لم تكتف بحصتها وأخذت تتعدى على حصتنا. لقد جعلت، بسلوكها هذا، أمننا الغذائي مهدداً. عندما تتعارض مصالح البشر (خاصة إن هؤلاء البشر هي وأسرتها) مع مصالح الحيوانات، فالبشر أولى. لذا كان لابد من تصفيتها، وقد كان.

نادتها، ذات ضحى:

كُسْكُسْ، كسكس، كسكس.

جاءت الكلبة راكضة. تمسحت بأمي هازة ذيلها. نهرتها أمي ملوحة بيدها في حركة إبعاد:

غاد. غادي. شرِّ. غادي.

تأخرت الكلبة قليلاً مصدرة، دون أن تكف عن هز ذيلها، صوتًا متوددًا، ثم التصقت بالأرض باسطة قائمتيها الأماميتين واضعة خطمها بينهما، مواصلة إصدار صوت التودد والامتنان [لعلها كانت تعتذر عن فعلتها وتعد بعدم تكرارها] ثم ثنت ذيلها إلى جانبها واستكانت رانية إلى أمي. ناولتها أمي عبود «زميطة» مخلوطًا بمادة سامة. التهمته الكلبة بشراهة شديدة، وماتت، حسب ما أذكر، في غضون أربع وعشرين ساعة.

كما عجلت، بنفس الطريقة، بموت كلب عاش معنا [وجدته قبلي] حتى أنهكته الشيخوخة وأضناه المرض. نادته باسمه:

سعد، سعد.

لكن يبدو أن حاسة السمع لدى سعد قد اعتراها الوهن، فكررت النداء:

سعد، سعد، سعد.

جاء سعد، الذي كان ينكمش ملتفًا على نفسه، مجرجرًا جسده، مجتهدًا في الالتزام بطقوس الولاء والعرفان، تناول الطعام المميت ثم انسحب إلى حيث كان يستكن. كان سعد هذا كلبًا يثير الدهشة. فهو لم يكن يسرق من بيتنا، بل كان يسرق من بيوت الآخرين، ولسنا ندري إن كان يستأثر لنفسه بشيء مما يسرقه، ولكنه كان يجلب لنا من مسروقاته ما يمكنه حمله.

ما أثار استغرابي، إلى حد كبير، أني لاحظت عندما كانوا يزورونني في السجن، قبل صدور الحكم وبعده، أنها كانت أكثر تماسكًا ومرونة في التعامل مع الوضع من أبي. لكنها حدثتني، بعد أن خرجت، أنها طوال مدة وجودي في السجن (تسع سنوات وشهران وسبعة أيام، أي ما يساوي: 3353 يومًا، بحذف يوم الدخول ويوم الخروج وإضافة يومين عن سنتين كبيستين) لم تذهب إلى حفل زفاف أو تقبل دعوة من أحد. وأعتقد أن بكاءها طوال هذه المدة عجل بنزول الماء الأبيض في عينيها مضعفًا بصرها إلى الحد الأدنى الذي لا يحوجها إلى من يقودها في كل تحركاتها.

يوم إخراجي من السجن صادف مرور حوالي ثلاثة أيام على وفاة أبي (الذي لم أره لمدة أربع سنوات، بسبب منع الزيارات). فكان كافة الأقارب وعدد كبير من الجيران متجمعين لدينا بسبب العزاء. ارتأى بعض الأقارب القائمين على شؤون العزاء وتنظيم استقبالي أن أبدأ بالسلام على النساء ثم انتقل إلى مكان تواجد الرجال. خرجت النساء لاستقبالي في الشارع. أول من سلمت عليّ كانت امرأة لا أعرفها. سمعت إحداهن تقول:

خلوا أمه تسلم عليه هي لولي. خلوا أمه هي لولي.

تقدمت أمي، التي لم أرها منذ حوالي أربع سنوات، كانت الهموم والشيخوخة قد امتصت تألقها، فبدت مرهقة ومنهوكة القوى لا تكاد تقوى على فرد قامتها والسير. انحنيت قليلاً واحتضنتها قائلاً:

عظم الله أجرك.

سمعت همس امرأة مختلطًا بصوت أمي:

باين عليه سامع.

وأحسست بأمي تكاد أن تنهار وهي ترد:

الدوام لله.

فقلت لها بحزم وأنا أشدها لأساعدها على فرد قامتها:

شدّي روحك. خيرك هكي. شدي روحك يا أمي.

أجابتني بصوت يصارع الإرهاق والضعف:

شادة روحي. أني امك، يا عمر، أني امك. شادة روحي.

يبدو لي أن جوانحها كانت تنطوي على ولع شديد بلذائذ الحياة ومتعها، ولع لم يقدر له أن يشبع. إذ كثيراً ما كنت أشاهدها تتزين زينة يمكن اخفاؤها عن نظر اخويّ الأكبر مني، وكانت، في بعض ليالي الشتاء وبعد أن تكون قد استحمت في العشية، تفاحج فوق الكانون المتوقد الجمر المنبعثة منه سحابات من دخان البخور ليتشرب جسدها عطراً دافئًا ويدخر دفئًا عاطراً. وسمعتها مرة تحكي لواحدة من صاحباتها: شهر رمضان في الشتي شن طعمته؟. شن تشتهي فيه؟. تصيمي النهار ولما يذن المغرب تاكلي، وخلاص. لكن رمضان في الصيف، تظلي تراجي غير آمتي يجي المغرب وانت تتشهي في جغيمة اميه

باردة، في دليليعة مسقعة، في عنيبات، خويخات، كريميسات... فيه شن تشتهي.

بعد ذلك بعقود، سوف يصرخ محمود درويش، في إحدى قصائده:

أشتهي أن أشتهي

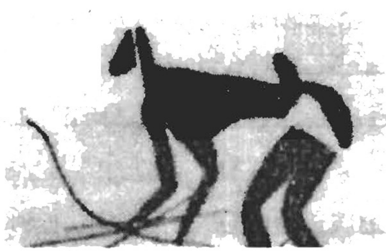
(.......................)

أشتهي

أو

أنتهي

طرابلس. (2-9). 8. 2004



سياسيا كنت دائما يساريا، بمعنى أنني أنادي بالثورة والعدل وأدافع عن الإنسان، لكنني لم اعتنق أبدًا الفكر الماركسي، ولم أنضم يومـًا إلى حزب شيوعي، ثم أنني لست ملحدًا، الأمر أشبه باتهام الحلاج بأنه حرض العامة على الثورة، واتهم بمؤازرة القرامطة، وكانت حجتهم أن المتصوف لا يترك محرابه.

لقد توصلت إلى استنتاج مؤلم، اكتشف وعليّ أن اعترف بأن العقل الجماعي أشبه بعقل الحيوان، أي تجد الناس كأفراد عقلاء، كل واحد يتحلى كل منهم بالقيم التي تربطه بالسماء وما بعد الموت، قيم الخير والحرص، ولكن عندما يجتمعون يتحولون إلى سوق يقودهم أي وحش، وعندها يتحولون إلى وقود للجريمة يعني القيم بالنسبة لعامة الناس أو للغالبية العظمى من الناس القيم شيء جميل أو هكذا يقولون ولكنهم لا يلتزمون بها كالمدخن مثلاً أو بعض مرضى السكر يقرون بصحة النصيحة لكن لا يلتزمون بها فكذلك العقل العام أو العقل الجماعي، فالناس تراهم يتمسكون، أو بمعنى أصح يتظاهرون بأنهم يتمسكون بالقيم والمثل العليا ما دام لا يكلفهم ذلك شيئـًا ولو يسيرًا، ولو وقفة احتجاج ولو لبضع دقائق، هناك بالطبع استثناءات وهي التي تثري التاريخ بالشهداء.

• من كتاب حوارات مع الشاعر محمد الشلطامي للدكتور محمد محمد المفتي•

المجد للشاعر في عامه الستين

محمد الفقيه صالح

هل السيف دائمًا «أصدق إنباءً من الكتب»؟ أجل، هو كذلك، إلا في حالات نادرة لا يقلُّ فيها حدُّ الكلمة – أو الشعر– رهافةً وحسمًا وفاعلية عن حدِّ السيف، ومنها – بل وفي مقدمتها – حالة محمد الشلطامي الشعرية.

إن الأبرز والأنبل والأسمى في هذه التجربة الشعرية اللافتة، ليس فقط انحياز شاعرها وإخلاصه لتقاليد مدرسة الشعر الحديث (أو الحر) العربية؛ ولا في اعتباره امتدادًا متطورًا خلاقًا لشعراء الموجة الأولى ممن يمثلونها في بلادنا الليبية؛ ولا في توفره على مساحةٍ وافيةٍ من الصدق والأصالة الذاتية الإبداعية في إطار جماليات هذه المدرسة؛ بل – وبالاساس – في ما يمثله من سلطة وسطوة روحية وأخلاقية غلابة، ولجت بثقافتنا الوطنية المعاصرة في صميم أسئلة المرحلة، ومنحتها بذلك استحقاقات الحضور التاريخي الراسخ. وما من سبب لتوفر هذا الشاعر الكبير على هذه المنزلة الأخلاقية الروحية المهيبة – رغم ما تعرض له منذ بواكير شبابه؛ أي منذ أواسط الستينيات؛ من عنتٍ وتهميش بل وتغييب – سوى الإتساق المذهل لديه بين الكلمة والموقف، وإمساكه طيلة أربعين عامًا، هي قوام عمره الشعري حتى الآن، بجمر الكلمة الشعرية، لا بحسبانها ضربًا من ضروب التخييل فقط، ولا مصدرًا للتعيّش أو التكسب أو الوجاهة، بل باعتبارها تحققًا للكينونة، وموقفًا من الإنسان والواقع والوجود، في إطار تجربة ثرية نابضة، قلَّ نظيرها في الشعر الليبي؛ إن لم يكن العربي؛ المعاصر، اندغم فيها النازع الإبداعي الذاتي في الشاغل العام، من خلال هاجس الحرية وسؤالها اللافح، بحيث تكرست الطاقة الشعرية – برمتها – للسياسة بما هي ثقافة للحرية، إطلاقًا من انحياز حازم وصارم لإنسانية الإنسان ولقيم العدالة والمحبة،

حتى وإن اقتضى ذلك محنة المرور في طريق الجلجلة، أو عبور المطهر (أو المصهر) المعروف. لذلك كله صار شعر الشلطامي شجرة نلوذ بظلها الرخيِّ الرحيم كلما اشتدَّ صهدُ الهاجرة، ووطنًا حانيًا أبيًا نلتجئ إليه حينما تضيق بنا البلادُ أو نضيق بها. وكلما أوغل الشعر عميقًا في مخاطرة التجلي كشاهد وشهيد، لفحتنا حرارةُ التجربة وما تختزنه من ألمٍ ومكابدات، ومن صبر ومصابرةٍ وإباء، وفي كل ذلك إنما نتحسس ملامح صريحة وجريحة من سيرتنا الوجدانية الليبية المعاصرة.

لقد كان شعر الشلطامي ضروريًا لنا ونحن نعبر برزخ الستينيات إلى عشرية السبعينيات بإشكالياتها وتحولاتها وتعقيداتها وأحلامها المجهضة. وهو ضروريٌّ لنا الآن ونحن نخوّض في وحل الهزائم والاحباطات والتراجعات، تحت وطأة حملات التيئيس والإذلال بكافة إشكاله ومستوياته على أيدي العرب والعجم في آن معًا. ثم إنه سيكون ضروريًا لأبناء الأجيال القادمة الساعين إلى إعادة تأسيس ثقافتنا الوطنية، استنادًا إلى جذور راسخة تنتصر لإنسانية الإنسان وكرامته البشرية.

المجد للشاعر في عامه الستين

ولدت في يوم الجمعة 13 أكتوبر عام 1944 ككثير من الليبيين آنذاك، كنا نسكن في أحد أطلال الحرب العالمية الثانية (قرب ما يعرف الآن بشارع جمال عبد الناصر) بيتـًا مهدومـًا مرمـما بالصفيح في منطقة سيدي حسين في بنغازي، ولم تكن ظروف أسرتي طبيعية فوالدي كان قد افترق عن أمي؛ وعلى أية حال توفّي قبل أن أكمل الخامسة من عمري، واضطرت أمي أن تعمل، فكانت تتركنا من الصباح الباكر حتى المساء، وبالتالي غاب دور رقابتها عليّ وتولاني الشارع، فتعلمت التدخين مبكرًا، وانعكس ذلك على مستواي التعليمي، فكنت انتقل من صف إلى صف بصعوبة بالغة، ورسبت أحيانـًا وأعدت السنة الدراسية أحيانـًا، لكنني اكتشفت قول الشعر (باللهجة العامية] أو لعله جاءني (...)، وفي عام 1956 أثناء العدوان الثلاثي على مصر قلت شعرًا بالعامية منحازًا بطبيعة الحال إلى مصر ضد أعدائها، وقرأته وسط زملائي الذين حفظوه وشرعوا يرددونه فاستدعاني المدرسون وطلبوا مني إلقاءه وفعلت ووجدت منهم تشجيعًا كبيرًا، ونصحني أحدهم أن أقرأ المعلقات السبع، وحفظتها دون أن أعرف معناها.

• من كتاب حوارات مع الشاعر محمد الشلطامي – نفس المصدر•

المصْبَاحُ

محمد الشلطامي

أغنية رقم 1

هَا أنا أسألك الأمنَ..

فَتُعْطِيني القلقْ

وأُناديكَ من الظلمةِ أن تسكُبَ لي شيئًا من النُّورِ

فكأسي ..

طافحٌ بالليلِ والظَّلمةِ.. لكنكَ تعطِيني الظَّلامْ

ومزيدًا مِنْ ظلامْ

أتُرى أنِّي أخطأت الكلامْ

أمْ لذاتِ اللفظِ ضدَّانِ .. فَمْعنىً ...

يتوارى في الحروفْ

من ديوان : أغاني سارق النار، لم ينشر بعد.

مثلمَا يختبئ المقتول في ذاكرةِ النَّـاسِ ..

ولا تَبْقَى السّيوفْ

عندما يغمدها الدهرُ.. وَمعْنَى

فى الحتوفْ

حينما تُصبحُ في قاموسِكَ الأولِ ميلادًا جديدًا

وربيعًا وسلامْ

ألهذا أنتَ تعطيني الظَّلامْ..؟

قال لي : أُوقدْ ..

فمصباحُك رَيَّانٌ بزيتِ الحزنِ

والمشكاةُ في قلبكَ لم تبرحْ

وما أنتَ سوى الـمِصْبَاحُ والمشكاةُ في ليْلِ الوجودْ

أحترقْ

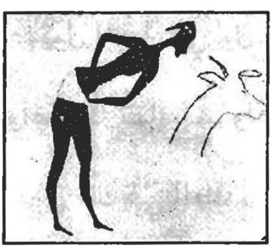
حتَّى تـرى أَنَّـكَ موجودٌ..،

وأنَّ الليلَ صاغتهُ المقاديرُ..،

لكي تومضَ في ظلمتهِ السوداء أضواءُ القناديلِ

بوجهِ العاصفةْ

أوقدِ المصباح يا هذا .. بنارِ المعرفة

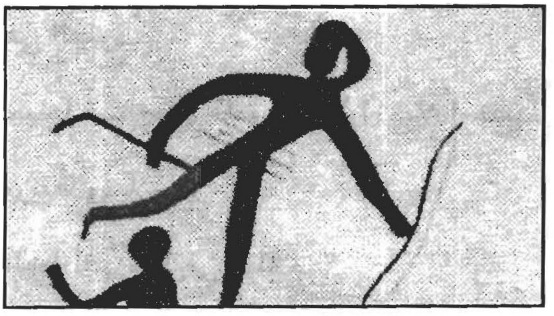


بنغازي . مايو 2002

أغنية رقم 3

الصوت

أنتَ ذا تُبصرُ ما أبصر من طاحونةٍ تَجْهَشُ في الليلِ ..،



بأصواتٍ تُناديكَ ..

ونهرٍ من دموعٍ لا تجفّ ..

ودماءُ لم تكُفْ ..

منذ قابيل ،

وصوتُ الريحِ يجتاحُ المدى الغارقَ في الظُّلمةِ..،

فالأرضُ التي باركتها أنتَ،

وقدَّرت بها الآجالَ والأرزاقَ..

لم يَبْقَ بها رزقٌ ...،

وخيلُ الرُّعبِ لم تُبْقِ سوى الليل الرهيبْ

ها أنا أسمعُ..

بَل أُبصرُ من زنزانةِ الخوفِ

صهيلَ الخْيلِ في ليلٍ بلا فجرٍ

وأصواتًا تُناديكَ.. ولكنْ .. لا مجيبْ

أترى أنَّكَ في العلياءِ .. باركتَ الصليبْ

وترحَّمتَ على القاتلِ والمقتولِ في مملكة الخوفِ..

وصوَّرتَ من الظُّلمةِ..

شمســاً لا تغيبْ

أعطني السَّيفَ .. وباركنى..

وخذْ مني الذي شئتَ .. فما الدُّنيا سوى

كرٌّ .. وكرْ..

وأنا أعطيكَ ما شئتَ من العهدِ.. فإني لنْ أَفرْ

كيفَ لي أن أسمعَ الثَّكلى تُناديكَ وأرتدُّ..،

على عقبيَّ مهزومــاً، وفي عَيْنيَّ مثقالُ حياءْ

أعطني السَّيفَ .. وباركني .. فما الدُّنيا سوى وقفة عزٍّ

وإباءْ

وإذا صوتُكَ يأتيني .. مِنَ اللاشيء كاللحنِ الحزينْ..

– : أيها المحجُوب في زنزانةِ الغفلةِ .. والطِّينِ..

ألا تُبْصرني

أترى أنِّي لا أسمعُ .. بل أنِّي أنا الليلُ

وهاتيكَ الشموعْ

وأنا الظاهرُ.. والباطنُ . إن شئتَ ترى أنِّي القتيلْ

أوْ إذا شئتَ .. ترى أنِّي أنا نهر الدُّموعْ

بنغازي . مايو 2002

أغنية رقم 9

الظُلمات الثلاث

صَهْ.. أيها الصَّمْتُ فإنِّي

أسمعُ الآنَ دفوفَ الحضرةِ الغامرةِ النُّورِ،

وأشتمُّ البخورْ

وأرَى من حيثُ لا يبصرُ أمثالُك مجدَ اللهِ في موكبِ نورْ

أنهم جاء وا ..



فهلْ تسمعْ صهيلَ الخيلِ ..

هل تُبصرُ .. ما أبصر ..

أم أنَّكَ من أهلِ القبورْ

كلما لاحَ لكَ الضوءُ ..

تمسَّكت بأطرافِ الصخورْ

وتعلَّقْتَ بحبلِ العجزِ .. والخوفِ

فكانتْ

أرضُ أحلامِكَ في الصحوِ وفي الغفلةِ بورْ

هم أولى أتُونَ كالنسْمةِ في ظهرٍ من القيظِ

وكالقطرةِ في وادي من المحْلِ

وبُشرى.. وسرورْ

للذي تَحْبِسهُ الظُّلمةُ .. في بئرٍ من الظُّلمةِ ..

في بحرٍ من الظلمةِ .. والليلِ ..

فحرَّاسُك عورْ

لا ينامونَ ولا يصحُونَ

فاسْتَمْسِكْ بما عندكَ..

فالأرضُ تدورْ

هكذا قالَ وليٌّ الحضرة الأعلَى فلا تأسى

إذا ما شفَّكَ الوجدُ

على شاهدِ زورْ

زَيَّنَ المقبرةَ الشَّوهاء في الليلِ..

وسمَّاها قصورْ

لا .. ولا تأسى على مَنْ هربوا من شبحِ الموتِ

ولاذوا بالقبورْ

ها أنا أُبصرُ في ظلمةِ بطنِ الحوتِ ..

والليلِ ..

وقاعِ البحرِ .. رايات الفرحْ

هُمْ أولي آتونَ ..

فاستوقدْ إذا ما شئتَ مصباحك من قوسِ قُزحْ

وتعللْ ..

بالَّذي خمْرَتُهُ صحوُ ..

وخذْ منِّي قدحْ

بنغازي . يونيو 2002

نافورة الشمس

إدريس الطيب

– 1 –

أحدق منفرداً نحو نافذتي في الصباح،

ألاحق خيط الضياء يمر إلى سقف زنزانتي،

حين يدخل – مبتسمـاً – عبر قضبانها،

الشمس لـمّا تزل طفلة بعد،

لم ترتفع في السماء كثيراً،

لكي يهبط الضوء نحوي

لذلك لا بد أن أتماهى بخيط الضياء لكي يمرق الوقت،

– 2 –

تهبط لي الشمس – حين تشب – على شكل نافورة تتلألأ في قلب زنزانتي

أتمدد

أغرقُ وجهي بهذا الشعاع، وأغمض عيني

يسكنني الضوء إجهاشة بالحنين إليك كما تسكنين مواشيره،

أبطئ السير أيتها الشمس،

فهذا الشعاع سيعرج بي للسماء،

لأقهر طول المسافة بيني وبين ذراعيك في طرفة العين،

- 3 -

للشمس قلب

وصدر تهدهد أطفالها فوقه حين يغفون في حضنها

وأنا ممسك يدها نتنزه في شاطئ البحر

يصطفق الموج في جذل، ويلامس أقدامنا بافتقاد الصديق القديم

تزغرد ضحكتها المستثارة،

تجري ألاحقها فوق رمل الشاطئ

أزرع في شعرها زهر عبّادها

يغضب البحر في غيرة الطفل

يركل وجه الرمال بأمواجه

نمسح دمعته ونناغيه

- 4 -

تنسل نافورة الشمس في السرِّ

تاركة جسدي يتلمظ نشوته

تشهر زنزانتي في مواجهة الحلم جدرانها

وحضورك في الذات جذر المسرة

لا يرهب السجن

يصبح مركبتي للوصول إليك

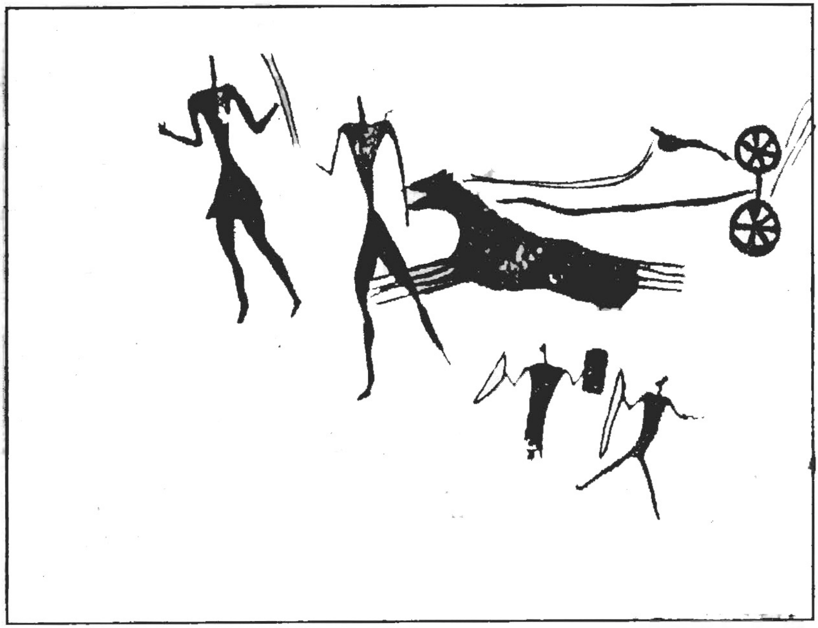
فاجري إلى (شاطئ الحلم) أسأله عنك

يكتم ضحكته البحر حين يراك تسللت في الصمت سرّاً

لتغلق كفاك عينيّ

أعلم أنك شمس تجيئين دون مغيب

وأن السجين بزنزانة الانفراد سجينين رغم الحراسة



– 5 –

أيتها الشمس

حين يغمس وجهك دورته في مياه الضفاف البعيدة

ينغمس القلب في بحر أحزانه

فاذكري أن تجيءَ غداً

سجن الجديدة الانفرادي

1979/1/26

لحظة أن ينفلت القيد

- 1 -

ينفرد التوق في ساحة السجن بالأضلع المستسرة أوجاعها..

ثم يكتظ منسرحاً في التجاويف يقرعها بالتوجس...

يضطرم الوجد ينزف في الصمت في قلب شوك التوحد،

يزرع خلف السياج أمانيه...

رفرفات الفؤاد السجين تصفق أجنحة للتواصل...

في لحظة الحلم ينعتق الصدر

والقلب الطير يغافل حراس هذا القفص

وثبة، وثبة

يتوامض وجهك مبتسماً بالحضور الشديد

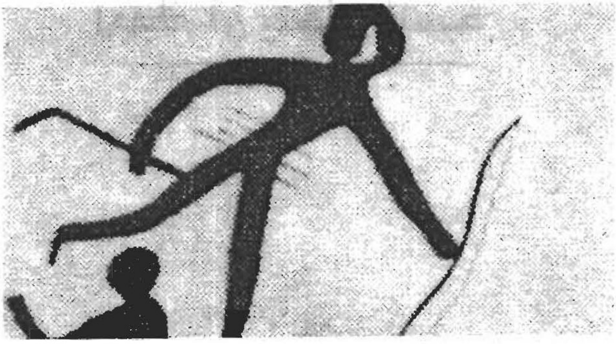
يضج الحنين إليك سيولاً من الدمع ترتج في الصدر

استعصت على الانبثاق، وحجرها عنفوان المرارة

منهكة كل يوم وجوه الرفاق

ولا نعرف في السجن لون المرايا،

ولكنني منهك مثل كل الوجوه



- 2 -

يقولون : إن غداً يوم عيد

وفي ليلة العيد يومض وجهك متسمـاً بالحضور الملح المباغت

تبتسم الأمنيات

تشب العزيمة في القلب جارفة وتمس تجاعيده بالسرور

ليصبح في موهن الليل، في أعمق السجن،

غضـاً ومتسعـاً لاحتفالات أطفالنا

مهرجانك - يا امرأتي - ها هنـا

فاغرسي قدميك الشجاعين في ثابت الأرض

وانتظريني

سجن الجديدة الانفرادي

30 /1 / 1979

نهر سيفقد عنوان بيتي

- 1 -

عاشق هده السجن،

والأغنيات البعيدة وهم يبدده صوت أقدامهم

والحكايا شرود،

وليل يخيم كالخوف،

يسرق أنفاسه من رتابة نوم هنئ يراود جفن المدى،

يتنهد هذا الظلام، وتلمع أحداقه،

يتمطى ويقعي،

وكلب الحراسة يأتي ويذهب،

يكسر سيطرة الصمت،

يفزع نوم الممرات،

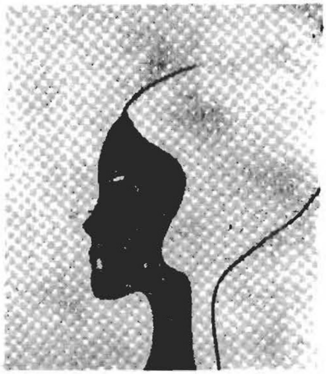
والحلم يومض بين صحارى المسافة والاشتعال..

- 2 -

يراود ذاكرتي وهج المدن المستمدة فرحتها من ثغاء الصباح الوليد،

ومن دبة الطفل بين الحشائش حين يقلد مشي العصافير،

من خجل الزهر حين تمر عليه بنات المدارس، أو يتغزل فيه المشاة



- 3 -

وها إنني عاشق هدَّه السجن

وحدي، ومكتئب كالنحيب وصمت يطن ويغلق أذنيه،

والسجن يخفق كالقلب حين ينوء بحمل القصائد،

ليلي تباطأ في النوم والهم يغتالني،

آه لو كنت فجراً لكنت هربت من السجن ...

لأن الصباح هنا سوف يولد بالرغم منه سجينـاً

ويصرخ منكسراً بالفجيعة والاندحار.

سجن الجديدة الانفرادي

27 /2 / 1979

لحظة أمان

كامل الهادى عراب

لماذا تجبرونني على البوح
بكل الأسرار التي بين ضلوعي
حسن
سأمزق الأقنعة الكاذبة التي تعلو وجوهكم
أصيخوا السمع
مهرة الريح التي ألقيت السرج على ظهرها
أمتطيتها في خفة البرق
فعبرت بي نحو سماوات
لا تراها عيونكم الكليلة
الغيمة التي أمسكت بها بين أصابعي
ثم أطلقتها
بعد أن نفخت فيها
هواء باردًا

من صدرى الذي تسكنه عصور من الثلج

جفلت وهي تراكم

فأمطرت بعيداً

ولن يكون لها خراج

حتى العويل

الذي مزق السكون

وطاف بأذني ساعة جوع

كان يأتي من نادبات

على موتى غير موتاكم

الدماء التي نفرت في عروقي انكرتني بسبب حبة رمل

عالقة بجسدي

بقايا صحراء قاحلة

ليس فيها سوى الإمحال

الولد ذو الفلجة الضاحكة

الولد لوح لي

مطلقـاً ضحكة أضاءت نصف الكون

قال لي

أنت أب ما له أبناء

انتظرني عند مطلع الشمس

سنكون معـاً رفيقين

مبتعدين

إلى أن تبلغ القلوب الحناجر

كل يغني على ليلاه

أيها السفلة

لماذا تجبرونني على البوح

بالأسرار التي بين ضلوعي

يا قلقامش

لما كل هذا العناء

لمن .. آه أنت!

لمن عشبة الخلود

توقف فالأرض يباب

«إليوت» لم يعد قادراً على تحريك السواكن

عبثـاً

ترفع يديك بالصلوات في كنيسة مهجورة

يا سيزيف

انزل الحجر من فوق كتفيك

وضعه تحت مؤخرتك لترتاح

(لا أمس من عمر الزمان ولا غد)



جمع الزمان فكان يوم أن بالت عليك الثعالب

أيتها السيدة

التي فتحت ساقيها للعابرين

بعثرت كنوز أنوثتها للغرباء

ستموتين هكذا

وحيدة بائسة

تدوسك سنابك الخيول

يبصق الأفاقون على جثتك التي يتناهشها الدود

لماذا تجبرونني على البوح بما بين ضلوعي

من أسرار

حسن

أعطوني لحظة أمان

ثم أصيخوا السمع ..

شبابيك

منصور العجالي

لعلّه الليل

يفر بعريه الصاخب

إلى أصابع المرآة

يضرب بياقوت حنطته

فضة السرير..

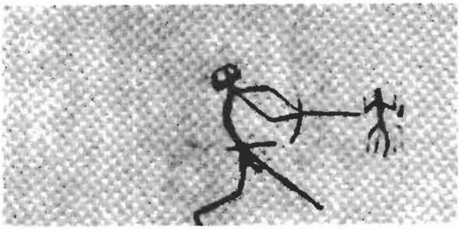
لعلّه الجسد

ينقب بعصافير صدره

ذنب الليل

يقضم

جمر المسافات ..



لعلّه الشعر

يسرقه الوقت

وهو يرفع عن شبابيك الحلم

المؤبد سجف الظلام ..

لعلّها الغزالة

تصرخ ملء الليل

من يخلص الليل من يد الليل ..

أرجوحة التناص

سميرة البوزيدي

أشياء المكان
تقولنا كثيرا
وعميقا
في ذروتها
نلاحق بعضنا
نتلمس النص
بأصابع من حريق
يبارك نارنا التي
تحت الرماد
تمد ألسنتها
مبتهجة
أتناص معي
أتبعثر...ألملمني

أخبرك قليلا عني
وأترك عطشا صغيرا
على نصك
ذلك الذي سيعنيني حقا
ضاريا يسند ارتباكي
على عتبتك
فقط
لكي
أتناص
معك
هذه
المرة

***

وسترى
فيما لايعاد
الميناء يشتعل
تحضر كل الوجوه
لتطفىء ملامحي فيك
لكن الميناء يشتعل
والسفن تقترب

من الغرق

الغرق؟؟؟

ذلك ما يعجبني فيك حقا

***

هل أطلسم قصيدتي

بالمزيد؟؟؟

بمراوغة

لاتعني سواك

ذلك جيد ربما أرتاح

في السطر الموالي

ربما صرفك ذلك

عن التحديق في عيني

كعراف

ربما ألتهمتك كلماتي يا بطل

هكذا

غافلا

ومبتسما

وغريبا

على البياض

أرجوحة متفاقمة

غياب

يرسم حضورا ضاريا

يرشو الرحيل

بنزهة صغيرة

في الفكرة

وبكاء آخر السطر

البياض شراسة تقتفي

هدوىء

تستفز أظافر المعنى

وتستقر تماما

مستوية

على رأسها

***

حمقى

على بوابة الارتباك

يصطنعون تماسكا

أزفر هشاشته

بسهولة



والحقيقة انني

أنا الحمقاء أحيانا

بل ودائما

حتى انني أدعي الارتباك الآن

فقط لأجرب تماسكي

هوامش علي كتاب
تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى *

محمد محمد المفتي

الصـحـراءُ لدينا كـونٌ مـحـاطٌ بالمخـاوف والخـرافـات والتـهـويلات، وأيضـاً بشيء من الرومانسية بل والقدسية. لكن الصحراء مهما أصبغنا عليها من شعر، ترتبط صورتها بمعاني الضنك والعطش والعرق والتعب والتهديد المضمر وراء كل كثيب.

ومع ذلك فالصحراء بيئة، التجأ الناس –عبر التاريخ – إلى جيوبها الرطبة الخضراء في الواحات، وتكسّب آخرون من مساراتها التي تتبعها القوافل إلى بلدان على ضفة الرمال الأخرى، لتحمل البضائع وتجلب السلع، وتنقل القيم والمعتقدات وتعود بالغرائب والرقيق.

إنه الإنسان الذي تكبد شتى ضروب المعاناة من أجل كسب رزقه، أو إطفاءً لشهوة الفضول والترحال كالتي نلمسها لدى ابن بطوطة والرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر، أو طلباً للعلم كما عند ليون الأفريقي (الحسن الوزان) في كتابه وصف أفريقيا. ومع ذلك من حق سكان الأرياف والحواضر، أن يتساءلوا: لماذا يصر أهل الصحراء علي البقاء فيها بالرغم من أنهم معرضون للعواصف والعطش والغارات..؟؟

درس تطبيقي في البحث العلمي

من التقاليد الأكاديمية الرائعة التي أرستها الجامعات الحديثة ومراكز البحث أن يكرس باحث حياته لتقصي موضوع ما، عسى أن يغطي جميع جوانبه بكل جدية ونزاهة. وقد عرفت الثقافة العربية في أوج ازدهارها، قبل قرون، هذا النمط من الباحثين كالأصفهاني

* تأليف : جاك تيري، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، منشورات الدار الجماهيرية 2004م.

في كتابه الأغاني والجاحظ.. وغيرهم. لكن الأكاديمي العربي المعاصر، تراجع للأسف - مع وجود بعض استثناءات لا تخطئها العين - إلى معلم يرتل المنهج ملخصاً على طلبته، ولا يأبه بالبحث العلمي.. وإن ألف فإنما يكتب الشروح والعروض التي تخلو من كل أصالة، أو حتى دلالة واسعة، لأنه لا ينشد المعرفة، بقدر ما يطلب الترقية. فلا عجب أن كثيراً من مؤلفاتنا تبدو حائرة المنهج، مترهلة المادة، تتستر بالحشو والاجترار، طلباً لكثرة الصفحات على حساب الاستقصاء والأصالة، وقد تنحدر إلى السرقة النصية والفكرية، بتضمين كتابات آخرين دون خجل، ودون إشارة إلى مصدرها.

هذا الكتاب.. «تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى»، عطاء تكريسي بالمعني الذي شرحناه، وهو بقدر ما يرهق القارئ بطوله وإيقاعه السجالي، إلا أنه أصيل في مادته، بمعنى أنه يصحح فهمنا لتاريخ الصحراء الليبية في القرون الوسطى، يصحح أخطاء المؤلفين القدماء، ويدحض التعليمات الشائعة، ويصر على أن نأخذ في الحسبان عند قراءة نصوص الجغرافيين والرحالة القدامي السياق العام، فهذا كاتب نقل عن آخر أو عن رواة لأنه لم يزر المنطقة بنفسه، وكاتب مجبول على التذمر والذم، وثالث زار واحة كانت مزدهرة في زمانه بينما زارها جغرافي رابع بعد فترة من حرب مدمرة، كما تدخل التحيزات القبلية والمذهبية في تشكيل رؤية مؤرخ أو رحالة.

كثير من الروايات يمكن التحقق من صحتها بمقارنة المسافة المحسوبة آنذاك بطول المسيرة أو المراحل، بالمسافة الحقيقية كما نعرفها اليوم. وبديهي يجب أن نأخذ في الاعتبار وسيلة النقل كعنصر أساسي. من ذلك نجد المؤلف يبني برهانه على صدق رواية ابن الحكم مثلا، حول تقدم جيش عقبة بن نافع إلى فزان على أساس حسابات رياضية لوچيستية. فالجمل بحمولة عادية، يقطع أربعة كيلومترات في الساعة، ويسير 6 إلى 7 ساعات في اليوم، أي أنه يقطع 25 إلى 30 كيلومترا يومياً، وحمولة الجمل الأفريقي حوالي 150 كجم تقريباً، بينما يقطع الحصان حاملاً فارسه ثمانية كيلومترات في الساعة، ولكن يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن الحصان يشرب مرات عديدة وببطء، في حالات العمل أو الحرارة المرتفعة أو العواصف الرملية، يستهلك الحصان ما بين 15 و 25 لتر ماء يومياً، ويرتفع هذا المعدل في ظروف الجفاف والحرارة، و 7 كيلو جرامات من العلفة يومياً..إلخ. وهكذا

نستطيع أن نقدر أن ما بذله المؤلف چاك تيري، حين نعرف أن الكتاب في صيغته العربية يغطي أكثر من 700 صفحة من القطع الكبير، وبه حوالي 3500 مدونة هامشية، ويستند إلى قرابة 500 مرجع.

جهد ضخم بأي معيار.

تاريخ الصحراء السياسي

يخصص المؤلف الجزء الأول من الكتاب لمتابعة التطورات السياسية في الصحراء الليبية، ويتخذ بدايته مع الفتح الإسلامي حوالي عام 641 م. ويشير إلى عمرو بن العاص صالح أهل برقة (سهل المرج والجبل الأخضر) «مقابل دفع ثلاثة عشر ألف دينار جزية. وقد كان أغلب الناس في برقة من لواته» (ص 43). ويناقش تيري باستفاضة هذه الاتفاقية الاستثنائية غير المألوفة وصياغاتها المختلفة في كتابات القدامي[1]. وكانت النتيجة أن اضطر اللواتيون إلى بيع أطفالهم ونسائهم لتسديد الجزية، وذلك إلى أن ألغى عمر بن عبد العزيز، الخليفة العادل (717 – 720م) تلك الجزية وأوجب الزواج من اللواتيات أو إعادتهن إلى أسرهن[2] ، مما شجع لواته علي دخول الإسلام.

من جهة أخرى توسع عمرو بن العاص بعد فتح برقة، ففتح طرابلس، وبعث عقبة بن نافع جنوباً ليفتح واحة زويلة الاستراتيچية ، التي كانت آنذاك ملتقى الطرق الصحراوية القادمة التي تربط الشمال (برقة وطرابلس) بالجنوب الفزاني وامتداده إلى السودان وتشاد والنيجر. وقبل ذلك عرف الرومان زويلة التي كانت تمر بها القوافل المتجهة من وإلى مصر عبر أوجلة وسيوة. ويتناول المؤلف سير القادة والولاة الإسلاميين الأوائل[3] ، وفتح بقية أرجاء ليبيا، ولكن فتح فزان تأخر إلى ما بعد حوالي مائة سنة.

وفي سنة 692 م، أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً إلى شمال أفريقيا بقيادة حسان بن النعمان، الذي دخل قرطاجنة ودمرها، لتوقفه جيوش البربر بقيادة الكاهنة عند الزوراس، واضطرته إلى الانسحاب حتى قصور حسان غربي سرت. لا نعرف شيئاً عن تلك الكاهنة في الواقع، لكن قصة هزيمتها مثيرة، بعد أن نجح حسان في تجميع تحالف عربي – بربري[4].

ويناقش تيري بتفصيل واسع هجرة قبائل بنى هلال وبني سليم[5]، ليبرهن على أن مجيئهم إلى ليبيا كان نزوحاً تدريجياً، وهو الأمر الأكثر منطقية. وقد جرى المؤلفون المحدثون علي تقبل ما أورده القدماء دون نقد؛ فالحديث عن قوافل هائلة من عشرات الألوف عبر الصحراء في ذلك الزمن لا يستقيم مع الذكاء البسيط. قد تستطيع الجيوش الحديثة أن تعبر بأعداد كبيرة الآن، فقط بفضل ما لديها من سيارات وإمداد، لكن تلك الشروط اللوچيستية كانت مستحيلة قبل قرون.

كما يبرهن المؤلف على أن القرائن تنفي نسبة ما وقع من خراب في ليبيا إلى البدو الهلاليين، وأن ذلك التصور يعود في الحقيقة إلى ملاحظة انفرد بها ابن خلدون، وتداولها من جاءوا بعده. لقد وقع خراب في واحات ومدن ليبيا حقاً لكنه كان بالدرجة الأولى نتيجة ما قامت به جيوش بني غانية المرابطية، وجيوش قراقوش أحد مماليك الأسرة الأيوبية الذي انضم للموحدين[6].

ويدحض الكاتب أيضاً الصورة التي نصرّ نحن- تحت تأثير الرؤية القومية القديمة- على اعتمادها، كالقول بإن سكان الصحراء القدامى رحبوا بالجماعات العربية الوافدة وانصهروا فيها، فالأمر احتاج لفترة قرون، وكما يمكن أن نتوقع، عبر صراعات دموية وتحالفات متغيرة، قبل أن ينشأ شعب شبه متجانس من تعايش وتصاهر القادمين والمقيمين. ولكن حتى المقيمين لم يكونوا جماعة متجانسة، فقد كان البربر قبائل متنازعة. كما وجد يهود ومسيحيون، وطوارق وزنوج. وكعادة عالم ذلك الزمن فقد حكمت الجماعات قوانين الصراع والنزوح والترحال والاندماج والانقسام المتواصلة. هذا فضلاً عن تدخل المناطق المحيطة:من الشمال الرومان وصولاً إلى دولة البندقية، من مصر قراقوش الذي نشر الدمار، ومن المغرب الأغالبة والمرابطين والموحدين. لكن أسلمة الليبيين تمت في الواقع، بفضل جهود الخوارج الذين جاءوا إلى الشمال الأفريقي فراراً من عسف الخلافة في المشرق. وتبنى البربر المذهب الخارجي كمظهر من مظاهر المقاومة حسب ما يرى المؤلف[7].هكذا قامت لهم ممالك مستقلة، كما شهدت الصحراء الليبية فترة تمرد وقلق في الفترة من 909 إلى 1050 م.

ونتيجة لذلك التفكك والخراب، نجحت مملكة «كانم» السودانية المسلمة، في بسط نفوذها علي فزان وجنوب الصحراء الليبية، حتى ودان شمالاً[8]. واستمر خضوع فزان للكانميين حتى بداية القرن السادس عشر. وكانت دوافع الهيمنة السودانية، هي السيطرة على الملاحات الصحراوية، وتأمين طرق القوافل خاصة من وإلى غرب أفريقيا مصدر الذهب آنذاك. وكانت بداية تحرر فزان على يد أسرة أولاد محمد المغربية الأصل، الذين أسسوا عاصمتهم في مرزق. ورغم صداماتها المتقطعة مع الأتراك، استمرت دولة أولاد محمد إلى عام 1811، حين قتل آخر سلاطينها من قبل المكني[9]، قائمقام يوسف باشا القرمللي حاكم طرابلس. وفيما بعد، في الفترة من 1831 إلى 1841 قاد عبد الجليل سيف النصر، زعيم أولاد سليمان، حركة مقاومة أو ثورة ضد الأتراك[10].

تاريخ الواحات

يتناول الجزء الثاني من كتاب «تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى»، تاريخ الواحات الليبية واحدة واحدة (ص 555 - 575)، وأخيراً تاريخ التجارة عبر الصحراء الليبية (577-711). ولعل الفصل الأخير هو الأكثر إثارة، خاصة أنه موضوع لم يحظ بعرض واضح باللغة العربية حتى الآن. وحتى ما كتب عن دول غرب أفريقيا ومدنها الثرية مثل مالي وتمبكتو ..كثيراً ما يخلو من الوضوح الذي يحتاج إلى فرز المادة التاريخية، وتنقيتها من الخرافات والأساطير حتى يمكن رسم صورة واقعية لها.

يعيد تيري إذن، كتابة تاريخ الواحات والمدن الليبية، من خلال مقاربة ما وصلنا من كتابات الرحالة والجغرافيين، وتصحيح أخطائها وتحيزات بعضها. وتبرز زويلة كمركز لعلاقة ليبيا بالعالم في العصر الوسيط، لأنها كانت ملتقى طرق تجارة الرقيق والذهب (الخريطة). ولهذا أيضـاً اتخذها ومدينة برقة عقبة بن نافع مقامـاً للولاية الإسلامية.

ورغم غموض اسم القبيلة التي قطنتها، إلا أن زويلة اعتنقت المذهب الأباضي، ولذلك كثر فيها دعاة من أصول خرسانية وآخرون من الكوفة والبصرة. وحكمتها آنذاك أسرة ابن الخطاب من قبيلة مزانة البربرية.

وظلت زويلة المصدر الأول للرقيق إلى الساحل، وكان يجلب إليها من كوار وغربي بحيرة تشاد وكامل واداي إلى حدود النوبة. وانضاف إلى مواردها، رسوم المرور المحصلة علي

القوافل الناقلة للشبّ من بلاد السود إلى مصر والمغرب. كانت هناك طرق أخرى منافسة (عبر الكفرة أو عبر زلة - أوجلة - سيوه، إلى مصر مثلاً)، لكن طريق زويلة كان الأكثر استعمالاً بسبب سهولته وتوفر الآبار فيه، وفي الاتجاه الآخر، كانت القوافل تأتي من حلوان حيث كانت تعيش جالية من التجار اليهود المتنفذين، حاملة الحديد والنحاس.

وفي نهاية القرن 12 استولى قراقوش علي زويلة، لكن ما ترتب علي الصراعات من افتقاد الزمن، جعل أهمية زويلة التجارية تتقهقر. وفيما بعد حلت محلها مرزق كسوق رئيسي لتجارة الرقيق.

وكانت هناك واحة الكفرة، المعزولة نسبيـًا، والتي أغفلها جغرافيو العصر الوسيط. ويبدو أن اسم الكفرة مشتق من أصل قبطي «شبرو» و «شبرا» أو عبري «كفر» وكلها تعني قرية. ولم تنتعش الكفرة إلا في العصر الحديث ربما نتيجة لنشاط الطريقة السنوسية. وقبل الحرب العالمية الأولى كانت تصلها أسبوعيـًا قافلة مكونة من 100 إلى 300 جمل حاملة الجلود والعاج وريش النعام وخشب الصندل.

كما كانت أوجلة(11)، التي ذكرها الإغريق بهذا الاسم وفي زمانهم سادت فيها عبادة آمون، تشكل نقطة التقاء طرق مهمة، من إجدابيا شمالاً، وسيوه بوابة مصر شرقـًا، وجنوبـًا إلى الكفرة عبر جالو، وإلى الجنوب الغربي عبر طريقين إلى تاقرفت ثم ودان، وإلى زلة.

وعلي الضفة الغربية من الصحراء الليبية تأسست غات في القرن الرابع عشر، في أرض ذات مياه سطحية ونباتات جيدة للإبل، عند تفرع الطرق القادمة من الجنوب (النيجر) إلى غدامس شمالاً، ومصر شرقًا، وتوات غربـًا.

مسارات القوافل(12)

قديمـًا لم تكن الصحراء الليبية مفتوحة للتجارة ومرور الجيوش. فالرومان لم يستوطنوا الصحراء ولم تربطهم علاقات بأفريقيا السوداء جنوبي الصحراء. وكانت الجمال لا تزال نادرة في شمال أفريقيا آنذاك، بدليل أن الإمدادات المائية الرومانية في صحراء سرت كانت تحمل (سنة 48 ق م) على ظهور البغال وليس الجمال. ولم يصبح الجمل شائعًا في المنطقة إلا في القرن الرابع(13). وفي القرن السادس استعمل البربر الجمال في معاركهم ضد البيزنطيين. وحتى عندما فتح العرب المسلمون ليبيا، لم يكن استعمال الجمل قد شاع

في شمال أفريقيا، فعندما توجهت قوات عقبة من خليج سرت جنوبـاً إلى وادي فزان، كانت قافلته مكونة من 400 جمل و 400 حصان. ويبدو أن التجارة العابرة للصحراء لم تبدأ إلا بعد القرن الثامن. وبالفعل فإن المعلومات المتوفرة لتخريط الطرق العابرة تعود إلى القرن التاسع الميلادي.

ويقدم تيري وصفـاً للطرق الصحراوية المختلفة ومزاياها وأطوالها (المرحلة = المسافة المقطوعة خلال يوم في أرض سهلة حوالي 30 إلى 40 كيلومترًا) واختلفت أهمية الطرق حسب وعورتها وتوفر آبار الماء، وما يمكن أن ينقل عليها من بضائع بين نهايتيها.

ومن أهم ما قدمته الصحراء الليبية للطرق المتوجهة جنوبـاً إلى بلاد السود، ذلك اللسان البحري المتمثل في خليج سرت، الذي يقلص المسافة بين سواحل البحر المتوسط وبلاد السودان. فالمسافة من سرت إلى بحيرة تشاد 2100 كم، وهذه أقل بألف كم من المسافة من فاس إلى غانا أو تاهرت إلى جاو.

ويشرح تيري تفاصيل نظام القافلة(14). من ذلك توفير ثلاثة جمال لكل شخص، أحدها للركوب والثاني لنقل الماء والثالث لحمل المؤن. ويتحدد عدد الجمال الكلي حسب توفر نقاط المياه علي الطريق، وعدد ما يمكن سقايته من الجمال. كما يورد وصف الإدريسي للنظام اليومي للقافلة، فالسير يكون في الصباح والمساء، بما مجموعه تسع ساعات يوميـاً. كما يتناول تنظيم إدارة القافلة، ورسوم العبور، وحماية القوافل. ويعرض أيضـاً مخاطر السفر عبر الصحراء، وأولها العطش، وقطاع الطرق، والأمراض، والحشرات، والثعابين، وتغير حكام المناطق المقصودة. ومن مخاطر الترحال عبر الصحراء، ولدت المبالغات المتعلقة بالأماكن والبشر، والحديث عن أقوام لا رؤوس لها أو عيونهم في أكتافهم، وعن غيلان وهوام والثعابين الضخمة.

كان البربر، وغالبيتهم من الخوارج، يديرون التجارة العابرة في الصحراء. وفي تمبكتو كان أكثر الأحياء ازدهارا هو حي الغدامسية. ولعب اليهود أيضـاً دورًا مهمًا في تجارة الصحراء، وكانت توجد منهم جاليات نشطة في مدن الساحل الليبي، وفي الكفرة والسودان ومالي. كان اليهود يشكلون غالبية مدينة جادو، كما سيطروا علي تجارة حلوان بمصر مع الصحراء. ويصف ابن الخطيب أسرة المقري الثرية في القرن 14، التي قام

أبناؤها الخمسة بحفر الآبار علي الطرق وأمنوا مسر القوافل، وتوزعوا في تلمسان وسجلماسة وولاتة.

وكسبوا ثقة الملوك، وكانوا ينظمون تدفق البضائع، ويحددون الأسعار وفق التموجات العالمية(15).

التجارة(16)

كانت أهم السلع التي قامت عليها تجارة الصحراء، جلب الرقيق والذهب إلى الشمال، ونقل الملح إلى الجنوب أو بلاد السودان، وكانت القوافل تعود إلى الشمال بالعاج وريش النعام. ولكن تجدر الإشارة إلى أهمية تصدير الملح إلى بلاد السودان، الذي كان يبادل بوزنه ذهبًا أحيانًا(17).

كما كانت هناك مبادلات أقل حجمًا وربحًا، مثل الصوف والقطن والقطران والأغنام والجلود من برقة، وتمور أوجلة، ولوز الجبل الأخضر، والتمور الفزانية. ومن سرت الشبّ المستعمل في دبغ الجلود وتثبيت الأصباغ والأدوية. ومن البندقية عبر طرابلس ومدن الساحل الأفريقي الشمالي كانت تصدر إلى الجنوب آنية الزجاج والنحاس والأسلحة، والمنسوجات من مصر.

وشكل تصدير الخيول من الشمال إلى بلاد السودان تجارة خاصة، فقد كانت الخيول تستعمل للرفاهية والاستعراض وأيضًا لضمان تفوق حراس الملوك وللحروب. فثمن الحصان في مالي مثلاً، كما يخبرنا ابن بطوطة، كان يساوي أربع مرات مايدفع في شراء عبد. وفي القرن 15، كان الحصان يبادل بـ 15 عبداً.

تجارة الذهب:

ومن أهم الطرق الصحراوية ذلك الذى يصل بين سجلماسة في جنوب المغرب ومملكة غانا(18).التي كانت بوابة لعدة إمارات مجاورة أو "بلاد الذهب"، حيث مناجم الذهب أو كما تقول الأسطورة آنذاك حيث "ينمو الذهب في الرمل مثل الجزر" كما يقول ابن الفقيه والعمري. وكان المبشرون الأباضيون على علاقة بأمير غانا (التي كانت امبراطوريته تشمل أجزاء من السنغال ومالي وموريتانيا الحالية). وبقيت تجارة الذهب لمدة طويلة حكرًا على

محور سجلماسة- غانا. ولم يدخل سكان ليبيا مجال المتاجرة في الذهب إلا في القرن العاشر(18).

كان ثراء غانا اسطوريًا، وقيل أن أميرها كان يملك قطعة من الذهب وزنها ثلاثين رطلا يربط إليها حصانه. لكن القصة التي ألهبت الخيال، كانت ولا شك رحلة ملك مالي منسا موسى إلى الحج ومروره بالقاهرة، وكان معه مائة حمل من التبر وزن كل حمل ثلاثة قناطير(20). على صعيد توزيع ثروة الذهب، كانت قطع الذهب من نصيب الملك والتبر لعامة الناس. وكانت تادمكة، أول سوق غانة، على بعد مسيرة خمسين يومـًا، والتي كان يقصدها التجار الغدامسية. وتادمكة كما يقول البكري، مدينة كبيرة وأهلها بربر مسلمون، ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها من ذهب غير مختوم(21).كان الذهب في بلاد السودان يقايض بالملح والأقمشة وبالحديد والنحاس والرصاص والخيل والخرز. لكن المبادلات كانت تجري وفق طقوس خاصة، بحيث لا يتقابل التجار مع منتجي الذهب. فما أن يصل التجار إلى منطقة منتجي الذهب الذين يعيشون في أكواخ من القش والزرائب، حتى يضعوا بضاعتهم على الأرض. ثم تضرب الطبول وينسحب التجار مرحلةً، أي مسيرة يوم. بعدها يأتي الغانيون ويضعون كمية من الذهب عند كل سلعة حسب ما يقدرونه من قيمة، ثم ينسحبون، وهكذا إلى أن يتم الاتفاق، ويرضى التجار فيأخذون الذهب(22). وقد ذكر ابن بطوطة أسلوبـًا مشابهـًا لمثل هذه المقايضة الصامتة في أسواق بيع الفراء في بلغاريا. وكان الذهب المُشترَى يصنّف في أودغست في شكل أسلاك قبل أن يصدر إلى سلجماسة.

تجارة الرقيق:

يقدم الكتاب وصفـًا مفصلا لرحلة الرقيق من مواطنهم إلى الشمال، بكل ما تنطوي عليه من قسوة وبشاعة ومعاناة(23). وقدر الباحثون أن قرابة 2500 عبد كانوا يصلون مرزق سنويـًا. أما عدد الرقيق الذين عبروا الصحراء الليبية من عام 750 م إلى 1800 م، فيقدر بحوالي ثلاثة ملايين. أما عدد من أُسروا أو اختطفوا فعلا، فلا بد أنه كان أكبر بكثير بالنظر لارتفاع معدلات الوفيات في تلك التجارة سواء أثناء قطع الصحراء أو الأمراض أو إثر الإخصاء الذي كان يتبعه موت 80 ٪ من الضحايا. ولدينا شهادات حديثة نسبيـًا عن كيفية صيد الرقيق بالحرب أو الاختطاف وأسواق النخاسة في مرزق... إلخ،

في مذكرات رحلة الإنجليزي چون ليون[24] سنة 1818، وكتاب جيمس ريتشارسون[25] عن ترحاله في الصحراء الليبية عام 1845. وأدى تأسيس الخطوط البحرية مع سواحل غرب أفريقيا إلى تحول تجارة الرقيق بعيداً عن الصحراء لنقل الرقيق إلى السوق الأكثر حاجة لليد العاملة في جزر الكاريبي وجنوب الولايات المتحدة للعمل في مزارع القطن. وكانت الأعداد أكبر لكن ظروف اقتناص وصيد الرقيق ربما كانت أكثر بشاعة. ثم إن الوضع الاجتماعي للرقيق في مجتمعات المدن والقرى الليبية التي انتهوا إليها كان أفضل. فقد كان الرقيق يحظون بقدر كبير من الحرية الشخصية، وشبه مساواة مع أسيادهم بما في ذلك الزواج من الإناث. كما كان الناس يميلون إلى عتق عبيدهم في شتى المناسبات، مثلا إثر وفاة أحد أفراد الأسرة، أو إذا ولدت من سيدها.

إثر الكشوف الجغرافية، في القرن الخامس عشر قاد التوغل الأوروبي في غرب أفريقيا تدريجياً إلى انحسار تجارة القوافل عموما. ثم جاءت قوانين تحريم الرق (سنة 1833). وتوسع الإنجليز في نيچيريا ومدوا خطوط السكة الحديد، واحتلت فرنسا تمبكتو سنة 1893، فاتجهت تجارة المنطقة إلى موانيء خليج غينيا. ومع ذلك استمر تهريب الرقيق إلى السواحل الليبية حتي بدايات القرن العشرين.

مع نهاية القرن الـ 18 فقدت فزان كثيراً من أهميتها كممر تجاري، بالنظر إلى نضوب تجارتها مع غرب أفريقيا. وتراجعت قوة وثروة مرزق[26] وغات وغدامس، التي كان المثل الشائع فيها «دوا الجرب القطران، ودوا الفقر السودان». وهكذا هجرت واحات وخربت أخرى واختفت تجمعات سكانية. وانتقلت تجارة الصحراء إلى أيدي سكان أوجلة مع الشرق ومصر، وتجار سوكنة مع طرابلس. وانتعشت الكفرة، ربما بحكم موقعها في شبكة زوايا الطريقة السنوسية.

فسيفساء الرمل

ما كتب من تاريخ ووصف للصحراء الليبية في القرون الوسطى محدود.. ربما لا يتجاوز في مجموعه مائتي صفحة.. سجلها جغرافيون ورحالة أمثال البكري والإدريسي وليون الأفريقي والوراق وابن بطوطة، وغيرهم. وما تركوه لا يخلو من أخطاء في أسماء ومواقع الواحات والمسافات التي تفصلها.

كتاب چاك تيري.. كتاب تحقيقي.. يقارن ويمحص، ويعيد التقييم في ضوء معارفنا المعاصرة للمسافات وطبوغرافية المناطق.. ومن ثم يحاول إعادة تركيب صورة متكاملة. وبديهي أن يتحول هذا الجهد التحقيقي إلي كتاب ضخم. فالمؤلف يتقصى الحقائق مع مزيج من الترجيح والتخمين والخيال.. وقد يبلغ أحيانًا حد الوسواس القهري حين يقابل بين روايات عدد من القدماء، ليعرف بالضبط مسار جيش أو قافلة. وأحيانـًا يمسي نهج المؤلف مرهقـًا للقارئ بتفاصيله المتداخلة.

والكتاب بهذا النحو نقد للتاريخ المسجل الذي وصلنا من مختلف الجغرافيين والمؤرخين والرحالة. إنك لا تستطيع أن تنفي ما سجلوه من نتف مقتضبة، أو روايات غامضة.. دون أن تقيم الدليل على خطئها. فليس ثمة وثائق مكتوبة محفوظة في قلعة أو معبد أو دير.. مجرد قصص منقولة عن تاجر أو فقيه ثم أن بعضها مبالغ فيها عن قصد أحيانا، كالذي كان ينسجه سكان بلاد الذهب، إبعاداً للتجار الفضوليين واتقاء خطرهم.

ولعل كلمة فسيفساء لا تصدق في وصف موضوع الكتاب.. فالصورة ليست مكونات صلبة.. بل هي أقرب إلى كثبان الرمال المتحركة مع كل ريح وعاصفة.. لقد عرفت الصحراء تغييرات في أعداد وطبيعة سكانها، وفضلا عن التقلبات الديموغرافية شهدت أيضـًا تقلبات في المذاهب الدينية.. ومع تغير طرق القوافل لسبب أو آخر اختفت واحات وازدهرت أخرى.

الاستنجاد بالانترنت

يغفل المترجم في مقدمته التعريف بالمؤلف ومكانة الكتاب في سياق دراسات تاريخ الصحراء والمجتمعات الصحراوية في الأزمنة القديمة والعصور الوسطى. ولأنني لا أستطيع احتمال غياب معلومة، وجدت نفسي استنجد بالانترنت. كان عليّ أولا أن أعرف العنوان الكامل للكتاب(27)، لأن النسخة العربية لا تحمل سوي صورة مصغرة لغلاف الكتاب الأصلي ودون تاريخ. وفي بحثي لم أجد سوى عرض واحد للكتاب(28)، ولكنني لم أستطع الاطلاع حتى على هذا المقال الوحيد، لأن الخدمات المتاحة لدينا عبر الانترنت لا تزال محدودة.

من جهة أهم، قادني البحث عبر الشبكة الدولية سبر الموضوع العام. فوجدت أن الكتاب يندرج ضمن تيار حديث في الكتابة التاريخية تسعى إلى الربط بين دراسات الآثار والتاريخ العام(29) وكتاب ماتنجلي «طرابلس» عن ليبيا الرومانية(30) نموذج لهذا التوجه الذي يدعو أيضاً إلى التركيز على علم آثار الدواخل بدلاً من بقايا المدن التي تستهوي السياح. ومن المواضيع المثمرة التي طرقت في هذا السياق: أنماط الزراعة في المناطق القاحلة(31)، واستعمال المياه، وتغير المناخ وإدخال الجمل كوسيلة نقل عبر الصحراء. والجدير بالذكر أن منظمة اليونسكو للثقافة التابعة للأمم المتحدة ترعى منذ الثمانينيات، مشروع مسح الوديان الليبيةULVS، والذي لم تنشر نتائجه بالكامل بعد(32)، ولا أعلم عن مدى مشاركة مؤسسات أو جامعات أو باحثين ليبيين في هذا المشروع العلمي الضخم!(33).

لكنني لا أملك إلا أن أشد على يدي المهندس جاد الله عزوز، على ما تجشمه من عناد في ترجمة كتاب في مثل هذا الحجم، وبهذه الرصانة والدقة. وأهنئه على سلامة الوصول.. فرحلته في ترجمة الكتاب لا تقل عناء عن رحلة قافلة عبر صحرائنا!

وبعد أن نحط رحالها!

تشعر بالراحة حين تكمل قراءة هذا الكتاب الشيق المرهق، والثقيل بوزنه وتضعه جانباً. لكنه كأي كتاب جيد وجاد، يطلق في ذهنك عواصف من الأسئلة. كما يطرح أمامك إجابات منطقية عن أسئلة كانت تحيرك بين الحين والحين. منها مثلا، أنك تدرك أن لا شيء ثابت في الصحراء. وأن تلك الواحات التي قد تبدو راسخة في الأرض، والتي قلما تحتفظ بالقديم، قد مرت عليها قبائل، ولغات وثقافات وديانات. وأنت إذ تتابع الحروب والصراعات وقصص النزوح والاستقرار، تصل أيضًا إلى القناعة المنطقية بأن ما نعرفه من قبائل في الواحات والأرياف اليوم، لا يزيد عمرها وإقامتها على الأكثر عن قرن أو قرنين من الزمان. وهو ما يطرح شكوكاً حول حقيقة اتصال نسلها عبر القرون!

من جهة أخرى.. تتساءل في حيرة؟ .. بينما يهتم الآخرون بدراسة الصحراء كبيئة حاضنة لمستوطنات بشرية منذ أقدم العصور، ويستكشفون جهود الإنسان في استغلال موارد الصحراء المحدودة، بتكييف الزراعة وطرق استغلال المياه، قد نسأل: ماذا فعلنا نحن العرب بالصحراء؟ أكثر من المديح المسهب في النصوص المدرسية التي نرهق بها عقول

أطفالنا، وبضعة أفلام مصرية مصورة في الجيزة على مرمى حجر من شارع الهرم..؟ نعم مددنا الطرق التي مرت مصادفة قرب الواحات لأنها مهدت لخدمة النفط، ونثرنا في كل واحة بضعة بيوت خرسانية.. ولكن دون اهتمام حقيقي بالاستقرار البشري.. فتحولت واحاتنا إلى بيئات طاردة يزورها ابنها الطالب أو المدرس أو الموظف أو الأستاذ الجامعي أو الطبيب المقيم في أقرب مدينة.. من العيد للعيد أو لتعزية قريب(34).

لقد كان دمار حضارات الصحراء من جراء التقنية الحديثة التي أحلت القطار والسفينة محل الجمل، وحولت طرق الاتصالات بعيداً عن غدامس ومرزق وزويلة والكفرة وجالو.. إلى سواحل غرب أفريقيا. وقد كانت هذه الواحات مواطن ثراء وازدهار. فهل يمكن أن تتكرر الكارثة؟؟ لكنني لا أقول ذلك بعواطف الرومانسي المتأسف على اندثار ماض. وأدرك أن تيار التقنية تيار دافق ولا أحد قادر على إيقافه. ولكن ماذا عن المستقبل؟ بظهور النفط، حلت الطرق المعبدة والسيارات محل مسارات القوافل.. ودخلت حياة سكان الصحراء طوراً جديداً.. لم تظهر نتائجه بعد!

من جهة أخرى هل اختفى الرق حقاً؟ لقد أدى فقدان التوازن بين معدلات التكاثر البشرى والموارد الطبيعية من ماء وغذاء، إلى المجاعات والبطالة والوباء الحالية. وهذا هو السبب الحقيقي وراء موجة الهجرة من أقطار أفريقيا جنوبي الصحراء، نحو الشمال. والتي بلغت مقاومتها الحادة من قبل أقطار أوروبا غير قادرة على استيعابها. وفي الأزمنة الماضية كان الشباب والفتيات والصبيان يختطفون ويسرقون لكي يباعوا في سوق العمل. لكنهم الآن يأتون طوعاً، وكثير منهم يجد نفسه في علاقات لا تختلف كثيراً عن الرق. ويبدو أن اختفاء سوق النخاسة.. لا يعني اختفاء الرق.. حتى في عصر الموبايل!!

قد تبدو الصحراء بعيدة، بحار من الرمال نتأملها على جنوب الطريق الساحلي من داخل سياراتنا اليابانية أو الكورية المكيفة. ونصفها بعبارات الدهشة والاستغراب.. دون أن ندرك أن استهلاكنا الشرس لموارد بيئتنا.. من ماء وتربة.. يستنهض هوام الصحراء ومواتها.. لكي تلقي بنا على قارعة المجاعة.. فذلك هو لب التصحر الذي يتهددنا!

الهوامش:

1 – الصفحات 43 - 64.

2 – الصفحات 70 - 74.

3 – الصفحات 83 - 104، ثم 145 - 152.

4 – الصفحات 157 - 165.

5 – الصفحات 267 - 322.

6 – الصفحات 323 إلى 360.

7 – الصفحات 179 - 205.

8 – الصفحات361 -373.

9 – ترد شخصية المكني بتكرار في الوصف الحي الذي تركه لنا الرحالة الإنجليزي جون ليون، (انظر هامش22)، الصفحات 48، 80، 70، 197 -198، 216.

10 – الصفحات 374 إلى 376، وانظر أيضًا كتاب «ثورة عبد الجليل سيف النصر ضد الحكم العثماني» تأليف د. محمد امحمد الطوير، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، 2003. والكتاب معزز بالوثائق الهامة.

11 – عن أوجلة ص 441 وص 560 وما بعدها.

12 – انظر أيضًا العدد الخاص عن تجارة القوافل من مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسة جهاد الليبيين، السنة 3، العدد الأول، سنة 1981.

13 – ص 577 إلى ص 584.

14 – ص 595 إلى 611.

15 – ص 593.

16 – هناك كتاب صغير الحجم بسيط في طباعته وتجليده، ثري بما فيه من وثائق عن تجارة القوافل مستمدة دار المحفوظات التاريخية، لمؤلفه الأستاذ أحمد سعيد الفيتوري، منشور عن الإدارة العامة للآثار، سنة 1972. ونأمل إعادة طباعته، أو أن يقوم مؤلفه بتوسيع مادته وإخراج طبعة ثانية.

17 – ص 639 إلى 643.

18 – عن مملكة غانا، ص 526.

19 – ص 589.

20 – ص 534.

21 – وصف تادمكة ص 538 وما بعدها.

22 – ص 650.

23 – ص 656 - 691.

24 – من طرابلس إلى فزان: مذكرات الرحالة الإنجليزي چون فرانسيس ليون، ترجمة مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب، 1976.

25 – ترحال في الصحراء، بقلم چيمس ريتشارسون، ترجمة د. الهادي بو لقمة، منشورات جامعة قار يونس، 1993.

26 – انظر فصل تطور مرزق التاريخي، للدكتور الهادي بو لقمة، من كتاب «مرزق: التحضر والقاعدة الاقتصادية»، تحرير د. منصور البابور، منشورات جامعة قار يونس 1995.

27 – Le Sahara Libyan dans l'Afrique du Nord mdivale. Par Jacques Thiry. Leuven: Uitgeverij Peeters en Department Oosterse Studies, 1995. Pp. 604.

28 – The Journal of African History (1997), 38:497 - 534 Cambridge University Press, by WRIGHT, School of Oriental and African Studies, University of London.

29 – Shaw BD, Environment & Society in Roman North Africa, Variorum, Aldershot, 1995.

30 – Mattingly DJ, Tripolitania, Thames & Hudson, London, 1995. Also:

Mattingly D.J et al 1997. The Fezzan Project 1997: methodologies and results of the first season. Libyan Studies 28: 11 - 26.

31 – Barker, G., Gilbertson, D., Jones, B. and Mattingly, D. 1996a. Farming the desert. The UNESCO Libyan Valleys archaeological survey, Vol. 1 Synthesis (G. Barker ed.). UNESCO Paris.

32 – Barker, G., Gilbertson, D., Jones, B. and Mattingly, D. 1996b. Farming the desert. The UNESCO Libyan Valleys archaeological survey, Vol. 2 Gazetteer and Pottery (Mattingly ed.) UNESCO Paris.

33 – انظر أيضا مجلة دراسات ليبية Libyan Studies التي تصدر في لندن باللغة الإنجليزية، وتهتم بدراسات الآثار الليبية، ويحوي المجلد 14، لسنة 1983، عددا من الدراسات المتصلة بموضوع الأبعاد الاجتماعية للآثار الليبية في العصر الروماني. وعلي الانترنت انظر موقع social archeo.htm .

34 – انظر كتاب غدامس: التحضر والقاعدة الاقتصادية، تحرير د. منصور البابور، منشورات جامعة قار يونس، 1995.

ذكريات الماضي البعيد بالصينية

يانغ شياو بو

«مقدمة»

تعتبر بنغازي ثاني المدن الكبرى والمواني الهامة في ليبيا، وأهميتها تأتي بعد طرابلس العاصمة فقط، وهي تطل على البحر الأبيض المتوسط شمالاً وتشرف على خليج سدره شرقاً، جوها لطيف ومناظرها جميلة، تنتصب فيها اليوم عمارات شاهقة انتصاب الغابة، إلى جانبها ظلال الأشجار تتراقص مع النسيم، وفي حرم جامعة قاريونس التي تم إنشاؤها عام 1995 ينتشر الطلبة مثنى وثلاث متنزهين في دروب تتخلل كواكب الزهور أو ينهمكون في الدراسة إلى مقاعدهم، ذلك مما يضفي طمأنينة وفيضاً عارماً من الأنفاس الثقافية إلى هذه المدينة العامرة .

غير أن بنغازي لم تكن إلا قرية صيادين قبل سنوات طويلة، فقد سبق للطليان أن احتلوها في الفترة ما بين عامي 1912 و 1942، ومن ثم تعرضت لتخريب خطير خلال الحرب العالمية الثانية، ثم احتلها الإنكليز بعد تشرين الثاني عام 1942. وفي عام 1951 نودي بإدريس الأول ملكاً على ليبيا بعد أن نالت الاستقلال، غير أنه أثار شدة الامتعاض لدى الشعب الليبي لاستمراره في الحفاظ على مصالح حلفائها من الدول الغربية في هذا

* مستعرب صيني ترجم العديد من الأعمال الأدبية العربية. وهذه مقدمة ترجمته لمجموعة (رمضان عبد الله بوخيط) القصصية «ذكريات الماضي البعيد» التي ترجمت إلى اللغة الصينية عام 2001.

البلد وفي أيلول عام 1969 أطاحت وحدة من القوات المسلحة بزعامة مجموعة من الضباط الشبان الليبيين بحكمه، فأعادوا ليبيا قوة وحيوية، وزادوا بنغازي فتنة من ذي قبل.

ولد القاص الليبي المعروف رمضان عبد الله بوخيط في أخريبيش احد الأحياء السكنية القديمة في بنغازي، وقد شاهد بأم عينيه أيام طفولته تصرفات المحتلين الطليان والإنجليز في بلده، وبعد مشاركته في العمل ذاق ما ذاق أترابه من المصاعب . وقد سبق له أن عمل موظفاً صغيراً و معلماً، وقدم خدمات في قطاع النقابات، ومن خلال مخالطته مع الفئات الدنيا الواسعة من أبناء الشعب لمس بعمق ما عاشوه من العذاب الشديد، وواجه اضطرابات اجتماعية من وقت لآخر ؛ وأخيراً رفع البراعة في مطلع الستينات من القرن الماضي ليفشي مكنونات الشعب عن طريق الإبداع الروائي .

تم إصدار مجموعة قصص رمضان عبد الله بوخيط بعنوان (ذكريات الماضي البعيد)

في عام 1997 من قبل دار الكتب القومية ببنغازي، مجمعة فيها 15 قصة أنجزها في مختلف الفترات من الزمن وممثلة وبشكل رئيسي الحياة المؤلمة التي عاشتها الفئات الدنيا من الشعب الليبي قبل ثورة 1969. لذلك اعتبر رمضان عبد الله بوخيط " كاتباً شعبياً " لدى الرأي العام الليبي .

ركز الكاتب في غضون (ذكريات الماضي البعيد) جهوده في تصوير التقاليد والأعراف الأصلية والعريقة ومقاومة أبنائه للمحتلين الطليان في حيه سيدى اخريبيش، حيث الشوارع القديمة، والأسوار التي عليها نقوش قد أكلها الدهر، ورنين الجرس في العربات وأصوات الأمواج، وأمثال ذلك قد حبكت لوحة من ملامح متواضعة من بلد غريب عن الصين ؛ والحب الطاهر الذي يقع بين بطل إحدى قصصه وفتاة لجاره، والذي أبرز ما كان يعانيه من وحشة بعد أن زج في السجن .

قد استطاع الكاتب استخدام أساليب مؤثرة ونابضة بالحياة في تصوير المشاهد . على سبيل المثال، وفي ((أحداث وقعت في السجن القديم)) صور الكاتب شارعاً بأنه " شارع متعرج شبيه بذنب لكلب " وسجناً في قصة أخرى بأنه " وكأنه مبنى أغبر كالغيوم المتلبدة في سماء أيام الشتاء " وفي ((العقرب السام)) شبه البيوت البدائية المتناثرة في الواحات بأنها "" كصخور حملتها الهوجاء إلى مكانها " إلخ ؛ كما شبه الغزاة الذين يكرههم الشعب بـ " فئران " و " عقارب سامة " .

قيّد الكاتب الظروف الاجتماعية الليبية في الستينات من القرن الماضي بأساليب واقعية، فقد وصف في (أيام الشتاء الدافئة) و (رايات اسقطتها الرياح) وغيرها من القصص، مقاومة الشعب والفساد الاجتماعي الذي شهدته ليبيا في فترة حكم الملك إدريس الأول ففي (أحاديث السوق) و (حزن رنين الجرس) عبر عن هموم الشباب الليبيين في عصرهم ؛ وفي (عصير البرتقال) و (الرصيف) أحسن استعمال الأساليب الأدبية التي تمزح بين المذهبين الرمزي والواقعي، وقد برز ذلك في (الغريق) و (العقرب السام) بشكل خاص ؛ حيث أقام الكاتب ربطاً بين " بضع الخصل من الشعر في قبضة الغريق، ولونه يبدو مائلاً إلى شيء من الحمرة من جهة والسمكة الحسناء التي تظهر في الأساطير من جهة أخرى، الأمر الذي يجعل المرء يحس بان القصة التي يحكيها تمزج بين الخيال والواقع . أما في (العقرب)، فقد استطاع الكاتب جذب القراء من خلال أوصافه للرؤيا إلى عالم مثل ما في (ألف ليلة وليلة) ؛ حيث تحدث عن واحة في قلب الصحراء وحكى ما حدث فيها من حكايات ساحرة، غير أنها صورة صادقة للحياة الواقعية .

نشرت (جريدة العربي) الليبية الصادرة 2001/6/4 مقالة تعرف بهذه المجموعة من القصص، وورد فيها تعليق عليها يقول :

" رمضان عبد الله بوخيط " كاتب شعبي يحمل أحزان الليبيين معبراً عن أحاسيس نابضة عن ضميره ..... " .

وإني كمترجم هذه المجموعة من القصص لعلي ثقة من أن من يطلع على هذه القصص من القراء الصينيين سوف يزيدون تفهمهم وبشكل حتمي لليبيا الجميلة .

2001/7/9